AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية
تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية
العدد ٦٢٠ - السنة ٥٤ - رجب ١٤٣٦ هـ - أيار ٢٠١٥ م

رئيس مجلس الإدارة
بسام خليل
وزير الثقافة

رئيس التحرير
د. علي القيم

أمينة التحرير
سمر الزركي

الهيئة الاستشارية

د. طيب تيزيني — د. ملكة أبيض
د. إنصاف حمد — د. غسان غنيم
فايز خضور — د. سعد الدين كليب
نزار بريك هنيدي

الإشراف الفني والطباعي
أنس الحسن

التصميم والإخراج
ريما محمود

التدقيق اللغوي
سلام فاضل - منهال الغضبان

دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلّة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية.
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:
اسم المؤلّف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً.
- ترجو المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف مُوجز لهم.
- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها.
- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها، ولاتعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة
الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة
رئيس تحرير مجلة المعرفة
تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣
www.moc.gov.sy
Almarifa1962@yahoo.com

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة. وترتيبها يخضع لاعتبارات فنية.

سعرُ النسخة ٧٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

سورية على مشارف الفجر
نائب رئيس الجمهورية
الدكتورة نجاح العطار

المثقف والتحدي الكبير

دراسات وأبحاث

العربية بين الإطلاق والنسبية ..... د.صلاح الدين يونس ٢١
«أياغو: الشخصية الشيطانية المركبة!» ..... إبراهيم محمود الصغير ٣٩
ما بين الأدب الشعبي والعامي من اختلاف وائتلاف ..... د.كارين صادر ٥٠
التواصل الناجح سبيلك للسعادة والنجاح في الحياة ..... د.معمر نواف الهوارنة ٦٥
ماذا نعرف عن الهستيريا ..... د.محمد قاسم عبد الله ٨٦
بديع الكسم الفيلسوف ..... أسعد طرابيه ١٠٦
تحقيق الذات في كتاب علم النفس الميسر ..... ترجمة: عبير حمود ١١٨
عندما تصبح غلطة الطبيب جريمة لاتغتفر ..... إبراهيم سلوم ١٣١
نظريات المؤامرة: هل أصيبت بالذهان الهذياني؟ ..... ترجمة: د.ماري شهرستان ١٤٨
الموت الجمعي بين الإبادة والانتحار ..... د.خير الدين عبد الرحمن ١٦١
المنظومات المعقدة من المورثات إلى الدماغ ..... موسى ديب الخوري ١٧٤
ماهو دور الدولة في ازدهار التكنولوجيا؟! ..... هبة الله الغلاييني ١٨٦

الإبـــداع

شعر

تداعيات إلى العصر الحجري الأوّل ..... ساجدة الموسوي ٢٠٣
القصيدة المقبلة ..... عصام ترشحاني ٢٠٥

قصة

اللعب في المقهى القديم ..... سامر أنور الشمالي ٢٠٨
صديقي المشوّه ..... محمد فطومي ٢١٦

آفاق المعرفة

(التراثية) الجديدة ..... د.بغداد عبد المنعم ٢٢١
قميص ..... مالك صقور ٢٣٠
في مثلّث المسرح السوري ..... أنور محمد ٢٣٥
تأملات ثقافية ..... عبد الباقي يوسف ٢٤٥
لوحة الذئاب في لاميّة الشنفرى ..... ظهير خضر الشعراني ٢٥٣
رسائل إلى دون كيشوت من يوسف الخال ..... مفيد نبزو ٢٦٢
مابين الفكر الجمعي والإبداعي ..... د.ريمه الخاني ٢٦٩
قسنطينة.. عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٥ ..... محمد مروان مراد ٢٧٨
دور المماليك في إدارة الدولة الفاطمية ..... سيف الدين القصير ٢٨٩
القرن الصيني ..... ترجمة: وفيق شعبو ٢٩٨
العملاق الأزرق الفائق ..... ترجمة: محمد الدنيا ٣٠٧

حوار العدد

مع الأديب محمود علي السعيد ..... إعداد: محمد خالد الخضر ٣١٣

كتاب الشهر

«من حديث الشعر» ..... عرض وتقديم: سمر الزركي ٣١٩
نافذة على إصدارات جديدة ..... إعداد: حسني هلال ٣٣٠

آخـــر الكلام

قصائد لي ولها ..... رئيس التحرير ٣٣٥

نائب رئيس الجمهورية
الدكتورة نجاح العطّار

سورية على مشارف الفجر

أيُّها الإخوة والأخوات

أحييكم باسم السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، القابض على جوهر البطولة في شعبه، والمتصدّي بوعيه الكبير، وشجاعته المبدئية، لكل ما يُدبَّر من مؤامرات عاصفة، تستهدف وطنه، وسيستمر في التصدي لها مهما تخفّى فيها الباطل بمسوح الحق.

❁ ألقيت هذه الكلمة في حفل افتتاح المعرض الوثائقي «سورية على مشارف الفجر» الذي أُقيم في دار الأسد للثقافة والفنون بتاريخ ١٥ آذار ٢٠١٥م. برعاية كريمة من السيد الرئيس بشار حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

وإذا كان المعتدون الإرهابيون قد فتحوا الجبهات كلها علينا، وبالأسلحة المتوفرة لديهم كلّها، والتي يمدّهم بها غلاة المتآمرين، ناراً وإعلاماً، محلّياً ودولياً، بالقتل والحرق والتدمير والنهب والسلب والاغتصاب والخطف، والاعتداء المتواصل على المدارس والجوامع والكنائس والمستشفيات والجامعات ومنازل الأبرياء والأطفال، مستندين فيما يفعلون إلى تجمّع غاشم من ركائز المؤامرة الكبرى- أمريكا وتركيا والسعودية وقطر والبلد العربي الجار الأردن وبلدان أخرى عربية وأوروبية، فإنَّ سورية، وبكل عنفوانها، تقف صخرة منيعة في وجه إمرار هذه المؤامرة، مهما كبر عتوّها.. وسيظلُّ صوت الشعب يدوّي فيها، وراء جيشه وقائده، بحقيقة صار العالم يعرفها: لا تراجع أمام العدوان، ولا أمام الخطر والإرهاب، وثقتنا بالنصر الآتي كبيرة، والأكيد الأكيد أننا نقف صفاً واحداً ضد الإرهابيين التكفيريين، وإرهابهم الهمجي المدمّر، وضد طائفيتهم العمياء، وادّعاءاتها الباطلة، وضد التفريط بسلامة شعبنا وأمنه، ولن نخون الأمانة التي في أعناقنا أبداً، ومهما كان الثمن..

وإنَّها لمرحلة حاسمة.. وإنَّها لمرحلة شاقة..

ولم نقم هذا المعرض التوثيقي، في وطن عزيز، وحدته درعه، وإخاؤه حصنه، لنقول للناس- ما قاله بابلو نيرودا يوماً عن الدم في شوارع تشيلي، حين دعاهم لرؤيته، بل كان هدفنا أن نكون جميعاً شهوداً على حجم الإجرام الراهن، ننحني أمام فجيعة ما يجري،

وعظمة المنافحين في جبه هذا الذي يجري، حين مشوا - قولة أبي ريشة - على هرج اللهيب بواسماً.. وتقهقر الناعي ولم يتقهقروا.

يذودون عن الحمى ويموتون من دون العرين.

وبصدق وأسى نقول: إنَّها المحنة المروّعة، والمذابح الأشد رهبة، والأدعى ألماً وخشوعاً، بما سالت فيها من دماء، وما انطوت عليه من همجية، لكنها، في المقابل، التضحيات التي نقرأ فيها سيرة بطولات مذهلة، لجيش عقائدي، يُعلِّم الدنيا معنى المفاداة، يمضي، ويقاوم ولايساوم، وفي سمعنا صوته الذي يدوِّي وهو يحمل جراحه:

إنني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلّاد أن أمشي على جرحي وأمشي ثم أمشي وأقاوم..

أيُّها الإخوة

إننا لا نعلّق جراحنا أوسمة على صدورنا للتباهي.. الجرح يباهي نفسه، قولة الجواهري، يتكلم، فلنصغِ إذن بإجلال، إلى كلمات الذين لم يكن لديهم وقت ساعة الذبح ليقولوها، فاكتفوا بنظرة التحدي، تتجمد مأساة مروعة بين الأهداب، فيما البرابرة يمضون، والمُدى الغادرة على الأعناق، والرصاص يحصد الأبرياء، وعيون الأطفال، من هلع، رواية للرعب، ستبقى فينا وفي عالمنا فصولها.

❀ ❀ ❀

في معرضنا هذا، يحار المرء في الحال التي يكون عليها: يحزن، يبكي، يشمخ، ينشد، أم يتوقف بعد ذلك أمام الدعوة الكريمة التي يتجاوز بها القائد والقيادة، هذا الوضع الأليم، غفراناً، ويدعو إلى مصالحة تغسل بعض الدنس عن مرتكبيه، وتستعيد المغرّر بهم من أبناء هذه الأمة، كي يثوبوا إلى رشدهم، وتهتز ضمائرهم ومشاعرهم، ويعودوا إلى جادة الصواب، إلى الصراط السوي، أن يستقيموا على الطريقة، كما جاء في محكم التنزيل.

وتلك لعمري أنبل دعوة يوجهها قائد وقيادة، ونظل نأمل أن يهتدي الضالون.

❁ ❁ ❁

ولكن ماذا نقول لأولئك الذين يمدون أيديهم ضارعة لإسرائيل وأمريكا، فعلة حكام عرب في السعودية والخليج والأردن؟

لقد توجّه الرئيس الراحل الكبير حافظ الأسد، منذ مؤتمر الطائف منادياً أولئك الضالين والمضلَّلين، ولم تكن الأمور في فلسطين والقدس قد بلغت هذا الحد من الانهيار والتردّي، بقوله: «إنَّ أولى القبلتين تستصرخنا، والمسجد الأقصى يستحث إسلامنا، وأهل فلسطين ينادوننا، كل يوم، ألَّا ننسى جريمة اغتصاب فلسطين.. وإن الولايات المتحدة ماضية في معاداة الأمة العربية، وهي مستمرة في تكثيف مساعداتها لإسرائيل».

ماذا نقول للحكام العرب الذين يتناسون كل معاني التضامن والأخوة والصِّلات التاريخية والثقافية وعلاقات الجوار؟

يتناسون ما بيننا وبينهم من صلات إخاء وقربى، ونضال وثقافة، وتاريخ مودّات تكفي كي تجعل من التلاحم بيننا قضية حياة لا غنى عنها؟

ماذا نقول لجامعة كان اسمها الجامعة العربية، ثم تحولت إلى شيء آخر، بعيد كل البعد عن تقاليدنا الراسخة، في النضال والتضحية من أجل تحقيق أهدافنا القومية، ومعالجة الهموم الوطنية، والانتصار لقضايانا الراهنة، وكان ينبغي أن تأتي سورية، ومعاناتها الأليمة، في طليعة اهتماماتها انتصاراً لها. سورية التي كانت، وما تزال، الوهج المشع للقومية العربية، وللقضية الفلسطينية. ولا أقول ماذا عن بعض المثقفين السوريين والعرب الذين انجرفوا وراء إغراءات الحياة، ولم يعبؤوا بما أصاب وطنهم من دمار، وما عاث فيه من إرهابيين تكفيريين على اسم الدين؟..

❁ ❁ ❁

ختاماً أقول:

يا أهل الشهداء صبراً

وصبراً أيَّها المشردون والمعذبون..

وأنتم أيَّها الأحبة، يا شهداءنا الميامين الذين اغتالتهم يد البربرية الهمجية، لتزدهر دماؤكم في دمائنا، فنحن وإخوتكم في

السلاح وفي الكفاح، للجلّى عصب، وللنار وقد، وللحزن دمعة، وللثأر ساعد، ونحن والزمن، ونحن وهذه الحرب التي عمرها بدأ يجاوز الأربعة من الأعوام، وما زالت متضرّية، ونحن لسورية وقائدها، حينما سورية وقائدها البشار يحملان الجراح هماً وقضية، ونضالاً وصبراً، وقراعاً بدأ يضعنا على مشارف فجر قريب، لنصر مؤزَّر..

الرحمة لشهدائنا، والنصر لجيشنا الباسل، وللمقاتلين معه، والمساندين له، والمجد كلّ المجد لقائدنا والسؤدد.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

المثقف والتحدي الكبير

مواضيع جدلية كثيرة، خاضها المفكر والمثقف والمبدع منذ أن كان.. ومسألة النأي بالنفس، والاستقلالية والتبعيّة، مع السلطة أو خارجها، وهل المثقف محصن أكثر من غيره في مواجهة الجوع والخوف والإرهاب والاستلاب والاستقطاب.. لقد حاول عدد من المثقفين العرب الإدلاء بآرائهم من خلال ندوات ومؤتمرات ودراسات كثيرة، واستمر السجال سنوات عدّة، ما زلنا نتابع صداه في بعض المجلات والصحف العربية، ومنها «المعرفة».. ومن خلال متابعة طويلة، لأكثر

ما كتب منذ عشر سنوات، أستطيع أن أصل إلى ما أجمعت عليه الآراء، وتوصلت إليه الأبحاث والدراسات، بشكل عام..

- لا يوجد مثقف مستقل بنفسه، ولا يوجد المثقف الذي هو كذرة مغلقة على ثقافتها.. المثقف ينتمي إلى المجال الثقافي، والمجال الثقافي قد يكون له استقلاليته عن المجال السياسي، أو مجال السلطة، لكنه لا يمكن أبداً أن يكون منفصلاً عنه.. هناك مثقفو السلطة، والسلطة تعتمد في تشريعاتها في مؤسساتها التعليمية والتربوية والإعلامية والثقافية عليهم، ولا يمكن أن نقول لهؤلاء استقلوا عن السلطة لأنهم صوتها، ولأنها شريان حياتهم.. وهناك مثقفون ينتمون إلى قطاعات مختلفة عن الواقع الاجتماعي، ويعيشون في برج عاجي، وهم حالة لا علاقة لها بالواقع المعاش ولا بالناس..

- هناك مثقفو الإبداع الذين يكتبون الرواية والشعر والقصة والنقد الأدبي، الذين يعيشون من كتاباتهم ويعملون في الصحافة والمؤسسات الثقافية والإعلامية والتعليمية، ولا يمكننا أن نقول إن هذه المجالات يمكن أن تجعلهم مستقلين عن السلطة، والسلطة هنا ليست الحكومة فقط، فهناك السلطة الدينية، وسلطة الرأي العام، وسلطة المهنة، وسلطة الاستقلال الذاتي، والمثقف لا يكتب لنفسه، وحدود حريّة التعبير يحددها المثقفون أنفسهم، وهي مسألة تتعلق بحركة المجتمع، وهي تزدهر وتتآكل حسب فاعلية المشاركين فيها..

- في كثير من الأحيان يذعن المثقف للسلطة، بسبب لقمة العيش، وهذه اللقمة، تتفاوت من شخص إلى آخر، قد تكون كعكة، وقد تكون

منصباً كبيراً.. والإذعان للسلطة ظاهرة عالمية وتاريخية، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن للمؤسسات أن تصدر تعليمات لكل الكتّاب حول كيف تكون الكتابة، أو البحث في الفن، ولو اعتمد المثقفون على هذا لما كانت الثقافة.. لذلك، كما يقول الناقد المصري إبراهيم فتحي: «يوجد دائماً ميل للاستقلالية، لكي تكون هناك ثقافة، أولا تكون، وبعض المثقفين أُحرقوا في أوروبا، كبرتراند راسل، الذي سجن لأنه وقف ضد السلطة».

- بإمكان المثقف أن يلعب دوراً ريادياً في تطوير المؤسسة التي يعمل فيها، بل وفي تفكير الصفوة الحاكمة ذاتها، وفي إحداث تغيير اجتماعي إلى الأمام، وهناك أدوار مهمة قام بها داخل النظام السياسي، أمثال: طه حسين، وعباس محمود العقاد، وزكي الأرسوزي، وسليمان العيسى، ولويس عوض، ونجيب محفوظ، وعبد الله العروي، وبدوي الجبل وغيرهم..

- المثقف لابد أن يكون متميزاً، من خلال استقلال ذهنه، عن مواقف السلطات الوضعية السائدة، والعلاقة التي ربطت بين بعض المثقفين، وبعض مراكز الثقل النفطي، فرضت أشكالاً من القيود على حرية التفكير، وهذا ما أدى إلى ضعف استقلالية المثقف، ووهن دوره الاجتماعي، على الرغم من أنه لا يزال هناك تصوّر لدور المثقف باعتباره دوراً طليعيّاً وسياسيّاً، وكلها نماذج قديمة فقدت توهجها.. والواقع أن التغييرات في المشاهد الثقافية تقول: إنَّ دور المثقف الأساسي هو إنتاج الإبداع والمعرفة، مستقلاً عن الآخر السلطوي

المحيط به، وليس من أدواره، ولا من وظائفه لعب الأدوار القياديّة، وهذا ما يدعونا إلى إعادة تعريف المثقف والحقل الثقافي..

- يعتقد، أكثر من باحث ومفكر، أن المثقف العربي، غالباً، هو من أبناء الطبقة الوسطى والشعبية، ومن اعتمد تاريخياً على الدولة في الحصول على دخله، وشهاداته العليا، لذلك هناك صعوبة بالغة في استقلالية المثقف، وهناك من يؤكد أن إستراتيجيات توظيف الدين، على سبيل المثال، في الشرعية السياسية، أدت إلى انفجار في المنظمات السياسية الإسلامية، وإلى تعدد مراكز الثقل الناطقة باسم التقليدي والأصالة مما أدى إلى حصار واسع النطاق لأفكار المبدع في العصر الحديث والمعاصر..

❁ ❁ ❁

كتابات وآراء كثيرة، أكدت أن رسالة المثقف تتطلع إلى بناء المستقبل، والبحث عن ما هو أفضل، والسلطة بطبيعتها وبتعريفها تحرص على بقاء الحال على ما هو عليه، ويرى الناقد والروائي المصري «إدوار الخراط» الذي كان ضيف مهرجان المحبة، أكثر من مرة، أن المثقف قد يتحالف مع السلطة مؤقتاً في سبيل تحقيق أهداف يسعى إليها، وترضى بها السلطة في الوقت ذاته، ولكن هذا التحالف لا يمكن أن يكون دائماً، ويشدد الخراط على أن المثقف يجب أن يحتفظ باستقلاليته بعيداً عن السلطة، ويجب على المثقفين رعاية اتحاداتهم المستقلة، والقيام بحمايتها من عسف السلطة أياً كان نوعها..

لا أحد يقلل من دور المثقف الحيوي في حركة التاريخ، وفي صياغة أسئلة الواقع والتعبير عن أشكال الخلل في مختلف مظاهر الحياة العامة والسياسية، وهذا ما يجعله مستهدفاً من قبل المؤسسة والسلطة، إما من أجل تحويله إلى بوق، أو من أجل استغلال شرعيته في امتلاك القدرة على التأثير.. لقد كان الاحتماء بالأيديولوجيا والتفكير بإستراتيجيتها ضماناً للمثقف لكي يحصّن شرعيته، ويجعل تفكيره خطاً إيضاحياً، ومع تراجع دور «الأيديولوجيات» واختلال التوازن، واختلاط الأوراق وضياع البوصلة في كثير من الدول العربية، وامتلاء الساحة بالفوضى، وهيمنة فكرة السوق.. بتنا في عالم اليوم -بكل أسف- نشهد ظاهرة تخلّي بعض المثقفين عن الدور الحقيقي والحضاري للمثقف..

مراكز الإعلام الأميركي والغربي، بشكل عام، عرَّفت دور المثقف، لذلك قامت باستقطابه عبر صياغات عدّة.. منح، تذاكر سفر، دعوات، مكافآت.. وبكل أسف نجحت هذه السياسة مع بعض المثقفين والمفكرين والأدباء العرب، وفشلت مع بعضهم الآخر.. لقد تلاحقت الأحداث، واختلطت الأوراق، ودمّرت ذاكرة، وفرضت ذواكر بفعل سياسة الترغيب والاستلاب، و«الفوضى الخلاّقة» التي دمّرت وخربت العقول والأفكار والتراث والحضارة.. وبذلك فقد المثقف دوره ورسالته.. هناك من المثقفين من باع خبرته ومعرفته، وجرّد نفسه من الرسالة التي عليه أن يخدمها، ففقد احترام الناس له، وخسر صفة المثقف..

إنَّ المثقف العربي، قد تعرّض منذ عقود زمنية، لعملية هرس منظمة لكتم صوته، أو استتباعه أو تهميشه، لإفقاده دوره التنويري المعرفي الإصلاحي، في زمن اشتدت فيه الأزمات والخيبات والمآسي والمؤامرات.. لقد افترض في المثقف أن يكون طليعة أمة مغلوبة، وكان عليه أن يعيش قدره المأساوي، بين غرب وآخر يتجاوزه، وشرق ينتهي إليه، وعليه أن يقاوم استبداده وتخلّفه..

لقد وجد المثقف في أوروبا على امتداد القرن العشرين، في المؤسسات، وفي الصحافة ودور النشر، من يحتضن أعماله وأفكاره، وكان المثقف داعية للتطور والتغيير، وناقداً للتقليد والجمود، وقد لعب أساتذة الجامعات دوراً بارزاً في بناء الدولة والتقدم والتطور.. كلمة مثقف في الوطن العربي، أصبحت بلا دلالة، فهي تشير إلى أشخاص يمارسون نشاطات وألواناً مختلفة من الإبداع الأدبي، إلى النقد، إلى التدريس، إلى التأليف الأكاديمي، إلى الكتابة الصحفية، إلى الرسم والنحت والتمثيل والإخراج.. إنَّها مقولة متباينة تتطلب تخصصاً وتدريباً على العمل..

ولكن المفكر الكبير محمود أمين العالم يرى غير ذلك، فالثقافة كانت بالنسبة له سلطه لأنها رؤية شخصية للعالم، مرتبطة بقناعة الفرد، وإدراكه لواقعه، الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني، ودائماً ما يعرّف الثقافة بأنها الحاضر مشغولاً بالمستقبل، وبخلق الرأي، ونقله من وعي إلى آخر.. ولكنها للأسف سلاح ذو حدين، لأن هناك ثقافة المثقف، وثقافة السلطة، والفارق ضخم وواسع

بين الاثنين.. من مصلحة المثقّف الحقيقي المزيد من العلم، ومن الثقافة، ومن التقدُّم، ومن السعي إلى المستقبل الأفضل والأجمل، وهنا تبرز وظيفته النقدية، حتى يساهم في تقدم مجتمعه..

المثقف يذعن للسلطة في حالات، منها أنه قد يكون مقتنعاً بفكرها، وحدود فكره وثقافته لا تسمح بأكثر من هذا، إما عن جهل منه، أو عن شيء آخر ناجم عن هذه السلطة التعليميّة، والرأي للعالم، لأن التعليم من أجل السوق، والدولة تفتخر بهذا مع أنه يقتل روح البحث والابتكار..

في الوضع الراهن المتأزم للثقافة العربية.. استقلالية المثقف، ليست ممكنة دائماً، لأن هذا يتوقف على موقف السلطة من المثقف، ومدى اهتمامها به، أو تجاهلها له، ومدى إدراكها قيمة صوته، وتأثيرها من عدمه، وليس كل سلطة تأخذ الموقف نفسه، فهناك سلطات لا تهتم بالثقافة أصلاً، وتراها عملاً هامشياً، وهناك سلطات ترى أن الثقافة تؤثر في الناس لذا تضعها في أولى اهتماماتها وبالتالي تحاول استقطاب المثقف دون السماح له بممارسة استقلاليته.

ويمكن القول: إن كلمة الاستقلالية، كلمة غامضة، تعتمد على أشياء خارجية كثيرة تمنع استقلالية المثقف.. الإنسان بطبيعته، ينتمي لأشياء معينة، تمنع استقلاليته.. الاستقلالية بالمعنى المطلق مستحيلة، أما بالمعنى النسبي، فهي ممكنة، إذا عرف المثقّف كيف يلتفّ حول القيود، والأديب الذي يكتب رواية، من الممكن أن يكون مستقلاً في حدود، لأنه لو كتب وخرج عن الحدود التي أتاحها له

المجتمع، فلن يكون ذلك مسموحاً له وسيصادر.. لا يوجد استقلالية مطلقة، بل تتسع وتضيق حسب الديمقراطية الموجودة في البلد، والمثقف يستطيع أن يستغل المسافة المتاحة ويكتب أو يبدع فيها، ولا يوجد ما يحمي المثقف سوى شهرته، فإذا كان مشهوراً، وأخطأ، فسوف تخاف السلطة من الاقتراب منه، وعلى سبيل المثال، عندما أرادوا في فرنسا القبض على المفكر «جان بول سارتر» رفض الجنرال «ديغول» وقال مقولته الشهيرة: «إن فرنسا هي سارتر فلو كان الكاتب مشهوراً، فستحميه هذه الشهرة، لأن القبض عليه سيكون مسألة معيبة في حق السلطة، وليس في صالحها أن تضيّق عليه».

❁ ❁ ❁

لقد تعرّض العمل الثقافي، في كثير من الدول العربية، ومنذ ستينيات القرن الماضي إلى مضايقات عدّة، لأن الثقافة، بشكل عام اعتبرت عبئاً على المجتمعات العربية، وسبباً من أسباب تشويه الوعي الاجتماعي، ولأنها استُغلت من قبل السلطة، ولعبت دوراً ساهم في تخريب الحس الوطني، والقدرة على التحليل الصائب، في زمن اختلطت فيه الأوراق، وتراجعت فيه المؤسسات الثقافية عن منابرها الحرّة التي كانت عليها في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، على الرغم من التقدم العلمي، وانتشار الثقافة والمعرفة والتعليم..

المثقف العربي نسيج نفسه ومجتمعه، والمفروض أن يكون ملتزماً برأيه لصالح وطنه وأمته، ولكن بعض الحكومات، حاولت أن تخلق

من عناصرها، كتّاباً، ليسوا أدباء أو مفكرين، يكتبون ما يملى عليهم.. ويرددون دائماً في وسائل الإعلام.. أن الأحوال بخير، والاقتصاد بخير، والسياسة بخير، على الرغم من التخلّف، والانحدار في المستويات المعيشيّة.. هناك من وقف في وجه هذه الثقافة البعيدة عن الواقع، ولكن الصدور ضاقت بهم، فتعرضوا لحملات الشتيمة والتنديد والاستنكار..

في البحث عن تقييم لسلوك العديد من المثقفين العرب حيال ما جرى في دولهم منذ أكثر من نصف قرن، نرى أن هناك مستويات مختلفة بين جوانب من العلاقة بين المثقف والسلطة، وأن هناك مفارقات بين الواقع والادعاء «الأيديولوجي» الذي أضحى خطاباً تبريرياً واستباحيّاً في الثقافة العربية التي كانت سائدة، ولعل هذا القول يوضح كيف رفعت شعارات كبيرة مثل، الوحدة العربية، والنضال ضد الاستعمار والاحتلال، وتحرير الأرض، والجهاد والوحدة الإسلامية، والحرب ضد الإمبريالية.. بمعزل عن أي دراسة أو تحليل للقوى الاجتماعية وبرامجها، وموازين القوى ومصائرها، وقضايا الناس وحرياتهم وأرواحهم ومستقبلهم..

في التقييم لهذه المواقف والقضايا الكبيرة، التي رسمت مرحلة مهمة من التاريخ العربي، يرى المفكر الكبير وجيه كوثراني، أنها تعبّر عن موقف «أيديولوجي» متخلّف، صادر عن جهل بحركة التاريخ المعاصر وتحولاته.. وعن تأخر الوعي العربي، تختصره حال ثقافتنا العربية والإسلامية السائدة.. والسؤال الملح، هل يلام المثقف

العربي على ما وصلنا إليه من أحوال متردّية؟! يرى «كوثراني» أنه يلام، كجزء من حالة عامة، ومن ظاهرة هي ظاهرة «الاستبداد» في تاريخنا العربي والإسلامي قديماً، وظاهرة الدولة «التسلطيّة» في تاريخنا المعاصر، وهذا المعنى يندرج على عدد من المثقفين العرب، الذين ساهموا بشكل أو بآخر بتأخر الوعي التاريخي العربي، ورسموا ثقافة، كان قد وضعها بشكل دقيق ورائع عبد الرحمن الكواكبي، في أول القرن الماضي في كتابه العظيم «طبائع الاستبداد» والذي لا يزال صالحاً في تحليله وتشخيصه لتلك العلاقة حتى يومنا هذا..

لقد أساء أدعياء الثقافة، كثيراً إلى الثقافة والمثقف.. لقد مارسوا عمليات غسيل الأدمغة.. لقد مارسوا ثقافة التضليل والتخدير والجهل.. لم يتركوا للمفكرين أصحاب العمق والرؤية والثقافة أي مجال، فوسائل الإعلام الحديثة تقتضي الإثارة والكذب والتلفيق والشتم والنباح.. والمثقف المثقل بأفكاره وقيمه ورؤاه، يأنف عادة من الدخول في مرابد العنجهيات، وأسواق الشعارات والاتهامات الجاهزة.. لقد ركب أدعياء الثقافة الموجات كلها، وأصبحوا يحللون كل شيء، ويعرفون مصائر الناس والشعوب، ويطلقون الأحكام الجاهزة، ويتقافزون بين المنابر و«الإستوديوهات» و«الميكروفونات» من دون أن يكون عندهم شيء جوهري جدير بالقول، أو الكتابة، ونسمع جعجعة، ولا نرى طحيناً، ونسوا أن ما يمكث في الأرض، هو الذي ينفع الناس، أما الزبد، فيذهب..

أيُّها المحلل والخبير والمفكر.. لقد انقلب التاريخ على نفسه، وبات عليك في عالم اليوم، أمام ما حدث ويحدث، أن تهدأ وتخفف من شدّ الأعصاب، وتقتنع أن دورك ومهمتك وظهورك الإعلامي يبدأ من الواقع.. من القدرات المتاحة، والإمكانيات المتوافرة، ومن الحدث اليومي الذي نعيشه، ونتابع ويلاته وآلامه ونتائجه البائسة المريرة..

إنَّ التحدي الكبير الذي يواجه المثقف العربي، في هذه المرحلة الراهنة، أن نخرج من الحالة والأزمة التي خطط لها منذ سنوات، وتُنفَّذ بعقل أميركي أوروبي، صهيوني، وجهل عربي تحركه قوة خلق تدميرية تحرق كل شيء.. البشر والنبات والشجر والأثر.. عملي الطويل في مجالات الآثار والتاريخ والثقافة والتراث، جعلني أرى أمراض العرب داخل تاريخهم وليس خارجه.. مع أننا نعيش في ثقافة لا تترك مجالاً للأسئلة.. وجعلني أؤكد مقولة المفكر والشاعر الكبير «أدونيس»: (إن ما ينقص العرب الآن، هو ثورة الذات التي يمكن أن تحرر الناس من التقاليد البالية).. لقد انتصر «أدونيس» للمتحول الإبداعي، ومن يمثّله في مواجهة الثابت الاتباعي ومن يمثّله..

في كتاب «أهل القلم وما يسطرون» للراحل بوعلي ياسين، طرائف عدّة، عن الثقافة والمثقفين نتوقف عند بعضها:

- يقول فاروق حسني، وزير الثقافة عام ١٩٩٤: عندما عينت وزيراً للثقافة وجدت الحرام يطاردني.. الرقص حرام- الموسيقى حرام

- المغنى حرام.. كل ما أنا مسؤول عنه حرام، لدرجة أنني أطلقت على نفسي (وزير الحرام) ليدلل على حجم المحرمات التي تضعها السلطة الدينية أمام المثقف..

- يقول الكبير محمد الماغوط: «لكي تكتب، يجب أن تحتك بالناس، والمواطن العربي صار، من الحيطة والحذر، لا يحتك حتى بثيابه».

- نتيجة لتباين علاقة المثقف مع السلطة، فقد أطلقت عليه تسميات عدة، فمنهم من يسميه إدوارد سعيد «مثقفاً مؤسساتياً» وهو الذي ينأى عن المواقف الصعبة والمبدئية كي لا تقف في طريق صعوده.. ومنهم من يسمّيه، فيصل دراج، «المثقف السمسار» الذي يخضع أفكاره لمرجعية السوق والعرض والطلب، ومنهم من يسمّيه سعدي يوسف «المثقف الوسيط» القابل للاستخدام في أمكنة ومجالات عدة، ومنهم من يغيّر مواقفه الفكرية والسياسية، حفاظاً على السلامة الشخصية ومصدر العيش..

❁ ❁ ❁

العربية بين الإطلاق والنسبية

د. صلاح الدين يونس ❁

للعربية منزلة خاصة عند أبنائها، هذه المنزلة تجاوزت حدود المد القومي التي عاشها العرب منذ الحيوية التي أسست للانفصال عن الدولة العثمانية، والانفصال لم يكن سياسيا وحسب، وإنما هو خطوة تاريخية فارقة، وضعت حداً للتماهي بين الشعوب الإسلامية على أساس من التفاصل القومي.

فمنذ بروز الشخصيات التنويرية على مستويات عدّة، أخذت الأيديولوجيا العثمانية تفصح عن نفسها عبر النزعة الطورانية، وهي حالة سوسيو ثقافية،

❁ ناقد أدبي وأستاذ جامعي.

أدركت ضـــرورة الفصل – من موقع الأعلى والأدنـــى– بيـــن الوجود القومـــي والانتماء الديني، وبالمقابل كانـــت النخب السياسية العربية قد تشبعت بالفكر القومي الأوروبي، علـــى أنه ثقافة جديدة قادرة على الاختراق والتوضع خارج حدودها بعد نجاحها ضمن الحـــدود، وقد أفادت النخـــب العربية تلك من واقع المشرق العربي المتردي من مبدأ فساد الواقع ومن مبدأ طرح البدائل.

لم تكـــن «العربية» لغةً وحســـب، وإنما استحالت إلى «هويـــة» داخلية كالعقيدة، لا تقبـــل المساس أو النظر من خارج العقيدة، ومـــع تقـــدم الحيـــاة العملية فـــي الأقطار العربيـــة تنبثق مشكلة اللغـــة من موقع آخر وهو الإحساس بالفقر العلمي على مستويات عدَّة: أهمهـــا المستوى التقاني ولاسيما في العلـــوم الدقيقة، ولم تكـــن العلوم الإنسانية هي الأخرى بالعربية فـــي عافية، وإنما لم تظهـــر الحاجـــة إليها كما هي فـــي العلوم الوضعية التي تمس –بشكل مباشر– مشكلة التقدم.

من هنا ومن هناك انبثقت فكرة الاحتياج إلى الآخر المتقـــدم، وانبثقت معها مشكلة جديـــدة، وهي كيف نفيد من الآخر صاحب الإنجاز المفتوح؟ نتعلم لغته؟ أم نعلمه لغتنا! أم ننقل علومه إلى لغتنا؟!

ثمـــة فريق مـــن النخـــب العربية طرح «**القطيعـــة**» مع العربية وإعادة بناء الأجيال المتعلمة بلغات الأمم المتقدمة «ولست أحمل على اللغـــة العربية الفصحـــى إلا لسببين: صعوبة تعلمها وعجزها عن تأدية أغراضنا الأدبية والعلمية، ولذلـــك فإن من مصلحة أبنـــاء الأمـــة المصريـــة أن يكتـــب أبناؤها باللهجة المحلية وبالحروف اللاتينية، وفي ذلك حفاظٌ على وطنيتهم المصرية»[1] وكان مســـوغ هذا الطرح هو الإسراع في الإنجاز، ويعنـــي حينها «النهضـــة» والنهضة عندهم مؤسسة علـــى جدلية الالتحاق على أنقاض الانفصال عن التراث والمرحلة العثمانية، الالتحاق تقليداً واقتباساً، وكلاهما يفترض الانفصال عـــن النمط العثمانـــي، كخطوة أولـــى لتبدأ من بعد ذلك الخطـــوة الثانية، وهـــي الأهـــم وكانـــت تعنـــي الانقطاع عن التراث بوصفه مخزنا روحيا مدونا بالعربية والمدون بـــه حاملاً ومحمـــولاً اكتسب كلٌ منهما «القداسة».

علـــى الطـــرف الآخـــر يتموضـــع دعاة «الاكتمال» وهـــم فريقان من طبيعة واحدة: السلفية الدينيـــة والقوميون الغلاة، ويتخذ هؤلاء مـــن الرمـــوز التراثية شاهـــداً على «معجـــز العربية» فقد أبـــدع الكندي ٨٧٣م بالعربيـــة فلسفةً وطباً وفلـــكاً، وترك تراثاً إنسانيـــاً أفادت منه شعوبٌ عـــدّة، ولم يكن

يعــرف غير العربية، وكذلــك كان الفارابي ٩٥٠م قــدم تراثــاً فــي الفلسفــة والعلوم السائدة فــي العصور الوسطــى أغنى فيه المكتبة الإنسانية بالعربية طبعاً، وحاز لقب «المعلم الثاني» والأول هو أرسطو، وما كان لأرسطو ولأفلاطون ولسقراط ولفيثاغورث وأبوقراط وغيرهم من علمــاء اليونان وما أبدعــوه في فــروع المعرفــة أن يصل إلى الأجيــال اليونانية وغيــر اليونانية من بعد العصر الوسيط لولا أن المأمون العباسي أسس «الترجمة» لتحتفظ العربية بالعلوم اليونانية احتفاظــا تجاوز الفعــل الوظيفي لأية لغة، وحين استفاق النهضويون الأوروبيون وجدوا جذورهم المعرفية فواصلوا ما انقطع منها عبر النسخة العربية..

ويضيــف أصحــاب الــرأي المعجز إنَّ علماء العصر الوسيــط الإسلامي كالرازي ١٢١٠م وابــن الهيثــم ١٠٣٩م وابــن سينا ١٠٣٧م وابــن النفيــس ١٢٨٨م استعربــوا باللغــة وبالإسلام، ولم تعد العربية لغة لأمة محصورة محدودة، وإنما استحالت إلى لغة أممية، لغــة لإمبراطورية عديــدة الأعراق وعديدة اللغات، لكن المشروع الإمبراطوري اختزل نفســه بـ «العربــي الإسلامي» على أنهما متواصفان متلازمان كالشيء الواحد، بل يكادان يكونان كالكلمة الواحدة.

من الافتراق إلى التوفيق:

لقد عاش المنبهرون بـ «معجز العربية» حــالاً من الامتثال لم يسبق لأمة أن عاشته، وحتــى «الكاثوليك» لم تعشــ ذلك الامتثال مع اللاتينية، رغم ارتباط الكثلكة باللاتينية كنصوص مقدسة وككنيسة مركزية تتبع لها المؤسســات الأخــرى، إلا أن البروتستانتية أفضت إلــى أهمية اللغات القومية مرتبطة بتأسيــس الكيانــات القوميــة نفسها، كما حــدث لبريطانيا بعد أن انقطعت عن اللغة النورمانية وعن الكنيسة الكاثوليكية بتأسيس الأدب الإنجليزي على يــد جيفري تشوسر ١٣٤٣ – ١٤٠٠م صاحب حكايا كانتربيري، التي كانت نقطة البدء.

فالمنبهرون العرب بالإرث اللغوي العربي الإسلامي تعاملوا مع ذلك الموروث على أنه «تاريخ» مستمر قابــل للانبعاث، وهو ناجز قادر على الإمداد، متجاوز اختلاف الأزمنة عابُر الجغرافيــات ببشرها ولغاتها وطبائع الشعوب في الانتقال والتحضر..

ولم يتنبه المنبهرون أولئك إلى «الواقع» بمــا لديه وبمــا هو قــادر علــى التجاوز المضطــرد، فالأسماء البــارزة في التراث العربي الإسلامي –علــى أهميتها التاريخية– يستحيــل أن تكون المقيســ عليه المطلق المتجــاوز للغــات والأزمنــة، ففــي سياق تاريخــي قدمــت الرموز تلك مــا هو فارقُ

تاريخياً، ولكن السياقات التي أبدعت تحت شروطها لم تعد قائمة، ولا يمكن -حسب منطق التاريخ- أن تكون قائمة، ومن هنا نرى أن من حق الأمة أن تعتز بإنجازاتها وتاريخها وتاريخيتها ولغتها، وإنما لا ينبغي لذلك الاعتزاز، أن يقطع الصلة مع العالم الجديد، العالم الذي أبدع على طريقته وأبدع بلغاته، ولأنه أنجز تاريخاً جديداً لابد من الاعتراف بإنجازه، ولابد من إدراك طريقة للتواصل معه من دون مصاحبة «الاستعلاء» سواء منه أو من المتواصل.

التعليم باللغة القومية ممكن وضروري:

تحاول الأمم، الأمم كلها أن تجعل من لغتها هويتها المائزة حتى لو كانت اللغة المعنية متخلفة عن تمرحلات التاريخ وبعيدة عن متغيرات العصر، ولكنها تحاول عبر مشروع يبدأ من إصلاح اللغة نفسها، ونذكر بما فعله ميخائيل لامانوسوف ١٧٦١م باللغة الروسية حتى أدخلها طبيعة القرن الثامن عشر، فحذف من أبنيتها واصطفى، وأدخل المفردات التقنية من الإنجليزية والألمانية، ومن الفرنسية أدخل مفردات علم الجمال والفلسفة والتربية، أدخل تلك وهذه ضمن حيوية الروسية وتحت شرط المهارة الفردية لرجل العلم التجريبي، والذي جمع علم اللغة إلى جانب تخصصه التجريبي «الكيمياء الفيزيائية».

ونذكّر بتجربة «هُو شي منه» الفيتنامي عندما جعل من الفيتنامية لغة الهندسة والطب على مراحل تحت عنوان «فتنمة العلوم - الطب أولاً»، ففي كل عام دراسي كانت فئة النخبة الفيتناميون ينقلون إلى لغتهم المفردات العلمية بالترجمة، وبالاشتقاق المشترك بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، وخلال عقد من الزمن اكتسبت الفيتنامية ذخراً من المفردات والأنماط الجديدين، في سعي من أصحابها إلى إتمام الانتصار العسكري السياسي بانتصار علمي باللغة الوطنية، وفي الأردن أجرى المجمع اللغوي دراسة عام ١٩٨١ تحت عنوان «تقويم المرحلة الأولى في تعريب التعليم الجامعي» شملت الدراسة طلبة السنة الأولى في جامعتي: اليرموك والأردنية الذين درسوا بالعربية بدلاً من الإنجليزية مقررات: الرياضيات والأحياء والجيولوجيا، وكانت النتائج أن نسبة الرسوب هبطت من ٣٥٪ إلى ٣٪.[٢]

ومنذ النزاع - على أساس قومي - بين العرب والأتراك أخذ النهضويون العرب يطرحون العربية على أنها هوية مستمرة نامية، بعد مرحلة المد الشعبي والوطني في إثر الاستقلال السياسي عن الدول

الاستعماريــة، وهنا تطــرح قضية اللغة من حيــث صلاحيتهــا لعبور الأزمنــة وتخطي الأمكنة، أو من حيــث قدرتها على التعامل مع العلــوم المستجدة وعلى الأخص العلوم الدقيقة، ولم يكن «المغالون» بالعربية على دراية تامة بهــذه المشكلة، فلم يكونوا على معرفة بالانتصــارات العلميــة المتلاحقة للعالم الذي يتقــدم عليهم، فالعلوم الغربية أخــذت تفصح عن فتوحــات لا قبل للغات المشرق بها، وأخذت في الوقت نفسه لغات الغــرب تختزن ثــروة من المفــردات التي أفضــى بهــا «التجريب»، ولم تكــن اللغات المركزية الأوروبية تعــرف تلك المفردات، وإنما ولدها الواقع العلمي، ومن الضروري التنويه به «**التقارض**» بين اللغات الأوروبية، وقد أشــار إلى هــذا «**ستيفن أولمــن**» في أطروحتــه «تقارض اللغــات». ضمن كتابه «الكلمة في اللغة».

وممــا زاد اللغــات الأوروبيــة –وعلــى الأخص الإنجليزيــة– قدرة على النماء مع تزايد الكشوف العلمية انعتاقها من السلطة الكنسيــة التي احتفظت بملكية «اللاتينية»، على أنها الفضاء الروحــي للمسيحية، في الوقــت نفسه كانت اللغــات «الإنجليزية – الفرنسية – الألمانية» تتقدم على مستويات أخــرى في الآداب والفنــون، ونذكّر –هنا– بأطروحة لوسيان غولدمــان «تمرد الآداب والفنون في الحضــارات المتقدمة» إذ رأى غولدمــان أن التقــدم العلمي في الغرب لم يتساوق مع الأعمال الأدبية، إذ كان الكشف العلمي مذهــلا مغنياً عن جماليات الإبداع في العلوم الإنسانيــة، ولكنه استثنى عملا واحــدا من تعميمــه هو مسرحيــة «عدو» لكورني.

وإذا كانت القوانين الكبرى قد اكتشفت بعقل غربي، فإن اللغات التي ينطق بها ذاك العقل هــي أولى بأن تكتشــف نفسها أولاً، وتكتشــف لنفسها طرائق التقــدم والتطور والوصــول، وبالناتج أضحت لغة العلم أينما عبــر العلــم التجريبي، طبعاً وأيــن توضّع، ومن هنــا رأى الجيل اللاحق على «النخب» النهضويــة ضرورة التعلم باللغات المتقدمة والتعليــم، فما مسوغات رؤيــة أولئك؟ لقد دخل دعاة التعليم والتعلم باللغات الأوروبية «إنجليزيــة وفرنسيــة» مدخــل الكشــوف المتزايــدة والمتلاحقــة، فالترجمــة غير قــادرة علــى الملاحقة، في الوقــت نفسه كانت الكشــوف تمنح اللغات الغربية مرونة وحيوية، وتمنح أصحابها وجوداً حراً، يقوى المكتشــف من خلالهــا علــى التعامل مع العالــم تعاملاً إيجابياً، وكلمــا ازداد العقل التجريبي نجاحــا ازداد العقل الاجتماعي السياســي حريــة، فمن المحــال أن يتقبل العقــل بشطريه: التجريبي والسوسيوثقافي

الاستقلال السياسي المتخلف عنه، لأنه سيعمل ضمن شروط الفضاء الحر، والفضاء الحر نتج عنه المنطق الجديد الذي أسس له فرنسيس بيكون في مؤلفيه العظيمين: Norum organum القانون الجديد وتقدم الثقافة Ncement learning وعن المنطق الجديد المتجدد من بيكون إلى نيوتن إلى داروين إلى ماركس إلى فرويد وإلى مستمرة...، وعي ديالكتيكي في التعامل مع العاملين الداخلي والخارجي ويعزز ستيورات هامبشِر أهمية اللغات القومية في العالم الحديث «إن اللغات القومية لم تكن قد أرست القواعد من كيانها في أي شكل مألوف منها كأدوات طبيعية للتفكير المجرد، ويستطيع المرء أن يلاحظ الانتقال التدريجي من اللاتينية إلى الفرنسية والإنكليزية كأداتين للتفكير الفلسفي طوال القرن السابع عشر».[٣]

لغتنا والعالم المستقبلي:

عندما أحالت أوروبة انتصاراتها في العالم التجريبي إلى قوة عسكرية غادرت «علومها وعلمانيتها» ،فتوجهت إلى عوالم الأطراف، وكانت ممتلكات الدولة العثمانية الآخذة بالتهالك منذ نهايات القرن الثامن عشر ساحة للأطماع الأوروبية، فداهم نابليون مصر ١٧٩٨-١٨٠١، ثم استحوذت فرنسا على الجزائر ١٨٣٠، كما بدأت بريطانيا بالتوجه نحو الشرق-الهند - ١٨٥٧-١٩٤٩، ثم حاولت ضمانة الوصول إليها بالاستحواذ على الدول الواصلة بين الغرب والهند، ثم خضعت الولايات العربية كلها للاستعمار الأوروبي، ولم يكن الاستعمار حدثاً عسكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً فحسب، وإنما كان تحوّلاً فرض ثقافته وسوسيولوجيته على الأقطار العربية، ثم فرض لغته على أنها لغة المنتصر في النظم العلمية والتربوية والإدارية والسياسية، وبفرض اللغة على المستعمرات حقق غايتين خطيرتين:

الأولى هي إقصاء المستعمرات عن ذاتها وتغيب الحس التاريخي من خلال تغيب الشعر والفن والأدب باللغة، الثاني حرمان المستعمرات من علوم المستعمر حتى لا تكون علومه علوماً مستملكة من الشعوب المستعمرة «بفتح الميم».

ونسوق رواية السوداني الطيب صالح ١٩٦٦ «موسم الهجرة إلى الشمال» شاهداً على العلاقة - عبر اللغة - بين أبناء المستعمرات وعلوم المستعمر، فقد تعلم الفتى السوداني في المدارس البريطانية أن يقول «لا» لأول مرة في حياته، لكنه قالها بالإنجليزية، و«لا» هنا إشارة إلى الحرية التي يكتسبها المتعلم بالإنجليزية، لأنه لايكتسبها بلغته الأم، فالمسافة بين اللغتين

- كما يراها «الراوي» المستعمر عبر الرواية - هي المسافة بين الحرية كضرورة للحياة وبين الاستبداد كإرث تاريخي في ثقافة المستعمرات.

يقول المفكر جورج طرابيشي خلال تناوله بالنقد للرواية المذكورة: «يجب أن نذكر أن المثقف الذي نعنيه هنا هو المثقف الشرقي، المغترب الذي يدخل طرفاً في عملية المثاقفة وهو في بلاد الغربة، وبالتحديد في حاضرة الدولة الميتروبولية الراهنة أو السابقة، إذ إن المثاقفة لا تتم من دون وسيط «اللغة» ويكاد لا يكون من خيار للمثقف المنحدر من المجتمع الكولونيالي أن يتقن من لغة ثانية غير اللغة الميتروبولية»[٤]. من جانب آخر فإن الظرف التاريخي الذي جعل العربية - في العصور الوسطى - لغة مركزية لم يعد قائماً، وهو ظرف غير مطلق وغير قابل للتكرار ولا للاستمرار، وعلى الرغم من أهمية العربية حتى القرن الثاني عشر الميلادي عام ١١٩٨ وفاة ابن رشد، فإن العربية لم تعد لغة للفكر الفلسفي، ولا لغة لمشروع في العلم التجريبي، ويتساءل الباحث التنويري هاشم صالح: «من يستطيع أن يتفلسف الآن في اللغة العربية؟ كيف حصل أن هذه اللغة التاريخية العظيمة التي استوعبت في الماضي كل أنواع المعارف والعلوم قد أصبحت الآن عاجزة عن التفلسف؟ ما السبب الذي دعاها إلى نسيان بعدها الفلسفي الحر والانكماش داخل الأشكال التعبيرية السكولائية أو الشعرية النظمية فقط»[٥].

الشرط التاريخي:

يتوهم «الغلاة» بالعربية أن العلماء من غير العرب «المسلمين» إنما أتقنوا العربية ونجحوا فيها نظراً لطبيعة استثنائية خاصة بالعربية، وهذا التوهم أساسه ارتباط العربية نفسها بـ«الوحي» وليس «الغلاة» من الاتجاه القومي ببعيدين عن هذا الرأي، وهنا تحدث القطيعة بين التفكير اللغوي والبحث التاريخي، ومن خلال معاينة دقيقة لطبيعة عصرنا الحاضر، ونعني القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على التحديد نجد - لا محالة - شاهداً على رأي مخالف للغلاة القوميين والإسلامويين، فالولايات المتحدة الأميركية استقلت عن بريطانيا في ١٧٧٦/٧/٤، ولأسباب عدّة: أهمها وجود الثروة على أرض المشروع الإمبراطوري تزايد عدد الوافدين إلى أميركا من جنسيات العالم المتعددة، وكلٌ حمل لغته في الطور الأول، لكن «الإنجليزية» هيمنت على اللغات كلها بما في ذلك الإنجليزية البريطانية، ولم تعد اللغة الأم لأي وافد

ولاسيما الفئة النخبويــة هي الأولى، وإنما تعلمت النخبة من الجنسيات كلها الإنجليزية الأميركية، فكتبت بها بعد أن تخصصت في مراكز الأبحاث الأميركيــة، ثم غدت اللغة المركزية الأكثر تداولاً لأي واحد في أميركا بل وفــي أطراف العالم كله وذلك عائد إلى أمــور أهمها: المرونة ونعنــي سهولة البنية النحوية، وثانيا القوة الاقتصادية التي تقف وراء اللغــة، والأمر الثالث يعود إلى الميديا الإعلاميــة المهيمنة علــى وسائل الإعلام العالميــة وعلى اللغات الأخرى، ولا ينفصل جانبا الاقتصــاد والسياسة عــن بعضهما كعاملين يؤازران الإنجليزية على الدوام.

أما الجانــب الآخر في اعتــزاز الغلاة بالعربيــة، فيعود إلى نجاحهــا في إقصاء لغــات الشعوب الإسلاميــة التي دخلت في تركيب دولة الخلافة، والإقصاء ذاك ساهم فيه عامــلان: الأول تقدم البنيــة النحوية للعربية وغزارة المفردات بعد أن غدت لغة المشروع الإسلامي، والثاني يعود إلى العامل الروحــي والآخر السياســي، وأما الروحي فلا شــيء غير «الإسلام» بــدءاً من تدوين القرآن والحديث إلى تدوين الشعر والأخبار والسير والتراجم، فالعامل في الشأن اللغوي والمتفلسف والمتصــوف والزاهد والناقد كلٌ انطلق من النصوصــ الإسلامية، سواء بعد عنها أم ظل في فلكها، فهو مرتهن لها،

وأما الجانب السياســي فالدولة لم تعترف على لغات أخــرى، فالشعوب الآسيوية التي انتظمت في البنيــة الإسلامية كانت لغاتها متأخــرة عن العربية، رغــم خضوع شعوب الشــرق مــن الصين إلــى اليونــان لنظام اقتصادي، هو النظــام الخراجي «الإقطاع غيــر المكتمل» ورغم أن الجامع بين العرب وشعوب آسيا هو «الأيديولوجية الخراجية» فــإن للعربية بنيــة مائزة وفي هــذا يقول المفكر الاقتصادي سمير أمين «ما أسميته الأيديولوجية الخراجية أقصد به المنطقة التــي تشمل العالم العربــي والإسلامي من جانب أوروبة من الجانب الآخر» مفادها أن نقطــة الانطلاق في هذا التكوين ترجع إلى عصر الهيلينية في أعقاب توحيد الثقافات للشرق القديم (مصر وبلاد مابين النهرين) ودمج أهم عناصرهــا كمساهمات جوهرية فــي تبلــور الميتافيزيقيــا الخراجية، وقد مهدت الفلسفة الهيلينية لنشر المسيحية ثم الإسلام وذلك من خلال تهيئة مفاهيم ذات مغزى عالمي تخاطب البشر بكليته.[٦]

أيــن المشكلــة؟ باللغــة العربيــة أم بأصحابها؟:

ثنائيــة تقــوم علــى الجــدل إذا ما تم الفصل بين طبيعــة العربية وبين وظائفها، فابــن جني صاحب أكبر ذهن فيليلوجي في العصر الوسيط العربي الإسلامي ت١٠٠٢م

يعــرف اللغة «بأنها أصوات يعبر كل قوم بها عن حاجاتهم» ومن القــرن الهجري الرابع إلى اليوم تتالى التعاريف وكل تعريف يأخذ بالآخر، إلى أن جاءت التعريفات المؤسساتية وخاصة بعد نجاح الدول الكبرى في الإفادة مــن التقدم التقنــي وتوظيفه فــي البحث اللغوي.

ومن التعريفات المعاصــرة التي نراها مناسبة تعريف يسرى خميس «اللغة احتياج ملح للتعبير عن معرفة ما» وتبدو أهمية هذا التعريــف في انعتاقه مــن الحاجة المادية وانتمائه إلى الحاجــة المعرفية أو محاولة الجمع بينهمــا، ويرى د.محمــود السعران «أنه من أسباب تخلف دراستنا اللغوية عدم القدرة على النهوضــ بدراسات لغوية على أساس مــن التفهم الحديث للغــة ولمنهاج دراستها ووسائلها، فلا شك أننا لا نستطيع أن نكتب نحواً للعربية على الأصول الحديثة دون أن ندرســ علم اللغة العام ومن مباحثه علم الأصول اللغوية»[٧]. وإذ يربط بين التقدم اللغــوي وبيــن معرفة علم اللغــة الحديث، فإنما يقــر السعران بتخلف الدرس اللغوي، وبالاستتبــاع يقر بتخلف اللغــة نفسها، بل بتخلف الأمة ككل عن العلوم الحديثة، ومن هنا كان دعاة الاعتماد على اللغة الأوروبية المركزيــة في التحصيــل العلمي لديهم ما يســوغ ادعاءهــم، فالعربية – فــي وضعها الراهن – لا تستجيب لنداء العالم الحديث، وإن الغنــى بالمفردات التــي يعتز بها أبناء العربيــة غير مقنع اليــوم، فالمفردات تلك لم تعد مــن احتياجات العصر، فلكل عصر علومه ومــع تقدم العلوم تنــزاح المفردات وتطفو المفــردات ذات الحاجــة المتولدة من طبيعــة الحياة نفسها، وقد شبه المفكر ميخائيــل نعيمة في «الغربال» اللغة بشجرة الزيتــون تحتها أوراق يابسة وفوق أغصانها أوراق خضــراء، وفــي هــذا التشبيه وعي بجــدل الطبيعة علــى أن اللغة في وجه من وجوهها من مفردات الوجود الطبيعي.

وقد أشــار عمر فروخ بشــكل آخر إلى الإزاحــة والإحلال على أنهمــا من طبيعة العربيــة، وإن خــروج كلمة مــن الاستعمال وحلول غيرها مكانها يدلان على أن الكلمة التي خرجــت أقدم عهداً، إذ تدلان على أن المدرك الذهني المتعلــق بهما قديم، وأنه خرج من لفظ كثير العموم والإبهام إلى لفظ أكثر خصوصية ووضوحاً[٨].

يــرى اللغوي فروخ أن فــي العربية أكثر من ١٢٠٠ مفردة دالة على الأمور الجنسية، ويرد هذا إلى أن الكلمة تحل محل الأخرى بسبب ارتباطها بالحياء، مما يضطر الذهنية اللغوية إلى البحث عن البديل غير المكتشف بفعل التــداول، وهكذا حتى تختزن العربية كلمات عديدة في موضوع واحد، ومن وجهة

نظرنا نرى مع المفكر جورج طرابيشي وهو يدلي برأيه في هذا الموضوع:

إن المفردات الدالة على الفعل الجنسي ارتبطت بظاهرة الاستبداد الشرقي، ومعظمها دال على الاستعلاء الذكوري ففي رواية نجيب محفوظ «بداية ونهاية» فتاة من الطبقة الأرستقراطية فيقول البطل حسنين: هذه امرأة إذا ركبتها فقد ركبت طبقة بأسرها، ومن المؤكد أن جدل القهر الكولونيالي قد جعل الكثيرين من أبناء المستعمرات المقهورين يهتفون في أنفسهم عند رؤيتهم لامرأة بيضاء: هذه امرأة إذا ركبتها فقد ركبت أمة بأكملها. وعند العرب عشرات المفردات الدالة على السيطرة الجنسية كمعادل للفعل الجنسي «غشيها، وطئها، دعكها، وسمها، دعسها»[٩].

من جانب آخر مهما كانت العربية غنية بالمفردات، إلا أنها معوزة لمفردات العالم الصناعي التقني، ومن مشكلات تأجيل المفردات الناتجة عن الثورة الصناعية والأخرى الإليكترونية أن اللغوي العربي -منشئا أو مترجما - لا يعرف تلك المفردات في لغاتها الأم فيحتاج الأمر إلى عمل مؤسساتي يجمع الفيزيائيين والأطباء وعلماء الاجتماع والتربية والنقاد لإنجاز المفردات من طبيعة العربية بحيث لا تبتعد عن الحقول الدلالية للمنشأ الأول، وفي الوقت نفسه لابد أن ينجز الفريق المذكور المعجم العربي الجديد القائم على التوليف والتوليد والحذف والاصطفاء، ليكون مورداً للأجيال الجديدة.

ويرى الثعالبي أبو منصور ١٠٣٨م «أن أسماء النكاح تبلغ مئة كلمة عن ثقات الأئمة بعضها أصلي وبعضها مكني»[١٠].

وثمة نخبة من اللغويين العرب تأخذ على الكوادر العربية التي تخرجت في الغرب احترامهم الضمني للغة التي تعلموا بها، في حين يتجرؤون على العربية وعلى خصوصياتها نحواً وصرفاً، يقول د.إبراهيم السامرائي «ومن الغريب أن يكون أهل العلم من هذا النفر الذي لم يحذق بالعربية على معرفة حسنة بالإنجليزية أو غيرها من اللغات الأعجمية غربية كانت أم شرقية، أنهم يباشرون هذه اللغات حديثاً وكتابةً، وهي وسائل عمل لهم لا يبيحون لأنفسهم أن يخرجوا على قواعدها وأسسها، ولكنهم يتساهلون مع أنفسهم حين يرتكبون الخطأ في العربية، وحجتهم أن العربية صعبة لاتناسب العصر».[١١]

وكأي منبهر بالعربية - على الرغم من أهمية مؤلفاته - يتغافل المفكر اللغوي د.السامرائي عن الفارق بين مستويي العربية: الفصيح الرسمي والعامي المتداول،

فـالأول ليس فطرياً، بل إنه مكتسب بالتعلم المدرسـي والأكاديمـي، وامتلاكـه يحتاج إلـى دربـه كاللغـة الإنجليزيـة، وبمـا أن البنية النحويـة للفصيح معقدة قامت على الاستقـراء الناقص وعلـى أقيسه الفقهاء والمناطفة، فمـن العسير إحالتها إلى حالة فطريـة، أما اللغـات الأوروبية فهي حديثة العهـد كالإنجليزية كما سبـق وذكرنا. وقد ارتبطت تطوراتها فـي النماء والحذف من ذاتهـا والاصطفاء من غيرهـا عبر مشروع القـرن السابع عشر، يعني عصر الفتوحات الفيزيائيـة لفرنسيس بيكون وغاليلو وهوبز وديكارت وباسكال، وهو أيضا عصر الفتوح في الفلسفة العقلانية، وكذلك عصر الفتوح عند الألمانـي لايبنتـر ١٧١٦ الجامع بين القانـون والرياضة العقلية، وقـد أُثر عنه رسالة في الميتافيزيقيا ومحاولات جديدة فـي العقل، وهما حـدّا فلسفته في التخيّل والعقل، ولم تقـف الإنجليزية ولا الفرنسية عند حـدود القـرن المذكـور، فقد غدت الفرنسية لغـة الفلسفة فـي القرن الثامن عشر، وعادت الإنجليزية لغة نيوتن وداروين وهيوم، ويعد التقـدم في القرون الميلادية الأخرى تقدما تاريخيا فارقاً تجاوزت لغات أوروبـة المركزية فيه وتائـر النمو للعصور الوسطى العربية الإسلامية تجاوزاً ضوئياً.

أحجية الاشتقاق:

يُخيَّل إلى كثير مـن ورثة العلوم اللغوية العربيـة المعاصريـن أن الاشتقاق ظاهرة خاصـة بالعربية، ويخيـل لبعضهم أنها من عبقريات اللغة، كما الإعراب على أنه ظاهرة استثنائية خاصة بالعربيـة دون سواها من اللغات، يقول د.محمد خير حلواني: والحق أن اللغة العربيـة ذات إعراب وهذا أهم ما تتميز به والذي يدل على ذلك أشياء ثلاثة: «الوثائق المنقولـة، الأخبار المدونة، وكون الإعراب وسيلة تعبيرية لا يمكن أن تستغني عنها العربية»[١٢].

وأما عمر فـروخ فيرى فـي «القياس» آلية جعلت من اللغة حيّة مستجيبة لدواعي الحيـاة علـى الـدوام، «ووقفـت العبقرية العربيـة في الزمن الأبعـد أيضاً من الفعل المضعـف موقفـاً أعطانـا ثـلاث قواعد فـك المضاعفين-إدغـام المضاعفيـن - ترك الحريـة في الإدغام والفـك.... أما المقيسـات التي نشأت في العصر العباسي فيجـب ألا تقيدنـا إلا بمقدار مـا لها من نفع فـي الاستعمال وليس من الضروري أن نحاول فرضـ كل المقيسات المتخيلة على القواميس»[١٣].

ويمكـن لنا تفهـم انبهـار المعاصرين بإنجـازات القـرون الهجريـة الأولـى من منطقين: الأول يعود إلـى الحالة القدسية

التـي اكتسبتهـا العربية في زمـن الوحي الممتـد إلى أزمنة الدرس النحوي والفقهي والبلاغـي والتفسيري والسيـري، والثاني يعود إلى المرحلـة الحديثة ونعني الحقبة العثمانية، وفيها ارتـد العنصر العربي إلى «تاريخيتـه» فوجـد نفسه مؤسسـاً منتجاً والآخر مستهلكا، فتضخمت نظرته إلى ذاته وصار المنجز التاريخي عنده يتجاوز حدود الأزمنـة والفكر والأمكنة كمـا تصوّر زكي الأرسوزي، وفي المرحلة الكولونيالية تتقدم ثقافة الغرب وينبهر بها فريق من التنويريين العرب، ويدعون لهـا كفكر وكشكل سياسي وكنظـام تعليمي «فرح أنطون» شبلي شميل، سلامة موسى ثم يتخذ الانبهار شكله النقدي والمنهجي من خلال مشروع طه حسين.

والاشتقـاق لـم يبدأ في أيـة لغة حالة منهجيـة إنما يبـدأ حالة مـن الاستجابة الذاتية لمستلزمات مفردات العيش وعندما تدخـل الأمة فـي مشروع متكامـل الأبعاد سياسيا وعلميا وحضاريا تغدو آلية الاشتقاق منهجيـة يجتهـد اللغويون فـي قواعدها استقراءً وقياساً.

وعلى الرغم من تضخـم الإرث اللغوي فـي الاشتقاق وفـي غيـره، إلا أن الحياة العلميـة ولاسيمـا بعـد عصـر المثاقفة مـع اليونان وسعـت المستويـات الدلالية للمفـردات العربيـة، فالفلسفـة والطـب اليونانيـان كانا أوسع مـن أقيسة اللغويين والفقهاء واشتقاقاتهم، وفي العصر الحديث فاجأت العلوم الغربية لغـة العرب، وبدأت تتسلـل إلـى الناشئة عبـر الترجمة ونظم التعليـم وعبر الإعـلام والمنتج الصناعي، المفردات الوافدة والمستحدثة، ولم تستطع المفردات التـي وضعها العرب المعاصرون إزاحة المفـردات الصناعية بلغتها، فكلمة كاربيراتور لا تنافسها كلمة «المبردة» وكلمة سيلنـدر لا تنافسها كلمة «علبـة السرعة»، وحتى فـي مفردات كرة القـدم فقد ظلت المفـردات الإنجليزية هـي السائدة، وقد تـم الاشتقاق مـن الكلمـات الأجنبية على الصيـغ العربية، فكلمة تلفـون اشتق منها تلفن، تلفنة، متلفـن، وكذلك تلفزيون اشتق منها تلفزة، متلفز وكلمة «كورنر» الإنجليزية استخدمها الإعـلام الرياضي على طريقته فيقول: «كورن» أي نفذ الرمية الركنية.

ويشير المفكر اللغوي إبراهيم السامرائي إلى عدم كفاية الدرس اللغوي القديم في اكتشـاف الغامض مـن اللغـة، «ولقد دل الاستقـراء علـى أن في العربيـة أبنية لم يلتفـت إليها الصرفيون ولـم يقيدوها في مصنفاتهم، وهي تصلـح أن تؤدي أغراضا علميـة، وكل الميـزات أسـس لتوفير ثروة لغوية اصطلاحية كبيـرة» وعلى الرغم من أهميـة الرأي السابق إلا أنـه يقع في حيز

الانبهار بـأن العربية نبع حيـوي لا يحتاج إلى غيـره، رغـم أن السامرائـي لم يضع هذا الرأي فـي الموضع الذي رأيناه، ولكن الاعتقاد بإعـادة الاستقراء للمتون القديمة قـد يفضي إلى جديد، وقـد يكون لهذا ما يسوغه مـن أبنية العربية التـي أشار إليها أحمد بن فارس ١٠٠٤م في معجمه «مقاييس اللغة» في ثنائية المستعمل والمهمل، ولكن المشكلـة اليوم تتجـاوز العالـم الداخلي للعربيـة، تتجـاوزه إلى استقلاليـة العلوم الحديثـة وهيمنـة اللغـات المركزية عبر كشوفات علمائها فـي الفن والنقد والأدب والطب والثقافة والفلسفة والسياسة.

العصر الحديث لغات مركزيـة ولغات طرفية:

فـي القـرون الهجرية الأولـى أنتجت المرويـات العربيـة الإسلاميـة مجموعة مـن التصـورات عـن العالم الآخـر وتلك التصورات تقوم على مركزية «الأنا» وطرفية «الآخـر» ومن خلال التبايـن الحاصل بين الـذات الكاملـة والآخـر القاصـر، تظهر صـورة الشعوب غير المسلمة ناقصة هشة، تنتظر من يصلح وضعيتها ويدخلها «جنات الكمـال»، ولا يكاد ينجـو رحّالة أو فقيه أو مـؤرخ أو شاعر من حكـم يُبخّس الآخرين حقوقهـم اللغويـة والعقيديـة والثقافية، وأوضح ما يكون هذا في رحلة ابن فضلان إلى بـلاد الروس «الصقالبـة» التي أسفره إليهـا الخليفـة العباسـي المقتـدر، ومن المعـروف أنها كانت تسمى فـي الروايات الإسلاميـة «دار العهـد» وهـي الجغرافية الفاصلة بين دار السلام ودار الحرب، ولأن ابـن فضلان لم يتملك لغة أقوام الجغرافيا الشماليـة فقد تأخـر استيعابه لثقافة تلك الأقوام، فكانت آراؤه تعزز «الأنا» المضخمة وذات الآخـر المبخّسة، فيـروي على لسان المترجم قولـه: أنتم العرب ترغبون معرفة أسبـاب كل شيء إن قلوبكم عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسبـاب.. ومازلت أجتهد أن تستتـر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك[١٤].

وفـي مراحـل النهضـة الأوروبية من القـرن الثانـي عشر الميـلادي إلى القرن الثامـن عشر ترتج صـور العالم الإسلامي فـي المدونـات الاستشراقيـة الأوروبية، وتظهـر الثقافـة الأوروبية - بعـد القرن التاسـع عشر - على أنهـا الثقافة الكونية الشاملة، ومنذ العهـد الشكسبيري ١٥٦٤-١٦١٦م تنبثـق فكرة استعارة المكان الآخر، والمكان الآخر عالم منقوص المعرفة غني بالثـروات، وتلـك الثروات تنتظـر الرجل الأبيضـ لاستثمارهـا والانتقـال بها إلى العوالم الجديدة، والاختلاف بين مركزيتين تاريخيتين: المركزية الإسلامية في العصور

الوسطى والمركزية الغربية في العصور الحديثة تقوم كل منهما على الإقصاء والتركز حول الذات، إذ تنطلق كل مركزية من تصوراتها للعالم، لكن الفارق الجوهري بين الطرفين أن المركزية الإسلامية تعتقد بالناجز و«الكامل» و«النهائي» في حين تقر المركزية الغربية بالتطور وبتغيير الأشكال، وبأن الجديد منبثق من القائم، ولكنه متقدم عليه، لكنها تبقى على تصورها حول الشرق بأنه خيالي ومهلهل وغبي، ويرى د.عبد الله إبراهيم أنه أصبح القول بـ حيوية أوروبة وخمول العالم شيئاً شائعاً، فأكاديمية علوم باريس تقرر في القرن الثامن عشر أن أوروبة هي ما تغير، وما يتغير إنما يتغير بتقدم معارفنا وكل أجزاء العالم الأخرى هي في الجمود وينقل رأياً لرحالة أوروبي في القرن التاسع عشر قولا «آسيا هي الجمود أوروبة بالعكس تغير العالم والرأي لـ «دوفيز» الذي يعدد أهم العوامل التي أظهرت أوروبة بوصفها مكوناً متجانساً متعاليا مؤثراً، اللغة اللاتينية، الأدب القديم، البعثات الاستشراقية...»[١٥].

هذه الوضعية التاريخية والمعاصرة فرضت نفسها على الباحث العربي ليتجاوز «مركزية» اللغة العربية إلى حيوية اللغات الأوروبية الحديثة، في سعي منه للالتحاق بالنخب العالمية التي تبدع باللغات المركزية، وهذا السعي يقتضي الانفتاح من العربية بوصفها لغة العالم الخامل، ويكاد العربي المبدع أن يعلن عداءه للعربية من خلال وضعيتها المعيقة للتقدم، أو يكاد يشفق على عربيته من سكونيتها وحيوية اللغات الغربية.

الجماهير ومشكلة العلم الحديث:

في إثر الكشوف العلمية الكبرى في القرن التاسع عشر وبدايات العشرين تتزايد الإنجازات التطبيقية في الصناعة على مستوياتها كلها، ويتحول الكشف العلمي إلى قوتين قاهرتين هما: القوة العسكرية والقوة الاقتصادية، والأولى لحماية الثانية وحماية التنافس على الموارد وعلى الأسواق، ومع انشطار العالم على أساس اقتصادي سياسي منذ ١٩١٧ إلى ١٩٩١ إلى عالمين مختلفين في البنية السياسية والاقتصادية متفقين في البنية العلمية، تزداد عملية الاستقطاب بين أطراف العالم الآخر، وتغدو فكرة التبعية أولا وتغدو فكرة اللحاق ثانياً.

وأمام النزاع الأيديولوجي الذي شمل الجوانب كلها فتغدو اللغة العربية والثقافة المكتوبة فيها أمام محنة جديدة هي محنة «البقاء» ولم تعد – هنا – الترجمة غرضاً ترفياً، بل صارت لازمة وجودية، وقد حاولت القوى السياسية نقل المعارف

السياسية والتقنية إلى العربية لتعميمها على الأوساط الشعبية، لعل هذه الأوساط تندمج في المثاقفة مع الآخر المتقدم، فتبين أن هناك فروعا في المعرفة (فلسفة، اقتصاد، فيزياء، أحياء) لا تستجيب للوظيفة الشعبية، فثمة علوم هي محض نخبوية، وهنا ترتد فئات شعبية عريضة إلى الثقافة الدينية، كمحاولة من المهزوم للدفاع عن ذاته بالتمترس خلف مقولات أعيد استنساخها من جديد كـ «العربية أم اللغات» و«العربية تأبى أن تتنصّر» و«العربية لغة أهل الجنة» وهذه الاستنساخات فعلت فعل المسكن الدوائي، - أزالت- شكلياً - بعض الأعراض لكنَّ الداءات موجودة، ومما عزز السلبية المجتمعية العربية إشاعة مقولات أكثر خطراً من المقولات السابقة كمقولة «الغرب خصه الله أن يتقدم بالعلم التجريبي أما العرب فقد خصهم -سبحانه- أن يتقدموا بالإسلام» كانت هذه مقولة للمفكر الإسلامي د. محمد سعيد البوطي، وأما الفقيه السعودي عائض القرني فقد أوغل بعيدا في الفصل بين العقل والدين، إذ سوغ الفوارق المذهلة بين العرب والمسلمين من جهة وبين العالم الغربي من الجهة المقابلة النقيض بقوله: «خص الله الغرب بالعلوم الدنيوية لينعم بها المسلمون ويتفرغوا للعبادة، فيفوزوا بالجنة الخالدة» وفي كتابه «لاتحزن» مؤشر لافت للواقعة الاجتماعية وهي تتداخل مع الحالة الثقافية لظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً، حيث بيع منه ثلاثة ملايين نسخة عام ٢٠٠٦، ورواج الكتاب كان دافعه الاستشفاء وليس التثقيف، وعزوف الشباب عن الجاد إلى الممتع والى «السواليفي» بدلاً من العلوم الجادة»[١٦] ومما تجدر الإشارة إليه شيوع كثير من الكتب التي تشجع على الانبهار بالذات إلى درجة الانقطاع عن الآخر، ومن طلائع تلك الكتب «ما يعد به الإسلام» لروجيه غارودي، وغارودي معروف عنه أنه من رجالات العلم والفلسفة والسياسة في أوروبة، ولكنه في هذا الكتاب قدم للعقلية العربية على التخصيص وللعقلية الإسلامية على التعميم مسوغات جديدة للانقطاع عن الأطروحات العالمية المتجددة في العلم والسياسة، ولم يكتب غارودي كتابه المذكور اندفاعا منه أو قناعة بمعطيات الإسلام، إنما كتبه تحت شرطين: الأول هو الإغراء المادي النفطي.. وهنا تقدم المؤسسات المالية الداعمة صورة عن طبيعتها الزائفة في إرضاء «العامة» بآراء «الخاصة» من مفكري الغرب، والثاني هو النظرة الاستشراقية المستقبلية لمفكري الغرب التي تشجع روح الإعجاب عند العرب بأنفسهم وتشجع الوسط المتعلم على التمسك بـ«الثوابت»

كما تساعد الدوائر الاستشراقية المؤسسات العربيــة علــى أمرين همــا: الاستزادة من البحث فــي الأمور الدينيــة واللغوية تحت شرط «الاكتفــاء» طبعاً، والثاني الانصراف الكلــي عن البحوث التجريبيــة وخاصة إن فكر بها أن تُجرى بالعربية.

لغـة العلـم؟ لغـة الأدب؟ لغـة أم لغتان؟!:

منذ أن وسعــت الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر رؤيــة الإنسان للعالم، والعالــم يعدِّل في أرائه ويبــدل في أشكاله ويطور آلياتــه، وبالاستتباع تنمو لغاته تحت شــروط اكتشافاته، فتغــدو كل لغة غير ما كانت عليه في إثر الثورة التقنية التي تتخذ – على مراحل – أشكالها المختلفة.

أما العربية فما تزال الوحيدة من اللغات المعاصرة الحية تخضع للسكون المذهل، وما تزال الذهنية العربية وعلى الأخص «اللغوية» ترى في طبيعة العربيــة طبيعة مثالية غير خاضعة لقوانين التقــدم التاريخي، فتعتمد تفسيــراً مثالياً يقطع الظاهــرة اللغوية عن غيرها من ظواهر التاريخ والمجتمع فتفرض تلــك الذهنية قانــون ظاهــرة مثالية على ظاهرة واقعية، فيأتي التفسير خارجيا غير مطابق أو مقــارب، وينتج عن التفسير ذاك فكــرة مؤداها: إن العربيــة مسيَرة بقوانين محض ذاتية.

بينما يخلص البحث العلمي إلى علاقة موضوعية بين العقل البشري وبين عوالمه، ومنهــا اللغة نفسها مــن دون أن يقف عند حد وقوفاً نهائيــاً، فيرى الجانبين: المادي والمثالــي في علاقــة الإنسان مــع العالم وتلك العلاقة تقــوم على الترابط والانعتاق والتأثــر والتأثيــر، وهنا تعلــن كل ظاهرة عــن خصوصيتها في الانتمــاء إلى التاريخ والمجتمــع وفــي الانفصال عنهمــا، وفي الوقت الذي تنتمي فيه اللغة وتنفصل تكون أداة من أدوات التغيير، تفعل ذلك على أنها ذات طبيعــة اجتماعيــة انبثقــت من فكرة العمل الواعي الهادف.

ويــرى بعضــ الباحثيــن الأكاديميين: أن اللغــة لم يتضح بعدهــا الفني إلا بمرور ملايين مــن السنين مــن التجربة الروحية والاجتماعية والمعاناة الذهنية والجمالية، ومــن النضج النفسي والعضــوي للإنسان، وكان تطــور اللغــة يمثل واحــدة من أمجد الحقائــق في تاريــخ البشريــة، وفي هذا يلاحظ أمران:

الأول هــو أن أداة الأدب «اللغة» تختزن سياقا تاريخيــا واجتماعيا أكثر من أي أداة أخرى، ... والأمــر الثاني هو ارتقاء أدوات العمــل وعاداتــه وعلاقاته، فقــد أدى إلى انتقال اللغة من مجــرد تسمية الأشياء إلى تكوين المفاهيم المجردة والرموز.»[١٧].

ويبدو -جلياً- من تتبع التقدم التاريخي للإنسان أن تشكل المفاهيم وصناعة الرموز مؤشران إيجابيان على قدرات العقل الإنساني في امتلاك أداتين هما: التجريد والتعميم، وبهما فصل بين الحاجة الضرورية والأخرى الفنية من جهة، وبين الفكرة المطلقة في سعي من الإنسان «الفاصل» إلى التوصيل بين الفكر والواقع من جهة أخرى... في حين بقيت الفكرة المطلقة قائمة في رؤية «العربي» للعالم ومنها لغته، وظل الموقف المثالي يحكم العقلية العربية على المستويات كلها، والأمر عائد -كما نرى- إلى الارتباط التاريخي بين التفكير اللغوي بجانبيه النحوي والبلاغي وبين المعطيات الإسلامية، في حين تنحو اللغات البشرية إلى تطور البنية الداخلية بعيداً عما يخالطها من علوم تستعلي عليها، وهنا تؤسس اللغة خصوصيتها ضمن عمومية الأفكار الإنسانية.

أما لغة الفن، لغة الأدب، فهي شكل لنزوع الإنسان إلى التخلص من «الكثافة» المادية لتنشئ الكثافة الخاصة بها، وهي الكثافة السيكولوجية وبالإلحاق يحقق «الفن- الأدب، صياغة للعالم على هدي من حريته في إدراك العالم، ولكن لا يحقق ذلك بلغة خاصة إنما بلغة بلغت عتبةً عُليا من نضج الأدوات، فلم يكن ابن القرن الميلادي السابع بقادر على أن يكتب رسالة الغفران التي كتبها المعري في القرن الحادي عشر، فالقرون الهجرية الأولى رسخت ثقافة التعدد، إذ جعلت من العربية لغة لعصر ثقافي غني متعدد، وما كان الشاعر الجاهلي بقادر هو الآخر على النظم كما المتنبي والشريف الرضي، فالأدب وإن ظهر فردياً، إلا أنه أدب لأمة ذات ذوق جمعي، وعلى الرغم من خصوصية الأفراد في امتلاك اللغة كأداة وفي الرؤية للعالم من خلال وعيه وثقافته، إلا أن الفن عموما والأدب خصوصاً يعكس علاقة نوعية بين الإنسان وعالميه: اللغوي والاجتماعي».

وفي عصر العلم - من القرن السابع عشر إلى اليوم- تفاضلت اللغات تفاضلاً ينمُ عن ارتباط كل منها بمشروع التقدم التاريخي المختزل بمصطلح «الحداثة» مخلفة وراءها مصطلحي: النهضة والثورة، وحتى لا تقف عند «المطلق» ابتدعت مصطلحها الدال على نموها المطرد وقلقها المستمر في البحث عن الأشكال المفصحة عن مبتدعاته.

وعلى الرغم من هيمنة النزعة العلموية على العقل الغربي منذ اكتشافاته الكبرى فان لغة الآداب القومية حافظت على خصوصية الأدب، وبدت الأعمال الأدبية الكبرى ترى العالم بعقلية فرضها التجريب،

وفي المقابل تزايدت نزعة «الأنسنة» وخاصة في الأعمال الروائية، ويتجلى هذا في روايات وليم فوكنر عن ولايات الجنوب والمشكلة الزراعية في أميركا.

ومما شجعت عليه النزعة العلموية هو «الحوار» بين العلماء بعيداً عن الحدود السياسية والجغرافية والإيديولوجية الذي أشاع بدوره روح العلم وأسس لفكرة «الاحتياج» إلى الآخر، مهما كانت الذات مبدعة، مقصياً فكرة «الاكتفاء» فالانتصارات المذهلة في العلوم الوضعية عززت فكرة التواصل بين الأمم واللغات والعلوم، وصارت البشرية بفعل ما تحقق على دين علمائها، وليس على دين ملوكها.

الهوامش

١ - سلامة موسى- البلاغة العصرية واللغة العربية.

٢ - د. عبد الكريم خليفة- اللغة العربية والتعريب- دار الفرقان- ١٩٩٧- ص١٢٢-١٢٣-إربد- الأردن.

٣ - عصر العقل - ترجمة ناظم الطحان- دمشق- وزارة الثقافة - ١٩٧٥، ص٧.

٤ - جورج طرابيشي- شرق وغرب- رجولة وأنوثة- دار الطليعة - ١٩٧٧- ص١١—١٢.

٥ - هاشم صالح- مخاضات الحداثة التنويرية- دار الطليعة- ٢٠٠٨- ص٢٧٤.

٦ - سمير أمين- نحو نظرية للثقافة - معهد الإنماء العربي- ط١ ص١٣.

٧ - علم اللغة- مقدمة للقارئ العربي- بيروت دار النهضة العربية- ص١٣٠.

٨ - عبقرية اللغة العربية- دار الكتاب العربي- ١٩٨١- ص٥٤.

٩ - شرق وغرب- رجولة وأنوثة- مصدر سابق- ص٨- ١٠.

١٠ - فقه اللغة وسر العربية- مطبعة السعادة- مصر- ١٩٢٣م- ص١٨٠.

١١ - الشاهد من كتاب العربية لغة للعلم لـ محمد أبوغيّور.

١٢ - أصول النحو العربي- جامعة تشرين- ١٩٧٩- ص١٣٢.

١٣ - عبقرية اللغة العربية - مصدر سابق- ص١١٠-١١٧.

١٤ - رسالة ابن فضلان- ص١٠٣.

١٥ - المركزية الغربية - المركز الثقافي العربي- الرباط- ١٩٩٧- ص١٥-١٧.

١٦ - راجع كتاب اليد واللسان الصادر عن «العربية» ع ١٧٢ لعبد الله الغذامي تحت عنوان لا تحزن ثقافة الاستشفاء ٢٠١٢.

١٧ - عبد المنعم تليمه - مقدمة في نظرية الأدب- ص١١-١٦- دار العودة- ١٩٧٩.

«أياغو: الشخصية الشيطانية المركبة!»

❁
إبراهيم محمود الصغير

إنَّ عبقرية شكسبير في مسرحياته كلها، التراجيدية والكوميدية والتاريخية، لا ترتكز فقط على مواضيعها الرائعة، وحبكتها الممتازة، وشاعريتها الساحرة، وأسلوبها الفاتن، وإنما ترتكز أيضاً على اختياره الرائع والمدروس للشخصيات فيها، إن كانت رئيسية أو ثانوية، تراجيدية أو كوميدية، حتى باتت أكثر شخصياته معروفة في كل أنحاء العالم كهاملت وعطيل وما كبث والملك لير وشايلوك وفالستاف وغيرهم.

❁ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنان فتحي صالح.

ومــع أن أكثر شخصياته هم من الملوك والأمراء والقادة والنبلاء إلا أنه لا يظهرهم كما هم فــي مراكزهــم الاجتماعية، بقدر مايظهرهــم كغيرهم من الناســ العاديين، يتمتعون بــكل المشاعــر الإنسانية كالحب والكره، والغيرة والحسد، والحقد والطموح، والجشــع والغضــب والتهــور وغيرها من المشاعــر الإنسانيــة الكامنة فــي أعماق النفوســ، والتي يشترك بها كل الناس، على اختــلاف أجناسهــم وطبائعهــم وطبقاتهم وعاداتهــم ولغاتهم وغيــر ذلك في كل بقاع العالــم. وهذا ما جعــل مسرحياته مقبولة لــكل الناس، وشخصياتــه قريبة جداً منهم وتماثلهم في السلبيات والإيجابيات، خاصة وأن شكسبير يربــط المأساة بنقطة ضعف فــي الإنسان هي التــي تؤدي إلــى نهايته المأساويــة. فعطيــل قضت عليــه غيرته العمياء، وهاملت قضى عليه تردده، وماكبث قضــى عليه طموحه الأعمــى، والملك لير قضى عليه تهــوره وغضبه السريع، وهكذا مع بقية شخصياته المأساوية الأخرى.

والجميل في شخصياته المأساوية أنها لاقت إعجاباً شديداً من جميع المشاهدين والقراء، بكل ما فيها من نقاط ضعف، لأنه مــا من إنسان إلا ويعانــي من نقطة ضعف موجودة فيه. لــذا رأى الناس في كل مكان أنفسهــم مجسدين في هــذه الشخصيات، ويعانــون مثلها تماماً. والأجمل من ذلك في هــذه الشخصيات المأساويــة، أن شكسبير يجعــل المشاهديــن أو القــراء، يتعاطفون معها بشدة، رغم جرائمها وأعمالها البشعة أو الوحشيــة أحيانــاً، ذلك بأنــه يوجد لها المبــررات المقنعة لأعمالهــا، لأنه ما من إنســان يختار طواعية نهايته المأساوية، إلا أن يكــون مجبراً على ذلك، إما لعدم قدرته السيطرة علــى نقطة ضعفه الموجودة فيه، لأنه إنسان ضعيف عاجز يحتاج لكل الناس حوله، أو لوجــود مغريات ومشجعات حوله تؤدي به إلى الهــلاك، أو لظروف خارجية قاهــرة تؤدي كذلــك إلى دمــاره وهلاكه. والناســ، وإن كانــوا في الواقــع يتعاطفون مع شخصيات شكسبير المأساوية، إلا أنهم يرضون في النهاية بإنزال العقوبة بهم، لأنه لابد للإنســان، في النهايــة، أن يدفع ثمناً لما تقترفه يــداه من الجرائم والآثام، مهما كانت المبررات والمسوغات، وهذا يعطيهم الشعور بالارتياح وإرضاء الضمير.

إنَّ شخصيــات شكسبيــر المأساويــة والتاريخيــة فــي معظمهــا شخصيــات مركبــة، وليست أحاديــة الجانب أو نمطية الشكل كما فــي الشخصيــات الكوميدية. فالشخصية أحادية الجانب هي التي تظهر لنا بالشــكل الخارجي فقط، دون أن نعرف دواخلهــا ونوازعهــا وأفكارهــا الحقيقية.

بينما الشخصية المركبة هي التي تظهر لنا بشكلها الخارجي والداخلي معاً. بمعنى أننا نستطيع أن نراها مكشوفة على حقيقتها أمام أعيننا، ونعرف كل خفاياها، وما تفكر فيه، وما يفرحها وما يؤلمها، وما تهدف إليه، إلى آخر ما هنالك من نوازع وأحاسيس بشرية. إلا أن شكسبير يمتاز عن غيره من الكتاب في أنه يعرض علينا بعض الشخصيات المركبة، غير أنه يبقي بعض جوانبها مبهمة وعصية على الأفهام، بحيث تكثر الدراسات والتفسيرات والتكهنات والآراء حولها، وكل واحد من النقاد والدارسين يعتقد أنه فهمها، ولكن من وجهة نظره الخاصة. وإلى الآن ما زالت الدراسات المختلفة حول بعض شخصياته مستمرة، منها الأدبي والاجتماعي والنفسي والتاريخي اللغوي وغيرها. ومن أشهر شخصياته المثيرة للجدل والنقاش حتى الآن هاملت والملك لير وعطيل وما كبث وأياغو وغيرهم.

وأياغو هذا الذي ذكرناه مع من ذكرنا، والذي نحن بصدد دراسته وتحليله، هو أحد شخصيات مسرحية عطيل، وهو شخصية ثانوية، كدور تمثيلي، ولكنه شخصية مؤثرة بكل شخصيات المسرحية الأخرى، بحيث يغدو هو الشخصية الرئيسية والمحورية من حيث تسلسل الأحداث والنتائج النهائية في المسرحية. فإذا حذفنا أياغو من المسرحية، حذفنا المسرحية كلها، لأن المسرحية تقوم على أفعال أياغو، والتي هي الهيكل الذي تتفرع منه أفعال الشخصيات الأخرى كنتيجة لها. ولكي نتعرف على أياغو، وعلى أفعاله، سوف نستعرض دوره في المسرحية باختصار.

أياغو في مسرحية عطيل:

أياغو في المسرحية هو حامل العلم للقائد العسكري عطيل. ومنذ بداية المسرحية نرى أياغو يكره عطيل لأسباب كثيرة، سنذكرها بالتفصيل فيما بعد ونتيجة لكرهه يحاول أن ينتقم من عطيل بوساطة إدخال الشك في قلبه من ناحية زوجته الجميلة ديدمونة، والتي تزوجها من فترة قريبة، وذلك بإيهامه أنها على علاقة آثمة مع ملازمه كاسيو، والذي هو شاب وجميل. وفي الحقيقة لم تكن هناك أي علاقة آثمة بين كاسيو وديدمونة، إلا علاقة مودة واحترام، ولكن أياغو يستغل هذا في تدبير مكائده ليزرع الشك والريبة أكثر فأكثر في قلب عطيل. وينجح أياغو في جعل كاسيو يشرب الخمر ليسكر ثم يتورط في مشاجرة مع بعض الجنود، فيفصله عطيل من منصبه، تشفع ديدمونة لكاسيو لدى زوجها بحرارة وإلحاح وتطلب منه أن يعفو

عنه ويعيده إلى منصبه يستغل أياغو هذا الواقع كوسيلة لإقناع عطيل بخيانة زوجته، كما ينجح في سرقة منديل ديدمونة، وكان المنديل أول هدية لها من زوجها، ثم يتسلل إلى غرفة كاسيو ويضع المنديل على سريره. يلفت أياغو نظر عطيل إلى المنديل . ويسأل عطيل ديدمونة عنه، ولكنها لا تعرف كيف فقدته، ولا أين وضعته ويرسخ في اعتقاد عطيل أن زوجته تخونه مع كاسيو، فيطلب من أياغو قتل كاسيو، إلا أن كاسيو يجرح فقط وينجو من الموت. تحزن ديدمونة من أجل كاسيو، ويعتقد عطيل أن حزنها تأكيد لعلاقتها به، فيقوم بخنقها. تفضح إميليا، التي كانت وصيفة مخلصة ومحبة لديدمونة، تفضح زوجها أياغو بأنه هو الذي طلب منها المنديل وأنها أعطته إياه دون أن تعرف لماذا، وأنه حتماً من قام بالمكيدة ودبرها. يندم عطيل على قتله زوجته ديدمونة ويقتل نفسه بخنجرة ليسقط ميتاً إلى جوار زوجته ويلقى القبض أخيراً على أياغو بعد أن تنكشف كل مكائده. لقد أدت دسائسه ومكائده إلى سقوط ضحايا عدة بشكل مأسوي وظالم كعطيل وديدمونة وإميليا ورودريجو وجرح كاسيو، والتسبب بالحزن والألم لبقية شخصيات المسرحية.

كراهية أياغو لعطيل:

منذ بداية المسرحية، ومع دخول أياغو ورودريغو إلى المسرح، نرى أياغو يظهر كرهه الشديد لعطيل صراحة، حيث يقول لرودريغو: «أكره المغربي، أليس هذا الدافع كاف ؟» ثم يضيف قائلاً: «إنما أتبعه لأنتقم منه. فإذا أتبعه فإنما إياي أتبع ويشهد الله أنني لا أوقره ولا أطيعه، غير أنني أداجيه بالتوقير والطاعة توسلاً بهما إلى أغراضي»

وفي مكان آخر يقول: «أنا أمقت المغربي». وفي الحقيقة أن المسرحية كلها تقوم على كره أياغو لعطيل ومحاولة الانتقام منه. وهو يظهر لنا بعض أسباب كرهه لعطيل، بينما يخفي بعضها الآخر، وما يخفيه هو الذي يثير التأويل والتفسير والجدل بين النقاد، وسوف نذكر ذلك في حينه. ومن الأسباب التي يفصح عنها ويذكرها صراحة هو اختيار عطيل لكاسيو كملازم له بدلاً منه، مع أنه أكفأ من كاسيو وأجدر منه بهذا المنصب حيث يقول: «وبحق الرجولة إنني لأعرف قيمة نفسي وأعرف أنني كفء لتلك المنزلة». وظل هذا الأمر يثيره ويثير حقده إلى آخر المسرحية.

أما السبب الثاني لكرهه لعطيل فهو شكه بأن عطيل يتودد إلى زوجته إميليا، وأن هناك علاقة بينهما، وفي ذلك يقول:

«يظن الجمهور أنه أعلي منصبي من تحت لحافي على أنني لا أعلم إن كان هذا الظن صحيحاً. ولكن الوهم في مثل هذا يكفي عندي للحلول محل الحقيقة». وفي مكان آخر يقول: «أظن أن المغربي الفاسق قد اندس في فراشي، وهو تخمين يأكل الأمعاء أكل السم المعدني، ولا شيء يرفه عن نفسي إلا أن أجعله عديلي، امرأة بامرأة. فإن لم أستطع أن أثير فيه من نار الغيرة مالا يقوى عليه العقل».

ومن خلال أحاديث وتصرفات أياغو، لا يخفى علينا احتقاره العنصري للرجل الملون، فهو غالباً ما يشير إلى عطيل بكلمة (المغربي) تمييزاً له عن المواطنين الإيطاليين. وهو يقول أيضاً لبرابنسيو والد ديدمونة باشمئزاز واحتقار: «فحل عجوز أسود يغشى نعجتك البيضاء». ويقول في مكان آخر، وهو يشرب مع كاسيو: «هناك بعض الكرام القبرصيين يسرون بشرب نخب في صحة عطيل الأسود». ويشير في نهاية المسرحية إلى موطن عطيل في موريتانيا في أفريقيا وهي كناية عن موطن يسكنه السود.

وهناك سبب يظهر أيضاً، من خلال تسلسل الأحداث، هو أن أياغو يغار من عطيل، وأن غيرة أياغو المريرة ناجمة عن تفوق عطيل، حيث يقول في البداية: «لو كنت أنا المغربي، سوف لا أكون أياغو». أي لو كنت في مركز واحترام عطيل سوف لا أحتاج لأن أتظاهر له بالولاء ثم أكرهه.

إنه يغار من تفوق عطيل الاجتماعي والعسكري، ومن حب واحترام الجميع له، وبشكل خاص من فوزه بديدمونة زوجة له. وبما أن أياغو كما نلاحظ، طموح جداً، فقد عزم على تحطيم عطيل فهو، برأيه، أنه إذا كان عطيل المغربي الأسود الغبي والغريب عن بلده إيطاليًّا قد أصبح قائداً للجيش في البندقية، فلِمَ لا يصبح هو قائداً بدلاً منه مع أنه إيطالي وذكي جداً وصاحب تجارب وخبرة؟

أما السبب الهام جداً في كره أياغو لعطيل، والذي يؤكد عليه كثير من النقاد هو حب أياغو لديدمونة. بل إنَّ بعض النقاد يعتبر أن المسرحية كلها تتوقف على هيام أياغو بديدمونة، إلا أن بعضهم ينكر ذلك ويقول: «إذا كان أياغو يحب ديدمونة حقاً، فلماذا يوغر صدر عطيل عليها بالغيرة الشديدة وهذا ربما يسبب لها الأذى وربما الموت؟» ويجيب الفريق الأول: «لا بد أنها رفضته، أو تكبرت عليه فانقلب عليها، وأراد أن ينتقم منها ومن عطيل الذي فضلته عليه».

وفي هذا يقول أياغو: «أنا أحبها الآن، لا لشهوة تقضى، وإن كان الإحساس الذي

يدفعني إليها لا يقل عن ذلك إجراماً، بل لأنها تهيِّئ لي سبيل انتقامي». وأياغو يعتبر أن عطيل سرق ديدمونة منه، وأنه خدعها بأساليبه الماكرة حتى قبلت به. ويجيب الطرف الآخر: «هذا غير صحيح، فلو أن أياغو أقر برغبته الجسدية في ديدمونة فيكون ذلك مناقضاً لفلسفته بأن العقل يستطيع السيطرة على العاطفة حية» يقول: «وما الحب إلا شهوة الدم وإجازة من الإرادة.... قبل أن أغرق نفسي في غرام دجاجة حبشية سأحول نفسي من رجل إلى قرد». فأياغو هنا، يصر بأن حبه لديدمونة هو نتيجة، وليس سبب مقته لعطيل.

وهناك رأي شخصي مستنبط من سياق الأحداث ومن دراسة وتحليل لشخصية أياغو، وهو للناقد المعروف (آ. سي. برادلي)، والذي سنعرض أهم أفكاره حول شخصية أياغو فيما بعد. يقول برادلي: «إن عقيدته، أي أياغو هي أن الأنانية المطلقة هي الموقف العقلاني الصحيح». لذلك يشعر بالتفوق على الجميع، وكل ما يجرح حسه بالتفوق يزعجه حالاً، لهذا يعمل على إرضاء حس التفوق لديه بالتسلط على الآخرين، وخاصة عطيل وكاسيو وديدمونة، وهذا الحس هو أشهر القوى التي تدفع به وتجعله يكره ما حوله ويحاول تدميره.

دهاء أياغو وقدرته على حبكة الشر: لم يصور الشر في أي مكان آخر بالبراعة التي صورها شكسبير بها في شخصية أياغو، حتى إنَّ أحد النقاد قال: «ولكن والد مفستوليس (اسم الشيطان عند غوته) والكثيرين غيره من أشرار الأدب هو أياغو بالذات». ويقول عنه أيضاً (آ. سي. برادلي): «ولكنه شر يشكل الروح بأكملها في شخصية واحدة». وتقول عنه إميليا، زوجته في المسرحية بشكل عفوي وساذج، وذلك قبل أن تعرف دوره في المكيدة الشريرة، وكان وصفها من أفضل ما وصف به أياغو: «لقد خُدع المغربي خدعه أحد السفلة الأدنياء المجرمين الأبالسة، أحد المكرة الممتهنين». كما يقول بعضهم في معرض التعريف عنه: «إن أياغو كان يكره الفضيلة لأنها فضيلة ويحب الرذيلة لذاتها، وفعله لا يحدوه إليه دافع بسيط كالانتقام أو الغيرة أو الطموح، بل هو ينبع عن (شرانية لا دفع لها) أو تلذذ موضوعي بآلام الآخرين».

لقد بدا أياغو في المسرحية رجلاً حقوداً جبل على حب الانتقام لأتفه الأسباب، كما بدا مريض الضمير لا يبالي بإشقاء الغير، بل كان يتلذذ بهذا الإشقاء. إنَّه الشر الذي يسعى لتحطيم الخير. وهو بارد ماكر في كرهه، يدبر المكائد في هدوء وعن ترصد وسبق إصرار، بل يعترف ويقول: «هذه هي خطتي وهي الكتمان، فإذا جاء زمان باح

فيه ظاهري للرجل ببعض ما في باطني. أنا غير ما يرى مني». والعجيب أنه يبقى هادئاً لا يظهر عليه الاضطراب حتى في أشد المواقف خطورة، وخاصة عند النهاية حيث يقول: «هذه الليلة ليلتي. فإما العمار وإما الدمار»، إنه يعرف العاقبة إذا انكشفت خطته، ولكنه يظل هادئاً لا يظهر عليه الخوف والارتباك حتى لكأنه جامد ليست له أحاسيس.

كان دهاؤه هائلاً، ولكن حظه كان هائلاً أيضاً، فقد خدمته الظروف المحيطة به بشكل لا يصدق. فظاهره يبدو للجميع مستقيماً وأميناً ومخلصاً، لكن باطنه مليء بالحقد والأنانية والشر. إنه يستلذ وينتشي بإثارة الشر والشجار والتحريض على الكراهية، وخاصة عندما يستحث رودريجو أن يصرخ ويثير الجلبة في المدينة قائلاً: «ناد أباها، أيقظه من نومه ناوئ ذلك المغربي، دس السم في هناءته. أجهر باسمه في الأسواق». أو حين يثير الشجار بين كاسيو وبعض الجنود ويأمر رودريجو بأن ينطلق قائلاً: «طر. طر. وصح فتنة... فتنة..».

لقد كان من الدهاء والذكاء بحيث استطاع أن يدرس نفسيات من حوله،وأن يتغلغل إلى ذواتهم، ويعرف أفكارهم وتصرفاتهم وعاداتهم، وأن يتلاعب بمشاعرهم وأحاسيسهم حتى أصبحت كل الشخصيات الأخرى حوله أدوات في لعبته الانتقامية، إلا أنه ركز جل اهتمامه على عطيل، لأنه يعتبره عدوه الأول وصب كل كراهيته وانتقامه عليه بشكل وحشي وقاسٍ. فكل شيء نبيل في عطيل كان يتحدى كل شيء خبيث فيه، مع أنه يعترف في قرارة نفسه ويقر بأن عطيل إنسان صالح وجيد: «إنه ذو خلق حر وصريح، ويعتقد أن كل الناس شرفاء لأنه هو كذلك». و أياغو لذلك، يستغل طيبة عطيل وثقته به في تدبير المكائد له، حيث يقول: «الرجل يحترمني، واحترامه إياي يزيدني رجاء بإفلاح مكايدي».

لقد كان لفهم أياغو لطبع عطيل أهمية كبرى. لأننا باستطاعتنا فهم انسجام الرواية تماماً، عندما ندرك أن شخصية عطيل هي النبع والدافع لتصرف أياغو. لقد أخذه من أضعف نقطة فيه وهي الغيرة، فبدأ يثيرها ويزرع الشكوك حول زوجته، بالتلميح والمواراة والتزييف للحقائق. ومن أشد أساليب أياغو مكراً ودهاء تصويره لعطيل أن نساء البندقية لا يعتبرن الخيانة الزوجية من كبائر الأمور، على عكس نظرته هو إليها، وأن من المستحسن لعطيل أن يرضى بالوضع كأي زوج إيطالي. بل إنه يصر على تزييف الحقيقة حول منديل زوجته ديدمونة قائلاً: «إنني رأيت منديلاً في هذا

الشكل بيد كاسيو وكان يمسح به لحيته هذا الصباح».

لقد كان أياغو يستلذ وينتشي وهو يرى عطيل ينهار ويتحطم تحت أثقال غيرته الشديدة، فيقول في تشف وانتصار: «لا الخشخاش ولا غيره من المرقدات القوية يعيد إليك بعد الآن المنام الهادئ الذي كنت تنامه بالأمس». بل إنه يشعر بقمة اللذة والنشوة والنصر بعد أن يصفع عطيل ديدمونة، فيقول: «لا بذمتي لم يكن عملاً جميلاً، ولعله لا يتبعه بأقبح». إنه يعرف أنه قد أصاب الهدف، وأن الطعم قد التقطه عطيل، وأن الأعظم آت في الطريق. ومن حبه لذاته، واستمتاعه بشعور التفوق والسيطرة على كل من حوله يقول في شكل صلاة وابتهال لآلهة الشر والدمار، وطالباً من ملائكة الجحيم أن تتعلم منه ومن خطته الجهنمية التي لن توقع عطيل وحده فقط بل وديدمونة وكاسيو: «إيه يا آلهة سقر، متى أراد الزبانية الإيعاز بأشنع الخطايا صوروها في المبدأ بأبدع الصور السماوية كما أفعل الآن. لأنه بينما ذلك الأبله، سليم الطوية كاسيو يسعى لدى ديدمونة لاستعادة مكانته، وبينما هي تشفع له عند المغربي بقوة، أدس أنا في أذن عطيل سم الريب في حقها، بما أدخله على قلبه من أن رقتها لكاسيو ليست عن مبرة ولكن عن شغف أثيم. بقدر ما تزداد إلحاحاً في التماس الرأفة له يزداد تأييدها لسوء الظن عند المغربي. وهكذا آخذها في فخ فضيلتها واستخرج من مروءتها الفخ الذي أوقعهم فيه جميعاً».

أياغو: دراسة وتحليل:

من أهم النقاد الذين تناولوا شخصية أياغو بالدراسة والتحليل هو الناقد (آ. س برادلي)، والذي نستعرض هنا أهم أفكاره وتحليلاته، حيث يقول: إن أياغو يمتلك ذكاء متميزاً مشفوعاً بقوة إرادة متميزة. فنفاذ بصيرة أياغو، ضمن حدود معينة، إلى دواخل الطبيعة البشرية، وبراعته وتكييف ذاته في استغلالها، وسرعة بديهته، ومهارته في معالجة المصاعب الفجائية، والفرص الطارئة، ليس لها في الأغلب ما يوازيها في أي شخصية درامية أخرى. وقوة إرادته متميزة كذلك، فهو لا يفلح فقط في عدم الكشف عن طبيعته الحقيقية، بل إنه يتحكم في كل حركة أو بادرة قد تنال من إرادته، وفي أخطر اللحظات مكيدية عندما تكون أدنى زلة أو هفوة مجلبة للموت. لا يبدو عليه أثر لاضطراب في العصب.

وعندما يمسك به عطيل من خناقه يغير دوره بخفته الآنية المعتادة. وعندما يهاجم ويجرح في النهاية يبقى رابط الجأش تماماً. ولسوف نعترف بأن سيادة الإرادة

هذه وهي لديه عقيدة وممارسة أمر عظيم يقارب السمو، ولا ريب أن أياغو عظيم فعلاً من حيث الـذكاء (ضمن حدود معينة) ومن حيث الإرادة.

إن عقيدته هي أن الأنانية المطلقة هي الموقـف العقلاني الصحيـح الوحيد. وأن الضمير أو الشرف، أو أي اعتبار للآخرين، إن هو إلا سخف محضـ. إنه يعتبر معظم الناس بلهاء بأمانتهم، ويجاهر بأنه لم يلق قط إنساناً يعـرف كيف يحب نفسه. والإعجاب الوحيد الذي يعبر عنـه في المسرحية هو إعجابه بالخدم الذين «يرتدون من الواجب أشكاله ووجوهه، ويبقون قلوبهم في خدمة أنفسهم – هؤلاء فيهم شيء من روح».

غيـر أن الواضـح هـو أن أياغو شديد الحساسية لأي شيء يمس كبرياءه أو اعتداده بذاتـه. ومن الظلم أن ندعوه مغروراً، ولكنه شديد الاحتقـار للآخرين. وهو يعي تفوقه عليهـم من نواحي معينة. أما الصفات التي يفوقونه بها فإنها يحتقرها أو لا يؤمن بها. كل مـا يجرح حسه بالتفـوق يزعجه حالاً. وهذا هو السبب فـي أن تعيين كاسيو يثير حنقـه. وهذا هو السبب فـي غيرته على أميليا، كي لا يتعرضـ للشفقة أو السخرية كزوج شقـي. ولهـذا السبب أيضـاً نجده حاقـداً على الفضيلة، ومع أنـه يشعر بأنه الأكفـأ كثيراً، دون الآخريـن، إلا أن الذين مـن حوله علـى حماقتهم فـي صراحتهم وكرمهم يفلحون في الحيـاة أكثر من رجل (فيه شيء مـن روح). وهذا يجرح كبرياءه، ولنذكر بشكل خاصـ حسه العميق بالتفوق وازدرائه الآخرين، وحساسيته لكل ما يمس هذه المشاعر، وحقده على الطيبة في الناس كشيء غبي يناقض طبيعته ويزعزع كبرياءه، إن في قول أياغو: «أحقق مشيئتي وأزهوها» أي: أزيد من حسي للتسلط والتفوق، الدافع الحقيقـي اللاشعوري في كثيـر من أفعال القسـوة التي مـن الظاهر أنهـا لا تصدر بصـورة رئيسية عـن الضغينة، ولذلك هي أشـد ما يحيرنا، وأحيانـاً يرعبنا. كالرجل الذي يصاول زوجته وأولاده وينغص عيشهم بأوامره مـع أنه يحبهم. وهكـذا الأمر مع أياغو، حسه المحبط بالتفوق يريد الرضى وأي رضـى بوسعه أن يجد أعمق من شعوره بأنه سيـد القائد الكبير الذي غمطه حقه، وسيد المنافس الذي فضل عليه، وأن هؤلاء المحترمين الناجحين المحبوبين الأغبياء، هـم مجرد دمـى بين يديه. إنَّ تـوق أياغو لإرضـاء حس التسلط هو أشهر القوى التي تدفع به.

بيد أن أياغو، فـي النهاية، ليس مجرد رجل فعل، إنه فنـان، مكيدته حبكة، حبكة دراميـة معقدة، وفـي تخطيطها وتنفيذها يجـد توتر الخلـق الغني ولذتـه. حتى في

المشاهد الأخيرة التي يبدو لنا فيها عدم احتمال نجاح خطته بكاملها، لاعتمادها أكاذيب كثيرة متنوعة، يظهر لنا أحياناً لا في مظهر المخطط الداهية، بل في مظهر رجل مفتون سائر حثيثاً إلى دمار حتمي.

إنَّ أياغو واحد من أبرز شخصيات شكسبير الشريرة، لأن مبدعه استخدم في خلقه أبرع الخيال وأعمق التصور، إنه يعرض علينا الشر فيه مطلق. والأدهى من ذلك أن هذا الشر المطلق مقرون بقدرة ذهنية خارقة، وإنه لا يقف وحده، إنه جزء من كل. نراه فاعلاً ومنفعلاً معاً، مدمِّراً ومدمَّراً معاً. والقوى التي تحركه وتصنع مصيره هي حس القوة، والمتعة في إنجاز عمل شاق خطر، والمتعة في أعمال المهارة الفنية، ليست أمور شريرة أبداً، إلا أنها في أياغو مصحوبة بأمر مقيت يؤدي بها إلى الشر. ونحن نجد أن نفاذ بصيرة أياغو، وسرعة بديهته، وبراعته، وحسن خطابه، كلها أمور حرية بالإعجاب. والرجل الكامل يتمنى أن يتحلى بها، كما يتمنى أن يتحلى بشجاعة أياغو وسيطرته على نفسه، ويتمنى لو أنه مثله يستطيع أن يسمو على نزوات مشاعره، ويكون سيد عالمه الداخلي، إلا أنها عند أياغو تجعل إعجابنا مختلطاً بالكراهية أو النفور.

وتبقى أخيراً فكرة أن أياغو رجل خارق الذهن، ولكنه في الوقت نفسه خارق النذالة. فعجزه في الإدراك وثيق الصلة بسوئه، والقوة التي هاجمها هي القوة التي دمرته وهي قوة الحب. وقد دمرته لأنه كان عاجزاً عن فهمها، وعجز عن فهمها لأنها لم تكن موجودة فيه.

لقد استطاع أياغو أن يفهم الأشخاص حوله، وأن يسيطر عليهم ، ولكن الشيء الذي لم يتوقعه، والذي كان الأشد في دماره هو زوجته. لقد كانت مطيعة له في كل شيء، وكان يعتقد أنه يعرفها تماماً، إلا أن شيئاً واحداً فيها لم يعرفه، وهو أنها تحب سيدتها، وأنها تفضل أن تجابه مئة ميتة ولا أن يصاب اسم سيدتها بلوثة.

لقد كان أياغو، كما يقول بعض النقاد، بطلاً مأساوياً كعطيل تماماً، وبما أن البطل المأساوي، عند شكسبير، هو الذي يعاني من نقطة ضعف كبيرة فيه، هي التي تؤدي إلى دماره، فإن أياغو كان يعاني من الأنانية المفرطة التي تؤدي إلى الثقة الزائدة بالنفس، وإلى حب السيطرة على الآخرين، وكره كل من يقف بطريقه، وأن أنانيته هذه هي التي أودت به إلى الهلاك في النهاية.

المصادر والمراجع:

١- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة خليل مطران، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٩١، ط١.

٢- عطيل: مأساة شكسبير العظيمة، وليم شكسبير، ترجمة محمد نمر المدني، دار أسامة، دمشق، ٢٠٠٨.

٣- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة محمد كامل حسن، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٤.

٤- مأساة عطيل مغربي البندقية- وليم شكسبير، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨٢.

٥- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة غازي جمال، دار العلم للجميع، بيروت، بلا تاريخ.

٦- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة إبراهيم جلال، العالمية، القاهرة، ٢٠٠٩.

٧- تاريخ الأدب الإنكليزي، جون بيرغس ويلسون - لونغمان، لندن، ١٩٧٠.

٨- ماكبث: الطموح الأعمى والضمير المتمرد، إبراهيم محمود الصغير، مجلة المعرفة السورية الصادرة عن وزارة الثقافة بدمشق، العدد (٦١٦)، ٢٠١٥.

ما بين الأدب الشعبي والعامي من اختلاف وائتلاف

د.كارين صادر ❁

عاش الأدب آماداً طويلة ربيب القصور والملوك، وعاش الأدباء في رحلة دائمة من ملك إلى آخر، ومن مملكة إلى أخرى ليقدّموا بضاعتهم الفخرية والمدحية لهم في الدرجة الأولى، ثم ليطلقوا في سماء عليائهم نسائم الغزل والخمر حين يُسألون.

واستمرّ الشعب غائباً عن ذهن الشاعر في مرحلة التأليف موضوعاً، وفي مرحلة الإنشاد متلقياً أحقاباً طويلة، وبقي

عطاؤه أدباً رفيعاً يحلّق فوق رؤوس الجماهير من دون أن يراها، ويقفز فوق هموم البيئات الشعبية من دون أن يمسّها.

❁ كاتبة وباحثة من لبنان الشقيق.

والحجّة أنَّه فنّ سموّ ورفعة، غايته ليست مجاراة أبنـاء البيئة الشعبية فـي مباذلها ومعاناتها، بـل السموّ بها إلى أعلى، ليهذّب عواطفهم ويصقل مشاعرهم.

وفـي أوائل العصـر العباسـي، بدأت المسافة تقصر، وراحـت إرهاصات النتاج الأدبي الشعبي تنتظم في تيار سمّي «التيّار الشعبي في الأدب» الـذي نزل به أصحابه إلى الشعب، فسجّلـوا صرخاته، وصيحاته، ورسموا حرمانه ومعاناتـه بألوان صارخة، وحاولـوا أن يطرقـوا بها أبـواب الملوك، فصـدّت في وجوههم، ومنهـم الشاعر أبو الشمقمق، وأبو فرعون الساسي وغيرهم...

ثم إنَّ هذه البيئات الشعبية بدورها، وفي مرحلة متقدمّة زمنياً، ونظراً لتضافر ظروف سياسية واجتماعية، وثقافية معينة، لم تعد تنتظـر أن ينزل إليها ذلك الأدب الرفيع من عليائه لتجد فيه نفسها، وتنهل منه مايروي عواطفها، ويصقل شخصيتها، لأنها وجدت نفسهـا في أدبها الخاصـ وفيما تفيض به عواطفها من الأحاديث، والقصص، والحكم، والأمثال، والأغاني، والاعتقادات.

وذاك هو الأدب الشعبي الذي كان منها وإليهـا، تملؤه ويملؤها، والـذي شكّل أقوى مؤثّر فـي حياة البيئـات الشعبيـة، وأكبر محرّك لوجدان جموعها.

وعمل هـذا الأدب على بنـاء شخصيّة الشعب، وتكييف عواطفه، وتلوين اتجاهاته، لأنه كان الثقافة العامة التي يتداولها الناس فـي وقت كانت فيه الثقافة المكتوبة نادرة. وقـد تراجـع بعد انتشـار التعليـم وشيوع الكتابة.[1]

وإن كان الأدب الرسمـي الرفيع يعطينا فكرة عمّا يجـب أن نكون عليه، فإن الأدب الشعبـي يعطينـا فكـرة عمّا نحـن عليه. وهو هام بصفته حلقـة من حلقات التطوّر التاريخي.[2]

ثـم كانت آخر القفـزات الأدبية، فكان الأدب العامي، الـذي ولّدته ظروف أغلبها سياسية بـدأت بالفتوحات ودخول الرقيق، وانتهـت عندما تولّى الحكـم العربي حكّام غير عرب، يستعصي عليهم فهم الفصحى، فشجّعـوا الأدبـاء علـى الكتابـة والإبداع بالعامية. وقد رافق كل نوع من أنواع الأدب مستواه اللغوي الخاص الذي كان أكبر مؤشر في الفصل بين هذه الأنواع .

- المستويات اللغوية:

فـي سياق اللغة التـي هي قوام الفنون القولية نجد أنفسنا أمام ثلاثة مستويات من اللغة العربية اصطنعتها أمّتنا في عصورها وأقطارهـا المختلفـة للتعبيـر عـن ذاتها وصياغة ثقافتها وهي:

١- اللغة العربية الفصحى المُعْرَبَةُ.

٢- اللغة العربية المتوسطة بين الفصحى والعامية (فهي فصحى مكسّرة وعامية محسّنة).

٣- اللغة العامية الدارجة في الاستعمالات اليومية.

وإن تراثنا من العصر الجاهلي وحتى وقتنا هو تراث عربي رسمي، لأنَّ لغته هي لغة القراءة والكتابة وليست لغة المشافهة.

وأمَّا المستويان الثاني والثالث: فهما الواسطتان اللتان تتعامل بهما الشعوب العربية في مجالاتها الثقافية المختلفة، لذلك هما الوعاءان اللذان يحويان الفنون القولية الفولكلورية العربية.

ففي الأول منهما نجد أشعاراً ملحونة، كما نجد الأزجال، والمواليا، والقصص الدينية، وسيرة عنترة، والزير، وألف ليلة وليلة، وتغريبة بني هلال... وجميعها سير وملاحم شعبية كانت الشعوب العربية ومازالت تستمتع بها وتطرب لسماعها. وقد أطلق الجامعيون في مصر على هذه المجموعة اسم «الأدب العامي».

أمَّا المستوى الثالث: مستوى اللغة العامية، فهو الوعاء الأكبر الذي يحوي الآداب الشعبية؛ أي الفنون القولية للشعوب العربية، ويقع ضمنه الشعر الشعبي والأغاني الشعبية بجميع ألوانها والحكايات والأساطير والأمثال والأقوال والنكت...

وهذا الأدب الشعبي لم يدوّن منه إلاّ النزر اليسير عبر العصور التاريخية، وبقي شفوياً في معظمه، تداوله الناس في بيئاتهم الشعبية وما زالوا يتداولونه كذلك ويتوارثونه جيلاً عن جيل وهو حيّ لأن دورانه على الألسن والشفاه هو بمثابة دوران الدم في العروق، وهو دائم التشكّل والتطوّر وإذا وقفت دورته يدخل في حالة ثبات.[٣]

ونلحظ وجود تمازج عجيب وخلط أعجب بين الأدبين الشعبي والعامي، لأن الوعاء اللغوي الذي حوى الأدبين كان عاميّاً شديد العاميّة أو عاميّا مخفّفاً، واللسان الذي أبدع وروى ونقل من جيل إلى آخر كان اللسان العامي.

أمَّا التراث الرسمي فبقي محلّقاً في سمائه بعيداً عن الخلط من المنظور اللغوي ومحافظاً على هويّته، لأنَّه جرت العادة أن يقتصر اهتمامنا بالتراث على الآثار الفصيحة وحدها، ويقتصر التدوين والتاريخ عليه.

ووسط هذا الخلط بين الأدبين، نرى أن الإضاءة على الأدب العامي باتت ضرورة ملحّة لتحديد هويته الخاصة، ووقف تداخله مع الأدب الشعبي.

- نشأة الأدب العامي:

ظهرت أوَّل أدوار العاميّة زمن الفتوحات نتيجة لاتصال المجتمع الإسلامي بالمؤثرات الوافدة، وقد سجّل شيوع اللحن زمن الرسول (صلى الله عليه وسلَّم).

وأمَّا العامية بصفتها أدباً، فقد انتشرت على نطاق واسع حينما بدأ الرقيق الأبيض يدخل بيوت الأرستقراطية العربية، لأنَّه أوجد الحاجة إلى شعر يلبي حاجات الغناء والموسيقى.

وعاشت العربية الفصحى إلى جانب العاميّة في ذلك العصر من دون تنافس؛ واحدة: لغة للإبداع والأخرى: لهجة الحياة اليومية.

لكنّ دخول العناصر غير العربية إلى الحكم بشكل كبير أصبح يشكّل خطراً على السياسة وعلى الوضع اللغوي، فعوام الأتراك صاروا أصحاب الأمر والنهي في قصر الخليفة العباسي، وهذا ما شجّع الشعراء على إنشاد الشعر في البلاط من دون اكتراث لما يعتري شعرهم من لحن، فهذا الشاعر زياد الأعجم كان يقلب في شعره الطاء تاءً، والسين شيناً، ومن ذلك قوله:

فتى زاده الشلتان في الحمد رغبة

إذا غير الشلتان كل خليل

وهو يريد بالشلتان: السلطان.

وهذا ابن الحجّاج (٣٩١هـ)، كان يلقي قصائد ماجنة متحلّلة من جميع قوانين الشعر متعمّداً ذلك، ومستخدماً الأسلوب الدارج المبتذل، حتى وصل به الأمر إلى إدخال اللغة الفارسية ولهجات الشحّاذين والعيّارين في شعره، كما أبدى احتقاراً شديداً لمبدأ «تنقية اللغة العربية».

وأمَّا الشاعر أنو شروان البغدادي، فقد أدخل اللهجة الكردية القديمة في شعره.

وقد بلغ السقوط اللغوي مداه مع انحلال الدولة العباسية (٣٢٤هـ /٩٣٦م)، ثم سقوط بغداد مع الاكتساح المغولي للدولة الإسلاميّة، وشكّل ذلك بداية عصر الانحطاط الأدبي واللغوي.

فاللغة الفارسية صارت في عهد السلاجقة اللغة الرسمية، ولغة الأدب والشعر، وصار أدب العامية نتيجة لتدهور الوضع السياسي والثقافي بديلاً للأدب العربي الرفيع.[٤] فلذلك ليس مستغرباً أن تسجّل القصيدة العاميّة حضوراً تاريخياً وأدبيا لها في عصر «ملوك الطوائف»، وهو أحد عصور التدهور السياسي والثقافي، وأن يسجّل الشاعر «ابن قزمان» في منتصف القرن السادس هـ كأوّل وأهم شاعر عامي، كونه أول من أنضج «فن الزجل» وأرسى قواعده .

ومن شعره العامي قوله:

يا فقير القمح غالي
والدقيق أغلا وأغلا
والبطون كما علمك
بلا خبز لس تخلى
فإذا أعطيت بفضلك
بالنبي عجل وروح

واتّسع الانحطاط مع سقوط الدولة في قبضة الحكم العثماني الذي امتدّ حتى آخر القرن التاسع عشر، ثم تلاه وقوع العالم العربي في قبضة الاستعمار الأجنبي في مطلع القرن العشرين، وإطلاق عدد من المفكرين والأدباء المستغربين أو المطّلعين على الفكر الأجنبي الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى.

ولقيت هذه الدعوى مناصرين ومناهضين، ومدافعين عنها ورافضين لها. وكانت حجّة الداعين، وعلى رأسهم جملة من المستشرقين والمستغربين كقاسم أمين وعبد العزيز فهمي،أن الفصحى لغة صعبة.

وفيما بعد، جدد هذه الدعوة الشاعر اللبناني الكبير «سعيد عقل»، والشاعر الكويتي «صادق محمد أحمد بخيت» وآخرون، بحجّة أنها لغة جامدة متقوقعة ومتكلّفة.[٥]

وبالتأكيد فإن الداعين إلى تبني العامية، لم يكونوا يهدفون على الإنقاص من قيمة أدبنا الفصيح القديم أو الحديث، بل كانوا يهدفون إلى إيجاد نوع من التوءمة بين اللغة التي نفكرّ ونعبّر بها وبين اللغة التي نكتب بها أدبنا لتكون أقرب إلى عقل الشعب وقلبه.

تعريف الأدب العامي:

هو الأدب العاطل أو الملحون الذي جاءت بلاغته من مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود. وقد نشأ نتيجة طبيعية لتطوّر اللغة ونشأة لغة خاصة، اقتضت أن يكون لها أدب خاص شأن كل اللغات، فإن لكل لغة أدبها.[٦]

وهذا الأدب العربي الملحون الذي أخذ من الأدب الرسمي أغراضه، ومن الأدب الشعبي لهجته قد أبدع قالباً فنياً جديداً، وأعلن ثورة في الأسلوب وانعتاقاً من عمود الشعر وأحكام الأدب التقليدي..

ويشترط أحمد صادق الجمال في الأدب العامي: «أن يكون لفظه ملحوناً عاطلاً من الإعراب بعيداً كل البعد عن التزام الفصحى التي هي أساس الأدب الرسمي.ويرى أنه قد نشأ ليعبّر عن حياة القطّاع الاجتماعي الكبير، وهو نافذ إلى الأعماق لقوة معانيه التي استمدّها من الطبع السليم ولخروجه من الأعماق كي ينفّس عن نفس صاحبه. وبذلك هو صادق التعبير عن الواقع إذ

تنعكس على مرآته أحداث الحياة فيصورها تصويراً دقيقاً.

ويعتمد الأدب العامي على مادته المصحّفة التي وصفها صفي الدين حلي بقوله: «إعرابها لحن وفصاحتها لكّن وقوة لفظها وهن».[٧]

ويقول الرافعي: إنَّ اللغة العامية هي التي خلفت الفصحى في المنطق الفطري وكان سببها اضطراب الألسنة. ويرى أن اللّحن هو أصلها ومادتها، وأن نشأتها مرتبطة بالحاجة إلى التعبير عن حياة العامة بعد أن صارت اللغة الرسمية بالسادة والخاصة.

- الفرق بين الأدبين العامي والشعبي

إنَّ المطلّع على هذين النوعين، لا بدّ من أن تستوقفه ثلاث نقاط جوهرية يمكن اعتمادها لتمييز هذا الأدب من ذاك:

- **الأولى:** إنَّ مبدع الأدب العامي معروف، بينما مبدع الأدب الشعبي مجهول.

- **الثانية:** إنَّ نشأة الأدب العامي جاءت مقننّة في حروف مكتوبة،ولم يتم تناقله بالرواية من جيل إلى جيل كالأدب الشعبي.

- **الثالثة:** إنه يصوّر نفوس العامّة وحالتهم العقليّة والاجتماعيّة الراهنة، وينقدهم أحياناً كثيرة بأسلوب ساخر فكه، أمَّا الأدب الشعبي، فهو ثقافة الشعب العامة في مرحلة من المراحل بكل ألوانها وأنواعها..

وهذا ما توصّل إليه د.كامل حسين الذي اعتمد على الوسيلة اللغوية للتفريق بين الأدب العامي الذي يحاكي شخصية الفرد، وبين الأدب الذي يعكس الملامح العامة للأمة أو الشعب .لذلك نجده يفرّق بين هذين النمطين من التعبير الأدبي في التعريف الذي أوجده لكل منهما كما يأتي:

١- **الأدب العامي:** هو الأدب الذي يهمل الإعراب في الكلام، ومن المظنون أنه أخذ في التكوّن في القرون الأولى من الفتح العربي، وجاء نتيجة التقاء العربية الفصحى باللغات التي كانت سائدة من قبطية وسريانية وغيرها. وإن الكثرة الغالبة من ألفاظ العامية هي ألفاظ فصيحة أو ذات أصل فصيح؛ لأن أغلب ما فيها من أفعال، أو أسماء، أو حروف، أو حركات، أصله فصيح.[٨] وهو الأدب الذي يصدر عن أفراد بأعيانهم وكثيراً ما يسجلون أسماءهم في تاريخ الأدب الفصيح ولكنهم يبدعون باللهجة العامية تظرّفاً في المجالس والأندية. وهو أيضاً الذي دخل إلى لغته اللحن، وبعد عن قالب اللغة الفصيحة والأساليب المولدة واللهجات. فالعامي

استقى مادته من الفصحى المصحّفة أو الملحونة والألفاظ الدخيلة.

٢- **الأدب الشعبي:** الذي لا يكاد يعرف مؤلفوه والذي يتّسم بالمرونة في التطور ويعبّر عن العقل الجمعي والوجدان الجماعي. وإن الأدب الشعبي يعتمد على المشافهة أكثر منه على التدوين. وفي الدراسة الفولكلورية يبحث الدارس عن العادات والتقاليد والآثار الجماعية التي ترتبط بالواقع المحسوس، والتي تؤثر فيه الناحية الروحية والاجتماعية والسياسية.

فنحن نبحث فيه عن الأمثال التي ردّدها الشعب وحملت في طيّاتها روح الشعب وطبيعته وكذلك نبحث ما خلف الشعب من قصص وأغان اشترك في صوغها وإخراجها استقى مادته من الملحون والدخيل وألفاظ أسلوبه هو الحديث الجاري وهو يعتمد على المشافهة، ويؤثر عن أفراد المجتمع أو الشعب برمّته.[٩]

أنواع الأدب العامي:

يعود الأدب العامي في نشأته إلى بداية ظهور اللحن الذي تسرّب إلى اللغة، واللغة كائن حيّ ينمو ويتطوّر، وهي انعكاس للضمير البشري وصورة من النفس. وهي ليس فقط لهجات مقسّمة حسب المناطق، وإنما لغات خاصة أو مهنيّة بحسب الطوائف وأصحاب الحرف، فلكل منهم لغته الحرفيّة.

ونتيجة للاختلاط والهجرات، نشأت اللغة العاميّة ونشأ معها الأدب العامي لترسم صورة المجتمع الذي تحيا فيه بلسانه.[١٠]

وقد قسم القدماء الأدب العامي الملحون إلى أنواع وأخذوا يتفننون ويؤصّلون لكل نوع من أنواعه، وهذا اعتراف بأنه أدب له خصائصه وأغراضه ورسالته.

يقول «صفي الدين الحلي» في كتابه «العاطل الحالي» الذي خصصه للأدب الملحون.[١١]

«ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون لا اختلاف في عددها بين أهل البلاد وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشارقة في فنيَّن منها.

والسبعة المذكورة عند أهل المغرب ومصر والشام هي: القريض، والموشّح، والدوبيت، والزجل، والمواليا، والكان وكان، والحماق. وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ويبدلون الزجل والحماق بالحجازي والقوما، وهما فنّان ابتدعهما للغناء بهما في سحور شهر رمضان في عصر خلفاء بني عباس.[١٢]

غير أن كلاًّ من هذه الأنواع صادق التعبير عن العامة، ويمسّ الحياة الاجتماعية من جميع نواحيها، ويشكّل جزءاً من تاريخ

العصر، لاحتوائه على كثير من حركات العقول والأفكار. ولعل ازدهارها يعود إلى أن رؤساء وسلاطين الوطن العربي لم يكونوا دوماً من العرب، ولم يتهيأ لهم إجادة العربية الفصحى فساندوا العامية وأقبلوا على أدبائها.[١٣]

- شعراء الأدب العامي:

إنَّ هذا الأدب موجود في كل بيئة وفي كل عصر، ولكنّه شاع ودوّن في العصر المملوكي.

ولم يتكلّف شعراء العاميّة شعرهم، وإنما جاءهم عن فطرة، وقد اعتمدوا فيه على سلامة طبعهم، وأصالتهم الفنيّة، ومقدرتهم على صوغ التراكيب العاميّة في قالب شعري بديع، غير مراعين قواعد النحو، ومتحررين من عمود الشعر الملتزم. وكانوا يشترطون فيه اللحن، والبعد عن الجزالة اللفظيّة، والسهولة. ويقول «الجزّار»، وهو أحد أهم شعراء العامية، شاهداً بأنه لم يتكلّف الشعر، بل وأنه لا يدري من علومه شيئاً:

وإن الشعر دون علاه قدراً
ولا سيما إذا ما كان شعري
لأني ما قرأت له صحاحاً
ولا نحواً على الشيخ ابن بري
وقد شاركت في لغة ونحو
بلا علم وشاع بذاك ذكري
وعيشك لست أدري ما طحاها
وقد أقررت أني لست أدري
وذا خبري ولو كشفت عني
لصغّره بعلم الجهل صبري
كأني مثل بعض الناس لما
تعلم آيتين فصار مقري[١٤]

والشاعر العامي قد يكون ممن يقرضون الشعر الفصيح أيضاً، ولكنه يلجأ إلى هذا النوع على سبيل التندّر، أو لكون الموضوع الذي يرغب في طرقه مما يناسبه هذا الثوب الشعري العامي.

لأنَّ هذا اللون يسمح للشاعر بأن يعبّر عن نفسه بمادته التي صاغها من الانفعالات المتصارعة ما بين لغوية ونفسيّة واجتماعيّة. وكثيراً ما نسجت هذه المقاطع الشعرية بخيوط من فكاهة وسخرية.

وكان الأديب العامي يعتمد في فنّه على التلاعب اللفظي والنكتة التي تبنى على اللفظ قدر ما تتجه إلى المعنى العميق الذي يرمي إليه. وقد نقل إلينا نفسيّة الشعب وما يعتريه من ضيق وألم.

ومن بين أهم الشعراء العاميين نذكر:

- يوسف بن أحمد بن يوسف الفراء:

وكان شاعراً عامياً مطبوعاً، ينظم الزجل جيّداً. يقول واصفاً سوء حاله وضيق ذات يديه التي جعلته غير قادراً على ستر جسده بقميص آخر غير الذي بلي:

قميصي ذهب واتفضض
وشعري وهتك ستري
غسلته اتمزق فاض دمعي
عاينو بعيني تجري
من قد عم علمه وحلمه
او هبني قميص عمه عام
صار خليع جديد واتمزق
وأخلع البدن والأكمام
قلت أنا اشتكيه للفاضل
زكي العام شيخ الإسلام[١٥]

- **الشيخ شهاب الدين أحمد المنصوري** (ت ٨٨٧هـ): وكان شاعر العصر ورأس الأدباء على الإطلاق على حدّ تعبير ابن إياس، وقد عرض له في أواخر أيامّه فالج، فلزم الفراش مُدّةً طويلة وانقطع في داره عاجزاً، فأنشأ يقول:

آه يا درهمي ويا ديناري
ضعت بين الطبيب والعطّار
كنت أنسى في وحدتي وشفائي
من سقامي وصحَّتي في انكسار
قد حماني الطبيب عن شهواتي
فاحم يا رب قلبه بالنّار
طال شوقي إلى الفواكه والبطيـ
ـخ والجبن واللب والخيارِ
ضاع لبّي على مقاساة لب الـ
ـقرع والهندبا وبزر السَمار
كلما أجمع اخياراً حطاماً
فرّقته مني يد الاضطرار
ليت شعري وللزمان خطوب خطوب
وبلاء يختصّ بالأحرار
هل لميت قضى عليه طبيب
من كفيل أو آخذ بالثار[١٦]

يبدأ شاعرنا هذه الأبيات الفكهة باكياً على الدينار، وينتهي داعياً إلى الثأر من الطبيب الذي حرمه أطيب الطعام.

كما طرق هذا الباب من الأدب الشعراء أصحاب الحرف أمثال: أبي الحسين الجزار،والسرّاج الورّاق،، والنصير الحمامي، وإبراهيم الحائك،وابن دانيال الكحّال:الذي ولد في الموصل وتلقى بها أولى علومه لما كانت الموصل موئل العلماء،وبعد أن غزاها التتر، هرب إلى القاهرة حيث أتم درسه وفتح في أحد أحيائها دكاناً مارس فيه الكحالة ليكسب قوته. وقد اشتهر على يديه فن «خيال الظل» وارتبط اسمه به. ومما قاله في صنعته:

يا سائلي عن حرفتي في الورى
وضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه
يأخذه من أعين الناس[١٧]

سنعرض فيما يأتي لأهم هذه الأنواع ونورد نماذج منها لنكون بعد ذلك قادرين على تمييز الأدب العامي من غيره، وتمييز أنواعه من سواها.

- أنواع الأدب العامي:

إنَّ جميع هذه الأنواع هي فنون تتفق في صفات عامة تؤلف بينها وتجعلها ضمّة واحدة؛ فهي بحسب صفي الدين الحلي: «إعرابها لحَن، وفصاحتها لكَن، وقوّة لفظها وهن، حلال إعرابها حرام، وصحّة اللفظ بها سقام، يتجدّد حسنها إذا زادت خلاعة، وتضعف صنعتها إذا أُودعت من النحو صناعة، فهي السهل الممتنع والأدنى المرتفع.[١٨]

١- الزجل:

وهو أرفع هذه الفنون رتبة، وأشرفها نسبة، وأكثرها أوزاناً، وأرجحها ميزاناً، ولم تزل إلى عصرنا هذا أوزانه متجددة، وقوافيه متعددة. والزّجل هو الصوت. ويقال سحاب زجل: إذا كان فيه رعد.

وقد قسمه مخترعون أندلسيّون إلى أربعة أقسام من حيث المضمون؛ فلقّبوا ما تضمن الغزل والنسيب والخمرة والطبيعة: زجلاً، وما تضمّن الهزل والخلاعة: بُلَّيقا، وما تضمّن الهجاء: قرقيّا، وما تضمّن المواعظ والحكمة: مكَفِّراً.

وفي بعض البلدان يسمّون كل ما أعرب موشحاً، وكل ما خلا من الإعراب: زجلاً، وما اشترك فيه الإعراب واللحن: مزنَّما.

واختلفوا فيمن اخترعه، فقيل إن مخترعه «ابن غزلة» وقد استخرجه من الموشّح، وقيل هو «يَخلُف بن راشد»، وقيل «أبي بكر بن قزمان»، وقيل بل مخترعه «مدغلِّيس»، والحقيقة ليس له مخترع.

وأوَّل ما نظموه، جعلوه قصائد مُقصَّدة، وأبياتاً مجرّدة في أبحر العروض بقافية واحدة كالقريض لا يغايره بغير اللحن واللفظ العامي، وسموها «القصائد الزجلية».

منها قول مدغلّيس في بحر المديد:

قولوا عنّي للذي لم تسلّم
إن قلبي عنها سالم مُسلِّم
الذهب أُنسي والفضّة نعشق
وعلى هَوْلَ الجميع نقْدم
وفي أكبادي الم من فِرْقهُم
وجراح لَسْ بالله ينفعها مرهم[١٩]

ولمّا كثرت واختلفت، عدلوا عن الوزن الواحد إلى تفريع الأوزان المتنوّعة، وتضعيف لزومات القوافي ليكون ذلك فنّاً لهم بمفردهم.

ومثالنا نقطفه من ديوان ابن قزمان، يقول:

تحزّن أي قلبي — على ما ترى
اقلق أو اصبر — حسبك ما ترى
خُلق معشوقك — ويهوى سواك
ويترك وصلك — ويمضي لذاك
شِراء صالح — كان بالله شراك
لولا ما أفسد — صلاح الشِّرا[٢٠]

٢- المواليا:

لـه وزن واحـد وأربع قـواف على روي واحـد، ومخترعـوه أهل واسـط من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت منها بقافية منها وسموّا الأربعة صوتاً. ونظموا فيه اللفظ القوي الجزل في الغزل والمديـح والصنائع على قاعـدة القريض المعرب.

منه قولهم:

زوروا فقد فقد النوم الهني طرفي
وقد وقد حبكّم ناري مَن المُطفي؟
ولي مُدَد مِداد ابكي، فاسمعوا وصفي
مالي عُدَد عَدد الحسرات لي يكني

وهـو يشبـه الزجـل مـن حيـث ترك الإعـراب، وإبدال بعض الحروف من بعض من حـروف العلّـة خاصة وغيرهـا. وأما ما يختصّ به وينفرد به عـن الزجل، فهو استعمالهم الإمالـة والتزامهم بها في سائر الألفاظ خاصة في القافيـة، ويعدّونها من محاسن صناعتهم. ويشاركهم في ذلك سائر الكان وكان، والقوما.[٢١]

٣- الموشّح:

هو ضرب من الشعر ينظم على مقاطع وقواف معلومـة بحيث لا يتقيّد فيه الناظم بقافية واحدة. وهو من اختراع الأندلسيين، وقـد شاع عندهـم وأحبّوه لسهولـة تناوله وميلهم إلـى التغيير وابتـكار الجيد. وقد طلبوا نوعاً يساعدهـم على ما يريدون من الكلام في بحبوحة اللهو والطرب والرقص وإنشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس.

وهو عند «ابن سناء الملك» كلام منظوم علـى وزن مخصوص، ويتألف فـي الأكثر مـن ستة أقفـال وخمسة أبيـات، ويقال له التـام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفـال والأقرع ما ابتـدئ فيه بالأبيات. وقـد اصطلح علـى تسمية القفـل الأخير بالخرجة ويشترط فيها اللحن لا الإعراب.

والقفل: هو أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفـل منها متّفقاً مـع بقيّتها في وزنها، وقوافيها، وعـدد أجزائها، وكذلك الأبيات، ويحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر.[٢٢]

قال ابن نابتة:

حشى من نار صدّك ذائبة
وتحسبها دموعاً ساكبة
ولم يفطن لها
سوى صبٍ أقام
على فراش السقام
درى ما قصّتي فحاكى
لوعتي وجارى عبرتي
وبتنا كالحمائم في الحنين
وما يدري الحزين سوى الحزين
سباني بالفتور وبالفنون

غـــلام شـــاهـــر حـــد الـجـفـون

عـــلـــى وجـــنـــاتـــه لام ونـــون

يقول وصال مثلي لن يكون[٢٣]

وقد بـــدأ ابن نباتة هـــذا الموشح التام على ما جرت عليه العادة من غزل، ثم ينتقل بعدهـــا إلى الخمر ووصف الكأس، والدعوة إلى الشراب، واغتنام اللذات.

٤- الكان وكان:

وهو ضرب له وزن واحد وقافية واحدة، ولكن الشطـــر الأول من البيـــت أطول من الشطر الثانـــي، ولا تكون قافيته إلاّ مُردفة قبل حـــرف الـــروي بأحد حـــروف العلّة، ومخترعوه هـــم البغداديـــون. سمي بذلك لأنهم لـــم ينظموا فيـــه ســـوى الحكايات، والخرافات، والمراجعـــات، والمنصوبات، فكان قائله يحكي ما كان وكان، ثم جاء بعض الشيـــوخ الأفاضل ونظموا فيـــه المواعظ، والزهديـــات، والحكم، والأمثـــال فتداولها الناس وبعدها نظم فيه الغزل وغيره. مثاله قولهم:

طوال ليلي اسهر كنّي أريد الكيميا

اقطّر الدمع مني وأصعّد الزّفرات

ماأطول ليالي جفاكم ساعاتها مثل السنة

وما أقصر أيام وصلي كأنها ساعات

مالي أرى حسناتي بالسيّئات تبدّلت

وسيئات الأعادي تبدّلت حسنات

خالفتموني وعمري مازلت أتبع أمركم

كذا العبيد تتابع أوامر السادات

نسكت ونصبر عليكم ويفعل اله مايشا

فالدهر من عاداته يقلّب الحالات[٢٤]

٥- القوما:

وهو ضرب له وزنـــان: الأول منهما بيته مركب من أربعة أقفال، منها ثلاثة متساوية فـــي الـــوزن والقافية،والآخر وهـــو الثالث، أطول منها، وهو مهمل بغير قافية. والثاني بيته مركب من ثلاثـــة أقفال مختلفة الوزن متفّقة القافية، يكون القفل الأوَّل منه أقصر من الثانـــي، والثاني أقصر من الثالث. وقد اخترعـــه البغداديـــون برســـم السحور في رمضان زمن بني عباس، وبعدها نظموا فيه لما شاع: الغزل، والزُّهري، والعتاب، وسائر الأنواع.

ولا ينبغي أن تنظم القوما إلاّ بلفظ عامي رقيق، وكل قسم منـــه قائم بنفسه كالمواليا والدوبيت.

وقيـــل إن أوَّل من اخترعـــه «ابن نقطة» برسم الخليفـــة «الناصـــر» (تولى ٥٧٥هـ- ٦٢٢هـــ). وكان الناصر يطرب له، وجعل له في كل سنة ما يفضل عنه من الأنعام.

فلما توفي ابن نقطة، وكان له ولد صغير ماهر في نظم القومـــا والغناء به، وأراد أن يعـــرّف الخليفة بموت والده لكن تعذّر عليه ذلـــك، فصبر إلى حين دخول شهر رمضان،

ثم أخذ أتباع والده مـن المسحّرين ووقف فـي أول ليلة من الشهـر أمام قصره وغنّى بصوت رقيق، فأصغى له الخليفة وطرب له، فلما وصل إلى القوما كان أوَّل ما قاله:

يـا سـيّـد الـسـادات
لـكْ بـالـكـرم عـادات
أنـا بُـنـيّ ابـن نـقـطـة
تـعـيـش أبـي قـد مـات

فأعجب الخليفة منه وفرض له ضعفي ما كان لأبيه.

ومما قاله صفي الدين من القوما:

حـال الـهـوى مـخـبـور
يـريـد جـلـدا صـبـور
مَـن كـان هـواه مـسـتـور
يـحـظـى بـرفـع الـسّـتـور
مـن كـان جـدُّ عَـثـور
مِـن فـرد كـلـمـه يـثـور
كـم حـولَ تـلـك الـخـدور
مـن عـاشـقٍ مـهـذور
مـن يـركـب الـمـحـذور
هـو فـي الـهـوى مـعـذور
كـن بـالـهـوى مـسـرور
ولا تـبـيـت مـغـرور[٢٥]

ويشير صفي الديـن الحلي إلى أن أهل العراق وديار بكر يبدّلـون الزجل والحماق بالحجازي والقوما.

٦- الدوبيت:

هو لفظ فارسي معنـاه: بيتان، وسمي بذلك لأن غالب ما ينظم على وزنه إنما هو بيتان فقط. ويشترط فيه الإعراب وإن كان لم يسلم من اللحن شأن الموشّح.

وهـو من بحور الشعر المهملة وشطره: فعلن- متفاعلـن- فعولن- فاعلن .ومؤلف مـن أربعة أشطـار، ثلاثة منـه على قافية واحدة والشطر الثالث مغاير.

مثالـه قول ابن تـاج الخطباء القوصي (ت ٧٤٢هـ):

يـا غـايـة منيتي ويـا مقصودي
قـد صرت من السقام كالمفقود
إن كـان بـدت مني ذنـوب سلفت
هبها لكريم عفوك المعهود.[٢٦]

ونخلص إلـى أن الأدب العامي هو أدب وسط بين الرسمي والشعبي، يأخذ من الأوَّل أغراضه فيطرقهـا ويزيد عليها أغراضاً لا يسهـل على الشاعر التقليـدي أن يتناولها، ويأخـذ من الأدب الشعبـي سهولة أسلوبه، وبروز موسيقاه وقرب لسانه من حال الشعب وشيوعه على ألسنتهم.

وهو أدب يتوسّل اللغة عربية وإن كانت لغة خاصة، وطبيعي أن تظهر فيه بعض الألفاظ الفصيحة وبعض الصور والتشابيه المستقاة من الشعراء القدامى، وإن كان شعراؤه ينهلون من حياتنا وحياتهم وبيئتنا وبيئتهم ليسقوننا الدم والدمع في كؤوس من بسمات.

الهوامش:

١- فنون المأثورات الشفاهية في الجزيرة، أحمد الحسين، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٥م، ص٥.
٢- أبو زيد الهلالي، محمد فهمي عبد اللطيف، سلسلة اقرأ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٦م، ص٦.
٣- بين التراث الرسمي والتراث الشعبي، ص١.
٤- موضوعات حول العاميّة والشعر العامي، قاسم حداد، عبد الرحمن رفيع، عبد القادر عقيل، دار قناديل، لا مكان، ١٩٨٣م، ص٣٣.
٥- المصدر نفسه، ص٣٧.
٦- كتاب العبر، ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م، ص٥٨٣.
٧- العاطل الحالي والمرخص الغالي،، صفي الدين الحلي، تحقيق حسين نصّار، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١م، ص٦.
٨- مجلة وجهات نظر، العامية فصحى محرّفة، شوقي ضيف، عدد ١٦، عام ٢٠٠٠م، ص٥٣.
٩- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، أحمد صادق الجمّال، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٦م، ص(ر).
١٠- الأدب العامي في مصر، الجمال، ص٦٩.
١١- وهو أهم كتاب قديم تعرّض للأدب العامي، وجمع فنونه وقواعدها وكثيراً من نصوصها. ولم يقتصر على قطر عربي بل أتى بنصوص من مصر والعراق والشام والأندلس. وقد أسماه العاطل الحالي والمرخص الغالي، لكونه عاطلاً من الإعراب، حالياً من المعاني والآداب، مُرخِصاً من ذوي الخلاعة والهزل، غالياً على ذوي الجدّ والجزل. العاطل، الحلي، ص٣.
١٢- المصدر نفسه، ص٩٣.
١٣- الأدب العامي، الجمّال، ص٦٩.
١٤- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، القاهرة، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٥٣م، ٣١٥/١.
١٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ، ٣٠١/١.
١٦- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، بولاق، ١٣١١هـ، ٢١٣/٢.
١٧- الأدب العامي، الجمال، ص٧٩.
١٨- العاطل الحالي، ص١.
١٩- المصدر نفسه، ص٢٠.
٢٠- المصدر نفسه، ص٧٢.
٢١- العاطل الحالي، ص١٠٦.
٢٢- الأدب العامي، الجمال، ص٩٧.
٢٣- الديوان، ابن نباتة المصري، القاهرة، لا مكان، ١٩٢٥م، ص٥٩٤.
٢٤- العاطل الحالي، الحلي، ص١٢٥.
٢٥- المصدر السابق، ص١٢٧.
٢٦- المصدر نفسه، ص١٣٩.

المصادر والمراجع

١- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، أحمد صادق الجمّال، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٦م.
٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، بولاق، ١٣١١هـ.
٣- بين التراث الرسمي والتراث الشعبي.
٤- الديوان، ابن نباتة المصري، القاهرة، لا مكان، ١٩٢٥م.
٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ.
٦- العاطل الحالي والمرخص الغالي،، صفي الدين الحلي، تحقيق حسين نصّار، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١م.
٧- كتاب العبر، ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م.
٨- مجلة وجهات نظر، العامية فصحى محرّفة، شوقي ضيف، عدد ١٦، عام ٢٠٠٠م.
٩- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، القاهرة، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٥٣م.
١٠- موضوعات حول العاميّة والشعر العامي، قاسم حداد، عبد الرحمن رفيع، عبد القادر عقيل، دار قناديل، لا مكان، ١٩٨٣م.

التواصل الناجح
سبيلك للسعادة والنجاح في الحياة

❁
د. معمر نواف الهوارنة

يعد التواصل «Communication» واحداً من النشاطات القديمة قدم وجود الإنسان على هذه الأرض، ولقد تطورت عملية التواصل وتعددت، الأمر الذي جعل الكثيرين يطلقون على النصف الثاني من القرن العشرين عصر التواصل.

ولقد أسهم عدد من العلماء في ميدان علم النفس في تطوير فهم عملية التواصل منهم «**كارل هوفلاند، وبول لزرز فيلد، وكيرت ليفين**» حيث كانت بحوث «هوفلاند» تدور حول سيكولوجية الإقناع، في حين تركزت

❁ أستاذ في كلية التربية- جامعة دمشق.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بحوث «ليفين» حـول تأثير سلوك الجماعة على سلوك الأفراد الذي ينتمون إليها.

ولم يقف الاهتمـام عند دراسة موضوع التواصـل على علم بعينه بـل استحوذ على اهتمام عدد كبير من الباحثين الذين ينتمون إلـى ميادين بحثية مختلفة كما أن الاهتمام بعمليـة التواصل لم يقف عنـد حدود علم النفـس الاجتماعي بل تجـاوزه إلى بحوث التعليـم والإدراك بـل والصحـة النفسية والعلاج النفسي كذلك.

يعـدُّ التواصل من أقـدم أوجه النشاط الإنسانـي، وتلعب أنواع التواصل دوراً كبيراً فـي حياة كل شخص مهمـا كانت الوظيفة التي يشغلها، أو وقـت الفراغ المتاح أمامه فالتواصـل يؤثـر علـى كل فرد بشـكل أو بآخر.

تعريف التواصل:

هنـاك تعريفـات عديـدة للتواصـل تختلف طبقـاً لهدف من يقـوم بالتعريف، وتبعـاً لجوانـب السلـوك التواصلي الذي يكون موضعاً لتأكيـده واهتمامه. ومن هذه التعريفات ما يلي:

يعرف ماير «Myers، E.& Myers، T.١٩٨٠» التواصـل بأنـه عمليـة اشتراك ومشاركة فـي المعنى من خـلال التفاعل الرمـزي، وتتيمـز بالانتشـار فـي الزمان والمكان، فضـلاً عن استمراريتها وقابليتها للتنبؤ.

يرى «هوفلاند» أن التواصل هو العملية التي ينقل بمقتضاها الفرد القائم بالتواصل «مثيـرات» رمزية لغوية فـي الغالب بهدف تعديل سلوك الآخرين مستقبلي الرسالة.

يعـرف شيـري «Cherry» التواصـل بأنه عنصـر أساسي في الحياة الاجتماعية ومشاركـة الأفـراد فـي الرمـز والمعنى والإشـارة واللغـة، وبأنـواع العلاقـات الاجتماعيـة كافة التي تحـدث في الحياة اليومية. والتواصل يجعـل الأفراد يفهمون بعضهم الآخر وما يطلق عليه «People in Communication» ويجعلهم في وحدة واحـدة، ربما تكون الجماعة أو المجتمع أو الثقافة ككل.

إنَّ التواصل يشير إلى كل العمليات التي يؤثر بمقتضاها الناس على بعضهم البعض، وتعرف عملية التواصـل بأنها العملية التي يتفاعل بها المرسلون والمستقبلون للرسالة في سياقات اجتماعية معينة.

يلاحظ مما تقدم أن عملية التواصل في شكل دينامي، كما يركز على جانب التفاعل فـي عملية التواصل، فلا يمكننا فهم جانب واحـد منها بمعزل عـن المكونات الأخرى مـع إمكانية حـدوث تعديل فـي السلوك، فالتأثير يشتمل على استجابات كل الأشخاص

المشتركيـــن في التواصل، وانتشار التواصل في الزمان والمكان واستمراريته. فالتواصل بمثابـــة عملية تقوم على التفاعـــل «التأثير والتأثر» بين مرسل ومستقبل، ويتم من خلال نقل رسائـــل معينة. إنَّ التواصـــل بأساليبه وقنواتـــه وأدواته إنما يحـــدده المجتمع من خلال مـــا ينتظمه من سياقـــات اجتماعية متعـــددة أو من خلال أطـــر مرجعية معينة تحدد طبيعة هذا التواصل.

أهمية التواصل:

لا غنـــى للمجتمع الإنسانـــي المتحضر منـــه والمتخلـــف عـــن عمليـــة التواصـــل، فمقدرة الإنسان على نقل حضارته وتاريخه ومعتقداتـــه وثقافته بـــل ومشاعره ورغباته تتوقف على نجاحه في التواصل مع الآخرين، ففرصـــة الإنسان في البقاء، بل فرصته في الارتقاء تتوقف إلى حد بعيد على ارتقاء ما يملك من وسائل التواصل.

وإذا كانت عملية التواصل قد تمثلت في أغلبهـــا بالتواصل الإنسانـــي، إلا أن مقدرة الإنسان علـــى إرسال وتلقي الرسائل ستظل هي الأكثر تفوقـــاً، من حيث التنوع والتعدد على كل ما صنع الإنسان من أدوات، فعملية التواصل تشمل جوانب عديدة من السلوك، وتنتشـــر بل وتتخلل عـــدداً لا حصر له من المواقف الاجتماعية، وعلى ذلك فلا غنى للمهتمين بدراسة السلوك البشري أو دراسة الحياة الاجتماعية في مجتمع ما عن دراسة عملية التواصل.

تعـــود الأهميـــة الخاصـــة للتواصل في حيـــاة الفرد والمجتمع والتـــي دعت الكثير من الباحثين إلـــى دراستها وذلك من خلال الكشف عن الوظائف والأدوار التي يقوم بها التواصـــل، والحاجات التي يسهم بدوره في تلبيتها.

وهنـــاك عدد مـــن الدوافـــع التي تدفع الفرد إلى التواصل مع الآخرين ليس لإشباع الحاجات الأوليـــة أو الأساسية فقط، ولكن لتلبيـــة حاجـــات أخرى فرديـــة واجتماعية بوصفه عضواً في جماعـــة من الجماعات في المجتمع.

وتتلخص أهمية التواصل بالنسبة للفرد في الآتي:

١- يقـــوم البنـــاء الاجتماعـــي داخـــل الجماعـــة، أو داخل المجتمـــع على تحديد الـــدور الذي يقـــوم به كل فـــرد داخل هذا البناء. وهذا ما يجعـــل الفرد يشعر بقيمته داخل الجماعة أو المجتمع. ونادراً ما نجد دوراً اجتماعياً لا يفرض على الفرد تواصلاً مـــع الآخرين، وحتى إذا كان هناك مثل هذا الدور، فإن هذا الدور يفرض عليه تواصلاً مع زملائه أو أقرانـــه، خاصة وأن المعرفة العلمية أصبحت تميل إلى التخصص الدقيق

الذي يتكامل مع غيره من التخصصات وذلك إلى جانب التواصل اليومي لإشباع الحاجات الأولية أو الأساسية. إلى جانب ما يفرضه الدور الاجتماعي من تواصل مع الآخرين، فإن تواصل الفرد مع مصادر المعلومات والمعرفة يدعم المكانة الاجتماعية التي ترتبط بهذا الدور أو يفرضها.

٢- نظراً لأن العزلة داخل المجتمع تجسد لدى الفرد الإحساس بالخوف، فإن التواصل مع الآخرين يساعد الفرد على الاقتراب منهم، ودعم الإحساس بالأمن والطمأنينة الناتجة عن التماسك الاجتماعي، والذي يعمل أيضاً على دعم التواصل مع الآخرين، ويعتبر مظهراً من مظاهره.

٣- تظهر أهمية التواصل للفرد في حاجته إلى المعلومات والمعارف الخاصة بالقضايا والموضوعات اليومية، التي تفيد الفرد في اتخاذ قراراته اليومية.

٤- تظهر أيضاً أهمية التواصل للفرد في كونه العملية الأساسية لاكتساب الفرد خصائص وسمات المجتمع الذي يعيش فيه وينتمي إليه. وتدعم بالتالي انتماءه إلى هذا المجتمع. فالفرد من خلال التواصل يكتسب قيماً وأفكاراً ومعتقدات المجتمع وينقلها بالتالي إلى الآخرين في صورة أو أخرى.

٥- إلى جانب الأهمية التي يعكسها الدور الاجتماعي، والمكانة الاجتماعية والحاجة إلى التكيف والتوافق الاجتماعي. وإلى جانب الأهمية التي يعكسها كل ذلك حيث يستخدم الفرد التواصل للهروب من الواقع اليومي، والتحليق في عالم الخيال.

وإلى جانب ما يقوم به التواصل من وظائف تعكس أهميته للفرد، فإن أدواراً أخرى للتواصل تعكس أهمية المجتمع مثل:

- يوفر التواصل للأفراد في المجتمع كل المعلومات الخاصة بالبيئة والأخطار المحيطة بها. مما ينعكس على دعم الاستقرار والأمن داخل المجتمع وخارجه.
- يحقق التواصل الترابط والتقارب بين أفراد المجتمع وعناصره ودعم التفاعل بينهم، فيؤدي ذلك في النهاية إلى تحقيق التماسك الاجتماعي.
- يحقق التواصل المحافظة على الهوية الثقافية للمجتمع، بنقل تراثه من جيل إلى آخر، وتعريف الأجيال الجديدة بهذا التراث، الذي يعتبر أحد المحددات الأساسية للنظام الثقافي في المجتمع.

أنواع التواصل:

إنَّ التنوع فـي عملية التواصل هي التي دفعت إلى البحث عن أنواع التواصل وصوره المختلفة، لذلك سـوف نتناول التصنيفات المختلفة لأنواع التواصل:

أولاً: التواصل تبعاً للغة المستخدمة:

يـرى المهتمـون بالتواصـل الإنساني أنَّ اللغـة تقتصر فقط علـى الثقة اللفظية وحدها، بل إنها: فهـم منظم ثابت يعبر به الإنسـان عن فكره الـذي يجول بخاطره أو إحساس يجيش به صدره هـي لغة قائمة بذاتهـا. وعلى ذلك يمكـن تقسيم التواصل الإنسانـي حسـب اللغـة المستخدمة إلى مجموعتين:

١- التواصل اللفظي «Verbal Communication»:

يدخل ضمن هـذه المجموعة كل أنواع التواصل الذي يستخدم فيها «اللفظ» كوسيلة لنقل الرسالة من المصـدر إلى المستقبل، هـذا اللفظ في الأصل منطوقـاً يصل إلى المستقبل فيدركه بحاسة السمع تكون اللغة اللفظية مكتوبة، ومن الأمثلة على استخدام اللغة اللفظية استخدامها في المحاضرات والندوات والمقابلات الاجتماعية وغيرها.

وتعتبر لغـة الألفاظ هي الأداة الرئيسة لتحقيق التواصل بين أعضاء المجتمع، ذلك لتعقدهـا الشديد مما يجعلهـا أكثر مرونة واتساعاً لإمكانيـات التعبير، وللإسهام في تحقيق أدق عمليات التفاعل الاجتماعي بين الأنا والآخـر. والذي يعنينا هنا هو الإشارة إلى مدى إسهـام اللغة في تحقيق التواصل الذي هو أحد عوامل التكامل الاجتماعي.

٢- التواصل غيـر اللفظـي «Non Verbal Communication»:

وهو عمليـة تبادل المعلومـات والآراء والأفكار دون استخدام لغـة الألفاظ كأداة تواصـل. وتشمل هـذه المجموعة كل أنواع التواصـل التي لا تعتمد على اللغة اللفظية، بل على اللغة غير اللفظية فتمثل هذه اللغة فـي الإشارات والحـركات التي يستخدمها الإنسان لنقل فكرة أو معنى إلى إنسان آخر يصبح مشتـركاً معه في الخبـرة. وهو ما يطلق عليـه التواصل باستخدام لغة الجسم «Body Language».

ويقسم بعض العلماء اللغة غير اللفظية التـي يستخدمها الإنسان فـي التعبير عمّا يجول في ذهنه مـن معاني إلى ثلاثة أنواع هي:

- **لغـة الإشـارة «Sign Language»:** وهـي تتكـون مـن الإشـارات البسيطة أو المعتمـدة التـي يستخدمهـا الإنسان في التواصل مع غيره.
- **لغـة الحركـة أو الأفعـال «Action Language»:** وتتضمـن هذه اللغة جميع

الحركات التي يأتيها الإنسان لينقل إلى الغير ما يريده من معاني أو أحاسيس ومن أمثلة ذلك ما يؤديه الممثل من الحركات على المسرح دون أن يصاحبها ألفاظ، ورغم ذلك تستطيع أن تفهم ما يعنيه، فإذا ما كان يمسك بيده شبكة ويقوم بأداء حركات بها، يمكن أن يفهم منها أنه يقوم بدور أحد صيادي السمك. إلى غير ذلك من الأمثلة.

• **لغة الأشياء «Object Language»:**

ويقصد بالأشياء ما يستخدمه مصدر التواصل، غير الإشارة والحركة للتعبير عن معاني أو أحاسيس يريد نقلها إلى المستقبل، فارتداء اللون الأسود في كثير من الأحيان إشعار الآخرين بالحزن الذي يعيش فيه.

ثانياً: أنواع التواصل من حيث حجم المشاركين في العملية التواصلية:

يمكن تقسيم نوع التواصل من حيث حجم المشاركين في العملية التواصلية إلى ستة أنواع هي:

١) التواصل الذاتي «Self Communication»

التواصل الذاتي هو ما يحدث داخل الفرد، حيث يتحدث الفرد مع نفسه، وهو تواصل يحدث داخل عقل الفرد ويتضمن أفكاره وتجاربه ومدركاته، ويتضمن التواصل الذاتي الأنماط التي يطورها الفرد في عملية الإدراك، أي أسلوب الفرد في إعطاء معنى وتقييم للأفكار والأحداث والتجارب المحيطة به.

ويعتبر فهم هذه العملية التي تحدث بين الفرد وذاته أساس عملية التواصل. ذلك أن رد الفعل تجاه أي رسالة يستقبلها الفرد في أي شكل من أشكال التواصل الأخرى يتوقف على ناتج هذه العملية التي تحدث ذاتياً في جميع المواقف، وتتأثر بالمخزون الإدراكي لدى الفرد عن الأشخاص والرموز التي يتعرض لها الفرد في عملياته الانفعالية.

وقد حظي التواصل الذاتي باهتمام خاص باعتباره حلقة مهمة تربط بين سلوك الفرد والبيئة التي يعيش فيها، كما حظي باهتمام علماء النفس، كونه يرتبط بالبناء المعرفي والإدراك والتعلم والسمات النفسية كافة.

٢) التواصل الشخصي «Interpersonal Communication»:

هو التواصل المباشر حيث يمكن فيه أن تستخدم الحواس الخمس، ويتيح هذا التواصل التفاعل بين شخصين أو أكثر في موضوع مشترك، ونتيجة التواصل المباشر تتكون الصداقات والعلاقات الحميمة بين الأفراد، ويتيح هذا النوع من التواصل فرصة التعرف الفوري والمباشر على تأثير الرسالة، ومن ثم تصبح الفرصة أمام القائم بالتواصل سانحة لتعديل رسالته وتوجيهها بحيث تصبح أكثر فعالية أو إقناعاً.

٣) التواصل الجمعي «Group Communication»:

يحدث التواصل الجمعي بين مجموعة من الأفراد مثل: أفراد الأسرة، زملاء الدراسة أو العمل، جماعات الأصدقاء لقضاء وقت فراغ أو التحادث، أو اتخاذ قرار أو حل مشكلة. حيث تتاح فرصة المشاركة للجميع في الموقف التواصلي.

٤) التواصل العام «Public Communication»:

ويعني وجود الفرد مع مجموعة كبيرة من الأفراد كما هو الحال في المحاضرات والأمسيات الثقافية والندوات. ويتميز التفاعل بين أعضاء هذا النوع من التواصل بأنه مرتفع، كما يتميز بوحدة الاهتمام والمصلحة والالتقاء حول الأهداف العامة. وعادة ما يتم هذا النوع من التواصل في أماكن التجمعات.

٥) التواصل الوسطي «Medio Communication»:

يسمى هذا النوع بالتواصل الوسطي لأنه يحتل مكاناً وسطاً بين التواصل المواجهي والتواصل الجماهيري، ويشتمل التواصل الوسطي على التواصل السلكي من نقطة إلى أخرى مثل: الهاتف، الراديو، الأفلام التلفزيونية من خلال الدوائر المغلقة. والمشاركون فيه عادة ذو ثقافة مشتركة ومرتبطون بتواصل شخصي، وغالباً ما يكون التواصل شخصي غير محكم البناء. ويشبه التواصل الوسطي التواصل الجماهيري من حيث استخدام معدات ميكانيكية أو إلكترونية في نقل الرسالة.

٦) التواصل الجماهيري «Mass Communication»:

هو عملية التواصل التي تتم باستخدام وسائل الإعلام الجماهيرية. ويتميز التواصل الجماهيري في قدرته على توصيل الرسائل إلى جمهور عريض متباين الاتجاهات والمستويات، ولأفراد غير معروفين، تصلهم الرسالة في اللحظة نفسها وبسرعة فائقة.

وتحتاج وسائل التواصل الجماهيرية إلى توافر بعض الشروط اللازمة لنموها وازدهارها في أي مجتمع هي:

- وجود مناخ ملائم من حرية الرأي والتعبير.
- وجود قاعدة علمية وثقافية في المجتمع يكون بإمكانها إنتاج المعلومات وتوزيعها واستهلاكها.
- وجود قدر معقول من الكثافة السكانية في المجتمع.
- الإمكانيات التكنولوجية المتاحة للتواصل مثل: «الهاتف، والأقمار الصناعية، والمطابع الحديثة».

أساليب التواصل «Communication Styles»:

ليس هناك شخصان يتصرفان بالطريقة نفسها، كما أن الشخص لا يتصرف بالأسلوب ذاته في جميع الأوقات. ومع ذلك فإن هناك ملامح أساسية للتواصل الإنساني تمثل طرقاً مميزة للتعامل مع المواقف المتبادلة بين الأشخاص. وقد حددت فرجينيا ساتير «Virginia Satir» خمسة أساليب أساسية للتواصل تنطوي على ما يلي:

١- أسلوب العدوان واللوم:

يميل الشخص الذي يستخدم هذا الأسلوب إلى أن يتصرف دائماً مع الآخرين مستخدماً لهجة الطلب. كما يتميز أكثر اللواميين تطرفاً بأنهم مستبدون كما أنهم يفرضون آراءهم على الآخرين ويفعلون ما يريدونه على حساب حقوق الآخرين ومشاعرهم وعواطفهم.

٢- أسلوب الاسترضاء وعدم الجزم:

يحاول الأشخاص الذين يتخذون هذا الأسلوب، استسماح الآخرين، وإنكار ذاتهم، وهم نادراً ما يرفضون أمراً، ولذلك فهم يحتاجون دائماً إلى من يساندهم أو يؤيدهم، وهم غير قادرين على التعبير عما يريدونه بصفة مباشرة وحاسمة.

٣- الأسلوب العقلي:

الأشخاص الذين يستخدمون هذا الأسلوب يعلقون أهمية قصوى على احتساب كل ما يفعلونه مع الآخرين ومعالجته معالجة تعقلية. ولهذا فإنه أسلوب يستلزم قدرة فائقة على أن يظهر الإنسان بمظهر الهدوء، والرصانة، والاتزان، فلا يسمح لمشاعره أن تخرج إلى حيز التعبير.

٤- الأسلوب الملتوي أو الاحتكاري:

يقوم هذا الأسلوب على أساس من عدم الاندماج في المواقف المتبادلة بين الأشخاص أو المواقف الشخصية، ويشار إليه بهذه العبارة «ابتعد عن المواقف المهددة». والأشخاص الذين يستخدمون هذا الأسلوب يتبعون كل أنواع الإستراتيجيات للمحافظة على ذاتهم بعيداً عن أطراف التواصل غير المريحة. ولكن عندما لا يتمكنون من تحاشي هذه الأطراف غير المريحة لهم، فإنهم يلجؤون إلى استخدام أسلوب آخر للتعامل مع هؤلاء وهو أسلوب المناورات الملتوية أو أسلوب احتكار مشاعر الآخرين وعواطفهم واستغلالها.

٥- الأسلوب الواضح المباشر:

يتميز الأشخاص الذين يستخدمون هذا الأسلوب بقدرتهم على الإفصاح عن حقوقهم، والتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وحاجاتهم بطريقة مباشرة

وشريفة ومستقيمة. ويكشف الأشخاص الذين يعتمدون على هذا الأسلوب عن عدم لجوئه إلى تحقيق حرياتهم على حساب حريات الآخرين، واستعدادهم الدائم للتفاوض والحوار وعقد الصلح. لذا يعتمد هذا الأسلوب على مبدأ الاحترام.

مما تقدم نتوصل إلى أن كل أسلوب من هذه الأساليب يعتبر فعالاً وإيجابياً في مواقف معينة. وإن هناك كثيراً من أساليب التواصل المتاحة أمام الأشخاص. وإن الاستخدام المعتاد لنموذج واحد وبالذات في جميع المواقف دون تمييز لطبيعة الموقف، هو الذي يمكن أن يتسبب في المشكلات المتصلة بالعلاقات بين الأشخاص.

وظائف التواصل:

إنَّ التواصل الإنساني يستخدم لتحقيق وظائف متعددة مختلفة أهمها:

١- استقبال ونقل المعلومات من طرف إلى جانب آخر. وتبادل المعلومات والأفكار والتجارب بين أفراد المجتمع، وإحاطة الأفراد والجماعات بالأخبار الصحيحة والدقيقة والمعلومات الواضحة والحقائق الموضوعية.

٢- استقبال المعلومات والاحتفاظ بها. ويسهم التواصل في النشاط الترويجي والإعلاني عن البضائع والسلع التجارية.

٣- تحليل البيانات والمعلومات المتاحة واشتقاق نتائج جديدة تفيد في إعادة بناء الأحداث وزيادة القدرة على التوقع والتنبؤ بالمستقبل.

٤- التأثير في العمليات الفسيولوجية داخل الجسم وتعديلها.

٥- التأثير في الأشخاص الآخرين وتوجيههم. والتواصل بين أفراد المجتمع يسهم في تحقيق الاتزان داخل الجماعة.

٦- الوظيفة الشاملة للتواصل حيث أنه وسيلة للثقافة والتعليم والتعلم.

٧- التواصل وسيلة لنمو شخصية الإنسان منذ ولادته حتى نضوجه وتطوره.

٨- التواصل وسيلة لتحريك سلوك الإنسان نحو تحقيق الهدف.

٩- تمثل مهارة التواصل حجر الزاوية في الوظائف الأربعة لعملية التواصل هي:

• **التخطيط:** للحصول على البيانات وتحليلها ودراسة المشكلات واستنباط المؤشرات والتنبؤ والتوقع.

• **التنظيم:** حيث تمثل خطوط التواصل في الهيكل التنظيمي لأي مؤسسة أهمية كبرى لضمان سهولة تبادل المعلومات والبيانات بين أجزاء ووحدات المنظمة في ضوء تعدد وتباين الوظائف في المنظمة.

• **التوجيه:** أي تحريك سلوك العاملين لتحقيق الأهداف الإنتاجية أي إرشادهم

بصورة مستمرة للكيفية التي تمكنهم من ذلك.

• **الرقابة**: حيث تعتمد عملية متابعة وتقييم أداء العاملين على مشاهدة وملاحظة نشاطهم وسلوكياتهم، ويتطلب ذلك توفير بعض المهارات في إجراء مقابلات التقييم مع المرؤوسين أو الرؤساء، وكذلك التواصل المكتوب في صورة التقارير الدورية والتي تتعلق بإنجاز بعض الأعمال.

أهم مراحل التواصل:

تحدد المراحل التي تتم فيها عملية التواصل الإنساني كما يلي:

أولاً: مرحلة المواجهة «Encounter»:

وتمثل المرحلة الأساسية للتواصل الإنساني حيث يتم فيها الاقتران بين ما يقدمه فرد من معلومة محددة وبين متلقي من خلال وسيلة معلوماتية محددة وتمثل المواجهة أبسط أشكال التواصل الإنساني، ومن شروط نجاح عملية المواجهة:

• دقة نظام بث المعلومات.

• المدى الإرسالي الذي تصل به المعلومات للمتلقي بدقة وانتظام.

• نوع المتلقي إذا كان متعلماً أم أمياً أو شبه مثقفٍ.

ثانياً: مرحلة التبادل «Exchange»:

وهي مرحلة تدفق المعنى المشترك، وتمثل الجهد المبذول من المشاركين في حدوث عملية التواصل لإبقاء الالتقاء الفكري حول معنى محدد، وذلك من خلال مجموعة من الرموز، أو الشيفرات المتفق عليها. ولابد أن تكون الرموز وكذلك الشيفرات مفهومة لدى المشاركين في عملية التواصل ولذا يتوقف نجاح عملية التبادل على البناء النفسي والاجتماعي وخبرات المشاركين.

ثالثاً: مرحلة التأثير «Influence»:

وتتمثل في درجة التحول التي تحدث في كل من اتجاه الفرد وسلوكه تجاه موقف أو شخص أو موضوع ما قبل مشاركته في المرحلتين السابقتين، وكذلك اتجاهه وسلوكه بعد المشاركة فيهما أو في إحداهما، وهذه المرحلة تعبر عن التأثير النفسي والسلوكي لعملية التواصل لدى الفرد لحدوث التواصل والتي يصعب قياسها وتتوقف هذه المرحلة على ما قبلها من مراحل.

رابعاً: مرحلة التحكم والتكيف «Control and Adaptation»:

تعتبر المرحلة التنظيمية لعملية التواصل والتي تتضح من خلالها فعالية نظام التواصل، ويشير التحكم في هذه العملية إلى الجهد المبذول من المرسل من أجل

تنظيم عملية التواصل، في حين أن التكيف يوضح الجهد المبذول من المستقبل لتنظيم عملية التواصل.

بعض النظريات السيكولوجية المفسرة للتواصل:

نشير فيما يلي إلى أهم النظريات النفسية التي اهتمت بالفعل بدراسة عملية التواصل هي:

١- نظرية التعلم «Learning Theory»:

إذا حاولنا تحليل مكونات نظرية التعلم للتواصل في ضوء تحليلات علماء النفس الذين ركزوا على أهمية هذه النظرية في دراسة طبيعة التواصل وأساليبه ووسائله المختلفة، نجد أن طبيعة التعليم كعملية من العمليات التي تكشف عن طبيعة التواصل الشخصي والتي تم تحديدها من قبل علماء التواصل من أمثال برلو «Berlo»، وهيل «Hull»، وسكينر «Skinner»، وثورندايك «Thorndik» وغيرهم. حيث ركزوا على كيفية إتمام عملية التواصل عن طريق التعلم.

كما سعى علماء نظرية التعلم لأن يوضحوا مضمون «المنبه» والاستجابة كنوع من المفاهيم الأساسية التي استخدمها رواد هذه النظرية. وقد استخدم علماء التواصل نظرية التعلم في الكشف عن الكثير من عمليات التواصل وهذا ما ظهر بوضوح في الكثير في نماذج التواصل «Communication Models» والتي تميزت في التواصل الشخصي، سواء كان تواصل داخل الفرد ذاته، أو بين فردين أو أكثر.

ومن ناحية أخرى يحدد علماء التواصل طبيعة السلوك الفردي «الشخصي» أو الجماعي نتيجة لحدوث عملية التواصل بين أطرافها «المنبه والاستجابة» وذلك عن طريق تحديد أنواع مختلفة للتواصل. ويهدف علماء التواصل الذين يركزون على ضرورة استخدام نظرية التعلم، لفهم عملية التواصل وشرح عناصرها الأساسية وعلى أهمية فهم السلوك البشري كشرط أساسي لتحليل ودراسة العملية التواصلية التي تزداد يوماً بعد يوم تعقيداً وتطوراً، سواء من ناحية مضمونها أو أساليبها ووسائلها التكنولوجية أو جمهورها من ناحية أخرى. وبالطبع إن التواصل في حد ذاته يعتبر نوع من المنبهات، التي تؤثر على السلوك الفردي.

كما سعى التواصل أيضاً لدراسة العديد من مكونات وعناصر العملية التواصلية، وذلك في ضوء الاهتمام بنظرية التعلم السيكولوجية، والتركيز بصورة خاصة على طبيعة عناصرها الأساسية «المنبه والاستجابة».

وفي الحقيقة أن الاهتمام بنظرية التعلم فـي دراسة وسائـل التواصـل الجماهيري باعتبارها إحدى النظريـات السيكولوجية المرتبطـة بالعملية التواصليـة والتي ذاع استخدامها منذ فترة طويلة. أثبتت أهميتها في دراسـة الكثير من جوانب هذه العملية. ولاسيمـا أن طبيعة توصيـل المعلومات أو الأفـكار أو الآراء والاتجاهات أو الثقافات بمفهومها العام تكشف عن مجموعة علاقات متداخلة بين نوعية المنبهات والاستجابات التـي تظهر كرد فعل لنقل المادة الإعلامية أو التواصلية أو الثقافية ككل.

٢- نظريـة الاتفـاق «التـوازن» «Congruence Theory Balance»:

مع تطور الاهتمام بالمداخل السيكولوجية في دراسة عمليـات التواصل التي يعتبرها الكثيرون أنها عملية سيكولوجية « نفسية « من الدرجة الأولى، ظهرت تحليلات متعددة ركزت على تبني الكثير من آراء علماء النفس التقليديين، وهذا ما ظهر في نظرية الاتفاق أو نظريـة التوازن حيث تعتبر هذه النظرية علماء النفـس الجشطلتي الإطار المرجعي لها والتي ترتبط بالمحـاولات الأولى التي ظهرت لتوجيه نظريات التواصل العامة.

ومن الناحيـة السيكولوجية والمنطقية، نجـد أن مفهـوم الاتفاق يفرضـ دائما أن الإنسـان يسعى لتحقيـق التوازن في حياته وسلوكه وآرائه وأفكاره ومعتقداته وتواصلاته عموماً مع الآخرين، وأيضاً مع ذاته الفردية. ولذا يهتم علماء التحليل النفسي والسلوكي بمعرفة العمليـات والمحاولات التي يبذلها الفرد والتي تؤثر على كل من حالات التوازن والتوافـق وأيضاً عدم التـوازن أو التوافق. لأن مثل تلك العمليات تؤثر بها بالطبع على استجابتـه. والتي تعتبر كـرد فعل لطبيعة الرسائل التواصلية التـي يتلقاها دائماً من المصدر أو المنبه.

وتركز هذه النظرية على الكشف ومعرفة الأسلـوب الذي عن طريقـه يمكن أن تكون الحالـة السيكولوجية للفرد في حالة توازن أو اللا توازن. خاصة وطبيعة الفرد البشرية مـن الناحية النفسية، أما أن تكون في حالة من التوازن أو اللا توازن.

عمومـاً لقد اهتـم الكثير مـن علماء التواصـل بتطبيـق الكثير مـن النظريات السيكولوجية، التي يستخدمها علماء النفس في دراسة كل من الطبيعة الفردية والجماعية ومعرفة أنمـاط السلوك ورد الفعل الفردي أو الجماعي نتيجـة حصولهم على مصدر المعلومات التي تنقل إليهم سواء عن طريق التواصل الذاتي الذي يعتمد على الخبرة أو التعلم أو عن طريق التواصل الشخصي.

مقومات التواصل الفعال:

١- حسن الاستماع وعدم المقاطعة غير المدروسة، واحترام الآخر واحترام رأيه وإن كان مخالفاً لرأينا، والقبول بمبدأ الحوار وتقبل النقد البناء.

٢- المرونة في التعامل مع الآخرين ومفتاح ذلك أن نبدأ من موقع الآخر، أي أن نقف مكانه ونشعر بمشاعره ونرى ما يراه ونفكر بما يفكر به. والأهم أن نضع في اعتبارنا أن الأكثر مرونة هو الأكثر تحكماً في النتائج، ففي الأسرة مثلاً الأكثر مرونة هو الذي يستوعب ويتفهم باقي الأفراد ويحسن التواصل معهم.

٣- نحن المسؤولون أولاً عن نجاح التواصل مع الآخرين، وليس الآخر خاصة عندما نعلم أنه لايوجد أشخاص مقاومون للتواصل فكل شخص له مفتاح أو مدخل وعلينا اكتشافه، لذا يجب أن نغير باستمرار طرقنا في التواصل حتى نحصل على النتائج المثمرة والإيجابية.

٤- التركيز على نقاط التشابه مع الآخر سواء في الحركات، وطريقة الجلوس ونبرة الصوت، وأسلوب وطريقة الحديث، والتشابه في الأفكار والقناعات والقيم والعادات.

٥- التواصل هبة من الله تعالى، ولكنها مهارة مكتسبة يمكن تعلمها والتدرب على ممارستها بنجاح من خلال الاطلاع على علوم التنمية البشرية والدورات التدريبية، وقراءة الكتب والمجلات المتخصصة في هذا المجال.

٦- توافر البيئة المناسبة للتواصل «المكان والزمان» والخالية من المشاكل.

٧- إعداد الذات للتواصل «أي الحالة الصحية والنفسية السليمة» والتحرر من الأفكار الذهنية المسبقة، إن مفهوم الإنسان الإيجابي عن ذاته يعطيه فرصة أكبر ليتواصل بفعالية ونجاح مع الآخرين «الثقة بالنفس، وحسن التكيف، وتقدير الذات».

شروط نجاح التواصل:

١- وجود رغبة وحافز لدى المرسل وهذا يستدعي أن يكون له هدف واضح.

٢- تحديد صيغة الرسالة ولابد أثناء ذلك من توقع رد فعل المستقبل. والرسالة الناجحة هي التي تجيب عن خمس أسئلة:

أ- ماذا أريد من هذه الرسالة؟

ب- متى أريد ذلك؟

ج- أين أريده؟

د- كيف أريد أن يتحقق؟

ه- لماذا أنا أريده؟

٣- إنجاز الرسالة فعلاً وتنفيذها على أرض الواقع.

٤- استقبال المرسل لرسالتك.

٥- رد فعل المستقبل أو المرسل إليه

تجاه رسالتك هو الهدف الذي تسعى لبلوغه والوصول إليه.

إذن، نستخلص مما سبق أن التواصل حتى يكون ناجحاً لابد من ركنين أساسيين هما:

١- إقامة علاقات قوية مع الآخرين والتوافق معهم.

٢- نقل المعلومات والأفكار إلى الآخرين والتأثير فيهم بما تريد.

خصائص التواصل الاجتماعي:

يمكن أن نلخص خصائص التواصل الاجتماعي فيما يلي:

١- إنَّ التواصل يعني التفاهم وتبادل الرسائل بين طرفين يشتركان في علاقة اجتماعية، وقد تكون هذه العلاقة مؤقتة أو عارضة. كما يحدث لاثنين مسافرين على متن طائرة فجاءت جلستهما في مقعدين متجاورين فتجاذبا الحديث فاتفقت آراؤهما، ولما هبطت الطائرة ذهب كل منهما في حال سبيله.

٢- تعني قدرة الفردين على التواصل إضافة إلى وجود علاقة اجتماعية بينهما، أنهما يشتركان في نظام اجتماعي واحد، ويستخدمان لغة مشتركة، وإن التواصل بينهما يجعل منهما جماعة وإن كانت فترة التواصل عارضة وسوف تنتهي، وإلا ما حدث التفاهم بينهما.

٣- إن المعلومات التي تتضمنها أي رسالة متبادلة لها مظاهرها الصريحة ومظاهرها الضمنية. الأم حين تقول لطفلها باسمه «إياك أن تفعل هذه ثانية» تحمل رسالتها إليه من المعاني غير المعاني التي تحملها وهي تقولها غاضبة مهددة متوعدة.

٤- من خصائص شبكات التواصل أنها مقيدة محددة، بمعنى أن المعلومات التي تسري من وحدة إلى أخرى من وحدات نظام التواصل المستخدم يكون لها اتجاه وتسير في قناة هدفها محدد لكي تكون نقية واضحة خالية من التشويش الذي قد يعوق انتقال الرسالة.

٥- والتواصل الاجتماعي له أهميته في أنه يحدد لنا هوية الآخرين. فمن المألوف لدينا أن نجد أنفسنا في وسط جماعة لانعرف فيها كما يحدث حين نقوم بزيارة صديق فنجد آخرين لا نعرفهم. فإذا كان المتحدث ذا مركز رفيع فإنه في العادة يحظى باهتمام أكبر من الاهتمام الذي نعطيه لشخص نعرف أنه أقل مركزاً.

٦- وتعتبر اللغة من أهم أشكال التفاعل الاجتماعي لاستمرار الهوية الثقافية ويؤدي التحدث بلغة واحدة إلى تدعيم التماثل في السلوك الاجتماعي.

٧- يمكن تمييز المستوى التعليمي بل الطبقة الاجتماعية للفرد بل والإقليم الذي

ينتمي إليه، من أسلوبه في التعبير ومن لهجته. وينجح التواصل كلما زاد التقارب في المستوى التعليمي والاجتماعي.

٨- هناك عامل آخر هو المسافة المترية التي يحتفظ بها الناس في الحديث وجها لوجه، فإذا حاولنا -مثلاً- كتجربة علمية قياس المسافة المترية التي تفصل بين المرؤوس أثناء حديثه مع رئيسه لابد وأن نجد أنها أطول من المسافة التي تفرق بينه وبين صديق له يتبادل معه الحديث.

٩- إنَّ المعلومات المشتركة هي محور التواصل القائم على أساس التبادل، فالمعلومات المستقاة من القراءة والملاحظة والإنصات للآخرين تؤثر في التواصل المتبادل بين الأفراد. فالمعلومات عن الآخرين وتوقعاتهم تؤثر في العلاقات القائمة على المواجهة بطرق متعددة.

تنمية مهارات التواصل مع الآخرين:

فن الحوار:

للحوار أهمية كبيرة، فهو من وسائل التواصل الفعالة، حيث يتعاون المتحاورون على معرفة الحقيقة والتوصل إليها. والحوار مطلب إنساني تتمثل أهميته من خلال استخدام أساليب الحوار البناء لإشباع حاجة الإنسان للاندماج في الجماعة، والتواصل مع الآخرين، فالحوار يحقق التوازن بين حاجة الإنسان للاستقلالية وحاجته للمشاركة والتفاعل مع الآخرين. كما يعكس الحوار الواقع الحضاري الثقافي للأمم والشعوب، حيث تعلو مرتبته وقيمته وفقاً للقيمة الإنسانية لهذه الحضارة وتلك. وتعد الندوات واللقاءات والمؤتمرات إحدى وسائل ممارسة الحوار الفعال، الذي يعالج القضايا والمشكلات التي تواجه الإنسان المعاصر.

وفيمايلي بعض الإرشادات التي تساعد على تنمية مهارة الحوار:

- **الإنصات:**

وهو أهم نقطة في المحادثة، وقد تعتقد أن الحوار يقتصر على الكلام المتبادل بين طرفين أو أكثر، ولكن من الصعب فهم كلام الآخرين ما إن كان الطرف الآخر يستمع وينصت إليك، وبالتالي يفكر في ما سوف يقوله في الجملة التالية، لذلك يجب الانتباه إلى كل ما يقال عند الحديث لشخص معك.

- **حاول أن تعرف ما يهم المتحدث أمامك:**

قبل أن تبدأ الحوار أو النقاش مع شخص ما حاول أن تفهم مفتاح الشخص الذي أمامك فلو كان من الشخصيات التي تحب المدح والإطراء، ستجد بعد جمل إطرائية عدة في أول الحوار تفتح الباب أمامك

لطرح مواضيع عدة كان من الصعب طرحها سابقاً، وبالمدح والمجاملة تكون البداية أفضل لكسر كل الحواجز.

• **اسأل بعض الأسئلة:**

اسأل من يستمع إليك عن ما يحب أن يعمل؟ عن الأشياء التي عملها في حياته؟ ماذا يعمل في الوقت الحاضر؟ ماذا عمل اليوم أو في عطلة نهاية الأسبوع؟ استفسر عن بعض الأشياء التي قد تحب أن تعرفها؟

• **فكر في ردة فعلك قبل المعارضة:**

فلو كان اعتراضك على رأي ما غير مهم أو ليس ذا علاقة جوهرية بموضوع النقاش، فالأفضل أن تحتفظ برأيك وأن لا تطرحه أمام الآخرين، لأن طرح الآراء المعارضة غير المهمة تجعل من صاحبها شخصاً مجادلاً فقط، فالمعارضة الكثيرة والدائمة قد تنحيك جانباً. لذا تذكر النقاط التالية:

• الناس لديهم فروق كثيرة في كل شيء وذلك ما يجعل الحديث ممتعاً معهم.

• الموافقة على كل شيء تراه قد تقتل الحوار مثل المعارضة على كل شيء.

• قد يستمتع الشخص بأنك تختلف عنه، ولكنه سيجدك بغيضاً إذ كنت تعارضه على كل شيء.

• عند معارضتك حاول أن تلغي كلمة «لكن» في حوارك لأنها تضع المتحدث في موضع الدفاع واستخدم عوضاً عنها أسلوب المحامي اللبق مثل «أوافقك في بعض النقاط ولكن في هذه النقطة...».

• **يجب أن تعرف كيف تنهي الحوار:**

حتى أفضل المحاورين أو المناقشين يواجهون قطع الحديث، فبادر أنت بإنهاء الحوار إذا تطلب الأمر بشكل محترف صافح الشخص الآخر وتأكد من إخباره بأنك استمتعت بالحديث معه، أنه اللقاء بكلمات لطيفة تعطي الشخص الآخر الطابع الإيجابي لك، لأن ذلك يشجعه على العودة مرة أخرى بأشياء جديدة.

أفضل طرق تنمية مهارات التواصل:

- **المعرفة:**

والتي ربما أن تكون هي أهم المهارات المطلوبة لتصبح محاوراً جيداً. فأنت تحتاج إلى معرفة بالعديد من الموضوعات حتى تعرف كيف تتواصل مع الآخرين؟ ومتى؟. وأن تكون على علم بالبيئة المحيطة من حولك هذا وليس فقط لتحسين نفسك في عملية التواصل بل سيساعدك أيضاً على السيطرة على أي محادثة عموماً، فعندما تتحدث مع زميلك عن موضوع ما يجب أن تكون على دراية بالموضوع حتى تعرف كيف تتواصل معه؟، وتذكر دائماً أن الشخص ذا المعرفة الأفضل يصنع تواصلاً أكثر فاعلية.

- الثقة بالنفس والتخلص من الخجل:

إذا أردت أن تكون محاوراً جيداً، يجب أن تكون واثقاً من نفسك، وأن تخرج إلى العالم الحقيقي، فالتواصل والتعبير عن أفكارك للناس، وإذا كنت خجولا لن يوجد لديك على الإطلاق أي وسيلة للتواصل مهما كنت ترغب في التواصل فلابد أن تتخلص من خجلك حتى لو كان الأمر غير سهل على الإطلاق في البداية، ولكن فقط الخطوة الأولى تكون دائماً الأصعب. وتعلم من الناس الذين يتواصلون بشكل جيد جداً في عالم اليوم ستلاحظ عند كل منهم هو أنهم لا يخجلون ويتعاملون بحرية في العالم.

- اقرأ لتتعلم فتتحدث:

لننظر حولنا في كل التواصلات المدهشة بين الناس في العالم والتي تحدث باستمرار هنا وهناك. ستلاحظ شيئاً مشتركاً في كل منها أنها ناتجة عن القراءة بكل اللغات فيتعلمون ويتحدثون باستمرار. هذه هي الطريقة التي تحسن التواصلات الخاصة بهم. ولكي تكون من المحاورين الجيدين يجب أن تجعل القراءة عادة حقيقة لك، فالقراءة توسع المفردات الخاصة بك دون شك، مما يعطي لك فرصة أوسع لاستخدامها أثناء التواصل، والقراءة في لغة معينة تساعد أيضاً على تطوير فهمك عن هذه اللغة التي من شأنها أن تساعدك بالتأكيد في التواصل والقراءة أكثر ستساعدك على التواصل بشكل أفضل.

- تعلم مهارات لغوية جيدة:

ويتم التواصل بالعديد من اللغات في هذه الأيام، منها: «الإنكليزية والألمانية والإيطالية والهندية والعربية»، فاللغات ضرورية لاثنين من الناس ليتواصلا باستخدام اللغة نفسها. فإذا كنت ترغب في التحدث إلى شخص ما في اللغة الإنكليزية يجب أن تبدأ في التعامل السليم مع اللغة الإنكليزية. لا أحد يحب أن يتواصل مع شخص لا يعرف لغته بشكل صحيح.

- استخدم لغة جسدك ومشاعرك جيداً:

تعلم أن تعدل صوتك من وقت لآخر فلا تتكلم بنبرة واحدة وكذلك مع تعبيرات الوجه والجسد فتبتسم في بعض المواقف وتتنفس الصعداء وتضييق عينيك في مواقف أخرى. فلغة الجسد هي جزء مهم أثناء التواصل كما أنه يضيف أكثر بكثير على ما كنت تحاول أن تنقله.

- تأكد من أنك مفهوم:

كل ما يحتاج المرء إلى القيام به عند التواصل مع الآخرين هو التأكد من أنه مفهوم وأفضل طريقة للحصول على أفكار أثناء الحوار هي أن يبقى بسيطاً. فأنت لاتحتاج

إلى استخدام كلمات كبيرة ومعقدة وأن يكون مباشراً للغاية وإلى النقطة المحددة. فتجعل من السهل للشخص فهم ما تحاول توصيله وما كنت ترغب في الحصول عليه، فعملية التواصل الجيدة هي عملية ذات اتجاهين ترسلها عبر أفكارك وتتلقى رداً عليها. إذا كنت لا تفهم في المقام الأول وكنت لا تحصل على الاستجابة المطلوبة لن تتمكن من إكمال التواصل.

- استخدم التواصل الجيد بالعينين:

إذا كنت على تواصل بشخص فسوف تحتاج لجعل العين على تواصل جيد هذا هو جانب من التواصل والذي معظم الناس إما تتجنبه أو ليسوا على علم به، وهو يعطيك شعوراً بمدى توصيل رسالتك، وتشير الدراسات إلى أن النساء أفضل بكثير في جعل العين على تواصل من الرجال خلال المحادثات.

- اتصل جيداً:

هذه المهارة تأتي عندما تتواصل مع شخص غريب لأول مرة. فإن تكون قادراً على التواصل الجيد هو جزء مهم للغاية من كونه تواصل فعال، كالحديث عن المصالح المشتركة بين البلدين في حال كان من بلد مختلف.

- تعلم كيف تبني علاقات جيدة؟:

تكون التواصلات في أفضل حالاتها عندما تكون عملية ذات اتجاهين، ففي علاقاتك مع أصدقائك تعلم كيف تبني علاقات جيدة معهم؟ تقدر أعمالهم وتمدح أفعالهم، ليشعروا بقيمة التواصل معك.

الاستماع هو جزء مهم في عملية التواصل، وأفضل طريقة لتصبح محاوراً جيداً هو تعزيز مهارات الاستماع لديك، مما يجعل لك جهاز استقبال جيد يؤهلك للرد في أي عملية تواصل. للأسف معظم الناس لا يدركون أهمية الاستماع أثناء التواصل، أفضل التواصل دائماً من أفضل المستمعين، فكونه مستمعاً جيداً يساعدك على الاستجابة بشكل جيد أثناء التواصل، والاستماع بعناية إلى ما يتحدث به شخص يساعدك ويعطيك أفكاراً لإكمال التواصل بشكل فعال.

- تنمية التواصل بين الناس:

يؤمن كثير من الناس بفاعلية شبكة الإنترنت في تجمع الأشخاص ذوي الاهتمامات المتشابهة مع بعضهم، فإذا كنت تبحث عمّن يشاركك هوايتك المفضلة أو عّمن يحب الرياضة نفسها التي تحبها فالشبكة هي خير معين لك، فالناس الذين تضطرهم ظروفهم المرضية أو حابس يحبسهم في المنزل فالشبكة هي خير لهم فهي هبة من عند الله بالنسبة لهم.

ولكن يجب أن تتذكر أن قضاء وقت طويل أمام شاشة الكمبيوتر والتحدث من خلال

الكتابة إلى المستخدمين الآخرين على الشبكة لن يعوض عن متعة الجلوس وجهاً لوجه مع شخص آخر لكل ما تحمله لك التجربة من مزايا فأنت تحتاج إلى التواجد وجهاً لوجه مع أي شخص آخر ولفترة ما حتى تستطيع أن تصل معه إلى مرحلة من التفاهم سواء عن طريق الكلمات أو عن طريق الإيماءات والأحاسيس. فالأجواء التي تنشأ نتيجة الحضور الجسماني والعقلي تتفوق في الأهمية على الانجذاب السطحي الذي قد يحث بين الشخصين.

فإذا كنتما غير قادرين على إرضاء الاحتياجات العاطفية لبعضكما البعض فإن العلاقة بينكما تكون مهددة بالفشل وهذا ما يحدده التفاعل الشخصي فقط فهنا تستطيع أن تحكم ما إذا كنت فعلاً تتواصل مع الناس أم لا.

معوقات التواصل «Communication Barriers»:

تتعرض عملية التواصل لمعوقات مختلفة تؤدي إلى تشتت المعلومات أو ضعف القدرة على استيعابها مما يؤثر على كفاءة العملية، وتتضمن صعوبات التواصل والأبعاد التواصلية التالية كافة:

١- **المشكلات الذاتية:** للمرسل والمستقبل وتشمل: «التمركز حول الذات، التعصب، التواكل، تباين الإدراك، القصور في مهارات التحدث، المسايرة المبالغ فيها، التمرد، الخداع والكذب وعدم الأمانة، الشعور بالمعرفة الكاملة، والمبالغة في التواصل».

٢- **مشكلات معاني اللغة:** غالباً مايكون هناك درجات من الاختلاف في فهم الآخرين وإدراكهم المعاني، وتمثل طريقة استخدام اللغة أحد المعوقات الكبيرة للتواصل وتسبب اللهجات المختلفة في اللغة الواحدة والمسميات المختلفة للشيء الواحد الكثير من التشويش.

٣- **المعوقات التنظيمية «بيئة العمل»:** يعتبر الهيكل التنظيمي في أي منظمة عبارة عن مجموعة العلاقات بين جميع مكوناته أي جميع أقسامه وإداراته ووحداته، ويؤدي عدم الأخذ بالمبادئ الصحيحة للتنظيم إلى ضعف فاعلية عملية التواصل داخل المنظمة ويؤدي عدم وجود الهيكل التنظيمي أو وجود هيكل ضعيف إلى عدم وضوح الاختصاصات والمسؤوليات مما يؤدي إلى الكثير من التشويه للمعلومات لضعف أو فشل عملية التواصل، وقصور نظم التواصل يمكن أن يكون نتيجة لعدم وجود سياسة واضحة للإدارة، كما يؤدي القصور في المعلومات إلى عجز القائمين في العمل على الحصول على البيانات اللازمة لأداء أعمالهم، كما أن القصور في إيجاد

قنوات لربط المنظمة بالبيئة الخارجية من معوقات التواصل الجيد.

٤- **المعوقات الميكانيكية:** كلما زادت أجهزة التواصل تعقيداً كلما ظهرت الحاجة إلى تدريب الأفراد على استخدامها أو عدم صيانتها أو مشكلات البرامج المستخدمة في تشغيلها، مما يسبب حدوث معوقات كبيرة تؤثر في كفاءة عمليات التواصل وتحقيق أهدافها، كما يمثل المغالاة في استخدام الأجهزة الأكثر تعقيداً دون الحاجة إليها إحدى أهم معوقات التواصل.

المقترحات والتوصيات:

من أهم التوصيات والإرشادات التربوية والنفسية، التي يمكن أن تسهم في مساعدة الأشخاص على تنمية الحوار والتواصل لديهم ما يلي:

١- على المجتمع أن يؤمن بالحوار كوسيلة للتواصل بين البشر،والتأكد من جاهزية الطرف الآخر للقاء والتواصل.

٢- ضرورة ممارسة الحوار مع الآخرين.

٣- يجب التحلي بآداب الحوار، وتفادي الأسئلة التي إجابتها نعم أو لا وتجنب الأسئلة المحرجة.

٤- احترام حق الآخرين في التعبير عن آرائهم، والابتسامة اللطيفة والثناء على سلوكيات الآخر الإيجابية.

٥- لابد من وجود ميزة معينة أو خصائص يتقبلها الآخرون حتى يتم نجاح الحوار.

٦- توفير وسائل التواصل المتقدمة لجميع أفراد المجتمع المتعلمين.

٧- تعليم الفرد كيف يقدم نفسه بتواضع مقبول وكيف يبدأ الحديث وكيف يستمر به.

٨- يجب توفير مناخ يسوده الحب والمودة والاحترام في المجتمع حتى يكون هناك تفاعل وتواصل مستمر بين أفراده، وترك انطباع حسن يدعو للتواصل مرة أخرى.

٩- تبادل عبارات لطيفة وجميلة تبعث على الراحة النفسية والسلام الاجتماعي، والتأكيد على النقاط الإيجابية في الحديث وتفادي السلبيات والتأكيد على الأمور المشتركة.

التواصل الإيجابي يحسّن الصحة النفسية والجسدية نتيجة لزيادة فرص العلاقات الإيجابية البناءة وحل المشكلات النفسية والاجتماعية. ويزيد فرص النجاح في الحياة عموماً، وبالتالي فإن التواصل الناجح يشكل البوابة الرئيسة للسعادة والنجاح اللذين يرضيان جميع الأطراف.

المراجع

- عبد الغني، أشرف محمد؛ الشربيني، أميمة محمود .(٢٠٠٣). تنمية الابتكار ومهارات الاتصال. الإسكندرية: كلية رياض الأطفال، الكتاب الجامعي.
- عبد الله، مجدي أحمد محمد .(٢٠٠٣). السلوك الاجتماعي وديناميات. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- Cherry, C.(1980). What is Communication? In coner, howthorn Communication studies London: Edward arnold.
- Kramer,R. & Carneval, J. (2003). Trust and Intergroup Negotiation. In. Brown, R & Gaertner, S. Blackwell andbook of Social psychology: Intergroup processes.(USA): Blackwell Publishing.
- Sollivan, T. & et.al. (1991). Key Concepts in communication. London & New York.

ماذا نعرف عن الهستيريا

أضواء حديثة على الاضطراب

د.محمد قاسم عبدالله ❁

تعتبر الهستيريا من الاضطرابات النفسية الشائعة والقديمة (تسمى الآن الاضطرابات التحويلية والتفككية)، ويعود مصطلح هستيريا Hysteria إلى أصل يوناني هستيريا Hystra: ويعني حرفياً (رحم) الأنثى. حيث كان الاعتقاد السائد بأن هذا الاضطراب يصيب النساء فقط بسبب تجول وتنقل الرحم داخل جسم المرأة، وأن هذا التجول يؤدي إلى اضطرابات نفسية متعددة، فإذا تحرك الرحم باتجاه الأعلى أثر ذلك على الجهاز العصبي وأدى إلى أمراض عقلية، وإذا تحرك نحو الأسفل

❁ أستاذ علم الأمراض النفسية، وعميد كلية التربية - جامعة حلب.

العمل الفني: الفنان فتحي صالح.

فإنه يؤثر على الأجزاء السفلى من الجسم، ويؤدي لاضطرابات حركية وحشوية. وقد استخدم مصطلح الهستيريا hystria للإشارة إلى الاضطرابات التحويلية، وذلك من قبل الطبيب اليوناني أبقراط، الذي اعتبر أعراضه تصيب النساء، وتعبر عن انتقال الرحم في جوف الأنثى.

من هنا فقد نظر إلى الاضطراب على أنه يقتصر على النساء. ومصطلح hystra باللاتينية يعني الرحم womb الذي يتعرض لتحركات وتحولات وخاصة حين إنجاب الطفل. أما مصطلح التحول conversion، فيعود إلى الطبيب النفسي سيغموند فرويد، الذي عد القلق والصراعات النفسية عرضة للتحول على شكل أعراض جسمية. وقد كان الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث للأمراض النفسية (DSM -١٩٨٠) يعدها ضمن فئة الأعصبة Neurosis على أساس أن القلق يعتبر العامل الأساسي خلفها، وسميت عُصاب الهستيريا التي يقع ضمنها الاضطرابات التحويلية أيضاً.

أما في الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-RT، ٢٠٠٠) فلم يعد يستخدم مصطلح «الهستيريا» وحل محله الاضطرابات ذات المظهر الجسمي Somatofor، والتفككية Dissociative Disorders والاضطرابات التحويلية conversional، أي فئتين مستقلتين من الاضطرابات، ومستقلة عن أمراض القلق التي صنفت في فئة أخرى أيضاً. ففي الاضطرابات ذات المظهر الجسمي يعاني المريض من شكاوى وأعراض جسمية تعبر عن خلل عضوي جسمي وظيفي -وأحياناً دراماتكية بطبيعتها- مع عدم وجود عامل عضوي لها. أما الاضطرابات التفككية، فيعاني المريض من خبرات اضطرابات في الوعي أو الشعور Consciousness تؤثر في وعيه لذاته self-awareness، وفي ذاكرته memory، وفي هويته identity، أو تتحول الحالة النفسية إلى أعراض جسمية في الاضطراب التحويلي.

الاضطرابات ذات المظهر الجسمي (جسدية الشكل) Somatoform Disorders

وصف الاضطراب: في الاضطرابات جسمية المظهر، تأخذ المشكلات النفسية شكلاً جسمياً (soma وتعني الجسم body - وform تعني شكل أو مظهر). فالشخص يمر بخبرة جسمية ويعاني أعراضاً بدنية دون أن يكون لها أساس أو عامل عضوي محدد ومعروفno known physical cause. وبالتالي فإنها ليست تحت سيطرة وتحكم المريض وإرادته، ومن دون ثمن أو تكلفة

كبيرة no great expense، كما أنها تخلق حالة من الإرباك والتشويش للطبيب المعالج الذي لايقدر أن يحدد العوامل العضوية التي تقف خلفها .مـن أهم هـذه الاضطرابات: الألـم pain disorders واضطرابـات تشوه شكل الجسمbodily dysmorphic disorders، وتوهم المرض أو الهيبوكندريا hypochondriasis واضطـراب الجسدنة أو التجسيد summarization والفئة الأخرى هـي الاضطرابات التحولية conversion. والشـكل التالـي يبين لنا الأوصـاف الإكلينيكية لاضطرابات المظهر الجسمـي، واثنين مـن الاضطرابات ذات الصلـة بهـا وهـي: اضطـراب التمارض malingering، واضطـراب التصنـع المقصـود intentionally factitious (والتي كانت تسمى جميعها: الهستيريا).

الاضطراب	الوصف الإكلينيكي
اضطراب تشوه شكل الجسم bodily dysmorphic	الألم الناتج عن عامل نفسي مهم
توهم المرض ypochandraisis	انشغال بعطـب يحدث تشوه في شكل الجسم انشغال ومخاوف من التعرض لمرض خطير
اضطراب الجسدنة somatoform disorder	شكاوي جسمية مستمرة ومتنوعة بدون وجود أساس عضوي
الاضطراب التحويلي conversion disorder	أعراضـ حسيـة أو حركية بدون سبب عضوي لها
التمارض malingering	أعراض تصنعية ومقصودة

اضطـراب تشـوه شكل الجسـم Bodily Dysmorphic Disorder:

المرضـى الذين يعانون مـن اضطراب تشوه الشكل، لديهـم انشغال متخيل مسبق ومستمـر بعلـة أو خلـل مبالغ فيـه يتعلق بشـكل الجسم ومظهره. فهـؤلاء المرضى من النساء، يركـزن على حالة الجلد لديهم skin، أو الورك hips، أو الأثداء breats، أو الأقـدام. بينما يركـز الرجال منهم على الانشغال المستمر بطولهم، وحجم القضيب penis size، وشعـر الجسـم. ويقضـي أحدهم ساعات كل يوم في الانشغال القسري والاهتمـام المفرط والنظـر إلى أجسامهم من خـلال المرآة لفحص العلـة أو التشوه المفترض. بينما يحاول بعضهم الآخر تجنب ذلك مـن خلال تمويـه camouflaging التشـوه أو الخلـل. كأن يحـاول المريض ارتـداء ملابس فضفاضة مـن أجل تغطية وإخفاء العيـب أو التشوه المتخيل لديه. إن أعراضـ اضطراب تشوه الشكل تخلق حالة مـن الضيق والكـرب الشديـد، مما يدفع بالعديد من المرضى إلى التفكير بالانتحار. وقد تبين أن نصف هؤلاء المرضى سيطرت عليهم أفكار انتحاريـة بسبب ذلك، كما أن ربع الحالات اتجهت للعمل الجراحي، على الرغم من أن الجراحة التجميلية plastic surgery لم تخفـف انشغالهم واهتمامهم

بأجسامهم. وقد كشفت تقارير العديد من هؤلاء المرضى أنهم رفعوا دعاوى قضائية ضد الأطباء الذين عالجوهم بعد العمل الجراحي، لأن النتائج التي حصلوا عليها لم تكن كما يتوقعون (Philips et al.، ٢٠٠٠).

تلعب العوامل الاجتماعية والثقافية دوراً مهماً في الطريقة التي يقرر فيها الناس ما إذا كانوا يتمتعون بالجاذبية أم لا. فبين طلاب الجامعات، تنتشر حالات الانشغال المفرط بشكل الجسم والمظهر الخارجي خاصة في الولايات المتحدة الأميركية مقارنة بطلبة البلدان الأوربية، فقد تبين أن نسبة (٧٥٪) من الطلاب الأميركان لديهم انشغال متخيل ومفرط بأجسامهم، كما أن النساء تسيطر عليهن حالة من عدم الرضا عن رشاقة أجسامهن مقارنة بالذكور. وهناك أدلة تشير إلى أن اضطراب تشوه شكل الجسم يحدث لدى النساء بنسبة أعلى منها لدى الرجال، على الرغم من أن نسبة انتشارها لديهن ضعيفة، حيث لاتزيد عن (١٪). ومن النساء اللواتي يخضعن لعمليات جراحية تجميلية، تبين أن نسبة (٥-٧٪) منهن ينطبق عليهن تشخيص الحالة بأنهن يعانين من اضطراب تشوه شكل الجسم. من جهة ثانية، فإن الاضطراب يبدأ بالظهور عادة في مرحلة المراهقة.

اضطراب توهم المرض Hypochandriasis:

المظهر الأساسي لاضطراب توهم المرض Hypochandriasis، هو الانشغال المسبق المستمر بالصحة وسيطرة مخاوف من التعرض لمرض خطير. إن اللوحة السريرية لوصف هذا الاضطراب في الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR) تظهر أن المريض تسيطر عليه مخاوف مستمرة من التعرض لمرض خطير خلال فترة ستة أشهر على الأقل، على الرغم من أن الفحوص الطبية تظهر عدم وجود أي مؤشر على المرض. ويبدأ هذا الاضطراب عادة في مرحلة الطفولة، كما أنه يميل للتطور والتأزم، ويظهر هذا الاضطراب لدى المسنين، والعزاب، والذين يعانون من الوحدة النفسية. ففي إحدى الدراسات، تبين أن أكثر من (٦٪) من الناس الذين تم تشخيصهم بتوهم المرض قد شخصت حالتهم بهذا الاضطراب بعد (٤-٥) سنوات. ويظهر لدى هؤلاء المرضى ترددهم على العيادات الطبية وإجراء الفحوص المستمرة، وينظرون للأطباء الذين يراجعونهم على أنهم غير أكفاء، وأنهم لايقدمون الرعاية اللازمة. ويرافق توهم المرض أعراض القلق واضطرابات المزاج.

إن مفتاح التفريق بين توهم المرض وغيره من الاضطرابات الأخرى، هو أن الشخص الذي يعاني من هذا الاضطراب يظهر لديه علامات الانشغال المستمر بصحته بوصفه يعاني من وجود مرض خطير لديه.

اضطراب الجسدنة Somatization disorder:

في عام (١٨٥٩) وصف الطبيب الفرنسي بيير بريكيت Pierre Briquet متلازمة مرضية سميت«متلازمة بريكيت» Briquet Syndrome، وتعرف الآن باسم «اضطراب الجسدنة»somatization disorder. ويتصف هذا الاضطراب بوجود العديد من الشكاوى والأعراض الجسمية المتكررة التي ليس لها أساس عضوي أو تفسير عصبي، ولكنها تجعل صاحبها في حالة سعي مستمر في طلب العلاج الطبي. والتشخيص الدقيق والنوعي للحالة، يظهر أن المريض يعاني من سيطرة أعراض جسمية متنوعة، تجعله في حالة عجز وضعف دائمين. ويتردد المرضى بهذا الاضطراب في طلب العناية الطبية باستمرار، كما يزورون عدداً متنوعاً من الأطباء ذوي التخصصات المختلفة طالبين العلاج الطبي. وتنتشر بين هؤلاء المرضى حالات كثيرة من الدخول إلى المستشفيات. ويعبر هؤلاء المرضى عن أعراضهم بشكل مسرحي وتصنعي histrionic وبطريقة مبالغ فيها تعبر عن تاريخ طويل من الشكوى والمعاناة. ويعبر المريض عن ذلك بأن حياته كلها متوعكة ومزعجة ail all live.

يبدأ اضطراب الجسدنة في بداية مرحلة الرشد، يشتكي هؤلاء من العديد من المشكلات السلوكية والاجتماعية، في العمل، والعلاقات الأسرية والزوجية.كما تظهر لديهم أعراض اضطرابات المزاج mood disorders، وسوء استعمال المواد المؤثرة والعقاقير substance abuse، وعدد من اضطرابات الشخصية personality disorders،والاضطرابات التحولية conversion disorders. أما فيما يتعلق بانتشار اضطراب الجسدنة فقد تبين أن نسبته (٠٥٪) في المجتمع الأميركي وأنه أكثر انتشاراً بين الإناث منه بين الذكور، وخاصة بين الأميركيات من أصل أفريقي وإسباني كما أنه أكثر انتشاراً بين المرضى الذين يتلقون علاجاً طبياً. من جهة أخرى فإن انتشار اضطراب الجسدنة أعلى في مناطق معينة من العالم مثل أميركا الشمالية(Kimayer،٢٠٠١).

الاضطرابات التحويلية Conversion Disorder **(الهستيريا)**:

وصف الاضطراب التحويلي:هو الأعراض الحسية أو الحركية sensory or motor مثل فقدان البصر المفاجئ، أو الشلل

المفاجـئ، الذي يتعلق بعطل عصبي، ولكن دون وجـود سبـب عضوي واضـح، حيث تكشف الفحوص الطبية عدم وجود خلل أو عامل عضـوي أو خلل في الجهاز العصبي للمريضـ. فقـد يعاني المريضـ من شلل جزئـي أو كلي في اليديـن أو القدمين، أو نوبـة seizure أو اضطراب في التناسق أو الاتزان الحركي، أو الشعور بالوخز والتنميل pricklingandtingling أوفقدان الحس اللمسي والخدر anesthesia، وقد يتدرج هـذا الاضطراب من الخـدر والتنميل إلى ازدياد أو قلة الإحساس في عضو من أعضاء الجسم حتى انعدام الإحساس في كل أجزاء الجسـم أو بعض أجزائه، كمـا يأخذ شكل الألم غير المحدد، حيث لا يشعر المريض بأي ألم عند تعرضه لمثيرات مؤلمة كالوخز أو الكي بالنار أحياناً .وقد يأخذ الاضطراب التحويلي الحسي شكل العمى blindness حيث يفقـد المريض القـدرة على البصر مع غياب العوامل العضوية والعصبية، وقد يكـون جزئياً أو كليـاً يفرض على المريض لاشعورياً ولاإرادياً لإنقاذ نفسه من رؤية مالا يستطيع تحمل رؤيته لارتباطه بخبرة مؤلمة. مـن جهة ثانية فقد تتعطـل الرؤية وحاسة البصر لدى المريض محددة، حيث يحدث مايسمى بالرؤيـة الأسطوانية (رؤية أنبوبية tunnel vision). وفيه تكون الرؤية وكأنها خلسـة من خلال أنبوب أو أسطوانة tube. أما بالنسبة لحاسة السمع، فقد يظهر على شـكل صمـم هستيـري deafness يفقد المريضـ سمعه بأذن واحـدة أو بالاثنتين معـاً، وفيهـا يتجنـب المريضـ سماع ما يتعلـق بخبرة لا يرغب في سماعها لأسباب انفعالية لاشعوريـة وصراعات نفسية. كما يظهر اضطراب التحـول على شكل فقدان الصـوت aphonia وهـو فقـدان القدرة على النطق وإصدار الأصوات، أو على شكل فقـدان القدرة على الشـم anosmia أي فقدان المريض حاسة شم الروائح. ويظهر المصـاب بالاضطرابـات التحويلية وكأنه راض عن نفسه، ولايظهر تلهفاً أو رغبة في التخلي عن أعراضه التي يعانيها. وقد يأخذ الاضطـراب التحويلي شـكل صعوبة البلع globous التـي لاترجع إلى التهاب أو آلية مرضية في البلعوم أو الحنجرة أو الحلق، أو على شكل الرعشة tics باعتبارها تقلصات عضلية نمطية لاإراديـة كالغمز أو حركات الشفتين والوجه والتي تتحول إلى مايعرف باسم العادة التشنجية hapitapasme أو الرجفة tremors أو التهيج excitement الذي يظهر على شكل نوبات حركية درامية تمثيلية لجذب نظر الآخرين.

وللاضطرابات التحويلية تاريخ طويل في علم النفس المرضي، حيث تعود إلى البحوث

والكتابات المبكرة عن السلوك الشاذ. فقد استخدم مصطلح الهستيريا hystria للإشارة إلى الاضطرابات التحويلية، وذلك من قبل الطبيب اليوناني أبقراط، الذي اعتبر أعراضه تصيب الناس، وتعبر عن انتقال الرحم في جوف الأنثى. من هنا فقد نظر إلى الاضطراب على أنه يقتصر على النساء، حيث يتحرك الرحم في جسمها. ومصطلح hystra باللاتينية يعني الرحم womb الذي يتعرض لتحركات وتحولات وخاصة حين إنجاب الطفل. أما مصطلح التحول conversion، فيعود إلى الطبيب النفسي سيغموند فرويد، الذي عد القلق والصراعات النفسية عرضة للتحول على شكل أعراض جسمية. علاوة على ذلك فإن الاضطراب التحويلي لا يظهر في العجز الحسي والحركي فقط، فقد ينال الأجهزة الحشوية بالجسم، فيظهر على شكل صداع، أو قيء وغثيان، أو الحمل الكاذب الذي يعبر عن رغبة ملحة في الحمل وخوف من اتهام السيدة بالعقم. كما يظهر على شكل سعال وذلك كاستجابة لنفور من حدث أو احتجاج على موقف لا يستطيع المريض أن يفصح عنه صراحة.

ومن الضروري التمييز بين أعراض الاضطرابات التحويلية كالشلل وفقدان القدرة على الإحساس من جهة، وبين الأعراض المشابهة التي تكون لها أساس عصبي وعضوي. فالشلل يطال آلية الحركة العلوية أو السفلية. وأحياناً نادرة يصيب الأطراف الأربعة، وقد يكون الشلل كاملاً أو جزئياً، صلباً أو ليناً، بسيطاً أو معقداً. ولكنه في جميع أشكاله لا يتفق مع الأسس العصبية العضوية المعروفة، ويكون ذا هدف رمزي، حيث يعمل على تحييد وإبعاد العضو الذي يكون محوراً تدور حوله صراعات بين رغبات ودوافع متناقضة، وقلق. ويكون المطلوب لاشعورياً من هذا العضو القيام بمهمة تنفيذية لواحدة من هذه الرغبات، ولكن بسبب تكافؤ هذه الرغبات والقوى المتصارعة يستمر الصراع ويفشل أحدها بحسمه لصالحه، وكحل وسط يعمل اللاشعور للهروب فيزيولوجياً فيعمد إلى شلل حركة العضو الذي يفترض ان يقوم بالمهمة، وبالتالي فإن استمرار الصراع لا مبرر لهوكأن الشلل التحويلي هو وسيلة تكيفية هروبية للتخلص من الصراعات المتناقضة وما يرافقها من قلق بطريقة غير مباشرة ولاإرادية. وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا التفريق والتمييز عملية سهلة، كما هو الحال حين لا يكون الشلل ذا أساس تشريحي، ولكن على المعالج والمشخص أن يكون حذراً. وهناك مؤشرات عدة للتشخيص التفريقي بين الشلل العضوي

والشلل التحويلي. فالشلل التحويلي يظهر فجأة، ويصيب ذراعاً أو طرفاً سفلياً بأكمله، ويكون شللاً تاماً ومصحوباً في الغالب بتقلص العضلات تقلصاً شديداً، ولا يشاهد معه ضمور أو فقد في الحس يتناسب مع الوضع التشريحي للأعصاب anatomical arrangement، كما تتميز صعوبة المشي في الشلل التحويلي بحيث أن المريض يحاول أن يفقد توازنه ويبدو فيه شعور خفي يدل على أنه يود السقوط على الأرض، لاسيما إذا وجد أن هناك من يراقبه. وإذا دفعه أحد إلى السير، فإنه يظهر وكأنه يبذل جهداً كبيراً حتى إنَّ قواه قد تخور بعد وقت قصير ولا يفلح في المشي خطوات. أمَّا المصاب بمرض عضوي يمنعه من السير، فبإمكانه إذا استند إلى كتف شخص آخر أو إذا حمل عصا يتكئ عليها أن يمشي بضع خطوات ولاسيما إذا كان مصاباً في أحد طرفيه السفليين، وهو في هذا ينقل طرفه المشلول بحركة لولبية خاصة. في حين أن المصاب بالشلل التحويلي، فلا يكفيه شخص واحد، ولابد أن يستند إلى شخصين أو أكثر، وقد لا يتمكن مع هذا من الانتقال خطوة واحدة، وإذا حاول ذلك فإنه يجر طرفه المصاب جراً. وكثيراً ما يخطئ الطبيب في تشخيصه للحالة معتبراً أنها شلل أو عجز حسي عضوي ناتج عن عوامل عصبية. فقد تبين في إحدى الدراسات التتبعية خطأ تشخيص هذه الاضطرابات التحويلية والتي عدها الأطباء المشخصون عجزاً حركياً حسياً، وأنه، بعد تسع سنوات من تشخيصهم للحالة، تبين فيما بعد أن نسبة (٦٠٪) منهم كانوا يعانون من اضطرابات تحويلية، وأن نسبة منهم قد توفوا ثم تبين أن حالتهم تحويلية وليست عضوية عصبية.

يظهر اضطراب التحول عادة في مرحلة المراهقة، وبداية الرشد، وخاصة بعد تعرض الفرد لضغط نفسي شديد. وقد ينتهي في أي وقت، ولكنه قد يعاود الظهور مرة أخرى تحت أي ظرف أو حدث ضاغط وبشكل مفاجئ، ويكون ظهوره في المرة التالية شبيهاً بشكله الأصلي الأولي، أو يختلف عنه بعض الشيء في أعراضه. أما عن نسبة انتشاره فإنها لا تتعدى نسبة (١٪)، كما أنه أكثر انتشاراً بين الإناث منه بين الذكور.

التفسير التحليلي النفسي:

تحتل الاضطرابات التحويلية مكانة مركزية في نظرية التحليل النفسي، حيث أن أعراضها تعد مثالاً واضحاً على دور العوامل اللاشعورية فيها. ففي حالة السيدة التي تستيقظ صباحاً لترى حالة شلل في يدها اليسرى، ولا يثبت الفحص

الطبي وجود عامل عضوي أو عصبي فيها. ربما تكون قد قررت أن تلفق fake الشلل وتصطنعه (بدافع لاشعوري) لتتجنب مايجب أن تقوم به، وهذا مثال واضح عن التمارض والتصنع. إن العوامل والرغبات اللاشعورية قد عملت عملها. فعلى مستوى الشعور، إنها تقول الحقيقة والواقع، فيدها اليسرى قد أصيبت بالشلل فعلاً، أما على مستوى اللاشعور، فإنها غير قادرة على تحريك يدها، رغم عدم وجود اي عطل أو خلل عضوي يقف خلفه.

لقد طور فرويد نظريته في التحليل النفسي (١٨٩٥) واعتمدها آخرون (١٩٨١) في تفسير الاضطرابات التحويلية. لقد افترض فرويد وزميله بروير أن الاضطراب التحويلي ناتج عن حالة يعبر فيها المريض عن الإثارة الانفعالية، ولكن الانفعال لا يظهر صراحة وبشكل مباشر، ويتم منع تذكر الحدث المرتبط بهذا الانفعال، والموجود على مستوى اللاشعور. فالاضطراب التحولي لدى هذه السيدة يعود بجذوره rooted إلى عقدة ألكترا Electra Complex. فحين كانت طفلة، كانت تسيطر عليها مشاعر جنسية تجاه والدها كونه الذكر الأول في حياتها ورمز القوة، وبما أن الوالد لم يستجب لهذه المشاعر، فقد تم كبتها repressed في اللاشعور. والنتيجة هي أن هذه الرغبات والمشاعر الجنسية قد ارتبطت بسلوك تجنب وانسحاب على مستوى الشعور. وفي مرحلة تالية من حياتها، فإن هذه الإثارة الجنسية، مع خبرات وظروف جديدة قد عملت على إيقاظ هذه المشاعر والدوافع المكبوتة لاشعورياً، بما تحمله من قلق، لتظهر على شكل أعراض جسمية صريحة. وفوق ذلك، فإن هذه الاضطرابات التحويلية، تجعل هذه السيدة تتجنب حل الصراعات المرتبطة بعقدة ألكترا. كما أن هذه الأعراض التحويلية تجعلها تتجنب مواقف الحياة غير السارة، أو حتى جذب الانتباه نحوها. وعلى الرغم من أهمية هذا التفسير التحليلي، إلا أنه لم يتلقَّ الدعم التجريبي الكافي.

وفي تطور لاحق لنظرية التحليل النفسي في تفسير الاضطرابات التحويلية، وخاصة العمى الهستيري hysterical blindness، فإنه يستند إلى دراسة حالتين من هذه الحالات لدى الفتيات المراهقات. ففي واحدة منها، عبرت السيدة عن عجز في الأداء في اختبارات الرؤية version tests التي نجحت فيها المريضة بالعمى الحقيقي العضوي. بينما في حالة المراهقة الثانية، فقد عبرت عن عدم قدرتها على رؤية اللون في الصور التي عرضت عليها، علماً أنها استطاعت أن تحدد الأشياء

والموضوعات (المحتويات) التي تعبر عنها الصورة وحجمها، وشكلها على بعد (١٥) قدماً. واستناداً إلى هذه النتائج فقد افترض سيكم وزملاؤه (Sackeim، ١٩٧٩)، أن هناك نموذجاً ذا مرحلتين Two-Stage Model لتفسير هذا التعارض في اختبار رؤية السيدتين وتقريرهما عن العمى لديهما. ففي المرحلة الأولى، تم التركيز على فكرة أن الأفراد يمكنهم إجراء معالجة بصرية خارج نطاق الوعي وبعيداً عن مستوى الشعور process visual information outside the conscious awareness. فالبحوث التي أجريت على المرضى الذين لديهم أذية في القشرة البصرية من المخ قد دعمت هذا الافتراض. حيث أن هؤلاء المرضى، قد فقدوا خلايا أساسية في الجهاز البصري من المخ ويعتقدون بأنهم عميان، ولكنهم قادرون على الأداء والعمل جيداً في الاختبارات النوعية التي يتم فحصهم فيها. وتسمى حالتهم هذه باسم «الرؤية العمياء blindsight» أو بصر الأعمى. ومن الممكن للأشخاص أن يقرروا بثقة بأنهم غير قادرين على الرؤية، حتى لو كانت الاختبارات تبين عكس ذلك. وبشكل عام، فإن هناك العديد من الدراسات التي أثبتت أن المدركات التي تأتي خارج نطاق اللاشعور يمكنها أن تؤثر في سلوك الشخص. ولأن القدرات الإدراكية قد تكون لاشعورية (خارج نطاق وعي الفرد)، فإن المصاب بالعمى الهستيري يكون قادراً على أن يقول مالا يمكنه رؤيته حتى حين يكون المثير أو الموضوع البصري مؤثراً في سلوكه. أما المرحلة الثانية من النموذج، فإنه يشدد على الدافعية motivation، فيمكن للبعض بسبب سمات شخصيتهم، أن يكونوا مدفوعين لأن يكونوا عمياناً. ومثل هؤلاء، يتوقعون أن بإمكانهم الأداء على اختبارات الرؤية (كالتي تجرى عليهم). ولدعم أهمية دور الدافعية، فقد بينت بعض الدراسات أن الرجال المصابين بالعمى الهستيري قد تم اختبار رؤيتهم في جلسات عدة، وتم تقديم تعليمات مختلفة حول الدافعية عبر جلسات مختلفة، وتبين أن الدافعية ذات تأثير قوي في السلوك ومنها الرؤية. ولابد من القول إن هذه النتائج تحتاج إلى مزيد من الدراسات التجريبية.

العوامل الثقافية والاجتماعية:

لمدة تزيد على قرن، تبين أن هناك انخفاضاً في حدوث الاضطرابات التحويلية، بما يؤكد دور العوامل الثقافية والاجتماعية فيها. ففي القرن التاسع عشر، افترض جان مارتين Jean martin وكذلك فرويد، أنَّ هناك عدداً كبيراً من المرضى المصابين

بالاضطرابات التحويلية، ولكن المختصين لم يستطيعوا رؤيتها وتشخيصها الحقيقي. وهنـــاك العديد من الافتراضات التي تفسر تناقص هذا الاضطراب. مثلاً، المعالجون من أصحاب الاتجاه التحليلي أشاروا إلى أنه في النصف الثاني مـــن القرن التاسع عشر كان هذا الاضطـــراب منتشراً بكثرة في كل مـــن فرنسا والنمسا، حيـــث كان يسود كبت الدوافع والرغبـــات الجنسية التي تزيد من انتشاره. أما عن انخفاض نسبته في الفترة اللاحقة فيعـــود إلى التعبير عـــن الدوافع الجنسيـــة بطرق مختلفة وعـــدم كبت هذه الرغبـــات، إضافة إلى سيادة الجدل الطبي والنفسي فـــي الثقافة التـــي أصبحت أكثر تقبلاً للقلق من العجز الذي لايظهر بطريقة عضوية محددة.

العوامل السلوكية المعرفية:

يعتمد الاتجاه المعرفـــي السلوكي على نمـــوذج يتضمن عدداً من الآليات المرحلية فـــي تفسيـــر الاضطرابـــات ذات المظهر الجسمـــي. ويبـــدأ هذا الاتجـــاه بالمرحلة الأولى التي تعد فيها أن الأعراض الجسمية كنتيجـــة لمرض ما illness أو تغيرات غير مرضية nonpathological changes فـــي الأداء الوظيفي العضـــوي (مثل ارتفاع معدل ضربات القلب نتيجة مجهود كبير).

إنَّ كل شخص يعيش أو يخبر إحساسات جسمية، كما يعير انتباهـــاً شديداً لمظهره الجسمـــي، ولكن بعضـــ الناســـ المهيئين للإصابـــة بالاضطرابـــات جسمية المظهر يملكون آلية معرفيـــة من نوع خاص، تتميز بتوجيه انتباه شديد ومبالغ فيه لهذه الأشياء في أجسامهـــم. وفي المرحلـــة التالية من نموذج العمليـــات المعرفية السلوكية، وبعد أن يكـــون الشخص قد ركـــز انتباهه بشكل مفرط على المؤشرات والعلامات المرتبطة بصحته الجسمية، ينتقل إلى المرحلة التالية، وهي مرحلة التنسيـــب السلبي negative attribution أي عـــزوه السلبـــي المفرط more negative attributionsلهـــا، أي إنـــه ينسب هـــذه المؤشـــرات الجسمية علـــى أنها خلل وعلة جسميـــة شديدة لديه (ومن المعروف أن العزو هي عملية تنسيب سبـــب لحالـــة أو شيء مـــا). إن التنسيبات الخاصـــة قد تختلف من اضطراب إلى آخر فـــي الاضطرابـــات ذات المظهر الجسمي. فالتنسيـــب فـــي الألـــم يختلف عنـــه، في الجسدنة، وفي اضطراب تشوه شكل الجسم، أو توهـــم المرض. مثلاً، السيدة التي تعاني من توهم المرض ربما تفسر (تنسب) ظهور بقعة حمراء على جسدها بأنها علامة على مرض السرطان. بينما المريض باضطراب

تشوه شكل الجسم، قد يفسر (ينسب) هذه العلامات على أنها ستحدث تشوهاً في شكل جسمه وتجعله قبيحاً وغير مقبول من قبل الآخرين. وعلى الرغم من أن التشوه أو الانحراف المعرفي هذا cognitive bias قد يختلف أو يتغير، إلا أن جميع الاضطرابات ذات المظهر الجسمي (مثل الجسدنة، اضطراب تشوه شكل الجسم، توهم المرض، الألم)، تتصف بسيطرة الهم والقلق worry لدى المريض، حيث يكون مهموماً بشدة ومنشغلاً بهذه العلامات والأعراض الجسمية لديه. وحالما تبدأ مثل هذه الأفكار السلبيةnegative thoughts بالظهور لديه، فإنها تستجر وتحرض القلق وردود الفعل العضوية والبيولوجية مثل الكورتيزول الذي يعمد إلى تضخيم الأعراض الجسمية والكرب أو الضيق الشديد حيال هذه الأعراض.

أما المرحلة الثالثة من مراحل النموذج المعرفي السلوكي في تفسير الاضطرابات ذات المظهر الجسمي، فهي العواقب أو النتائج السلوكية behavioral consequences المترتبة على الأفكار والمعتقدات السلبية أو التشويه المعرفي (في المرحلة السابقة)، حيث إن تحسس الجسد والمبالغ بكل تغير فيه وتفسيره (تنسيبه) بوصفه مرضاً، أو على أنه سيؤدي إلى تشويه الجسم والقباحة، سيكون لها عواقب ونتائج سلوكية لدى المريض. ومن هذه العواقب والنتائج السلوكية أن يلعب الشخص دور المرض role of being sick، وأن يتجنب القيام بالمهمات والأعمال الاجتماعية المعتادة، مما يرسخ الأعراض، وبالتالي المبالغة في الاهتمام بالسلوكيات المتعلقة بالصحة. والعواقب أو النتائج السلوكية الأخرى، هي أن الشخص يسعى باستمرار في طلب الرعاية والطمأنينة سواء من الأطباء أم من الأسرة. إنَّ سلوك طلب المساعدة والرعاية هذا help-seeking behavior ربما يتعزز حين تتلقى حالته الجسمية وأعراضه اهتمام الآخرين وتعاطفهم. إن هذا الاهتمام والتعاطف الذي يتلقاه المريض يعزز سلوك دور المرض لديه وبالتالي تعزيز الأعراض جسمية المظهر في اضطرابه، وهذا ما يضعف الأنشطة اليومية والأداء الوظيفي الاجتماعي لديه.

الاضطرابات التفككية Dissociative Disorders

وصف الاضطراب التفككي: يعرف الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR)، الاضطرابات التفككية Dissociative Disorders بأنها تلك الاضطرابات التي تتضمن: فقدان الذاكرة التفككية

dissociative amnsia، والتجوال أو التشرد التفككي dissociative fugue، واضطراب الهوية التفككي dissociative identity disorder والذي يعرف بأنه اضطراب تعدد الشخصية (multiple personality disorder)، واضطراب تبدد الشخصية depersonalization disorder. تنتج هذه الاضطرابات عن آلية نفسية شائعة هي التفكك أو الانشطار dissociation والتي تحدث كنتيجة لعمليات معرفية وخبرات غير مقبولة من قبل الشخص شعورياً. فالتفكك هو فشل العمليات المعرفية، والدافعية، والانفعالية، في أداء وظيفتها على مستوى الشعور أو وعي الشخص. ويعتبر الطبيب العصبي الفرنسي بير جيانيه (Pierre Janet ١٨٥٩-١٩٤٧) أول من استخدم مصطلح التفكك، ظناً منه أن حالات التفكك البسيطة شائعة بين الناس، وأحد الأمثلة على ذلك فقدان الوعي بالذاتloss of self awareness، كما هو الحال حين ينسى الشخص طريق العودة إلى المنزل حين يفكر في المشكلات التي يعانيها وتسيطر على ذهنه. أما الآن فيعتقد المحللون النفسيون والمعالجون السلوكيون أن حالة التفكك المرضي pathological dissociation بوصفها محاولة تجنب أو منع خبرات ضاغطة من الظهور على مستوى الشعور.

إنَّ الذين يعانون من الاضطرابات التفككية، غير قادرين على استرجاع الذكريات الشخصية المهمة في حياتهم، وربما ينسون هويتهم، وقد يذهبون ويتوهون إلى أمكنة بعيدة عن أماكنهم الأصلية دون وعي منهم بذلك. وقد بينت بعض الدراسات أن نسبة انتشار فقدان الذاكرة التفككي، وتبدد الشخصية، والتشرد أو التوهان والتجوال هي على التوالي: (٠,٧٪،٤,٢٪،٢,٠٪)، والجدول التالي يعرض وصفاً إكلينيكياً لكل شكل من أشكال الاضطرابات التفككية كما ذكرها الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR):

الاضطراب	الوصف الإكلينيكي
فقدان الذاكرة التفككي amnsia	فقدان ذاكرة، عادة ماتكون خبرة مؤلمة وضاغطة
التشرد أو التجوال (التوهان) fugue	فقدان ذاكرة مرافق لترك المنزل، وتشكيل هوية جديدة
اضطراب تبدد الشخصية	personalization تبدل في خبرة الذات
اضطراب الهوية التفككي أو ازدواج الشخصية وتعددها dissociative identity	شخصيتان على الأقل تتناوبان في الظهور لدى المريض

فقدان الذاكرة التفككي Dissociative Amnsia **(النسيان نفسي المنشأ):**

يسمى فقدان الذاكرة التفككي بالنسيان نفسي المنشأ أو الهستيري psychogenic or hysteric amnesia، والشخص الذي يعاني من هـذا الاضطراب يكون غير قادر على استرجاع المعلومات الشخصية المهمة، وخاصة تلك المتعلقة بالخبرة الضاغطة أو الصدمة التي مر بها. وتتميز فجوات الذاكرة holes of memory بانتشارهـا الواسع، كمـا أن المعلومات لا يتـم فقدها بسرعة، ولكنـه لا يستطيـع استرجاعها خلال فترة تعرضه لاضطراب فقدان الذاكرة التفككي والتـي قد تستمر لساعات أو لسنوات عدّة. ولايظهـر فقـدان الذاكـرة التفككي هذا بشكل مفاجئ حيـن العلاج. وعادة ماتكون المعلومـات التي ينساهـا ويفقدها متعلقة بمشاعره بالصدمة التي خبرها كرؤية موت مفاجـئ لقريب أو عزيز. وقـد افترض أن الشخصـ قادر في البدايـة على أن يشكل هذه الفجوات ويملأها. وحين يكون فقدان الذاكـرة شاملاً لكل الأحـداث التي مر بها أثنـاء تعرضه للصدمـة النفسية والضغط النفسـي، فإنهـا تستمـر لتشمـل أحداثاً ضاغطة وصدمات أخرى مر بها المريض، من هنا فإنها تمتـد لتشمل حياة الشخص كلها، وبذلك تتحـول إلى فقدان ذاكرة كلي وليس جزئي فقط. ويتصف سلوك المريض بأنه عادي وطبيعي، باستثناء فقدان الذاكرة الذي يؤدي لديه إلى حالة من ضعف التوجه الزماني والمكانـي diorientation. وفي حالة فقدان الذاكرة الكلي، يعجز المريض عن التعرف علـى الأشخاص الآخرين مثل أقربائه وأصدقائه، رغـم احتفاظه بقدرته علـى التحدث والتواصـل، والقراءة، وحتى اكتساب المعلومات الجديدة.

التجـوال أو التشـرد التفككـي Dissociative Fugue:

التجـوال أو التشـرد التفككـي Dissociative Fugue ويسمـى أحيانـاً التوهان (مـن جذر لاتينـي fugere يعني يهرب أو يهجـر Flee)، حيث يكون فقدان الذاكـرة شامـلاً أكثر مما هـو الحال في فقـدان الذاكرة التفككي. والسمة الرئيسية لهذا الاضطـراب هي السفـر أو الترحال المفاجئ بعيداً عـن مكان الإقامة المعتاد. وفيه لا يتذكر المريض ماضيه الخاص، كما يغيـب الإحساس بالهويـة الذاتية جزئياً أو كليـاً، كأن يخرج المريض من منزله قاصداً الالتحاق بعمله أو بأي مكان آخر ليجد نفسه في مكان آخر دون أن تكون هناك أية رابطة بين المكانين. إن هروبه (تشرده) من مكان إقامته شكل من أشكال الهروب من الموقف أو المكان المقلق، ونسيانه للماضي يرافقه

نسيـان هويتـه لفترة من الزمـن. من جهة أخرى فقد يكون التشـرد لساعات أو أيام، وقد يمتد لسنوات عدَّة، وكثيراً ما يظهر في المكان الجديد غير مهتم بما كان عليه من قبل حتى يستفيق إلى ظرفه الجديد بتأثير مناسبـة عارضة أو حادثـة شديدة التأثير. وكثيراً مـا نقرأ أو نسمع خبـراً عن شريد فقد ذاكرته ولا يعرف من أين أتى ومن كان في الأصل.

يحدث التشرد والتجوال عادة لدى تعرض المريضـ لصدمة نفسية أو خبرة ضاغطة، مثـل الخلافات والصراعـات الزوجية، أو الرفض والإهمال، أو الصعوبات الاقتصادية والضائقـة المالية،والحروب،والكـوارث الطبيعية كالـزلازل، والفيضانـات. ولكن ليست جميع حالات التجوال والتشرد تحدث بعد تعرض الشخص لصدمة ضاغطة.

اضطـراب تبـدد الشخصيـة Depersonalization Disorder:

في اضطـراب تبـدد الشخصية يكون إدراك المريضـ وخبراتـه عـن ذاته في حالة تبدل ممـزق ومفكك. تتصف بفقدان الإحساسـ بالـذات والانفصـال عنهـا، باعتباره مراقـب خارجي لجسمه وعملياته العقليـة، وكأنه في حلم، حيث يفقد القدرة علـى تعرف مشاعـره وخبراتـه الخاصة. وعلـى العكس من الاضطرابـات التفككية الأخرى، فـإن المصاب بتبـدد الشخصية وفق الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعـدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR)، لايعاني من اضطـراب في الذاكرة. ويتحرضـ تبدد الشخصية لـدى المريض حين يمر بخبرات ضاغطة، ويفقد المريض الإحساس بذاته sense of self. ويتضمن ذلـك خبرات حسية غير عادية. فقد تظهر عليه علائم التغير والتبدل في حجم صوته ونبراته، وتبـدو وكأنها خارج نطاق جسمه، ويبدو وكأنه مراقب خارجي لها.وقد يظهر ذلـك بشكل آلي بحيث يتحـرك وكأنه فقد الحقيقة والواقـع في العالم الخارجي.يبدأ اضطراب تبدد الشخصية عادة في مرحلة المراهقة، ويتطور ليصبح مزمناً، قد يظهر لدى المريض أعراض القلق والاكتئاب .

اضطـراب الهويـة التفككـي (أو ازدواج الشخصيـة وتعددهـا) Dissociative Identity Disorder

يحدثنـا بعضهم عـن أشيـاء وأحداث لايتذكرونها فـي شخصيتهـم. فالشخص الذي اعتاد أن يستيقظ ويتناول فنجان قهوة صباحاً، ولا يرغب بتناول الشاي مثلاً، فقد اعتاد علـى هذا السلـوك النمطي وأصبح جزءاً من صفـات شخصيته. فإذا استعملنا كلمة نمط، قلنـا إن كل شخصية هي نمط مختلـف عن الآخر يظهر عليـه الشخص،

ويكون ظهور النمطيــن (أو الثلاثة أحياناً) بشــكل غيــر منتظم زماناً ومكانــاً، هو من أبرز مظاهــر اضطراب الهويــة التفككي. وقــد كان هــذا الاضطــراب وفــق الدليل التشخيصــي والإحصائي الثالث للأمراض النفسية (DSM-III) عام (١٩٨٠)، يعتبر أحد الاضطرابــات الهستيريــة التفككية، حيــث يسمــى ازدواج الشخصيــة duble personality أو تعــدد الشخصيــة multiple personality، بحيــث يظهر الشخص الواحد بنمطين أو أكثر من أنماط الشخصيــة، وكل واحدة منهــا مختلفة عن الأخرى بصفاتها وسماتها وطرق تفكيرها. والشائع أن تكــون الشخصيتان متناقضتين تأخذان زمــام الأمور بشكل متناوب. فكيف يتم تفسير ذلك إكلينيكياً؟

يظهر لدى المصــاب باضطراب الهوية التفككي شخصيّتــان منفصلتان على الأقل tow separate personalities تتصف كل واحدة منهما، بمــزاج مختلف، وتفكير، ومشاعــر، وسلوكيــات مختلفــة تماماً عن الأخــرى حيث تظهر كل منها بشكل متناوب وتبادلي، وفي أوقــات مختلفة. وكل واحدة منها من طبيعة خاصة، فقد تكون الشخصية الأولى هي الأساسية أو الأولية primary وهي التي يجب أن تخضع للعلاج أو تطلبه. وعادة، تظهر الشخصية بنمطين وحتى أربعة أنماط وقت التشخيص، وفي سياق المعالجة تظهــر هذه الأنمــاط أو الشخصيات. وفق ذلك، فإن فجــوات الذاكرة (النسيان) يكون هو العرض الشائع فيها، وفي أكثر الحالات لا يكون هناك أي رابط بين هذه الشخصيات. فالشخصيــة الرئيسية تكون في حالة عدم وعــي بالشخصيات الأخــرى، كما لاتتذكر مايحــدث في الأخــرى لأنها خــارج نطاق التحكم والسيطرة. ومن متطلبات تشخيص الاضطــراب أن وجود التبــدلات المختلفة للشخصية، يكون مزمناً ومتكرراً، فلا يمكن تشخيص الحالة على أنها اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية أو تعددها) إذا ظهــر ذلك وقتياً فقــط، أو كان تحت تأثير تناول الأدوية مثلاً.

إنَّ كل تبدل في الشخصية يكون معقداً في نمطــه السلوكي، وذكرياتــه، وعلاقاته الاجتماعية. وكل منها مختلفة عن الأخرى بسماتها وخصائصها السلوكية، ومتناقضة فيما بينهــا. فقد تستخــدم شخصية اليد اليمنى، بينما الأخرى تستخدم اليد اليسرى، وقد تستخــدم الأولى النظارة، بينما الثانية لا يظهــر لديها ذلك، وقــد تتصف الأولى بالتحسس من ســوء استعمال بعض المواد المؤثــر والعقاقير في حيــن لايكون الأمر كذلك في الأخــرى، إلا أنها جميعها لديها

فجوات في الذاكرة، فكل واحدة منها لاتتذكر ما يحدث في الأخرى.

يبدأ اضطراب الهوية التفككي في مرحلة الطفولة، ولكنه يتبلور في مرحلة الطفولة المتأخرة حيث يأخذ شكله التشخيصي المعروف. من جهة ثانية، فإن هذا الاضطراب أكثر انتشاراً وخطورة من الاضطرابات التفككية الأخرى، كما أن علاجه أصعب، ويحدث لدى الإناث بنسبة أعلى منه لدى الذكور. وكثيراً ما يترافق مع أعراض مثل الصداع، والهلوسات، ومحاولات الانتحار، وسلوك سوء استعمال الذات self-abusive behavior، واضطرابات تفككية أخرى منهافقدان الذاكرة نفسي المنشأ، وتبدد الشخصية (Scroppo et al.، ١٩٩٨).

أمَّا عن الفرق بين فصام الشخصية أو الشيزوفرينياSchcizofrenia وازدواج الشخصية أو ما نسميه اضطراب الهوية التفككي موضع حديثنا، فكثيراً ما يساء فهم اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية) واعتباره مرض الفصام (يعرف بالجنون)، خاصة وأن الفصام أو الشيزوفرينيا schizophrenia هو تفكك الشخصية، وهو من جذر لاتيني «شيزو أو تشظيschizo» وتعني انشطار أو انقسام، و«فرينيا phrenia» وتعني العقل أي «انشطار أو انفصام العقل». إلا أنَّ ازدواج الشخصية أو تعددها يختلف عن الفصام أو الشيزوفرينيا. فمرضى اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية أو تعددها) لاتظهر لديهم اضطرابات التفكير، والسلوك التي تظهر في الفصام، لأن مرض الفصام اضطراب ذهاني ينال الخلل مكونات الشخصية: السلوكية، والانفعالية والعقلية، ويكون المريض غير قادر على التحكم بسلوكه، ويعيش في عالم خيالي تحت تأثير الهلوسات والهذيانات المسيطرة عليه، ويحتاج إلى علاج مكثف في المستشفى. أمَّا في اضطراب الهوية التفككي الذي يظهر على شكل شخصيتين أو أكثر فتبقى مكونات الشخصية متكاملة في كل نمط من أنماط الشخصية التي يظهر بها الشخص، وكأنه هروب من شخصية (متكاملة) إلى شخصية أخرى تحت تأثير الصراعات والقلق اللاشعوري.

من جهة أخرى فإن شخصية الفصامي متهدمة بالكامل، أمَّا في ازدواج الشخصية فلا يحدث هذا التهدم في القدرات العقلية، والسلوكية، وإنما يؤدي إلى إبعاد نظام الشخصية ككل، وتبني نظام شخصي آخر مناقض له بحيث ينسى المصاب كل ما يربطه بالنظام الشخصي الذي استبدله فالفصام مرض ذهاني خطير، أما ازدواج

الشخصية فهو أقل خطورة ويبقى الشخص متحكماً بسلوكه ومنتجاً.

أمَّا نسبة انتشار اضطراب ازدواج الشخصية وتعددها، فإن أول إشارة إلى اضطراب الهوية التفككي كان في القرن التاسع عشر، حيث أظهرت بعض الدراسات وجود (٧٧) حالة أكثرها قد ثبت تشخيصها بين عامي ١٨٩٠-١٩٢٠، وبعد هذا التاريخ انخفضت نسبة انتشاره حتى عام ١٩٧٠. ثم ارتفعت نسبة انتشاره ثانية، في الولايات المتحدة الأميركية، وفي بلدان أخرى مثل اليابان. من جهة أخرى فإن أكثر هذه الحالات تم كشفها في مرحلة الرشد في كل من كندا، وتركيا وغيرها من البلدان. وتقدر نسبة انتشاره بـ ١,٣ في إحدى الدراسات الكندية، ونسبة ٠,٤ في تركيا. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن نسبته غير مرتفعة عموماً، حيث تبلغ حوالى الواحد في المليون (١/١٠٠٠٠٠٠).

العوامل المسببة لاضطراب الهوية التفككي:

أولاً- فرضيتان تفسران عوامل الاضطراب: هناك نظريتان في تفسير عوامل اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية او تعددها) هي: فرضية أو نموذج مابعد الصدمة posttraumatic model، وفرضية النموذج الاجتماعي-المعرفي Sociocognitive Model.

يفترض نموذج مابعد الصدمة،أن اضطراب الهوية التفككي يبدأ بالظهور في مرحلة الطفولة كنتيجة لخبرة ضاغطة هي التعرض لسوء المعاملة الجسمية أو الجنسية في هذه المرحلة. فقد ثبت أن أكثر الحالات التي أصيبت بهذا الاضطراب قد تعرضت لإساءة معاملة جسمية أو جنسية في طفولتها. وأن هؤلاء الأطفال قد اكتسبوا عوامل خطورةrisk factors التعرض لاضطراب الهوية التفككي ونموه. ومن المهم أن نشير إلى أنه ليس من الضروري أن يصاب كل طفل تعرض لإساءة معاملة جسمية أو جنسية في طفولته، أن يتطور الأمر لديه إلى اضطراب الهوية التفككي لاحقاً. فبعضهم تظهر لديهم عملية التفكك بوصفها وسيلة تكيف وتعامل مع الصدمة أو الخبرة الضاغطة. من جهة أخرى فقد ثبت أن الأطفال الذين يظهرون أعراض التفكك أكثر احتمالاً لأن تظهر لديهم أعراض نفسية بعد الصدمة.

أمَّا الفرضية الثانية وهي النموذج الاجتماعي- المعرفي، فيشدد على أن اضطراب الهوية التفككي هو نتيجة تعلم واكتساب أدوار اجتماعية learning to enact social roles. ووفقاً لهذا

التفسير، فإن استبدال الشخصية يظهر كاستجابة لافتراضات المعالج النفسي وتشخيصه، ولما تظهره وسائل الإعلام عن هذا الاضطراب، وعوامل ثقافية في المجتمع. ومن أبرز تطبيقات هذا التفسير هو إيجاده ونشوؤه مع سير العلاج. ولكن هذا لايعني أن الاضطراب هو خدعة واعية ومقصودة، لأن نسبة انتشاره ماتزال منخفضة، من هنا يركز المختصون في علم النفس المرضي على طريقة نموه وتطوره. فكيف ينمو هذا الاضطراب؟ هذا مايحاول علماء النفس الإجابة عنه. من المعروف والشائع أن اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية أو تعددها) يستند بشكل واضح إلى تعلم القيام بأدوار اجتماعية (على اعتبار كل شخصية لها أدوار مناقضة للأخرى)، وأن مثل هذا التفسير يلاقي إقبالاً في ثقافة كل مجتمع وفي الخيال العلمي. فالناس المصابون بازدواج الشخصية وتعددها يقومون بممارسة أدوار متنوعة في كل شخصية، كما يتبنون هذه الأدوار وخاصة حين يفترضها المعالج النفسي لدى مريضه.

ثانياً- أعراض اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية وتعددها) باعتباره لعباً للدور: لقد افترضت بعض النظريات أن الأفراد يمكنهم لعب الدور role-playing في ازدواج الشخصية أو تعددها. فقد أثبتت بعض الدراسات أن بعض الأشخاص يمكنهم لعب أدوار شخصيات متعددة. وقد ثبت من خلال تطبيق التنويم المغناطيسي ممارسة أدوار تعبر عن دوافع لاشعورية في شخصيتهم، (ازدواج الشخصية). ويمكن للفرد أن يتبنى شخصيات عدة بالتناوب. وتجدر الإشارة إلى أن العملية مجرد لعب للأدوار، فلم يتم التثبت من أن ازدواج الشخصية أو تعددها في اضطراب الهوية التفككي إنما هو نتيجة مباشرة للعب هذه الأدوار. فهذا الاضطراب معقد، لأنه يتضمن أعراضاً متنوعة من أبرزها: وجود هلوسات سمعية، فقدان الشعور بالزمن، وكذلك تبدد الشخصية، وأن مثل هذه الأعراض لم تظهر أثناء لعب الدور.

الخلاصة:

يعتبر اضطراب الهستيريا من الاضطرابات النفسية القديمة، والذي يسمى الآن بالاضطرابات التحويلية والتفككية أو جسمية المظهر. وصنفت هذه الاضطرابات في ثلاث فئات هي:

١- الاضطرابات جسمية الشكل مثل: الألم النفسي، واضطراب تشوه شكل الجسم، واضطراب التصنع والتمارض.

٢- الاضطرابات التحويلية وهي التي تتحول الحالة النفسية (قلق وصراعات) إلى خلل عضوي يطال الحواس والحركة (صمم نفسي، فقدان قدرة على الرؤية، والشم، فقدان قدرة على النطق، شلل هستيري..).

٣- اضطرابات تفككية مثل: فقدان الذاكرة النفسي، وازدواج الشخصية، وتبدد الهوية، والتجوال .وتحدث هذه الاضطرابات عند الذكور والإناث.

المراجع:

- محمد عبدالله (٢٠١٣) علم الأمراض النفسية، منشورات جامعة حلب.
- أحمد عكاشة (٢٠٠٦) الطب النفسي المعاصر. الأنجلو مصرية. القاهرة
- صفوت فرج (٢٠٠٨) المرجع في علم النفس الإكلينيكي.الأنجلو مصرية: القاهرة.

- American psychological Association(2001) Diagnosis and Statistical Manual of Mental Disorders (DSM-IV) Washington.
- Ollendick, and Hersen (2002). Handbook of Psychopathology. Plenum press. new York.
-Reber Arthur (1985).Dictionary of psychology. Penguin press.USA.

بديع الكسم الفيلسوف

أسعد طرابيه ❁

ولد الدكتور بديع الكسم سنة ١٩٢٤م. في حي مئذنة الشحم، أحد الأحياء الدمشقية العريقة، وقد اشتهرت أسرته بطلب العلم والتعلق بالأخلاق الفاضلة وهذا ماانعكس على حياته وسلوكه. إنه ابن الشيخ محمد عطا الله الكسم (١٨٤٤- ١٩٣٨م) الذي كان من كبار فقهاء الحنفية بدمشق، اختير من الحكومة العربية ليكون المفتي العام للشام منذ عام ١٩١٧م. وظل في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٣٨م. نال شهادة «البكالوريا» سنة ١٩٤٢م، وفي العام ذاته عين موظفاً في المكتبة الظاهرية بدمشق،

❁ باحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

التـــي أمضى فيها عاما. ثـــم اتجه للقاهرة للالتحاق بكليـــة الآداب بجامعة فؤاد الأول في العـــام الدراســـي ١٩٤٣-١٩٤٤م.وينال إجـــازة الفلسفة عـــام ١٩٤٧م.ولدى عودته لسوريـــة عيـــن مدرسا في اللاذقيـــة للعام الدراسي ١٩٤٨-١٩٤٩م. وأصبح في العام التالـــي عضوا فـــي لجنة التربيـــة والتعليم بدمشـــق، ليختار في العـــام التالي ١٩٥٠م. للتدريس في جامعة دمشق.

أوفد إلى القاهـــرة سنة ١٩٥٤م ، ومنها إلـــى جامعة جنيف في سويســـرا ، لمتابعة الدراســـات العليـــا والحصـــول على درجة الدكتوراه التي حصل عليها عام ١٩٥٨م، عن رسالته(البرهان في الفلسفة) والتي صدرت عن وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٩١م.

أصبح أستاذاً مساعداً في جامعة دمشق عام ١٩٥٨م، ثم أعيـــر في العام التالي إلى وزارة التربية والتعليم المركزية في القاهرة إبان الوحدة، وفي عام ١٩٦٨م، رقي إلى رتبة أستـــاذ في جامعة دمشـــق، وأعير في العام ذاته إلى جامعة الجزائر للإسهام في تعريب التعليم ونشر الثقافة العربية. عاد إلى دمشق عـــام ١٩٧٢م. ثم أوفد للبحـــث العلمي إلى فرنسا وسويســـرا من عام ١٩٨١م. إلى عام ١٩٨٢م. وفي ١٧/١٠/١٩٩٠م أصبح عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

الكسم في نظر بعض المفكرين:

يقول أنطون مقدسي: بديع الكسم ليس جدليا وحســـب، بل هو فيلسوف أصيل، في ذهنه الخطـــوط الكبرى لفلسفـــة حاضرة ضمنا فـــي الرسالة الجامعية، وكم كنت أود -أنا وغيري من أصدقائه- لو أنه خرج عن صمته المستمر وكتب في الفلسفة.

يقول جورج صدقني: لا أحد يماري في مكانـــة الدكتور بديع الكسم الرفيعة بوصفه أستـــاذاً للفلسفـــة، ولا يختلـــف اثنـــان من المعنيين العارفين في هذا الشأن.

يقول شاكـــر الفحام: واصفـــاً مشاعره إثـــر لقاء لهمـــا عام ١٩٤٢م قبـــل أن ينهي الدكتور الكسم دراسته الثانوية، لقد بهرني حسن منطقه ، وتدفق عاطفته، واسترساله في حديثـــه، وراعني سعـــة معارفه. وتفتح فكره، وقوة حجته، وإحاطته وتعمقه، وشدة عارضته في الجدل والإقناع

في حديث دار بين الأستاذ سامي دروبي، وكان عائداً لتوه من الإيفاد، والأستاذ جورج صدقنـــي، في عـــام ١٩٥٣م، وعندما عرف الأول أن الأستـــاذ الكســـم يدرســـ الفلسفة العامـــة والمنطق في جامعـــة دمشق، قال: «استفيـــدوا يا جورج من الأستاذ بديع، بديع أحسن أستاذ في الشرق الأوسط».

جان إيكول :يقول: «إن السيد الكسم لم يتصدَّ لموضوع سهل، لهـذا لا نستطيع إلا أن نثني على الشجاعة التي أظهرها، وعلى الطريقـة الواضحـة التي عالـج فيها هذا الموضوع»

بورجـلان: يقـول فـي مجلـة التاريخ والفلسفة سنـة ١٩٦٠م، مقرّاً بالجهد الذي بذله الدكتور الكسم لفهم المهمة الفلسفية: «هذا الكتاب إسهـام جيد في الجهد الذي بذله الوضعيون والمناطقة والمؤرخون لفهم المهمة الفلسفية».

ليفـراز: يقول عن كتـاب «البرهان في الفلسفـة» للدكتور بديع الكسـم: إنه كتاب ممتـاز ربما وجب علـى كل مهتم بالفلسفة أن يقرأه.

بوخنسكي: يقول: «الآن نستطيع القول: إن العـرب قد عادوا بعـد غياب طويل إلى الإسهـام فـي العمـل الفلسفـي، وبالتالي إلـى القيـام بدورهم فـي بنـاء الحضارة الإنسانية».

أذكـر ذات مرة كنت أحضـر محاضرة للدكتـور الكسم فـي جامعـة دمشق وكان يحاضـر عـن الفيلسـوف الفرنسي هنري برغسـون، فقلـت له ألم يخطـئ برغسون عندمـا تحدث عن مفهوم الزمن، فقال لي: ستدافع أنت عن العلم أكثر من برغسون.

شخصيته:

قد يعتقد الكثيـر من الناس أن شخصاً في هـذه المكانـة، وعلى هـذا القدر من المعرفة والثقافة لا بـد أن يكون على قدر من الغرور والتعالـي، وربما العجرفة... أو على الأقـل لا ينفك يتحدث عـن ذاته.... ولكن الحق خلاف ذلـك تماماً إذ إنه مثال للفيلسوف الحق الذي تجسد أفعاله أفكاره، تنطبـق عليه المقولة الشائعـة بين أوساط المثقفين، بل والهامة أيضـاً، والتي تقول: «كلما ازددت علماً ازددت تواضعاً» وهذا هو بديـع الكسم حقاً .كمـا أن شخصيته متزنة الأفعـال والأقوال، رزينـة، عميقة التفكير، كتوازنـه وهـو وإن كان يتسم علـى العموم بالهدوء والتحكم بانفعالاته لدرجة شديدة، إلا أنه سرعان ما يحتد من الخطأ، وسرعان ما تبدو عليه علامات الاستياء، ولكنه أيضاً سرعان ما يفرج عن قلـب مجالسه بتعليق طريـف ينم عـن بديهة حاضـرة وقريحة بارعة، توحي للمرء بغلطه في الوقت الذي ينتزع الضحك فيـه من فيه، دون أن يجرح أو يخدش أحاسيسهم، ومثل هذه المواقف جد كثيرة ولذلك- كما يقول الدكتور الفحام لقـد قضى حياته معلمـاً يدرس ويحاضر، هذا الجانب استنفد جل طاقاته إن يقف في مصافي أولئك المعلمين الكبار، والمفكرين

العظماء، وقد وهب نفسه للتعليم والإفادة يقدم لطلابه وسائليه العلم من أوسع أبوابه. ويشجعهم على اقتحام عقباته ويبسط لهم المصادر والمراجع ويعيرهم من مكتبته الكتب النادرة التي لا تكاد تجدها في المكتبات الكبيرة. ولكن لماذا كان الأستاذ مقلاً جداً، بل بعيداً إلى حد عن الكتابة؟ هذه الثقافة الفلسفية الموسوعية التي قل أن نجد لها نظيراً بين المفكرين العرب المعاصرين.

سأل أحدهم الكسم لماذا لا تكتب؟ أجاب الكسم: ولمن أكتب إذا لم يكن هناك من يقرأ، فقال فيما معناه: العلم كالدواء لايعطى إلا لمن يحتاجه ومن يحتاجه يطلبه.

أهم أعماله:

- البرهان في الفلسفة: ترجمة الدكتور جورج صدقني، ١٩٩١م.
- لغة الفلسفة: محاضرة ألقيت في مكتبة الأسد، ١٩٦٣م.
- الحقيقة الفلسفية: نشر في محاضرات جامعة دمشق، ١٩٦١م.
- في البحث الجمالية: طبع في كتاب الفلسفة العامة، جامعة دمشق.
- بين أحكام الوجود وأحكام القيم: دراسة، ١٩٨٢م.
- النزعة الإنسانية: نشر في مجلة الثقافة، العدد العاشر، آذار ١٩٦١م، دمشق.
- من خصائص التفكير: نشر في مجلة الثقافة، العدد السابع، آذار ١٩٦٥م، دمشق.
- الحرية أساساً: نشر في مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق العدد (٦٢)، نيسان ١٩٦٧م.
- حول أزمة الإنسان الحديث: نشر في مجلة الثقافة، ١٩٦١م، دمشق.
- الإنسان حيوان ناطق: نشر في مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق العدد (٦٣)، أيار ١٩٦٧م.
- حول الغاية والوسيلة: نشر في مجلة الثقافة، العدد التاسع والعاشر، أيار وحزيران ١٩٦٥م- دمشق.
- التربية الجمالية: نشر في مجلة المعلم العربي، العدد (٤)، شباط ١٩٥٠م.
- علاقة الجامعة بالمجتمع: العربية والأصالة، وزارة التعليم، الجزائر العدد (٥) ١٩٧١م.
- دور الفلسفة في توحيد الفكر العربي: نشر في مرآة العلوم الاجتماعية، السنة الثالثة العدد(٦)، ١٩٥٩م.
- حول الثورة الثقافية: نشرت في صحيفة المجاهد، الجزائر، ١٩٧٠م.

- الثقافة القومية والثقافة الإنسانية: محاضرة ألقاها الكسم في اللاذقية بتاريخ ١٩٦١م.

- ازدواج الدلالة في الثقافة العربية: نشر في مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، تموز١٩٧٤م.

- العالم محاضرات: بين مزايا الأمة وعيوبها: نشرته دار الطليعة، ١٩٦٠م

- طاغور الفيلسوف: وزارة الثقافة، ١٩٦١م.

- الشرق والغرب في فلسفة رينية جينون: نشر في مجلة الثقافة، كانون أول ١٩٦٠م، دمشق

- الشعب وحرية الفرد في فلسفة هيغل: نشر في مجلة الثقافة، حزيران ١٩٦١م، دمشق

- مفهوم الوطنية في فلسفة فيخته: نشر في مجلة الثقافة - أيار١٩٦١م، دمشق

من المحاضرات: الحقيقة الفلسفية

الإنسان، في جانب أصيل من جوانب كيانه الروحي، إرادة وعي وتطلُّعٌ إلى الحق. وقد يميل بنا الظن إلى أنه تطلُّع إلى الحقائق كلِّها، ورغبةٌ نهمةٌ في معرفة كلِّ شيء. ذلك أن نزعة غامضة، خفيَّة في أعماقه، تصوِّر له المثل الأعلى للمعرفة معرفةً محيطةً شاملة، معرفة تَهْدُم مثلها الأعلى عن طريق تحقيقه. وليس لنا أن نسأل هنا عمَّا إذا كانت هذه النزعة الغامضة علامة من علامات العقل المطلق، تدمغ النفس المخلوقة وتدفعها إلى التشبُّه بالعارف العليم قدر طاقتها، أو أثراً إبليسياً من آثار شهوة العجرفة والفضول. ويكفينا أن نقرِّر أن الإنسان، في وجوده المتناهي وواقعه المتزمِّن ونشاطه الحي، إنما يتجلَّى في رفضه المستمر لجملة غير متناهية من الحقائق المحرَّمة والمعارف التافهة، وفي اختياره الحرِّ لنوع الحقائق التي تستحق أن تُعرَف أو يجب أن تُعرَف. فتطلُّع الإنسان إلى الحقيقة يعني إذاً أنه انفتاح على النور وجهد متصل لتركيز الحقائق الكبرى، الحقائق- القيم.

ونريد في حديثنا عن الحقيقة الفلسفية أن نقصر الكلام على الخصائص العامة للحقيقة المتضمَّنة في الحكم الفلسفي، لنخلص إلى ما يميزها من الحقائق الأخرى. نذكر، أولاً، بأن الحقيقة صفة من صفات الأحكام وحدها. فالحكم، أو التصديق، يقرر علاقة بين موضوع ومحمول، ويوصف بأنه حق إذا تطابق مضمونه مع الواقع. الحقيقة، إذن، هي تطابق ما في الأذهان مع ما في الأعيان، والتعبير اللفظي عن الحكم هو القضية. فقولي: «الكون متناهٍ في الزمان والمكان» قضية تعبِّر عن حكم يُسنِد

التناهـــي إلى الكون؛ وهي تتصف بالحقيقة أو الصـــدق إذا كان الكون فعلاً متناهياً في الزمان والمكان.

وإذا كانـــت الحقيقة صفـــة من صفات الحكم، وكان الحكـــم بدوره فعلاً من أفعال العقل، فـــلا معنى للتحدث عن الحقيقة إلا حين يقوم عقل معيـــن بإطلاق حكم معين. والنتيجـــة أن الحقيقة هـــي، أولاً وبالذات، حقيقة بالنسبة إلى صاحبها، لأنها متضمَّنة في الحكم الذي يطلقـــه، وملازمة للقضية التي يقرِّرها. والواقع أنه لا فرق بين تقرير القضيـــة وبين تقريرها على أنها صادقة أو متَّصفة بالحقيَّة.

نستطيـــع إذن أن نؤكد، في خطوة أولى، أن كل قضيـــة، مهما يكن مضمونها، قضية صادقة بالنسبة إلى صاحبها الذي يقرِّرها، وأنهـــا ليست صادقـــة إلا بالنسبة إليه. ولا نريـــد أن ننتقل من هـــذا اليقين الأول قبل أن نرفـــع عنه كل لبـــس ونستخلص نتائجه في التطبيق.

قلنـــا إن القضية صادقـــة بالنسبة إلى صاحبهـــا لأن الإنســـان لا يملـــك أن يطلق حكمـــاً لا يؤمن بصدقه. فمـــن الواضح أن الاعتقاد ملازم للحكم، مقوِّم لوجوده كحكم أو كتصديق، بحيث يكفـــي أن ينسحب منه حتى يتفتَّـــت الحكـــم أو يُعلَّـــق ألفاظاً في الفـــراغ. وينطبـــق قولنا ذلك علـــى جميع ميادين المعرفـــة وصورهـــا. فالمعرفـــة العامـــة معرفة صادقة تعبِّر عن الواقع عند صاحبها، وهي صادقـــة صدقاً مطلقاً حتى يتكشَّف لـــه خطؤها، أو حتى يتجاوزها إلى معرفة أدق وأشمل. وكذلك المعرفة العلمية والدينية والفلسفية. ويكفي أن يتأمل كل منا فـــي البنية المنطقية للقضية التي تعبِّر عن معتقَـــد من معتقداته الدينيـــة أو الفلسفية حتى يجد أنهـــا لا تختلف مطلقاً، من حيث كونها متَّصفة بالصدق، عن القضية العلمية الخالصة.

قد يُعترَض هنـــا بأن الحقيقة الفلسفية لا تملـــك، حتـــى بالنسبـــة إلـــى صاحبها، هـــذا اليقين الجازم الـــذي تملكه الحقيقة الرياضيـــة أو الطبيعيـــة. وجوابنا أن تاريخ الفلسفـــة يشهد أن الفيلســـوف، حين يقرِّر أحكامه تقريـــراً مليئاً خالياً من كل تحفظ، فهـــو يقرِّرها على أنها حقائق لا يقلُّ يقينها عن يقيـــن أية حقيقـــة علميـــة. فديكارت يصـــرِّح لنا بـــأن وجود الله أوثـــق عنده من حقائق الرياضـــة. أمـــا إذا كان الفيلسوف يتـــردد أحياناً في بعضـــ أحكامه ويقرِّرها علـــى أنها مرجحة فحســـب، فيجب أن نعدَّ جملـــة التحفظـــات التي تمنعه مـــن توكيد أحكامـــه توكيداً مطلقاً جـــزءاً من مضمون حكمـــه الحقيقي؛ أي يجـــب، بعبارة أخرى، أن نُدخِل جهة الحكم في مادَّته بحيث يظل

الحكم نقياً صافياً، يعبِّر عن الحقيقة تعبيراً كامــلاً. فإذا قيل إن أفلاطون -أو غيره من الفلاسفة- لم يكن واثقاً كل الوثوق من خلود النفس، وأنه لم يقرِّر هذا الخلود إلا بوصفه مرجَّحاً، قلنا إن القضية المعبِّرة عن موقف أفلاطون تعبيراً كامــلاً تنطوي هي نفسها على هذا الترجيح وتصاغ بالعبارة القائلة إن خلود النفس أمر مرجَّح. ولكن هذه القضية لابدَّ أن تتصف بأنها، بالنسبة إلى صاحبها، صادقة صدقاً يقينياً. طبيعي أن الخلود، في ذاتــه، لا يمكن أن يكون مرجَّحــاً. فهو إما أن يكون أو لا يكــون. وإنما يُحمَل الترجيح علــى حكم يتصل بدوره بمسألة الخلود. إنه إذاً جــزء من مضمون حكم على حكم ينتقل بنــا من سطح مشكلات الوجــود إلى سطح مشكلات المعرفة.

وقــد يُعترَضــ أيضــاً بــأن القضيــة الفلسفيــة، حتى لو نظرنــا إليها من حيث اتصافها بالصدق بالنسبة إلى من يقررها، تختلف عــن غيرها من القضايــا العلمية؛ ذلك أن القضية العلميــة واضحة الحدود، ثابتــة التصورات، بحيــث نستطيع أن نقرر صدقها استناداً إلى دلالتها المحددة الثابتة. أما القضيــة الفلسفية، كقولنــا مثلاً «الله موجود»، فهــي غير واضحــة الحدود لأن المعنى المقصــود بلفظة «الله» يختلف من فيلسوف إلى آخر، كما يختلف معنى الوجود نفســه. وجوابنــا أننا حين نربــط القضية بصاحبهــا فإننا نقرر، فــي الوقت ذاته، أن معناها الحقيقي هــو المعنى الذي يقصده من يقررها. فإله أفلاطون غير إله أرسطو، وإله ديكارت غير إلــه باسكال. ولكن معنى اللفظــة واضح فــي ذهن كل منهــم، ولابدَّ لنــا، لكي نفهم ما يقصده الفيلسوف نفسه، مــن أن نرجع إلى تجربتــه الروحية وجملة مذهبــه الفلسفــي. وهذا يعنــي أن ألفاظاً واحدة قــد تُستخدَم في الفلسفة لتدلَّ على معانٍ متباينة. فبرغسون، مثلاً، يؤكد حرية الإنسان، ويؤكد هــذه الحرية أيضاً لالاند. ولكــن لالاند يقول بصدد الكلام على حرية برغسون: «وقانا الله مــن الحرية إن كانت الحرية هي هذه!».

والخلاصة إن عجــز اللغة عن أن تقدم لنا لفظة خاصــة بكل فكرة هو الذي يجعل معنى القضية الفلسفية يتجاوز الألفاظ التي تعبِّر عنهــا، دون أن يفقد وضوحه في ذهن صاحبــه. القضية إذاً صادقة دائماً بالنسبة إلى من يقررها، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه هو الذي يعطيها معناها، وأنه يقررها دائماً بصــورة مطلقة من كل قيــد. وما دام ذلك صحيحاً بالنسبة إلى القضية من حيث هي توكيــد، أي مهما يكن مضمونها، فلا مجال للتفريــق هنا بيــن الحقائــق العلمية وبين الحقائــق الفلسفية والدينيــة. ولكننا قلنا

أيضاً إن القضية ليست صادقة إلا بالنسبة إلى صاحبها. وهذا القول بديهي في الواقع؛ إذ كيف يقرر إنسان ما صدق قضية دون أن يتبنَّاها؟ ألا نشعر جميعاً بأننا لا نستطيع أن نعترف بصدق حكم من الأحكام إلا إذا كنا نعدُّ أنفسنا أصحاباً لهذا الحكم؟ فلسانُ حال كلٍّ منا، إذن. هو أن الحقيقة هي التي أعترف أنا نفسي بأنها حقيقة. ولا تكتسب أقوال الآخرين صفة الحقيقة عندي إلا حين أقررها. فكل فرد منا ملزَم بأن يعدَّ نفسه مقياساً للحقيقة، أي مقياساً وحيداً للحقائق كلِّها. ولا مخرج له من ذلك إلا بالتناقض؛ إذ من التناقض الواضح أن أعترف بصدق حكم قبل أن يصبح حكمي، أي قبل أن أصدِّقه.

ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن الحقيقة التي أقررها هي في نظري مجرد حقيقة ذاتية أو شخصية. فأنا لا أستطيع أن أقرر حقيقة ما وأن أعدها في الوقت نفسه حقيقتي وحدي؛ ذلك أني حين أعترف بها كحقيقة إنما أعترف بها حقيقة موضوعية مطلقة. بل إن تعريف الحقيقة، من حيث هو تطابق الفكر مع الأشياء، يتناقض مع المفهوم الذاتي للحقيقة. ومعنى ذلك أنه إذا كان على الفرد، من جهة أولى، أن ينتظر تصديقه الذاتي لحكم من الأحكام حتى يعترف بحقيقة مضمونه، فإنه يكفيه، من جهة ثانية، أن يعترف بهذه الحقيقة حتى يقرر أنها موضوعية مطلقة. فقولنا إذن، إن كل فرد يعدُّ نفسه بالضرورة مقياساً وحيداً للحقائق كلِّها إنما يعني أنه يعدُّ نفسه مقياساً للحقائق المطلقة.

ربما بدا أن في ما انتهيت من الإشارة إليه مفارقة غريبة تبتعد بنا عن المفهوم المستقر في أنفسنا عن الحقيقة. ولكني أنبِّه، أولاً، إلى أن الحقيقة التي يدور الكلام عليها إنما توجد في الأحكام، ولا توجد إلا في الأحكام. فهي إذن لا تعني الواقع والوجود.

وأنبِّه، ثانياً، إلى ضرورة التخلي -ولو مؤقتاً- عن كل مفهوم مسبق عن الحقيقة وأنواعها المختلفة، وعن كل محاولة لاستباق النتائج التي يُظَنُّ أنها تترتب على ما سبق أن قررناه من توحيد معنى الحقيقة في الميادين المختلفة، ومن ربط الاعتراف بالحقيقة بصاحب الحقيقة نفسه.

وأنبِّه، ثالثاً، إلى أن الحقيقة العلمية نفسها لابدَّ أن تستند إلى اقتناع الفرد بها حتى تصبح حقيقة بالنسبة إليه. فأنا لا أقبل حقيقة هندسية إلا لأن البرهان يُلزِمُني بها بحيث يمتنع عليَّ أن أقاومها، وذلك بصرف النظر عن اقتناع الآخرين بها. فليست الكلِّية إذاً شرطاً من شروط الحقيقة العلمية لأني أقبل هذه الحقيقة

مــن غير اعتبار لقدرتهــا على أن تثبت في العقــول جميعاً. وهي، بالتالي، لا تتميز عن الحقائق الدينية أو الفلسفية.

وأنبِّه، رابعاً، إلى أنه إذا رجع كل منا إلى تجربته الفكرية أحسَّ بــأن معنى الحقيقة في الحكم لا يتعلق بمضمون الأحكام، وبأن هذا المعنى يظل، بالتالي، واحداً في جميع معتقداته؛ وأحسَّ أيضــاً بأن الحقيقة التي يقررها هي وحدها الحقيقة الفعلية، وبأنها، في الوقت ذاته، حقيقة مطلقة.

وأنبِّــه، أخيراً، إلى أني لــم أقل أبداً إن كل فرد منا هو فعلاً مقياس الحقائق، وإنما قلــت إن كل فرد منا يعــدُّ نفسه بالضرورة مقياساً للحقائق. فإذا ما طبقت هذا القول على نفســي -كما يمكن أن يطبقه كلٌّ منكم على نفســه- قلت: «ليس صحيحــاً أن كل فرد مقياس للحقيقة المطلقة»، كما يتوهم، وذلك لأني أنا نفسي مقياسها الوحيد.

من المقالات: من خصائص التفكير:

التفكير بالمعنى الواســع للكلمة، يعني جملــة العمليات النفسيــة التي نجربها في داخلنا، أو التي تجري من تلقاء نفسها. فنحن نفكر حيــن نتذكر أو نتخيل، وحين نحب أو نحقد، وحين نشكو أو نقرر، وحين نتطلع أو نصمم. إن هذا المفهوم الواسع الفضفاض للتفكير هو المفهوم الــذي قصده ديكارت عندمــا قال: «أنــا أفكر فأنــا إذاً موجود»، وعندمــا استخلص من قوله هذا إنه جوهر ماهية التفكيــر. وعلى ذلك فالإنسان يفكر حتى حين يكذب على الحقيقة والتاريخ وهو يفكر حتى حين يصــدق الأكاذيب وينخدع بالكلمة الزائفة. ولكــن للتفكير معنى آخر أخص وأعمق معنى ألصــق بحقيقته وأدل علــى شرف غايته. فهو امتناع عن الإنسياق الآلي ومقاومــة للاستســلام الرخو وعين مفتوحــة يقظة. التفكير هنــا يعني التروي والتنصت، ويعني الاتصال بالعقل والمبدأ.

إنه تنبه، لأن الفكر لا ينشط إلا اذا أحس بالعقبة إلا إذا جابه الصعوبة واصطدم بها. نستطيــع أن نقول عنه، كما قــال القدماء عن الفلسفة إنــه وليد الدهشة أو الشك أو الشعور بنوع من الضيق الداخلي يسد علينا دروب التفتح والسكينة الروحية.

فالدهشة التي يثيرها فينا الوجود الكلي، منطلــق التفكير الفلسفــي، والدهشة التي يخلقها فينا الخطأ والتناقض واللامعقول، هو منطلق التفكير المنطقي، والدهشة التي نحس بها عند تأمل ظواهر الطبيعة والحياة الإنسانية منطلق التفكيــر العلمي. والشك أيضاً منبع رئيسي من منابع التفكير بل هو الخطوة الأولى من خطواته. فلا بد لنا لكي نفكــر، من أن نشك أولاً بما يقال لنا افتراء

أنــه حقيقي. والقاعدة الذهبية في التفكير هي ألا نقطع الشك إلا باليقين.

ونحن نفكر أيضاً عندما نرى أن الأمور ليست بمواضعها. فالشر بأشكاله المختلفة، كالظلم والحرمان وامتهــان الكرامة وطعن المقدسات، دافع ثابت مــن دوافع التفكير الإنساني، ذلك أنه يولد فينا شقاء الضمير وعذاب الروح.

وهل يحفزنا إلى التفكير كما يحفزنا إليه عذاب الروح؟ كل هذا يعني أن التفكير يبدأ بوقفــة أمام العقبة بتنبــه لوجود المشكلة. ولكــن التفكير ليس مجــرد وعي المشكلة، وإنما هو جهد لحلها. إننا لا نفكر إلا عندما نحــاول اجتياز العقبة التــي عطلت سيرنا. وهذا ما يجعلنــا منذ الآن نسقط من دائرة الفكر، بالمعني الخاص للكلمة، كل محاولة تقمع بإثارة المشكلات. ذلك إن التفكير ليس مجــرد إشارة إلى الصعوبة، ولا مجرد طرح للمشكلــة أو طرح لها. إذ هل يكفي أن يقال إننا أمة مجزّأة أو أن الاستعمار يتآمر علينا حتــى نسمي هذا القول فكــراً؟ ليس الفكر فكــراً إذاً إلا حيــن يبحــث عــن الحل، إن يستجمع قواه ليهدم العقبة.

بل إننــا نذهب إلى أبعــد من ذلك في تحديــد معنــا الفكر، فنحصــره في جملة الحلول والأجوبة الناجزة فعلاً.

ذلــك أن التفكير الــذي لا يزال يتلمس حــل مشكلة تعترضه، ليســ إلا تفكيراً في طور التكويــن، إلا محاولة لأن يكون تفكيراً حقاً. وهو لن يصبح كذلك إلا اذا انتهى إلى الحل ووقف عنده قولوا إن شئتم إن التفكير لا يولــد فكراً إلا إذا بلغ غايتــه، أي إلا إذا كشف عن سر المشكلة التي يتصدى لحلها. والتفكير هو الحكم كما قال كانت. والحكم توكيد لعلاقة، إثبات لفكرة، تقرير لنتيجة. والمفكــر مفكر حقاً إذ يحمــل إلينا أفكاراً نضجــت في ذهنه إذا كان يوضح لنا روابط كانت غائبة عــن إدراكنا، إذا كان ينقلنا من الغموضــ إلى الوضوح، ومــن التخبط إلى التبصر، وبكلمة موجــزة إذا كان ينقلنا من السؤال إلى الجواب.

فنحــن في خطوة أولى قد حددنا الفكر بأنه تحسس للمشكلة ويسعى لحلها ووصول مطمئــن وائــق لهــذا الحل. وهنــا تجدنا مضطريــن إلى أن نسقط مــن دائرة الفكر مرة ثانية، جميــع التلمســات الأولية التي تدور حــول المشكلة ولا تنفذ إليها، وجميع الجهود الفاشلة التي تضمحل قبل أن تثمر. فالفكــر إذاً مــن حيث هو تجســد للحكم انتصار على الشك وامتلاك الحقيقة. وإذا ربطنا بين الفكر والحقيقة فقد فصلنا بينه وبيــن الخطأ. الفكر الخاطئ ليس فكراً ولا شبه فكر. إنه تعثر. إنه سقوط وضياع. ذلك

أنه بدلاً من أن يدفع البحث إلى قمته يخبو به إلى الهاوية. وهـذا يعني أن الفكر ليس مجرد الوصول لنتيجـة، أية نتيجة، بل إلى نتيجـة صادقة نتيجـة يطلبها البحث وهي تفرضـ نفسها على البحـث. ومن هنا كان المفكـر بالتعريف سادنـاً للحقيقة وراعياً للحقيقـة. وكل راعٍ مسـؤول عـن رعيته. المفكـر إذاً مسؤولٌ، والفكـر إذاً مسؤولية ولكنَّ المسؤولية عبء لا يحمله إلا الأحرار. إنَّها تفترضـ الحرية وتزول بزوالها. الفكر إذاً حرية والمفكـر الحر هو وحده المفكر وهنا لا بـد لنا أن نسقط مـن عالم الفكر كل فكـر زائف تخلى عن حريتـه. ذلك أن من بـاع حريته فقد إيمانـه بالحقيقة وكل من لا يصدر في أحكامه عن حرية داخلية، عن قناعة وجدانيـة لا يمكن أن يكون وفياً للحقيقة. إنه إذا أعلنها مرة أخفاها مرات. ولكنا قلنا أن المفكر راعٍ للحقيقة، وقصدنا بذلك أنـه راعٍ للحقيقةً في شمولها أي لكل حقيقة.

كل هـذا يـدل علـى أن الفكـر الذي لاينفصل عن الحقيقـة ولا عن المسؤولية ولا عن الحرية، لا ينفصل أيضاً عن القيمة. ونقصد من ذلك إن للفكر شروطاً أخلاقية إن هـي انعدمـت انعدم الفكـر نفسه. ألا تحمـل لفظـة الفكر نفسها معنـى التجرد والنزاهـة وسعة الصدر؟ بـل ألا توحي لنا، إذا أخذناهـا فـي صفائهـا ونقائها معنى المحبـة الفكر محبة لأنـه تطلع إلى النور، لأنه تفتح داخلي، لأنه عطاء. وهل يستطيع أحدنا حقاً أن يتصور المفكر الأصيل الذي آمن بالحق والحريـة، إنساناً خبيث الطوية حسير المقاصد؟ الحق إني لا أستطيع ذلك ولاأظن أنكم تستطيعون.

ها نحن في خطوة ثانية قد ربطنا الفكر بمعانـي المسؤولية عـن الحقيقة، وحرية الوجـدان وشرف النفسـ. وزيد في خطوة أخيـرة أن نشد الفكر إلـى الحياة والواقع والعمل.

لقـد قلنا في البـدء إنَّ الفكر يستيقظ عنـد مجابهة الصعوبـة. والصعوبة حاجز في طريق الحياة، سواء أكانت حياة داخلية روحية أم حياة عملية. فالفكر مرتبط بالواقع لأنه استجابة حيـة لمشكلاته الراهنة. وما الحلـول التي يقدمهـا إلا الوسائل العملية لفتح الطريـق أمام التقدم. أما الفكر الذي لا يتحـول إلى عمل أو الذي ليس له مردود واقعـي، فهو فكر سطحـي هزيل. والأصح أن نقـول إنه ليس فكراً على الإطلاق. ذلك أنه لـم يكن عديم الأثر فـي الحياة. فاقد المصلحـة بالعمـل، إلا لأنه لـم يميز بين المشكلة الحقة وبين المشكلة الكاذبة فأساء اختيار موضوعاته وضل طريقه. إنَّ الفكرة قـوة، فإن لم تكن قوة لـم تكن فكرة أصلاً.

الفكــرة أداة عمــل. أداة تــلاؤم وانتصار. ومــا الفكر المجــرد المبتور عــن جذوره في الحياة ســوى خرافة. ذلــك أن الحياة الإنسانيــة إرادة تحرر، تحــرر من الخوف والعبوديــة ومن الحرمــان. وليس الفكر إلا وسيلــة هذا التحرر، ينيــر طريقه ويعين له وسائله. فالفكر والعمل إذاً لا ينفصمان، كل منهما يدافع عن الآخر وهذا يعني أن الفكر فــي جوهره لا يقتصر على فهم الوجود في مستوياتــه المختلفة وإنما ينــزع إلى تغيير هذا الوجود والارتقاء به.

لقد انتهينا من رسم الإطار العام للفكر وتحديــد خصائصه الجوهريــة. إنه قبض على المشاكل التي يفرضها الواقع، وتجاوز لهــا تجاوزاً فعلياً. إنه بكلمــة أوجز، إزاحة العقبات مــن طريق الحياة وتخطيط للعمل يضمن له النجاح.

خاتمة:

لقد كان الكســم مقلا في الكتابة، ربما لديه تبريــر قوي لذلك، ورغــم ذلك أثرى الفكــر العربــي بمشروعــه الفلسفي الذي استمــر ثلاثين سنة، دون أن يكمله، على أية حال لقد أعطى الكسم الكثير وعلى الأجيال اللاحقة أن تكمل ما بدأه إخلاصاً لهذا العلم الشامخ الذي أنار سماء بلادنا بفكر فلسفي ناصع يرتقي إلى مصافي العالمية.

المراجع:

١- مقالة منشورة بعنوان محمد بديع الكسم فيلسوف بالمطلق على العنوان
http://tishreen.news.sy/tishreen/public/read/٤٦٦٢٥
٢- عزت السيد أحمد، بديع الكسم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٤.
٣- مــن خصائصــ التفكر: مقالة نشرت فــي مجلة الثقافة، دمشق، العــدد السابع، السنــة السادسة، آذار، ١٩٦٥م.
٤- الحقيقة الفلسفية: مقالة نشرت في محاضرات جامعة دمشق، ١٩٦١م.

تحقيق الذات في كتاب علم النفس الميسر

ترجمة: عبير حمود ❁

ماذا يعني فهم الذات؟

تنتقد المؤلفة النموذج الغربي القائم على السيطرة، قائلة: إنَّ القوة والهيمنة أصبحتا هدفين مرغوبين. وللأسف، لا يعلمنا هذا النموذج سوى وهم السلطة.

لا يوجد، في العالم أجمع، سوى شيئين نستطيع السيطرة عليهما:

١- الطريقة التي قررنا بها فهم ذواتنا.

٢- تصرفاتنا، تعتمد على هذا الإدراك.

❁ باحثة ومترجمة.

لا شـــيء آخـــر بيـــن يدينـــا، إلا بعض الاستثنـــاءات: كالفتيان. نملك إلى حد ما، سلطة على تصرفاتهم؛ نملك هيمنة بديهية في تعليمهم، وفي الطريقة التي نعلمهم فيها فهم ذواتهـــم. منذ أن يدخل أطفالنا مرحلة المراهقة، فإننا ندرك بسرعة وأحياناً بشكل مؤلم، كم باتت سلطتنا عليهم محدودة.

إذا كنـــا لا نملـــك السيطـــرة على شيء ما، فإننـــا لا نستطيـــع تحمُّـــل المسؤولية الكاملـــة والشاملـــة عليه. كم مـــرة أنهكنا أنفسنا تحـــت ثقل مسؤولية الآخر، أو نتائج لم نكـــن مسيطرين عليها فـــي البداية؟ إنَّ مفهوم الهيمنة هـــذا أساسي لفهم النموذج الوجودي ولتطوير تقدير الذات. طالما نظل منخدعين بأوهام الهيمنـــة، وبالشعور بأننا نتحمل مسؤولية الأشياء التي لا نستوعبها، وبما أننا لسنا على بينة من حقيقة وجودنا: إذن، لن نستطيع السيطرة على أنفسنا.

توضـــح الكاتبـــة فيما يتعلـــق بالنقطة الأولـــى أعلاه وتشيـــر إلى أهميـــة معرفة الطريقة التي نقرر فيها فهم أنفسنا: فإنَّها لا تتعلق بمشاعرنا بشكل عام ولا بالطريقة التي نفهم بها الوسط الخارجي. إنَّ الطريقة التي نفهم بها أنفسنا تنتج عن اختيار، ونحن نملك السيطرة عليها. وبالمقابل، مشاعرنا لا نختارهـــا: تهـــرب عـــن رقابتنـــا. نحمل مشاعرنا دائماً معنـــا، فنتوصل للإحساس بالحزن مثـــلاً دون أن نعرف لماذا. الحدث نفســـه ممكن أن يُحدِث فينا مشاعر عدة أو مشاعر مختلفة حسب السياق.

لنفترض مثـــلاً بأنك كنت تقطع شارعاً، دون شعور محدد؛ تأتي سيارة مسرعة جداً وتفشل في دهســـك. إذن، ستشعر بالرعب بالحزن أو بالخنوع، أو تمتزج هذه المشاعر الثلاثة. وإذا كنت بمزاج جيد تسعد بحظك المبارك بأنك خرجت سليماً.

تظهر مشاعرنا بشكل عفوي، لا نستطيع السيطـــرة عليها. الطريقة التـــي نفهم بها أنفسنا، هي اختيـــار: نستطيع التحكم بها. نستطيـــع الاختيـــار بـــأن نحـــب أنفسنا أو نحتقرهـــا. حين يُؤخَذ قرار، فإن تصرفاتنا ترجـــع إلى النقطة الثانيـــة المذكورة أعلاه (تصرفاتنـــا تعتمـــد علـــى إدراك الطريقة التي قررنا بها فهم ذواتنا) والتي تتماثل مع مشاعرنا المهيمنة.

إذا قررنـــا أن نحـــب أنفسنـــا، سنختار التصـــرف مع ذواتنا بشـــكل محبب وحذر. وسنتقبّـــل أنفسنـــا، وسنلتمســـ العـــذر لها وسنتعامل معها بكثير من اللطف. إذا قررنا ألا نحـــب أنفسنا وإذا لم نأخذ أي قرار (ما هو الاختيار بحد ذاته)؟ فستبقى تصرفاتنا مفروضة من خلال تعليمنا الأولي: سنحتقر أنفسنا وسننتقدها وسنرمي بمسؤوليتنا على عوامل خارجية وسنطالب أنفسنا بالكمال.

إن الطريقة التي نعامل بها أنفسنا تتعلق بنا كلياً؛ فحقيقة أن العالم الخارجي يقسو علينا ليس سوى عذرٍ لنخفف عن أنفسنا.

إنك لا تملك السيطرة على الطريقة التي يتعامل بها العالم الخارجي معك. وبالمقابل، فإن الطريقة التي تتعامل بها مع هذا العالم هي بين يديك. إذ تملك السيطرة على أفعالك ليس إزاء ذاتك فقط، وإنما إزاء الآخرين أيضاً. تذكر: لا نخلط الفعل مع الإحساس. تصرفاتنا هي التعبير الواعي عن مشاعرنا، فنحن الوحيدون من يقرر أفعالنا.

ثم تقول الكاتبة: سيلاحظ البعض بأنني لم أجسد في قائمة الأشياء التي نسيطر عليها، السيطرة على الآخرين. لأن السيطرة على الذات ليست وهماً، بل حقيقة.

ما هو تقدير الذات؟

يمكننا تعرّيف تقدير الذات بطرق عدة؛ منها أن يقوم على حب الذات واحترامها، وأن تضع نفسك بالمرتبة الأولى وتلبي حاجاتك الخاصة. كما أنه يقوم على انسجام الذات مع احترام تستحقه، أي في أعلى مستوى. عليك ألا تكتفي بحب ذاتك، بل أن تتصرف معها بحب في كل الظروف. الأسلوب الأبسط والأفضل لفهم تقدير الذات، هو تخيل أننا نحب شخصاً ما بعمق، ونحس بسعادة حقيقية عند لقاء هذا الشخص والتحدث إليه، ولا نتمنى سوى أن نمضي وقتاً معه، وأن نفكر به بحنو وأن نبذل ما بوسعنا لنسعده. هذا الشخص المحبوب هو أهم ما في العالم بنظرنا، ونبحث عن فعل أي شيء ليطلع عليه. في هذه اللحظة، لتضع نفسك مكان هذا الشخص ولتتصرف تماماً بالطريقة نفسها مع نفسك. ها هو ذا تقدير الذات.

أن تحب نفسك وتعتني بذاتك: إنه تماماً نقيض ما تعلمناه في التصرف والتفكير. تعلمنا تقدير الآخرين، أو العناصر الخارجة عنا؛ تعلمنا أن نقيس قيمنا الشخصية حسب ما نملك أو حسب الأسلوب الذي نحب. إنه التعريف نفسه للأنا الضعيفة: تتعلق قيمنا بالعوامل الخارجة عنا، وبعناصر لا نستطيع التحكم بها. عندما يُؤسس الرأي الذي نملكه عن أنفسنا على حب شخص ما، على عملنا، على معاشنا أو على «نجاحنا»، فنحن في حالة خطرة جداً: نعرض أنفسنا لفشل موجع. كل العناصر الخارجة عن أنفسنا هي آنية و انتقالية؛ ليست «نحن» فنحن لا نملك أي ضمان للاحتفاظ بها. بالنتيجة، إذا عهدنا إلى المتغيرات الخارجية بالمشاعر التي أحسسناها إزاء أنفسنا، إذا شعرنا بالتقدير لأنفسنا، بشرط أن نكون محبوبين وأن نستفيد من وضع جديد، فمن

سيوصلنا إذا تغيرت هـذه الظروف، أو إذا فشـل زواجنا أو إذا وجدنا أنفسنا في حالة بطالة؟ يتلاشى تقديرنا لأنفسنا في اللحظة نفسهـا مع ظروف كانت قـد ولّدته. نحس بأنفسنا منبوذيـن، مضطهدين، محرومين. ومن الجنون القول إنه الأسلوب «الطبيعي» فـي الغرب. لأن كل شيء يتغير بشكل دائم: لماذا يُربـط تقديرنا لأنفسنا بعوامل تهرب منا؟

تذكـر: إن الشيء الوحيـد الذي نملك القدرة على التحكم بـه، هو الطريقة التي نفهم بهـا أنفسنا وتصرفاتنـا الناتجة عن مشاعرنا. إذا قررنا أن نحب أنفسنا ونعاملها بحـذر، إذا قررنا تطوير تقدير ذواتنا. إذن، نحـن أسيـاد أنفسنا، لن نخاطـر بفقدان تطويرنا لأنفسنا.

الاختبار الأقصى لتقديرنا لأنفسنا، هو عندما يتلاشـى كل شـيء، وعندما يتدمر عالم المجانيـن ونخسـر كل الأشياء التي تعلقنـا بقيمتهـا. وإذا دأبنا علـى أن نحب أنفسنا ونعرف أننا محبوبون، هذا يعني أننا ملكنا تقدير ذواتنا.

لتثقيف تقدير الـذات، يجب أن نعامل أنفسنا بالطريقة الأكثر لطفاً، والأكثر حذراً والأكثر محبة في لحظة الآلام والصعوبات، تمامـاً مثلمـا نحيط بصديـق يمر بظرف صعب.

لماذا لا يُعد تقدير الذات عفوياً؟

إنـه علـى الأرجح عفوي، لكـن مربينا (أهـل، أصدقاء، معلمين) اهتموا بشكل واعٍ بأن يجردونا منه. في الواقع، لا يهتم النموذج الغربي إلا بالسلطة، بالطموح، وبالسيطرة، ونحـن نظهـر أنفسنا طلابـاً نمطيين لكل التقنيات التي تسمـح باكتساب أنا ضعيفة. تعلمنا أن يقلقنـا ما يفكر به الآخرون عنا؛ نتعـب أنفسنا لنعجب الآخرين الذين نبحث عن التأثير فيهم. نضع ضمن أولوياتنا بأننا لسنا مهمين ولا نستحق التقدير من أقربائنا. ثم، نتعلم بأنه، إذا أحببنا الآخرين إلى درجة التضحية بأنفسنا، فإننا سنعرف بشكل آلي مـا يحتاجونـه: إنَّ محبـة الآخرين تعادل تأمين حاجاتهم. يفترضـ بهؤلاء بدورهم، أن يقوموا بالطريقة نفسها ويسدوا حاجاتنا بحب. باختصـار، برمجنا أنفسنا عبر نسق لا يسير، بكل بساطة، بانتظام.

إضافة إلى ذلك، إننا لا نعطي أنفسنا حق الاختيار بين النموذج الموجود أعلاه وتقدير الذات. فـي أوج الشباب يُرسّخ في أعماقنا بأن حب الذات هـو الأنانية، يولّد نرجسية ويفيضـ بالذات: الأناني لا يُعاشر. الأسرة، الكنيسة، المدرسة: وكذلك مؤسسات أخرى تجتهد في قولبتنا ضمن نظام صارم! لكن، كل المؤسسات بحاجة لأناس يؤمنون بوظيفتهم وباتباعهم للأنظمة. ابتداء من هذه اللحظة

التي نعتبر فيها أن الطبيعة الإنسانية شريرة وأنه يجب أن نغلبها لنتمكن من العيش في مجتمع، نخاف من ترك الفرد يحب نفسه، نرفض الاعتقاد بأن الإنسان سيصبح طيباً إذا تركناه يطور نفسه كما يفهم ذلك. يفرض النموذج الغربي علينا اكتساب أنا ضعيفة؛ إنه مقتنع على وجه الخصوص لأنه يزودنا على ما يبدو، بوسيلة تجعلنا نتفوق على مشاعر الآخرين وسلوكياتهم: يكفي من أجل ذلك العناية بهم وأن نحبهم أكثر من الذات. للأسف، هذا خاطئ كلياً.

إذا كنا عاجزين -أو منعنا أنفسنا- من أن نحب ذواتنا، كيف لنا أن نؤمن بأننا قادرون على أن نكون محبوبين؟ إذا كان حبنا وتقديرنا بأكملهما مركزين على الآخرين، فكيف لنا أن نشعر بأننا أصحاء، كاملون ومحبوبون في أعماق ذواتنا؟ إذا ملكنا صورة سيئة عن أنفسنا، فكيف يمكن لإمكانياتنا أن تتفتح؟ لا أحد يستطيع أن يعطي الأفضل عن ذاته إذا كان لا يشعر بالارتياح الداخلي. أخيراً، إذا تكيفنا مع النموذج وأحببنا الآخرين أكثر من أنفسنا، دون أن نستقبل من هؤلاء بقدر ما نعطيهم، فكيف لنا أن نمنع أنفسنا من الشعور بالخطأ والمرارة؟ ليس من السهل للأشخاص الذين يشعرون بأنفسهم مهانين ومخدوعين أن يحبوا أنفسهم ولا حتى الآخرين. عندما نتعامل مع أقربائنا الذين يحبوننا ويلبون حاجاتنا، نضع على عاتقهم عبئاً ثقيلاً.

لا أحد يعرف طريقة محددة لما يحتاجه الآخر ولا اللحظة المناسبة. لن يستطيع أحد أن يعرف أبداً حب الآخر بالطريقة التي يريد بها أن يكون محبوباً. لن يستطيع أحد أن يفعل من أجل الآخر ما يمكن أن يفعله من أجل ذاته.

هل يعادل تقدير الذات الأنانية؟

بالمعنى الحرفي، نعم؛ تشمل الأنانية الاهتمام بالأنا- في اللاتينية ego (الأنا).

تعريف قاموس (الروبير) هو التالي:«ارتباط مفرط بالذات مما يدفع حصرياً إلى البحث عنها وعن سعادتها وعن مصلحتها الشخصية». يجب أن نشير لكلمتي «مفرط» و «حصرياً»: في الواقع، لدينا ميل لقراءة : «كل تعلق بالذات يُبحث فيه، بأشكال عدّة، عن سعادتها ومصلحتها الشخصية» يعلمنا النموذج الغربي أن الأنانية عيب كريه: لقد أتينا إليه لنطابق الأنانية بعدم لبقدرة على الاهتمام بشيء آخر سوى الذات. ويجب ألا نخلطها مع الذاتية المركزية، وهي «الاتجاه بكل ما يتعلق بالذات، وبعدم الاهتمام فعلياً إلا بها».

فـي الواقع، ما هو الفـرق بين الأنانية والذاتية المركزية؟ الأنانية في معنى تقدير الذات، هي فن تأسيس علاقات مع الذات: الذات ليست مداراً يدور حوله باقي العالم. لا يُطلـب من أحد أن يعتبر ذاته مركزاً لكل شيء؛ ببساطة، فالتأكيد إذاً على حقيقة أ ن كل شخص مطالب بتأمين حاجاته الخاصة. لنكف عن الحلم بأننا الشمس وبأن الآخرين لا يقومون سوى بالدوران حولنا: لنكتفِ بأن نكون نجوما تضيء بذاتها.

لا يوجـد إطلاقـاً أي مفهوم يثير معنى معاكسـاً، و صعب القبول أيضـاً. لُقّنا، بأن الأنانية هي شر، أكثر من المفاهيم الأخرى. المفارقة المذهلة، بأن الأناس الذين نعدهم أنانييـن -هؤلاء الذيـن نتهمهم بالنرجسية وبقلقهم المفرط على مصالحهم الخاصة- هم أيضاً الأكثر قلقـاً و في الواقع تمركزاً حول الأنا. هؤلاء الناس لا يقدّرون ذواتهم، عاجزين عن تأمين حاجاتهم وحب ذواتهم. يمضون وقتهم بمحاولة التفوق على الآخرين ويفعلـون كل شيء، ليكونوا مركز محيطهم. يصرفون طاقاتهم مـن أجل أشياء سطحية وينهارون تماماً عندما يتخلى عنهم الآخرون. هـذه الادعاءات الأنانية هي التجسيد عينه للأنا الضعيفة ولتناقضـ الأنانية المفهوم جيداً، أي لتقدير الذات.

لنحـب ذاتنـا، يجب أن نعـرف نفسنا. لنلبي حاجاتهـا الخاصـة ورغباتها، يجب البدء بتحديدها. إنه مـن غير الممكن إذا لم نركز انتباهنا على ذواتنا. لنكن أنانيين. لنعتني بشخصنا الثمين. لا أحد يستطيع أن يحل محلنا بذلـك، وخاصة بالطريقة التي فعلاً نحن بحاجة إليها.

أيمكن للمبالغة في تقدير الذات أن تتحول إلى أنانية؟

لا. تقديـر الذات، ليـس كافياً للوصول إليها. ليس هدفاً، وليس سلعة: إنه سيرورة. إنه شـيء نمارسه كل يوم. تقدير الذات هو شعـور نجربـه إزاءها، مرتبـط بتصرفات تجاههـا. عندما نملك تقدير الذات، نحس بالسكينة، المحبة، القوة والقدرة.

في ظروف عـدة، نستطيـع الإحساس بأننا أقل ثقة بالذات، أقل محبة، أقل قدرة: هنـاك نصبح أكثر أهليـة لنتصرف مع أنا ضعيفة، أكثر محاولـة للطلب من الآخرين جعلنا محور حياتهم لنؤمّن حاجاتنا. ينبعث تعظيـم الذات من نقصـ التقدير لها. من أجل أن نتوقف عـن صياغة توقعات عبثية إزاء الآخريـن، فالأفضل هو أن نسد نقص ذواتنـا وننظـر إلـى عيوبنـا. إذا احتجنا للاهتمام فلنعطـه لأنفسنا بإسهاب. إذا كنا نهمين للمدح والمجاملـة، فلنمدح أنفسنا،

ونجاملها. لنكـــرر كثيراً ما نرغب بسماعه. إذا لم نؤمن بذواتنا، كيف سنؤمن بالآخرين عندما يقولون لنا ما رغبنا بسماعه؟

عندمـــا نمنح أنفسنا تمامـــاً ما نحتاجه من مدح، هدايا، دلائل على الحنان، عندما نحس بالأمان، وبأننـــا متفتحون ومفعمون، إذاً نتطلع للآخرين بحب. نملك طاقة كبيرة لنوزّع حسناتنا علـــى ذواتنا وعلى أقربائنا. نحـــن أكثر تسامحاً إزاء أخطائنا الخاصة و أخطـــاء الآخرين. كلما بسّطت الأمور مشت بسهولـــة. نحتفظ بهدوئنـــا عندما لا يقول الآخرون ما نريده -أو لا يقولون شيئاً- لأننا نحس بالكمال في ذواتنا.

الصورة الأفضل لتوضيح هذه المفارقة، هـــي بعلبتـــي سكاكر. كل واحـــد يملك في داخله علبتـــي سكاكر: الأولى لـــه، والثانية لقريبه. تعلمنا أن نمـــلأ أولاً علبة القريب: سنستمر بصنع سكاكـــر لنملأها. مُنعنا من طبـــخ أي شيء لعلبة سكاكرنا، بل وتم منعنا من مجرد التفكير فـــي ذلك.نردد بأنه، إذا حضّرنا حلويات من أجل الآخرين، ستمتلئ علبتنـــا: يفترض بالآخريـــن أن يقدموا لنا سكاكـــر، وسيكـــون كل الناســـ سعداء. في الواقع، لـــن تسير كل الأمـــور كذلك؛ علبة سكاكرنا فارغة بشـــكل عام وإذا وضع أحد فيها سكاكر، فإنهـــا ليست ما نرغب به في هذه اللحظة. نشعر بمرارة، وبغضب أو بأننا منزوعـــو الملكية وهذا ليســـ مدهشاً: نرى الآخرين يحشون أنفسهم بحلوى حضرناها لهـــم. مفارقة: لنملأ بالبداية علبة سكاكرنا بنفسنا بسكاكرنـــا المفضلة والممتلئة جداً وسندخر العلبـــة الثانية. لنحتفـــظ بعلبتنا ممتلئة دائماً. لنعلم أفـــراد عائلتنا أن يملأ كل واحـــد علبتـــه أولاً. وعندئـــذ كل الناس سيربحون.

كيف نكتسب تقدير الذات؟

كي نتعلم شيئاً جديـــداً، فالأسهل دائماً هو أن نجد أستاذاً جيداً. لكن أساتذة تقدير الذات هم قلة. لا نستطيع القول-على وجه الخصوص- إن كل علماء النفس، كل الكهنة أو كل المساعدين الاجتماعيين قادرون على تعليمنا محبـــة أنفسنا. يجب أن يوضع أمام الأعين نموذج ليحتذى بـــه، يطبّق ما يعلّم؛ يجب أن يكون هنـــاك شخص يعرف محبة نفســـه، ويعرف بشكل خاصـــ طريقة تعليم الآخرين أسلوب الحياة هذا.

تقديـــر الـــذات يُكتسب بالتعلُّـــم؛ وقلة هم الأشخاص الذيـــن يتوصلون إليه بشكل طبيعي. تذكر: تعلمنا بألا نحب أنفسنا، في هذه اللحظـــة علينا أن نفتح صفحة جديدة وأن نعيد تعلم حب أنفسنا.

إن تقديـــر الـــذات يكتســـب كأية مهارة أخرى: وهكذا يجب رؤية الأشياء. إذا شعرت

بالحاجة لتقدير الذات، و كنت مصمماً بشكل تام على ذلك، فستصل إليه. من الأسهل تعلم موضوع حين نجهل كل شيء: العادات السيئة ليست مُكتسبة بعد.

لنفترض أنك درست لغة أجنبية خلال سنوات عدة قبل أن تلاحظ بأن معلمك لديه لكنة فظيعة وبأنه علمك لفظاً خاطئاً. لكي تتكلم بشكل لائق، يجب عليك العودة للخلف، وأن تتخلص مما علمك إياه هذا الجاهل وتبدّل المفاهيم الخاطئة بأخرى صحيحة. كان من الأسهل التعلم بشكل صحيح منذ المرة الأولى. مع ذلك، ليس الوقت متأخراً: إنه أصعب بكثير، لكنه ليس مستحيلاً لطالب صمم تماماً.

تقدير الذات يشتمل على التعلم من جديد الأسلوب الذي نرى به أنفسنا، ونعيد تعلم حبها. بالتأكيد، من الأسهل والطبيعي أن نتعلم حب أنفسنا منذ نعومة أظفارنا، عندما يكون الوعي طاهراً من كل دنس. للأسف قلما يحصل ذلك، بسبب نقص المعلمين والنماذج الممارسة لتقدير الذات.

إذن، يجب علينا أن نخلق هذه الفكرة: معلمونا هم نماذج ناقصة، لكن ذلك ليس خطأنا ولا خطأهم (هم أيضاً تلقوا تعليماً مغلوطاً في البداية). لن نضيع وقتنا لنتحسر على عدم تعلم تقدير الذات باكراً: لنكرس طاقاتنا لاكتساب كفاءة جديدة في هذه اللحظة.

لنبدأ بخيار: القرار الذي لا يبطل تعلم تقدير الذات. إذا رغبت بذلك القرار بشوق كاف، فستصل إليه. عندما لا يملك الناس شيئاً يخسرونه، فهم قادرون على تعلم أي شيء كان.

لتقنع نفسك بأنه ليس ثمة ما تخسره. ثم لتجد نماذج من البشر يقدرون ذواتهم، بكل بداهة. لا تعتمد عليهم ليعترفوا لك بأنهم يحبون ذواتهم أو بأنهم يجدون أنفسهم رائعين. ببساطة، إنهم يتخلصون من قوة راكدة ويبدون مشجعين للآخرين، بشكل ودي. إنهم متوازنون، واثقون من أنفسهم؛ يعترفون بسهولة بأخطائهم ويضحكون منها بشكل طوعي، لا يستهزئون من الآخرين، ولا يحكمون على الآخرين؛ متسامحون مع نقيضهم، يقبلون أنفسهم -ويقبلون الآخرين- كما هم. نشعر بالراحة مع أشخاص كهؤلاء. من المهم معاشرة أشخاص يقبلونك كما أنت في هذه اللحظة، ويشجعونك على امتلاك رأي صائب عن نفسك.

عندما ستجدون مثلكم الأعلى -طبيبكم النفسي، معلمكم، أهلكم أو أصدقاءكم، راقبوهم بانتباه. كيف يتصرفون عندما نرفضهم؟ أهم كاملون؟ كيف يتصرفون تجاه أخطاء الآخرين؟ كيف يتخطون الظلم

وهم ضحايا اسألوهم. اسمعوا وتعلموا من مثالهم. لكن لا يطلب منهم الرد على كل شيء: لا ترهقهم بآلامك، لا تطلب منهم أن يجعلوك كاملاً. النماذج الجيدة هم المعلمون الصبورون والمحبون، إذ إن تقدير الذات لايتعلق بك. النماذج الجيدة ليست بالضرورة أشخاصاً على صلة ببعضهم البعض.

بالدرجة الأولى، لتكن مستعداً لعمل تمارين تطبيقية. حتماً، سترتكب أخطاء عدة، لن تكون كاملاً. تقدير الذات راسخ في أعماق الطبيعة البشرية، ولكنه يشكل جهد حياة بأكملها. ليس حلاً خارقاً. إنه أسلوبٌ لتكون في عالم يسمح لك بمعرفة نفسك وانشغالك بذاتك جيداً.

لماذا لا تجلب لي كتب تطوير الشخصية شيئاً؟

في السؤال السابق، رأينا كيف نكتسب تقدير الذات. قراءة كتب تطوير الشخصية لم تذكر ضمن الحلول. يبدو هذا الإغفال غريباً، في كتابنا هذا (علم النفس الميسر) والذي نستطيع أن نعتبره علاجاً للتطوير الشخصي. هناك ثلاثة أسباب لذلك.

السبب الأول: معظم الأشخاص يشترون ويقرؤون هذا النوع من الكتب للبحث عن وصفة خارقة. فيتمنون أن يعطيهم الكتاب جواباً، و بالتالي سيقارنون ذلك مع قراءتهم. بالتأكيد، معظم كتب التطوير الشخصي تجلب أجوبة بشكل أو بآخر لكن تقدير الذات هو، بشكل جوهري، تجربة؛ تعاش، تمارس: لا يمكن تعلمها من خلال قراءة بسيطة.

إن تقدير الذات لا يُكتسب بطريقة سلبية، لكن بطريقة فعّالة وملموسة. وحدها الممارسة تتيح التعمق به. لا أحد يمكنه أن يمنحك تقديراً للذات على طبق من فضة، ولا أحد يستطيع الحصول عليه متعلماً – عبر القراءة مثلاً– أكثر من شخص اكتسبه. ذلك لا يعني بأن كتب التطوير الشخصي دون قيمة، أعتقد بأن لها أهميتها الخاصة، فدونها ما كنت لأستطيع أن أكتب هذا: لكن أهميتها الوحيدة تقوم على أنها تقترح أدوات. إن قراءتها قراءة بسيطة لا تكفي. ربما يكون من المهم أن نكتشف في كتاب ما بأننا لسنا وحيدين، بأن أشخاصاً آخرين وجدوا أنفسهم في الموقف نفسه، بأنهم تعلموا التغيير وبأن التغيير ممكن: إنه تشجيع سيدعّم المثابرة. لكن الكتاب بحد ذاته عاجز عن أن يمارس التغيير: معظم القرّاء يصرفون أموالهم ويلتهمون مجموعة من الكتب وفي ذهنهم أنها توصلهم إلى النهاية، سيجدون أنفسهم متغيرين بسحر. يشير الكتاب إلى طريقة يتعلمها القارئ للتغيير، طريقة فعّالة ستكشف نفسها

أمام آخرين؛ لكــن لا يمكن للكتاب أن يغير القارئ. لا أحد يستطيــع فعل ذلك، وحتى النماذج التــي اُختيرت. إنها مَهمة شخصية ولكل فرد حصته منها.

السبــب الثانــي: معظم كتــب التطوير الشخصــي لا تصل لهدفهــا لأنها تبدأ من حيث كان يجب لها أن تنتهي؛ تأخذ التغيير كمسلمــة. الكتاب يتحدث عن طريقة تغيير الذات، ورؤية الأشياء بشكل مختلف وأفضل من الماضي، وأن نرتب ما هو غير منسجم. إنــه المفهــوم نفســه الذي سيقــود للقيام بمعالجــة نفسيــة. ما ينقص، هــو مفهوم القبول. مفارقة: للتغيير، يجب البدء بقبول أنفسنا كمــا نحن. لكن، إنــه لصعب قبول أنفسنــا خاصــة إذا كنا منبهريــن بضرورة التغييــر. إنــه أسهــل بكثير قــول: سأحب نفسي...

- عندما سأفقد غرامات من وزني؛
- عندما سأحصل على هذه الترقية،
- عندما هذا (أوهذه) ستكون مغرمة أو مغرمين بي؛
- عندما أملك ما أحتاجه؛
- عندما سأتغير

إنَّ حقيقــة التركيز الأعمى على التغيير يعادل اصطدام الرأس بالحائط للذهاب إلى الغرفة المجاورة. بقبول أنفسنا، نرتد للوراء، بالنسبــة لهذا الحائط، نلاحظ هذه الحالة دون حكم مسبق فننتهي من ذلك بملاحظة الباب. القبول، هو الباب الذي في الحائط، هو ذاك الذي يجعل التغيير ممكناً. القبول هو شرط غير متوافــر للتغيير. لكن المهم بكتب التطوير الشخصي هو بشكل عام هذه الرسالــة الخاطئة: قبل البدء، يجب التغيير من أجل قبول الذات.

إن ذلك يوصلنــا للسبب الثالث: الكتاب وحده لن يستطيع أن يجهز محيطاً مشجعاً ومتفهمــاً. نماذجنــا التي تقبلنــا كما نحن الآن، تستطيــع مساعدتنــا لتقبــل أنفسنا، تستطيــع تزويدنا بهذه النظــرة الخارجية التــي ستساعدنا على أن نرى أنفسنا بنظرة جديدة ونجد باب التغيير. قلنا أعلاه: لاأحد يستطيع أن يشتغــل على أعماقك ليغيرها، فتعلم تقدير الذات ربما موجع.

مثلك الأعلى سيستطيع مساعدتك لتقبل نفسك وسيزوّدك بوسط ودي سيسهل تغيرك بشكل محتمل. إن كتب التطوير الشخصي، يشمــل ذلك الذي تقــرؤه الآن، تستطيع أن تلعــب دوراً مكملاً في تعليمــك. يمكن أن تكون أداة -بيــن أدوات اُخَــر- بأفضل ما يمكن، لكنها لن تكــون الأداة الوحيدة التي تمنحك تقدير ذاتك.

هل تقدير ذاتي سيجعلني سعيداً؟

ليس بالضــرورة. إن تقدير الذات ليس ضماناً للسعادة؛ تقديــر الذات يعادل وعياً

أكبـــر بها، يجلب احترامـــاً عميقاً ومستمراً إزاء الـــذات ، إنـــه بعد إمعـــان النظر، حب عظيم للذات. لا يساعدنا إلا بالسيطرة على أفعالنـــا وبالطريقة التي نفهـــم بها أنفسنا. تقدير الذات لا يجعلنا قادرين على التحكم بالمشاعر. السعادة هي شعور؛ يهرب إذاً من سيطرتنا. مع ذلك، إن حقيقة محبة الذات تحرّض غالبـــاً شعوراً بالسعـــادة وبالرضى الداخلي العميق.

غالباً، لكن ليس دائماً.

بما أنـــه من المستحيـــل السيطرة على مشاعرنـــا الخاصـــة، فإنه ليســـ بإمكاننا السيطرة علـــى مشاعر الآخريـــن.لا نملك السيطـــرة على تصـــرف الآخرين، نحن لا نتحكـــم بوسطنا. نظـــراً لأن سعادتنا تتعلق بجزء كبير بالآخرين وبوسطنا، فبشكل عام لا نستطيع التحكم بها.

مـــن المهم أن نتحقق من أن خيار محبة الـــذات لا يغيـــر العالم: إنـــه لا يغير سوى عالمنـــا. تبقـــى العوامل الخارجيـــة نفسها لكـــن الطريقـــة التـــي ندركها فيهـــا تتغير عندمـــا نكتسب تقدير ذواتنـــا. نُضيّع عادة بـــذل طاقتنا على تغييـــر أشخاص أو أشياء تهـــرب منا. لـــن يصبح العالـــم أكثر عدلاً، دائماً تصفعنا المصائب نحن وأولئك الذين نحبهم.

لا يمنع تقدير الذات من الإحساس بآلام الحياة، إنه يساعـــد على تجاوزها. لا يقلل الحزن، الغضـــب، وحتى الخوف لكنه يمنح قوة تجعل الذات واثقـــة، نعلم بأنها في كل الظروف تعبّر بشـــكل أفضل عن مواهبها. مهمـــا حصل، تعني محبة الذات أن نعرف كيـــف نكـــون حاضرين بذواتنـــا كما يجب. وهذا اليقين يمكن أن يجلب السعادة.

تذكر: هدف تقدير الذات ليس السعادة وإنما الســـلام الداخلي، التـــوازن ومشاعر الكمال. تحتوي الحياة آلاماً؛ إذن، ليس من الواقعيـــة أن تطمح بالعيش، وأن تتوقع، في الوقت نفسه، السعادة الدائمة.

هل سيجعلني تقدير ذاتي كاملاً؟

لا، لـــن أكون كاملاً أبـــداً: إنسان كامل، ذلـــك غير موجود. إن مفهـــوم الكمال ليس سوى وهـــم خطير ومدمـــر. تطوير تقدير الذات يعنيً الوعي بنواقصها وتقبلها. لتكن فـــي سلام مع ذاتك، لتكـــن الأفضل في كل الظروف لكن لا تجعل الكمال هدفاً.

عندمـــا تبدأ بمحبة ذاتـــك، تصبح أكثر تسامحـــاً إزائها. تتعلـــمُ التعامل مع نفسك برقـــة، وحتى عندما ترتكب أخطاء. وتتوقع ارتكابهـــا لأن ذلك هـــو (الإنسان النقي).إن حقيقة اقتـــراف الأخطاء لن تمنعك من أن تعامل نفســـك بحب. ستفقد عـــادة إرهاق

نفسك باللوم، ستتعلم أن تعذر نفسك وتحاول إيجاد حلٍ مختلف في المرة القادمة. ستكتسب التعلم من أخطائك: التي تستطيع أن تعلمك كثيراً. إذا كنت كاملاً، لن تكون بحاجة لتعلم أي شيء كان: ما هي إذاً أهمية حياتك؟ سيعلمك تقدير ذاتك أن تضحك بلطف من أخطائك. سيعلمك أن تتكفل كلياً بأفعالك و خياراتك، والتي تحظى بنتائج إيجابية أو سلبية. لدى غالبيتنا أسباب للتصرف كما يجب؛ سيسمح لك تقدير ذاتك تقبل هذه الأسباب التي قد تكون سيئة أحياناً.

في المرة التي تتعلم فيها تقدير ذاتك، ستلمس بعمق المعاناة التي أحدثتها أخطاؤك في داخلك ولدى الآخرين.من الصعب العيش من دون التسبب بألم؛ بالأحرى، من الصعب الموت من دون التسبب بآلام لأي كان. اعترف النموذج الوجودي بأن الألم كامن في كل حياة، وهو جزء منها. تقدير الذات يسمح لنا بالتوقف للبحث عن طريقة للتخلص من أخطائنا؛ يسمح لنا بألا نطمح للكمال، وأن نقبل طبيعتنا غير الكاملة والأخطاء التي تحدثها. بالنهاية ستستطيع أن تحدد لنفسك أهدافاً حقيقية.

لكن في الواقع، من يملك الرغبة في أن يكون كاملاً حقاً؟ فكّر بالنتائج التي ستحصل. أي نوع من العلاقات تستطيع أن تحصل عليها مع الآخرين؟ كيف ستستطيع فهمهم، وعلى النقيض، من سيفهمك؟ ماذا ستعرف عن المشاركة والتعاطف؟ كيف ستمنع نفسك من إبداء الرأي؟ أية وحدة، أي ضياع للتواصل مع الواقع! وحتى إن كان لديك القدرة لتصبح كاملاً، أأنت واثق من أنك مصمم على تحقيقه؟

متى سأحصل على تقدير ذاتي بما فيه الكفاية؟

أبداً. تقدير ذاتي ليس سلعة ولا هدفاً، إنه سيرورة. لن تستطيع أبداً القول: «ها قد: وصلت إليه! أستطيع الآن التوقف عن التعلم والعمل على ذاتي.» نتج من مثل هذه الأفكار نموذجنا الغربي، المتجه بأكمله نحو النتيجة؛ فهذه الأفكار لا تحسب حساباً لحقيقة الوجود. لا يمكن في أية لحظة من حياتنا أن نوقف الوقت لتجميده كلياً. تذكر دور البطل: يعرف بأنه ليس بمقدوره تغيير العالم لكن ذلك لا يمنعه من أن يبذل أفضل ما عنده. الحياة هي تحدٍ: أن تتعلم حب ذاتك هو وسيلة لترد على هذا التحدي.

عندما سينهار العالم من حولك، والأشخاص الذين تحبهم سيتركونك، وسيتلاشى وهمك بالأمان، فستمتلك اليقين باكتساب تقدير ذاتك. ستحس بنفسك حزيناً، غاضباً، تائهاً و مرعوباً، لكنك ستثابر على محبة نفسك وتعاملها بطريقة

ودودة. الأفضـــل، في هذه اللحظة أن تحب نفسك أكثر.

لا تستطيع أن تخزّن تقدير ذاتك، ولا أن تستمد من مدخراتـــك قياساً مع حاجاتك. ممارســـة تقديـــر الـــذات يمكـــن أن تقارن بتمرين جسدي. إذا قمت بالرياضة كل يوم على مـــدار سنة ثم توقفت شهراً، فعليك أن تستأنف من الصفر أو ما يقاربه.لن يحتفظ جسدك بأي من مكتسباته، ولن يبقى في حالة جيدة إن توقفت عـــن استعماله. إن تطبيق تقديـــر الذات يعني ممارستـــه بشكل دائم. من المستحيل إيقـــاف التمرين والاحتفاظ بالحالـــة العقلية نفسها. لـــن تستطيع تعلم حب ذاتك، ثم تتوقف عن هذا الحب متمنياً أن تحس بنفســـك محبوباً في اللحظة التي تحتـــاج لذلك. مع ذلـــك، يجعـــل التمرين الأشياء سهلة أكثر فأكثر. في النهاية، يصبح ذلك عادة، طبيعة ثانية: تعامل نفسك بلطف عفوي أكثـــر فأكثر، تطلب من ذاتك ما أنت بحاجة إليه وتتفق معهـــا بشكل حر. تماماً كما التمرين الجسدي، تكلف الخطوة الأولى أكثـــر لأننا لسنا معتاديـــن عليها.إن تدربت على تقديـــر ذاتك بشكل يومـــي، فلن تعود كمـــا كنت سابقاً. عندما نقوم بتجربة شعور الحب الحقيقي للذات، نرغب بألا نخسره. لا نملك منه كفاية، ولم نعد نفهمه من زاوية كمية.

عندما تصبح غلطة الطبيب جريمةً لا تغتفر!

إبراهيم سلوم ❁

يجمع معظم الأدباء، ولاسيما الذين مارس بعضهم مهنة الطب فكان طبيباً وأديباً في آن واحد على القول إن صاحب هذه المهنة النبيلة هو ذلك الإنسان الرائع الذي يبذل كل ما في وسعه من علم ومعرفة بالتركيب الداخلي لجسم الإنسان لكي يصارع المرض والموت من أجل أن يبقى مريضه على قيد الحياة، سواء أكان هذا المريض عدواً أو صديقاً له، فكلاهما أمامه سواء بسواء.

❁ باحث ومترجم سوري.

قديمـاً كانـت مهنة الطـب قائمة على السحـر والتعاويـذ والرقى والكـيّ إلى أن جاء الطبيب اليونانـي أبقراط (٤٦٠-٣٧٧ ق.م) الذي يعد مـن أكبر الأطباء الأقدمين وأشهرهـم، إذ إنه حظي فـي زمنه بشهرة واسعة منقطعة النظير لأنه لم يهتم في حياته التي عاشها بأكملها إلا في مجال واحد وهو مجـال الطب. هذا ويعـود الفضل إليه في أنـه خلَّص الطـب من السحـر والأساطير ومن ظلمـات الطقوس السحرية وذلك بعد أن تأكد أن للأمراض جميعها عللاً طبيعية، وأن لكل علـة حالتها الخاصـة التي يجب الكشف عنها ووصف الدواء الناجع لها.

في الواقع، لقد جعل أبقراط الطب علماً موضوعيـاً قائماً على المنهـج العلمي في ملاحظة الحالات المرضية إذ كان يتبع في فحص المريض استجوابه والجس واللمس، وتفحصـ مفرغاته من بول وبراز. لقد كان دائماً يشـرح لمرضاه بـأن أساس الصحة الجيدة هـو الطعـام المغـذي واستنشاق الهـواء النقي، والحفاظ علـى النظافة، إلا أن ملاحظته هذه لـم تكن لتخلو من التأثر بالفلسفـة حيـث كان يوصي مرضـاه بألا ينهاروا خلال إحساسهم بالوجع، ويستسلموا للمرضـ بل أن يعمدوا إلى ممارسة الإيحاء الذاتي ليصار إلى إقناعهم بأنهم ما زالوا في حالة صحية جيدة حتى لا يستبد بهم الوهم والوسواسـ. كما كان ينصحهم بألا يتعاطوا الـدواء إلا عنـد الضـرورة، وأن يعتمدوا على دفاعـات الجسم الذاتيـة عملاً بهذه المقولة التي تقول: سـرّ بدائك ما حملك. كمـا طالبهم بالاستعانـة بالصلاة والدعاء عسى أن يجلب ذلك كله السكينة إلى نفسهم المضطربة. كذلك لم تخـلُ ملاحظته من التأثـر بالكيميـاء آخـذاً بالحسبان نظرية المزج بين العناصر التي يتألف منها الجسم البشري، كالدم والبلغم والصفراء معتبراً أن الإنسـان ذا الصحة الجيـدة هو ذاك الذي تكون فيه هذه العناصر ممتزجة مع بعضها بنسبها الصحيحة.

أما في حالات المرضـ فتكون ناقصة عن معدلها أو زائـدة. وهذه العناصر تتأثر عـادةً بالطعـام، ومزاج الفـرد، واختلاف البيئـة المناخيـة، وقد ساعدتـه كل هذه المعارف إلى أن يجري وصفاً دقيقاً لمرض الالتهـاب الرئوي، والصـرع عند الأطفال، والرمـد العينـي، والسل، والتهـاب الغدة النكافيـة، وحمى النفاس، وذات الجَنْب. ثم دعـم معرفته هذه بوصف الدواء اللازم من كـيّ بالنار ومراهم وعقاقير مستخلصة من النباتات الطبية. كما ويُذكر له ما قدمه من تعليمـات تتعلق بتحضير غـرف العمليات الجراحيـة وتنظيم الضـوء فيها، وتنظيف اليديـن والأدوات الجراحيـة، وطريقـة

استخدام هذه الأدوات، وطرق تضميد الجروح.

ولا يزال علم الطب ينسب إليه بعض الحالات المرضية عندما نقول: مثل «أصابع أبقراط»، وهو ضَرْب من تشوّه الأصابع يتصف بتضخم في عضلات السلاميات الأخيرة وانعطاف الأظافر نحو راحة اليد. وغالباً ما نشاهد هذه الحالة عندما يكون المرء مصاباً بقصور رئوي مزمن، أو عندما يعاني من آفة قلبية وعائية.

كما ينسب إليه علم الطب ما يُسمّى بـ«السحنة الأبقراطية» التي يبدو فيها المريض وكأنه في حالة النزع الأخير. وهناك ما يسمى «بالرّج الأبقراطي» وهو طريقة استقصاء سمعية لصدر المريض المصاب بانصباب الجَنْب والممزوج بالهواء، وقد عالجها أبقراط بالحجامة والكمادات الساخنة والمراهم، والتدليك من دون أن يلجأ إلى الاستدماء.

كذلك يُعتبر أبقراط أول مدون لكتب الطب حيث نشر أكثر من ٣٠ كتاباً في الأجنة، وبعض أعضاء الجسم البشري والمياه والفصول وقد قام بترجمتها إلى السريانية ثم إلى العربية الطبيب حنين بن إسحق (٨٠٨-٨٧٣م) الذي ولد في الحيرة في العراق وعيّنه الخليفة العباسي المأمون رئيساً لديوان الترجمة.

والأهم من ذلك كله هو أن أبقراط وضع ناموساً لمهنة الطب يعرف باسم «قَسَم أبقراط»، وهو نصّ أخلاقي مؤلف من وصايا عدة، وتتطلب من الطبيب بأن يكون مُلماً بمعارفه العلمية المتعلقة باختصاصه، وأن يمتنع عن القيام بأي فعل فيه أذى أو ضرر بالمريض، وأن يمارس عمله في النقاوة والطهر، وأن يظل بمنأى عن فكرة استغلال عمله بقصد المال، وأن يقصد من جميع التدابير التي يتخذها هدفاً واحداً وهو منفعة المريض من خلال العمل على تخفيف حدة أوجاعه وآلامه.

كذلك يوصي أبقراط الطبيب لدى تلاوته هذا القَسَم بالتقيد بنهجه الأخلاقي، لأنه إذا نكث بقسمه وخان الأمانة الملقاة على عاتقه فسيكون قد ارتكب غلطة فادحة سواء أكان ارتكابها قد تم عن غير قصد أو عن قصد وسابق تصميم. ومما زاد من شهرة أبقراط هو أن هذا القَسَم ما زال خالداً وساري المفعول منذ زمانه وحتى يومنا هذا حيث يتلى في جميع دول العالم، ويتم التشديد عليه من قبل الأطباء الذين جاؤوا من بعده.

ففي القرن السادس عشر للميلاد أوصى الأديب والطبيب العربي داوود الأنطاكي (١٥٩٩) الذي أقام في القاهرة في مصر جميع الأطباء بأن يلتزموا بقسم أبقراط

مادياً وخلقياً، ثم ألف كتاباً بعنوان: «تذكرة داوود الأنطاكي في الطب»، وفيه يقدم شرحاً لهذا القسم مضيفاً إليه شروحات وتعابير أخرى من عنده، كقوله:

«ينبغي على الطبيب أن يتمتع بحسن الخلق، ويكون صحيح البنية، ونظيف الثياب، طيب الرائحة بحيث تستريح إليه النفوس، وألا يجس نبضاً وهو عابس. فالطبيب يقف عند حدود الله لأنه يصارع المرض والموت من أجل أن يبقى مريضه على قيد الحياة وذلك عبر الدواء الذي يصفه لمريضه، فمن خلال هذا الدواء تتحدد حالة المريض إمَّا بالتعافي أو بالتدهور نحو الأسوأ». ونظراً للشهرة الواسعة التي حصل عليها أبقراط فقد قررت اليونان في العام ٢٠٠٣م تخصيص يوم ١٩ أيلول من كل عام يوماً عالمياً مخصصاً لأبقراط وذلك تخليداً لذكراه.

ومع مرور السنين وتحديداً في تاريخنا المعاصر سارع بعض الأدباء إلى أن يستعيروا من الطب مواضيع أساسية في رواياتهم ومسرحياتهم بحيث لم تعد هذه المهنة وممارساتها حكراً على المؤسسات الطبية فحسب بل تعدت ذلك إلى عالم الأدب حيث بدأنا نقرأ روايات ومسرحيات تتناول عمل الطبيب، باعتبار أن الأدب ليس للأدب فحسب بل عليه أن يشمل كل جوانب الحياة. وحسبنا أن نذكّر بالرواية التي كتبها الكاتب الإيرلندي «برنارد شو» الذي ولد في مدينة دبلن في إيرلندا، واشتهر بالتهكم والتشاؤم في نتاجه الأدبي، ثم حصل على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٥٢م. ففي الرواية يوضح برنارد شو بأن المجرم يرتكب جريمة واحدة أو اثنتين في حياته ثم سرعان ما يلقى القبض عليه لينال جزاءه العادل. أما الطبيب الذي يظهر عن عدم كفاءة في مهنته سواء أكان ذلك على الصعيد العلمي أو الأخلاقي فإنه يرتكب أكثر من جريمة كل أسبوع، إمَّا عن طريق اختلاق عمليات جراحية لا لزوم لها، أو وصف أدوية لا داعي لها. وعلى هذا النحو تكون حياته سلسلة من الجرائم في حقّ مرضاه، إذ تتحول مهنة مداواة المريض إلى أداة للارتزاق وبأقصر الطرق. وهذا ما نقرؤه في مسرحية «الدكتور كنوك» للكاتب الفرنسي المعاصر جول رومان (١٨٨٥-١٩٧٢م) الذي وصف بطل مسرحيته وهو «الدكتور كنوك» بالإنسان الجشع الذي يعمل على جمع أكبر قدر من المال بإيهام أهل القرية الأصحاء بأنهم مرضى، إلا أنه يندم في نهاية الأمر لاحتياله على الأهالي وابتزازهم، ويطلب السماح منهم ولكن بعد فوات الأوان.

أما الكاتب الطبيب الإنكليزي جانيزون هاري فهو يطلب من أطباء العالم جميعاً أن «يكونوا رمزاً لمهنتهم التي يزاولونها».

وتاريخ الأدب العالمي يطلعنا بأن هناك أدباء مشهورين راحوا ضحية غلطة الطبيب، فرحلوا مبكراً عن دنيانا وكان رحيلهم خسارة كبيرة لا تعوض لأنهم كانوا بمثابة النور الذي تستضيء بهم الأجيال الحاضرة واللاحقة للسير على طريق التقدم والتطور، فجاءت غلطة الطبيب لتطفئ شعاع هذا النور لسوء الحظ، مثلما هو حال الأديب الفرنسي الشهير أنطوان بريفو الذي ولد في مطلع القرن الثامن عشر، وعُرف تحت اسم «القس بريفو» (١٦٩٧-١٧٦٣م) ومات بشكل عرضي بعد معاينة الطبيب له. هذا ويروي مؤرخو الأدب الفرنسي بأنه بعد أن تناول بريفو وجبة غداء دسمة لدى أحد أصدقائه قام بوداعه ليعود إلى مكان إقامته سيراً على الأقدام. وبينما هو سائر على الطريق أحس بألم شديد في معدته، ثم بدأ يتلوى ألماً إلى أن سقط مغشياً عليه.

تمكن بعض المارة من العثور عليه واصطحابه إلى الدير الذي يقيم فيه. استدعي الطبيب على عجل، فأكد وفاة بريفو وقرر تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة. وعندما بدأ الطبيب يشق بمبضعه معدة المريض من وسطها أطلق بريفو زفرة قوية من صدره، ما أذهل الطبيب الذي حاول على الفور أن يرتق ما كان قد فتقه باعتبار أن المريض ما زال على قيد الحياة، لكن المنية كانت على عجلة من أمرها فقضى بريفو نحبه. هكذا رحل بريفو في وقت مبكر بعد أن ترك أكثر من (٢٠٠) كتاب ومجموعة من القصص الأخلاقية والمغامرات. وكان رحيله خسارة كبيرة لفرنسا التي فقدت برحيله أديباً روائياً ذائع الصيت ومشهوراً.

كما كتب الناقد الأدبي الفرنسي سانت بوف (١٨٠٤-١٨٦٩م) الذي انصرف للنقد وتاريخ الأدب وتقدم طريقته على دراسة الأدباء من خلال بيئتهم الحياتية والتاريخية والاجتماعية، والذي يرى أن أنطوان بريفو هو بحق أحد هؤلاء العظماء، فهو أول من وضع الأسس لكتابة الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر. هذا العمل الأدبي الذي يقوم على سرد المغامرات أو دراسة الأخلاق والطبائع أو تحليل العواطف والمشاعر. في السابق كانت الرواية عبارة عن سرد حكاية سردية لمغامرات أشباح ولصوص غير محتملة الوقوع. لقد كانت خيالية وبقصد التسلية وتروى على لسان الحيوانات كما لدى الشاعر الفرنسي «جان لافونتين» أو عند «ابن المقفع»، وهذا ما أدى إلى نشوء الرواية الجديدة التي تقوم على الوصف الموضوعي

كأن تستعرض حياة أسرة بأجيالها وتقوم أيضاً على اللغة والفكر معاً.

إن قصة حياة هذا الكاتب لا تزال حية ومؤثرة إلى يومنا هذا، لأن حياته كانت متعددة الألوان مرهفة مثل سير الحياة التي أبدعها بقلمه. وما يبعث على الدهشة والعجب هو أنه اعتمد في حياته كلها كل الاعتماد على قلمه وكتابه فكان كاتباً خصباً غزير الإنتاج وساهم بشكل كبير في تشكيل الرواية الفرنسية.

ويعود الناقد الأدبي «سانت بوف» ليضيف قائلاً: لقد ترك لنا بريفو أكثر من (٢٠٠) كتاب تناول فيها القصص الأخلاقية والمغامرات وبشكل خاص الرواية التاريخية والأدبية. ونذكر على سبيل المثال روايته «مانون ليسكو» التي تعد إحدى روائعه الأدبية التي خلدت اسمه، فهي لم تمت منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا بعد أن خلدها عالم الأدب والفن والموسيقى والأوبرا.

تتحدث الرواية عن وقائع حدثت على مرحلتين. الأولى تتناول علاقة الشابة مانون بالفارس دو غريو الذي ولد وترعرع في بلدة «أميان» الواقعة في الشمال الفرنسي ضمن عائلة محافظة على التقاليد والمعتقدات الدينية، والذي كان يظهر دوماً تفوقاً على أقرانه في معهد البلدة حيث درس العلوم الإنسانية واللغة اللاتينية. لقد كان في نية والديه أن يلحقاه بجمعية دينية يطلق عليها اسم «جمعية فرسان مالطة» (نسبةً إلى جمعية فرسان القديس يوحنا التي تأسست في فرنسا في العام ١١١٣م، أي في خضم الحروب الصليبية لإسعاف مرضى وجرحى الإفرنج الذين كانوا يعودون من الأراضي المقدسة في فلسطين. لكنها سرعان ما تحولت في العام ١١٣٧ م إلى منظمة عسكرية تدعو للقتال إلى جانب الفرسان الصليبيين في فلسطين، وبعد رحيل الصليبيين عن المنطقة في العام ١٢٩١م رحل أعضاؤها إلى قبرص ومن ثم إلى جزيرة رودس ثم حطوا رحالهم في العام ١٥٣٠م في مالطة حيث أخذوا اسم «فرسان مالطة» وحكموها حتى حملة نابليون بونابرت على مصر وسورية في العام (١٧٩٨ – ١٨٠٤م). واليوم أصبح لقبهم شرفاً دون صفة عسكرية. وهنا يقول دو غريو في الرواية: «وفي غمرة آمال والدي العريضة جعلاني أضع صليباً خشبياً على صدري». وعندما بلغ دو غريو السابعة عشرة من العمر تعرف على فتاة رائعة الجمال تدعى «مانون» التي ما إن رآها للوهلة الأولى حتى دخلت إلى قلبه بسرعة واستحوذت على كل تفكيره بقوله: «ولكن مانون مرت أمامي ودخلت حياتي. ومنذ تلك اللحظة تغير كل شيء بالنسبة لي. لقد كانت في الخامسة عشرة من عمرها ولم

تكن قد تنبهت بعد إلى الفارق الموجود بين الذكر والأنثى. كانت فتاة تعكس براءة الأطفال في عينيها كلما أطلتُ النظر إليها». وفي أحد اللقاءات تبلغه مانون بأنها جاءت إلى بلدة «أميان» من إحدى القرى المجاورة بناءً على طلب ذويها لتدخل دير الراهبات فيها وتصبح راهبة مستقبلاً. بيد أن هذه الرغبة لدى الوالدين تتناقض مع رغبتها الشخصية التي تدفعها إلى أن تعيش حياة غير ملتزمة بأي قانون أرضي أو سماوي.

أوليست تلك هي الحالة نفسها التي يعاني منها دو غريو الذي ينتفض ويعرض عليها التخلي عن كل هذا المشروع والرحيل إلى باريس الواسعة الأرجاء كمخرج لهذا المأزق الذي يعانيان منه. يصل العاشقان إلى باريس ويستأجران غرفة منعزلة عن الجيران حيث يعيشان حياة مشتركة غير خاضعة لأي قانون مدني أو كنسي ويظهر هذا بقوله: كان حبنا المتبادل بمثابة عقد زواج وكان ميثاقاً كافياً لإقناع الآخرين من الباريسيين بأننا نعيش كرجل وامرأة.

لقد تخلينا عن مراسم الكنيسة، ووجدنا أننا أصبحنا رجلاً وامرأة بشكل عفوي من دون أن نفكر بالطريقة التي أوصلتنا إلى مثل هذه الحالة أو ننتبه إليها، وما أحلاها، وبعد مرور بضعة أشهر يكتشف شقيق دو غريو أمر أخيه فيذهب إلى باريس بحثاً عنه. وعندما يجده يحاول إقناعه بأن يعود إلى أسرته وإلا حرمه الأب من الميراث. يرتبك دو غريو بأمره فيقرر العودة مع أخيه إلى مسقط رأسه حيث يقوم والده بتأنيبه ورده إلى صوابه ولاسيما وأن مانون أصبحت بالفعل خليلة السيد (جي إم) أحد رجال المصارف في باريس ولم تعد تكترث به. وهذا أمر كافٍ لكي يقوم دو غريو بنسيانها وإبعادها عن مسار حياته، بحسب رأي الأب.

لم يرق لـ«دو غريو» سماع مثل هذا العرض الذي تقدم به والده فتثور ثورته ويقرر الذهاب إلى باريس ليقتل هذا الرجل الذي سلب منه مانون، وما إن يعلم والده بالأمر حتى يعمد إلى حبسه عسى أن تهدأ ثورته ويعود إلى رشده بعد أن يكون قد صحا من سكره ومن غفوته. ويزداد الطين بلة حين يأتي أحد أصدقائه المدعو «تيبرغ» إلى منزل دو غريو ليثبت بالفعل الزعم بأن مانون هي خليلة رجل المصارف الباريسي المذكور، وليطلب منه الانتظام في تلك الكهنوت تكفيراً عن هذه الخطيئة التي ارتكبها مع امرأة ضعيفة الأخلاق ألا وهي خطيئة الزنا.

تردد دو غريو لدى سماعه مثل هذا النبأ الصاعق لكنه قرر أن يلتحق بأحد الأديرة في «أميان» بقوله: «وظننت أني تطهرت من

دنس الحب». ولكن بعد غياب دام قرابة عامين يحاول دو غريو نسيان مانون ليصبح مثالاً للتقوى والتعبد.

وفي أحد الأيام يتلقى دعوة لحضور مناظرة دينية في جامعة السوربون في باريس فيذهب إلى هناك، وخلال وجوده في المناظرة يفاجأ بمانون بين الحاضرين. وما إن رأته حتى غادرت مكانها وشقت طريقها إليه. وهكذا يلتقي الحبيبان من جديد وتعترف مانون لحبيبها بخيانتها له لكنها تقسم اليمين على أنها لم تقترف خطيئة الزنا مع السيد (جي. إم) إلا من أجل مسعى واحد وهو الحصول على المال الذي قد يساعدها في تسهيل رؤية حبيبها دو غريو، واللقاء به من أجل تجديد حبهما وإنعاشه من جديد. وخلال تجوالهما على ضفة نهر السين يتفق الحبيبان على أن يهربا من باريس ويسكنا في ضاحية (شايو) لطالما أن مانون تمكنت من ابتزاز العجوز (جي إم) مادياً والاحتفاظ بمبلغ قدره ٦٠ ألف فرنك. وهو مبلغ كافٍ لكي يستأجرا مسكناً ويعيشا حياة باذخة. إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن إذ يسطو عليهما ليلاً أحد اللصوص ويهددهما بالقتل ما لم يعطياه ما لديهما من مال. وفي صباح اليوم التالي يحس الحبيبان بأنهما أصبحا بين عشية وضحاها شبه معدمين مادياً. وهنا يتنفس دو غريو الصعداء ويقول: «لقد أدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال من دون أن يكون بخيلاً. لقد عرفت مانون، فهي مهما كانت مخلصة لي في وقت الرخاء فلا يمكن الاعتماد عليها في وقت الشدة. صحيح أنها جمعت المال خلال وجودها بعيداً عني من أجلي، أما اليوم فيجب علي أن أتصرف وأرد لها هذا الدين». وتشاء الصدف أن يلتقي دو غريو بأخ مانون الذي علمه لعبة الورق والقمار وكيفية التحايل من أجل كسب المال.

يمارس دو غريو بشكل جيد قواعد هذه اللعبة في الغش والاحتيال فيكسب مزيداً من المال لكنه يتعرض مرةً أخرى للسرقة ويسقط الحبيبان مرة أخرى في الفقر والحرمان. لم تعد مانون تتحمل عبء الحياة التي بدأت تثقل كاهلها فتقرر الالتحاق بالرجل الثري ولو أنه يكبرها بسنوات عدة. وهنا يفترق الحبيبان عن بعضهما البعض فتكتب مانون رسالة إلى دو غريو تقول فيها: «إني أعمل كل ما في وسعي لأجعلك سعيداً، يا فارس أحلامي». وفي هذه الأثناء تقرر رئاسة الدير طرد دو غريو من سلكها الكهنوتي بعد أن سمعت عنه ارتكابه الكثير من الموبقات ما لم يعلن توبته أمامها. أما دو غريو فلم يعد أمامه من همّ يشغل باله سوى اللحاق بمانون وينفذ خطة سرقة

رجل المال بالتعاون معها. وبالفعل يتمكن الحبيبان من تنفيذ خطتهما بسرقة هذا العجوز الثري الذي سرعان ما استدعى السلطات في باريس التي بادرت إلى إلقاء القبض على مانون ومن ثم إحالتها إلى القضاء. وعلى إثر ذلك صدر قرار قضائي يقضي بوضعها في ماخور باريسي باعتبار أنها أصبحت مومساً. أما بالنسبة لدو غريو فيعود إلى أميان ليعلن توبته أمام رئيس الدير. وفي هذه الأثناء يطلب من صديقه «تيبرغ» أن يقرضه مبلغاً من المال لطالما أن والده صفح عنه وسوف لن يحرمه من نصيبه خلال توزيع الإرث على أبنائه. يقدم تيبرغ المبلغ من المال إلى دو غريو الذي يقرر على الفور الهروب من الدير والذهاب إلى الماخور ليرشو البواب كي يسهل عملية هروب مانون. تهرب مانون من الماخور وتقطع على نفسها عهداً بحب دو غريو إلى الأبد. يعود الحبيبان للعيش معاً لبعض الوقت. وعندما نفد المال تتعرف مانون في «أميان» على رجل آخر ثري فيتخذها خليلة له ويغدق عليها المال الوفير. ثم تلقي السلطات القبض عليها بفضل وشاية تقدم بها والد دو غريو الذي أقنع هذه السلطات بضرورة ترحيلها إلى خارج فرنسا بموجب العقد الذي كان قد عقده أحد تجار الرقيق الأبيض الفرنسيين مع شركة أميركية، ويقضي بإرسال ٢٠ مومساً فرنسية إلى ولاية لويزيانا الأميركية بعد أخذ موافقة السلطات الفرنسية على ذلك. يُلبى طلب الأب وتوضع مانون على لائحة المومسات الفرنسيات اللواتي يتجهن بحراً إلى لويزيانا الأميركية في الأيام القريبة القادمة. لكن دو غريو يعلم بالأمر فيعمل جاهداً لكي يصطحب مانون في رحلتها الطويلة هذه إلى الولايات المتحدة الأميركية.

أمّا المرحلة الثانية فتدور حول استعدادات السفر التي اتخذها التاجر بشأن رحيل هؤلاء المومسات الفرنسيات إلى مدينة نيوأورلينز في ولاية لويزيانا، حيث نقرأ ما يلي: قبل ترحيل المومسات بأيام قلائل قدم دو غريو إلى ذاك التاجر طالباً منه أن يساعده في اصطحاب حبيبته مانون. ولما كان مفلساً فهو لا يستطيع أن يقوم بذلك، وحبذا لو قدم له المساعدة اللازمة لذلك. يفكر التاجر بالأمر ويستدعي الفتاة التي ما إن شاهدها حتى أسر قلبه جمالها واصفاً وجهها الرائع بأنه يمكن له أن يعيد العالم إلى عهد الوثنية، أما دو غريو فكان بائساً يستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس. تتحرك المشاعر الطيبة لدى التاجر ويتأثر تأثيراً مزدوجاً نابعاً من حالة الحبيب التعيسة إذ يقوم بإعطاء دو غريو أربعة جنيهات ذهبية، وهذا ما مكن الفارس

من مصاحبة مانون في رحلتها البحرية إلى أن وطـأت قدماهما لويزيانا، حيث يعيشان هناك حياة مليئة بالبؤس، كما أوضح الراوي بقولـه: «لقد تعلمت مانون أن تتحمل مرارة الفقـر وأن تكون مخلصة كل الإخلاص لدو غريو، وهذه الحالـة دفعتهما إلى أن يعودا إلى ممارسـة الشعائر الدينية. لكن سرعان مـا يطـرأ على حياتهمـا مفاجـأة مذهلة مفادها: إن حاكم ولاية لويزيانا بعد أن تأكد لـه بأن الحبيبين غيـر مرتبطين ببعضهما البعض بعقد زواج شرعي، لذا فإن مانون ما زالت تعتبر عزباء ويجب أن تقبل بابنه زوجاً لها. وقبل تنفيذ عقد الزواج يذهب دو غريو ويشتـري سيفاً ثم يقوم بطعـن ابن الحاكم فيرديه قتيلاً. وعلى أثر ذلك يهرب الحبيبان إلى الفيافـي والقفار سيـراً على الأقدام. وبعـد مسيـرة أميـال عدة تسقـط مانون مغشيـاً عليها وتفارق الحيـاة». وهنا يقول دو غريو: «وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاي وجه عزيزتي مانون ويديها». ويحفر دو غريو بيديه قبـراً لها ويواريها الثرى ثم يرقد على القبر لينوح ويبكي على فقدانها. وتشاء الظـروف أن يأتـي صديقه «تيبرغ» إلى الولاية بحثاً عنه وطمعاً بالحصول على المـال الذي كان قد أدانـه إياه فيعثر عليه ويقنعه بضرورة العودة إلى فرنسا، ويذهب الرجـلان بحراً باتجاه فرنسـا حيث ترسو السفينة فـي ميناء «بادوكاليـه» الفرنسي، وهناك يلتقي الرجلان بتاجر الرقيق الأبيض الـذي كان تواقـاً لسماع أخبـار دو غريو وأخبار حبيبتـه مانون. وخلال اللقاء يروي دو غريـو كل حكايته التـي تحطم قلب كل إنسان استمع إلى تفاصيلها.

لقـد كان الإنتاج الأدبـي لبريفو منهلاً لاينضب ماؤه ومصدر وحي وإلهام لقصص أخرى مبللة بالدموع فإن أي امرأة حتى ولو لم تكن محطمة القلب ستذرف دموعها على مـوت مانون، وعلى حالة الحـزن والضياع التي يعيشها حبيبهـا الفارس دو غريو. ما من امرأة إلا وتغفر لمانون حيلها وأساليبها مـن أجل الحصول على المال طمعاً بتأمين العيش الرغيد لحبيبهـا. وأيضاً لدو غريو سلوكـه جراء مـا قام به مـن تطفل وغش وسرقة وقتل طبعاً إنه سلوك مألوف بالنسبة للبطلة التي كانـت تلهث وراء المتعة واللذة لكنه غير مقبول بالنسبة للبطل الذي يجب أن يتحلى بالمـروءة والإقدام، ولربما بلغت الرواية قدراً أكبر من التأثير لو أن دو غريو ترك نفسه ليموت فوق قبرها.

وفـي مؤلفاته تحـدث بريفو عن طبائع عصره فأجـاد الحديث عنها، وأقام تحليلاً لعاطفة الحب التي تقـود بطل الرواية إلى ضياعه وكأنه شخصية رومانسية، كما وبرع فـي التحليل النفسـي لأبطالـه الولهانين

ممـا جعل مـن روايته إحـدى روائع الأدب الكلاسيكي.

كان همـه الوحيد يتمثـل بخلق المناخ الملائم لـولادة الحب حيـث يظهر مانون فتـاة رائعة الجمال ساحـرة وجذابة لكنها لعـوب تتحلى بأخـلاق ضعيفة تجعلها غير قـادرة على مقاومة كل ما يجلب لها المتعة والسعـادة من مال وجواهـر، وكأنها خلقت فقـط من أجل سحر الرجال وشدّهم إليها، وخاصـة الرجال السذج والعاطفيين، ولهذا السبب أصبح دو غريو لعبة بين يديها. لقد كانت مانون قادرة علـى أن ترده إليها كلما حاول التخلص منها أو كلما حاول نسيانها. إنها بالفعل قـادرة على أن تعطل عنده آلية التفكير وتقوده إلى الجريمة والخذلان وإلى السقوط والانحطـاط الأخلاقي. ومع ذلك يبقـى دو غريو صاحياً وحاضر الذهن على الرغم من إدراكه بأنـه أصبح مسحوراً بعد أن فتنتـه مانون وجعلتـه يعيش حياة مليئة بالخسة والمهانة وهذا الحب له كل ما يبرره حتـى الأخطاء التـي ارتكبـت بسببه فهي مبررة. إن دو غريو يقيم تعارضاً بين الفردوس السمـاوي الموعود في العالـم الآخر وبين السعـادة التي يمكن أن يـذوق طعمها وهو على الأرض لكنه رضخ لهذه الأخيرة وأحب تذوقها بنهم شديد. إنه بذلك يهدم الحاجز النفسي الذي تقيمـه الكنيسة أو العائلة أو الأخلاق والعادات الاجتماعية.

إنـه كاتب سابـق لعصـره لأن ما جاء في رواياتـه يتطابق والنزعـة الرومانسية التـي جاءت بعـده بعقود عدة فـي الأدب الفرنسي. لقد كان تأثير بريفو كبيراً لدرجة أن الفيلسـوف الاجتماعي جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) تأثر به في روايته «هيلويز الجديـدة» حيـث نـادى بطبيعـة الإنسان والعـودة إلى الطبيعة. كما أنـه أوقد ذهن الفيلسوف الفرنسي ديدرو ليكتب مسرحيات عاطفيـة تدعو إلـى البـكاء وينشر مبادئ الفلسفـة العقلانية في القرن الثامن عشر، وكانت هذه المبـادئ إيذاناً بانطلاق الثورة الفرنسية فـي العام ١٧٨٩م. كمـا تأثر به الكاتب برنار دوسان بيير في العام (١٧٣٧-١٨١٤م) في روايته «بـول وفرجيني»، التي تعد منبع الانفعالات الدينية ضمن المذهب الرومانسـي. كذلـك برز تأثيـره قوياً لدى الروائي ألكسندر دوما (١٨٢٤-١٨٩٥م) في روايته: «غـادة الكاميليا»، وهو الذي اشتهر بمسرحه الاجتماعي التوجيهي. فضلاً عن أنـه لعب دوراً في ولادة الحركة الرومانسية الواقعيـة عندمـا قـدّم غوستـاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠م) روايتـه بعنـوان: «مـدام بوفاري» في العام ١٨٥٧م. ومن المعلوم أن

فلوبير امتاز بالواقعية والصياغة الفنية في إطار رومانسي.

كما ويعتقد الناقد الأدبي (سانت بوف) أن بريفو كتب هذه الرواية لتكون مرآة حياته قبل أن تكون حدثاً قد وقع. ولربما روى الرواية بمثل هذا الإحساس لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا في شخص بطل الرواية دو غريو. إنه على غرار بطل روايته انجذب نحو المغامرة وهو في سن مبكرة حيث كان قلبه يتأرجح بين السيف والكهنوت وعاش المصير نفسه الذي نلمسه من خلال الاطلاع على سيرة حياته الذاتية حيث ولد في العام ١٦٩٧م في بلدة «با دوكاليه» الواقعة في الشمال الفرنسي، لأبٍ كان يعمل في جباية الضرائب لدى الملك لويس الرابع عشر، وكان يحب أن يرى ابنه كاهناً. ومن أجل هذا السبب أدخله وهو في عمر الـ١٤ سنة إلى دير اليسوعيين في بلدة «كورتوي» القريبة من مسقط رأسه، إلا أن بريفو سرعان ما هرب من الدير ليختار الحياة العسكرية في العام ١٧١١م، ثم ترك الحياة العسكرية كضابط برتبة ملازم ليعود ثانية إلى حياة الإكليروس في دير البندكتيين (نسبةً إلى الراهب الإيطالي «بنوا دو نورسي» مؤسس رهبنة البندكتيين في القرن السادس للميلاد، التي تشدد على الالتزام بأداء الشعائر الدينية بشكل جماعي، وإتقان العمل اليدوي)، وهكذا تعمق في دراسة الفلسفة واللاهوت والعلوم الإنسانية، وهذا ما أهَّله لأن يصبح كاهناً غير قانوني في العام ١٧٢٦م وهو في عمر الـ٢٩ سنة. لقد ساعدته كل هذه المعارف التي اكتسبها في الأديرة إلى أن يكون واعظاً يتقن فن الخطابة والقدرة على الإقناع.

في العام ١٧٢٨م يغادر بريفو الدير من دون أن ينال موافقة رؤسائه باتجاه لندن حيث تعمق بدراسة الأدب الإنكليزي، وبدأ بترجمة روايات صموئيل ريتشاردسون (١٦٨٩-١٧٦١م) الضخمة إلى اللغة الفرنسية التي كانت بمثابة الأسس التي استندت إليها الرواية الإنكليزية الحديثة حيث تختلط الواقعية مع المشاعر الأخلاقية والعاطفية معاً، كما نرى ذلك في روايات: «باميلا»، و«كلاريسا». وقد كان لهذه الترجمة دور كبير في أن يتهافت الفرنسيون على قراءة أدب ريتشاردسون بفضل ترجمتها إلى الفرنسية من قبل القس بريفو.

كذلك قام بريفو بترجمة كتاب «تاريخ إنكلترا» للكاتب الإنكليزي دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م)، وهذا الأخير هو فيلسوف ومؤرخ أنشأ الفلسفة الظاهرية التي تنبثق من فلسفة لوك الذي عرف بتحرره وآرائه التقدمية معتبراً الاختبار وكأنه مصدر كل معرفة ثم نبذ الأفكار الفطرية، كما

نقــرأ ذلك مــن كتابه: «محاولــة في الفهم البشري».

في نهاية عام ١٧٢٩م يغادر بريفو لندن نحو أمستردام إلى بولندا، وهناك يحكى بأنه وقع في غرام امرأة تدعى هيلين ايخهاردت، ثم بدأ بنشــر مذكراته التي اندرجت ضمن ثمانيــة مجلدات تضمنت أفــكاره ومذهبه الأدبي الجديد في كتابة الرواية الفرنسية، وأيضــاً انطباعاته عن رحلاته التي قام بها عبر أوروبا.

بــدأ بريفو بنشر هــذه المجلدات تباعاً ومنها المجلد الأول بعنوان: «ذكريات رجل ذي منزلة رفيعة»، ومن ثم نشر المجلدين الثاني والثالث وأيضاً الرابع بعنوان: «تاريخ السيد كليفلاند، الابــن الطبيعي لكرومويل»، ويعد هذا المجلد من أوائــل القصص التاريخية حيث تناول فيه البرلماني البريطاني أوليفيه كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) الذي تزعم حركة المعارضة البريطانية لسلطة الملك مطالباً بإقامة نظام شبه جمهوري في إنكلترا، والذي كان لــه دور هام في إخضــاع إيرلندا للتاج البريطاني. كما نشر مجلده السادس بعنوان: «التاريخ العــام للرحلات» وفيه يتحدث عن انطباعاته عن الرحلات التي قام بها داخل فرنسا وخارجها.

في العام ١٧٣٣م يعــود بريفو ثانيةً إلى لندن وهناك يقــوم بإصدار صحيفة بعنوان «الحسنات والسيئات» مكرّسة لمعرفة الأدب والثقافة الإنكليزية. في العام ١٧٣٤م يغادر لندن إلــى باريس وعندمــا استغرقت فترة غيابه زمناً طويلاً أصدرت رئاسة دير كورتي أمراً يقضــي بحرمان بريفو مــن أحضان الكنيسة اللهــم إن لم يأت إليها ويعلن توبته أمامها. وفي رسالة وجهها إلى رئاسة الدير طلب فيها الصفــح والغفران ثم غادر لندن باتجاه باريس ليحل قساً على دير البندكتيين في بلــدة «أيفرو» الواقعة على بعد ١٠٠ كم من باريس.

وبعــد قضاء عامين فــي الدير يتعرف عليــه أمير البلدة المدعو «كونتي» ويستعين به كمستشار روحي له ولأسرته. وقد ساعده وجــوده فــي باريس علــى أن ينهــي كتابة مجلداته الثمانية وإصدارها بشكل متلاحق وكان أبرزها وأهمها المجلد السابع بعنوان: «مانــون ليسكــو»، وأن ينشــر روايات عدة أهمها: «عميد كيلريــن» (١٧٣٥م) و«تاريخ امرأة يونانيــة معاصرة» (١٧٤٠م)، و«تاريخ الفارس غرانديسون» (١٧٥٥م).

وبعــد قضــاء كل هذه الفتــرة الطويلة في باريــس أحب بريفو أن يعــود إلى بلدة «كورتي» ويقوم بزيــارة الدير فيها. وخلال هذه الزيارة تلقى دعوة من صديق له يسكن في قرية مجــاورة لا تبعد سوى ١٤ كم عن الدير لكي يتناول وإياه طعام الغداء.

وضمن هذا السياق تروي حفيدته إلى الناقد «سانت بوف» قصة وفاته المفجعة على النحو التالي: في يوم ٢٢ تشرين ١٧٦٣م لبّى بريفو -أحد أقاربي الأباعد- دعوة صديقه بتناول طعام الغداء معه. يبدو أن وجبة الغداء كانت دسمة للغاية لم يظهر تأثيرها على صحة الكاتب إلا بعد أن ودع صديقه وسلك طريق العودة إلى الدير سيراً على الأقدام. ولدى مغادرته القرية أحس بمغص شديد في معدته وبقشعريرةٍ في ظهره، فبدأ يدثر نفسه بالمعطف الذي كان يرتديه، لكن الإحساس بالرعشة بدأ يقوى ويشتد، ما جعله يشعر بعدم القدرة على الحركة فسقط مغشياً عليه.

وكان من حسن حظه أن تزامن ذلك مع عودة بعض الفلاحين من القرية إلى منازلهم عائدين من حقولهم مساءً. وعندما لاحظوا أن الشخص الممدد على الأرض يرتدي لباس الكاهن عملوا على حمله على إحدى الدواب ومن ثم نقله إلى منزل كاهن الرعية في القرية. ما إن شاهده كاهن القرية حتى تعرف عليه على الفور فطالب بإرساله إلى الدير المجاور حيث يقيم هناك. استغرقت هذه العملية فترة زمنية لا بأس بها إلى أن هبط الليل. ولدى الوصول إلى الدير بعث رئيسه بمراسل إلى الطبيب «بوغون» المتقاعد لكي يحضر على وجه السرعة ويقوم بفحص بريفو. نهض الطبيب من فراشه حوالى منتصف الليل ثم ارتدى ملابسه وتناول حقيبته الخاصة واتجه باتجاه الدير. استقبله رئيس الدير بسرعة فائقة ثم طلب منه التوجه إلى الغرفة المجاورة حيث وجد الطبيب كاهناً في الستينات من العمر ممدداً على سرير خشبي ولا يقوم بأي حراك وكأنه فارق الحياة. اعتقد الطبيب بأن مريضه فارق الحياة ففتح حقيبته وأخذ مبضع الجراحة بقصد تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة. ثم طلب من الحضور تجريد بريفو من لباسه ليبدأ بشق البطن من وسطه إلا أن دهشته كانت قوية عندما أطلق بريفو صوتاً عميقاً يدل على أنه ما زال بعد على قيد الحياة. ومباشرةً حاول الطبيب رتق الشق فجاءت محاولته متأخرة جداً لأن المريض كان قد توفي عند ملامسة أحشائه الهواء الخارجي وخلال ثوان معدودة. لقد كان تصرف الطبيب غلطة فادحة ناجمة عن تسرعه في تشخيص حالة مريضه، ولو أنه قام بعمله بكل روية وتأنٍ لما كانت قد وقعت الفاجعة التي يمكن وصفها بالجريمة التي لا تغتفر.

لقد خسرت فرنسا برحيله أديباً مشهوراً ما زال قادراً على الإنتاج، فهو كان بصدد تأليف كتاب ذي طابع ديني يتعلق بدور

الديـن في المساهمـة بالتربية الأخلاقية، ولاسيمـا أنـه كان يركز دوماً فـي عظاته الدينية وفي أحاديثه على الجانب الأخلاقي الـذي كان يشدد عليه حتى لا يصاب المرء بعاهـة التعصب الديني. ربما كان ينوي من وراء ذلك كله، كما تقول حفيدته إلى الناقد «سانت بـوف»، أن يؤلف كتاباً يكون مرجعاً أساسياً في مناهج التربية الدينية في فرنسا لكن الموت كان لـه بالمرصاد نتيجة غلطة قاتلة ارتكبها الطبيب بحقه.

ما من شك أن غلطـة الطبيب بحق أي مريض تعتبر فعلاً جرمياً لكن الجريمة تكون أقـوى تأثيراً عندما يتعلـق الأمر بكاتب أو مبدع مثلما هو حال الكاتب المذكور انطوان بريفو لأن أمثاله من المبدعين ورجال الفكر هم عادة بمنزلة الرجال العظماء أينما حلوا وعاشوا.

ولقـد كان الجنرال شـارل ديغول خير مـن أشار إلى ذلك خلال ترؤسه حفل تأبين الكاتـب الفرنسـي الراحل أندريـه موروا (الذي عاش بين أعـوام ١٨٨٥-١٩٦٧م)، والذي اشتهـر بقصة رائعة عن ذكرياته في الحرب الكونية بعنـوان: «صمت الكولونيل براميل» ومـن أهم آثاره أيضاً مجموعة من سيـر الأدباء والرجال العظماء، مثل: شللي، بلـزاك، فيكتور هوغو، بايـرون، حين قال ديغول: «إن خسـارة ١٠٠ شخصية سياسية فـي المجتمع الفرنسي يمكن لها أن تعوض لأن هؤلاء لـن يشكلوا عبئاً ثقيلاً في إيجاد بديل عنهم، لكـن الخسارة الحقيقية تكمن حيـن يفقـد المجتمـع عالمـاً أو أديباً أو مبدعـاً، فعندها تشعر فرنسا بأن جزءاً من كيانهـا قد فُقد». وبكلامه هذا يثبت ديغول موقف بلاده حيال هؤلاء الأدباء والمفكرين الذين خصصت لهم فرنسا مدفناً خاصاً في ضريح «البانتيون» الواقع في الحي اللاتيني فـي باريس حيـث يرقد رجالهـا العظماء وحيث نقرأ على مدخله هـذه العبارة: «إن فرنسا تدين بالعرفان لرجالها العظماء».

تلك كانت غلطـة قاتلة قام بها الطبيب من غير قصد حيال بريفو. لكن الأسوأ في الأمـر هو عندما يعمد الطبيب إلى ارتكاب غلطاته عن قصد وسابق تصميم كما حصل فـي هذه الواقعـة التي أثـارت المزيد من الشكوك حول حيثياتها. ففي كتابه بعنوان: «لقاءات في حياتي» كتب الصحفي الفرنسي المخضـرم جان لاكوتير الذي اشتغل طوال ٦٠ عامـاً في العمل الصحفـي، بدأها في عهـد الجنرال شـارل ديغول يقـول: «لقد أتيحت لي الفرصة في أن ألتقي خلال عملي كصحفي بالعديـد مـن الشخصيات التي صنعت التاريخ من رؤساء دول وأدباء وملوك وشعراء وفلاسفة في بلدان الغرب والشرق معـاً»، ثم تعرفت علـى بعضهم بشكل جيد

مثـل: «جمال عبد الناصـر، وياسر عرفات والملـك محمد الخامس بطـل الاستقلال المغربـي عن فرنسا في العام ١٩٥٦م، هذا الأخير الذي وافته المنية في العام ١٩٦٠م بعـد حادثـة وقعت معه في العـام ١٩٥٦م حين قـدم زعيم الثورة الجزائرية أحمد بن بيلا إلى زيارته في المغرب. وعندما انتهت الزيارة أمر الملك المغربي أن توضع طائرته تحت تصرف (بن بـلا) ورفاقه لتهبط بهم في تونس. وخلال الرحلـة من الرباط إلى تونـس اعترضت طائرات حربيـة فرنسية طريـق الطائـرة المغربيـة وأجبرتها على الهبوط في فرنسا بهدف إلقاء القبض على قـادة الثـورة الجزائرية، الأمر الـذي أثار غضب الملـك محمد الخامـس نظراً لأن (بن بلا) حل ضيفاً عليه ثم انطلق من بلاده على متن طائرته الخاصة. لقد اعتبر الملك المغربي أن هذه الضربة موجهة له من قبل فرنسـا الاستعماريـة لإذلاله ولأنـه أصبح معارضاً لإرادتها الاستعمارية في الجزائر. هذا ويشاء القدر أن يخضع الملك المغربي لعمليـة جراحية بسيطة لكنهـا تسببت في وفاته على الفور.

وأذكـر أن الجنرال شارك ديغول عندما سمـع بالنبـأ صمت وقال: ما هـي جنسية الطبيب الجراح الذي أجرى للملك العملية الجراحيـة وكان الرد بأنه طبيب سويسري. وهنا صمـت ديغول وقد بـدت على وجهه ملامـح القلق وكأنـه يريـد أن يوحي لمن حولـه بأن مـوت الملك ربمـا كان سياسياً تعمـده الطبيب الجراح عـن قصد وسابق تصميم، تنفيذاً لرغبـاتٍ أمليت عليه حتى يتم التخلص مـن شخصية عربيـة مؤيدة بشدة للثـورة الجزائرية. ولاسيما أن الملك ما زال في عمر لـم يتجاوز الـ٥٠ عاماً وإن حالته الصحية لم تكن تدعو إلى القلق».

ومهمـا يكن من حـال فكلنـا يعلم بأن الطبيب هو إنسان كسائر الناس قد يخطئ ويصيـب، ويكفيه فخراً أو شرفاً أنه يصارع المرض والموت من أجل إبقاء مريضه على قيد الحياة. لكن الأخطاء التي يرتكبها خلال ممارسة مهنته لا تقـارن بالأخطاء الأخرى التـي يرتكبها أصحـاب المهـن الأخرى، وهـذا يعود إلـى أن طبيعة مهنتـه الراقية التـي تتعامل مع الجسـم البشري الذي هو غاية الحيـاة وأسمى شيء لدى صاحبه في الوجود. من هنا اقتضت الضرورة أن يكون الطبيب واسع العلم والمعرفة ومتقناً لعمله وأن يدرك مسبقاً عواقب أفعاله بضمير حيّ وأخلاق عالية حتى يبقى دوره مهماً جداً في تخفيـف آلام المريض وأوجاعه ومنع وقوع حوادث مفجعة لا تحمد عقباها.

المصادر والمراجع:

١- موسوعة «لاروس الكبرى الفرنسية»، طبعة عام ٢٠٠٣م.
٢- كتاب بعنوان: «الدراسات الأدبية الفرنسية في القرن الثاني عشر»، تأليف بيير سورير، وجاك كاستيكس.
٣- مجلة «روز اليوسف»، تاريخ ٢٠٠١/٨/٩م.
٤- صحيفة «تشرين»، تاريخ ١٩٩٥/٥/٢٤م.
٥- ملخص لكتاب «حيرة الطبيب» للكاتب برنارد شو.
٦- «موسوعة ويكيبيديا الحرة».
٧- مسرحية «الدكتور كنوك» للكاتب الفرنسي جول رومان.
٨- مجلة «لوبوان» الفرنسية، تاريخ ٢٠١٤/١١/٢٥م.
٩- مقال بعنوان: «أنطوان بريفو مؤلف لمانون ليسكو شُرحت جثته وهو حي»، للكاتب الأميركي دوس باموس.

نظريات المؤامرة[1]: هل أصيبت المجتمعات بالذهان الهذياني؟[2]

كلودي برت Claudie Bert ❁
ترجمة: د. ماري شهرستان

في ٧ كانون الثاني عام ٢٠١٥م حصلت الجريمة ضد «شارلي إيبدو»، فقامت النظريات التآمرية المفروض أنها تعمل لكشف ملابسات هذه الجريمة إلا انَّها أخذت تندد بالمؤامرة الإجرامية، مدعية أنَّها مؤامرة حركتها السلطات السرّية وأنَّها دسيسة من «أعداء الإسلام»؛ وانتشرت هذه النظريات خلال بضع ساعات على مواقع الشابكة (الإنترنت). كيف نكشف ونكافح ضد هذه التفسيرات العجيبة الغريبة؟

في ٧ كانون الثاني (٢٠١٥م) تسلل رجلان، «شريف وسعيد كواشي» إلى المكاتب الباريسية للصحيفة الهجائية «شارلي إيبدو» Charlie Hebdo حيث قتلا أحد عشر شخصاً بدم بارد من بينهم «كابو» Cabu، و«شارب» Charb، و«فولينسكي» Wolinsky، و«أونوري» Honoré، و«تينيوس» Tignous. وهربا بعدها بسيارة سيتروين سوداء[3]، ثم غادراها بسرعة كبيرة في شارع «دو مو» في منطقة الدائرة التاسعة عشرة من

❁ مترجمة وباحثة.

باريس. فـي بعض صور الفيديـو التي تمَّ أخذهـا مباشرة بعد الاعتـداء بدا فيها أنَّ السيارة التـي استخدمها الأخوان «كواشي» كأنها مجهزة بمرايا ارتدادية بيضاء (بحيث يـرى الناظر ما وراءه مـن خلالها). إلّا أنَّه وفي صور السيارة التي عثر عليها بعد بضع دقائق كانت المرايا سوداء اللون. إنها قصة سخيفة تعـود لانعكاس الضـوء. لكن على الرغم من ذلك أكَّد بعض محترفي الشابكة (الإنترنت) بأنَّ السيارة المستخدمة من قبل المهاجمين ليست هـي نفسها التي وجدت في شارع «دو مو» de Meaux.[٤]

كمـا أن اكتشاف بطاقة هوية داخل تلك السيارة يدعم فكرة وجود سيارة ثانية حيث وجد فـي داخلها أدلة مزيفـة قد وضعتها عناصر سرّية مجهولة الهوية.

نظريات أخرى للمؤامرة، جنونية بعض الشـيء، علـى سبيل المثـال المسار الذي اتخذه الأخـوان كواشي في طرقات باريس هو إعادة إنتاج لحـدود الدولة الإسرائيلية بقصد اتهـام «الأخوين كواشي»، يكون ذلك بالنسبـة لأصحـاب نظرية التآمـر برهاناً قاطعاً على مؤامـرة يهودية. استمرت هذه النظريـات بالانتشـار فـي الأيـام التالية للحدث. بعضـ السياسيين مثـل «جان – ماري لوبن» أكملوا المسيرة.

ما هي نظرية المؤامرة؟

وهكذا تسير الأمور في العالم: لا يحصل حـادث عنيف أو حتى دراماتيكي، إلا وتجد أصواتـاً ترتفع هنا وهنـاك للتنديد بوجود مؤامرة بعيدة الاحتمال.

هذا النوع من الشائعات ينتمي إلى فصيلة «نظرية المؤامرة». التعبير يبدو تعبيراً بائساً برأي «بيير- آندري تاغييف»[٥] لأنَّه يجعلك تعتقد بأنَّ المؤامـرات ليس لها وجود على الإطلاق وهذا أمر غير صحيح واقعياً. ربما يفضِّل الاختصاصي بعلم الاجتماع أن يقال «ذهنيـة تآمريـة»، حيث طابعهـا هو الميل إلى نسـب كل حادث دراماتيكي إلى مؤامرة مدبّرة بالسر من قبل شخص أو مجموعة قد تكون مهمة نوعاً ما.

هذا النمـوذج من التفكيـر يستند إلى أربعة مبادئ أساسية، اتفق عليها الباحثون:

– لا يحـدث شيء بالمصادفة. إذا مات شخص مشهـور بحادث، فهذا الحادث كان بالتأكيـد مدبراً؛ وقد حصلـت هزّة أرضية دمرت «هاييتي» في كانـون الثاني من عام ٢٠١٠م، قيـل بـأن الأميركييـن كانوا وراء حدوثها عن طريق إحدى منظماتهم السرّية المسماة «هارب HAARP».

– كل مـا يحصـل هـو نتيجـة إرادات مستترة. فوفق رسالـة نشرت على الشابكة (لإنترنت) في ٢٢ نيسـان ٢٠١٢م، «محمد

مرّاح كان عميلاً سرّياً وقد تمت التضحية به كي يعاد انتخاب رئيس الجمهورية نفسه».

– ليست الأمور جميعها كما يدل عليها ظاهرها. هل يعلن رؤوساء بعض الدول عن قراراتهم؟ هذا وهم: قد يبدو عليهم أنهم يحكمون، لكن القرارات تكون متخذة من قبل آخرين (أصحاب المصارف، الماسونيون...) الذين يتحكمون بخيوط هذه الدمى.

– كل شيء مرتبط ببعضه بعضاً لكن بطريقة خفية. في بداية سنة ١٩٥٠م، نجح السيناتور «جوزيف ماك كارثي» بنقل وسواسه المضاد للشيوعيين إلى عدد كبير من الأميركيين، هذا الاستحواذ الذي دفعه إلى أن يرى في كل مكان مؤامرة شيوعية ضد الشعب الأميركي. حتى فلورة المياه تمَّ تفسيرها على أنها جزء من هذه المؤامرة لإضعاف الشعب.

إلى هذه المبادئ الأربعة الأساسية، يمكننا إضافة مبدأ خامس ظهر حديثاً:

«كل شيء ينبغي أن يتم تفحصه بدقة أي أن يمرّ عبر غربال النقد». وهو أسلوب يمارسه أصحاب الذهنية التآمرية المعاصرون: في كتبهم وعلى مواقعهم في الشابكة (الإنترنت)، يجمعون الأدلة ويكثرون منها لإثبات المؤامرات التي يفضحونها. غير أنَّ أسلوبهم الذي يصفونه بالأسلوب العلمي له مثلب أساسي وهو: إنَّ المؤامرة المفضوحة تُعرض وكأنها حدث مؤكد وتجميع الأدلة لا يفيد إلا بتأييده. والوقائع التي لا تتناسب مع الأطروحة المعلنة يتم تجاهلها، والتي تتعارض معها وتنقضها يتم رفضها، والوقائع الأخرى يتم تفسيرها بالمعنى المطلوب والمراد.

التفسيرات الرئيسية

هناك مؤامرات حقيقية وهذا أمر مؤكد، لكن ما ينبغي تفسيره لنا هو التالي:

لماذا لا يتصوّر أصحاب النظرية التآمرية التاريخ إلا بهذا الشكل، رافضين أي دور للصدف وللخطأ البشري ولاحتمالات الوقائع وحصولها؟

يقول أحد التفاسير بأنَّ الرؤية التآمرية مفيدة لأنَّها تحفظ من القلق. ففي عالم خاضع باستمرار لدفق متزايد من المعلومات المعقدة، وخاضع للشك وعدم اليقين، يكون

العالم المؤيد للتآمر له الفضل بأنّه بسيط: فكل حادث من الحوادث أو الظاهرات المحزنة التي يبلّغون عنها مثل – الحرب، البطالة، الفقر، اغتيال شخصية ما، جريمة – يكون لها سبب وحيد: ألا وهو فعل إرادي لمجموعة معلن عنها بأنها تجسيد للشر. من هذا المنظور يقول «نورمان كون»:

«الشكل الأول لمناهضة السامية كان مناهضة السامية الشيطانية، وهذا يعني فكرة أنَّ اليهودية هي منظمة تآمرية، موظفة في خدمة الشر، (...) وتتآمر دون مهادنة لتدمير الجنس البشري».[٦]

رؤية للعالم بسيطة، وبالتالي يسهل شرحها وفهمها – وهذا ما يعطيها سحرها، ليس فقط بالنسبة إلى مخترعي هذه المؤامرات بل بالنسبة إلى جمهورهم أيضاً. وفق «حنة آرنت» Hannah Arendt الأغلبية الحديثة متلهفة للأيديولوجيا ولرؤية عالم يشرح كل شيء، أو كما يلاحظ الاختصاصي بعلم الاجتماع «جيرالد برونر» Gérald Bronner هذه الأغلبية تحب بأن تُروى لها الحقيقة كقصة لطيفة حيث الوقائع حتى المتنافرة منها تكون متحدة ضمن نص يؤدي إلى نتيجة منطقية ظاهرياً.

عندما يعطي «صاحب نظرية التآمر» لنفسه دور كاشف المؤامرات، فهو بذلك يعطي لنفسه رؤية مخادعة مجمّلة لنفسه: فهو لا يصدق كل ما يقال له، إنه يرى الحقيقة المخبأة خلف المظاهر، وعندما يصرِّح عما اكتشفه، يعتقد أنَّه يؤدي بذلك خدمة للمجتمع.

وقد تساءل بعض الباحثين في علم النفس الاجتماعي حول الشخصية النصيرة لنظريات المؤامرة: تُرى هل نجد سمات الطبائع نفسها عند الجميع؟ التقارب والتشابه بين حجج مرضى الذهان الهذياني (البرانويا) وبين أصحاب نظرية التآمر هو غالباً تقارب شديد: الطبع الاستحواذي نفسه، الاحتداد والسعي الحثيث نفسه لإيجاد الأدلّة، والتعامي نفسه عن عيوب ونواقص براهينهم.

في عام ١٩٦٤م نقد «ريشار هوفشتاتر» Richard Hofstadter في كتاب له شهير جداً الأسلوب الذهاني الهذياني المَرَضي في الولايات المتحدة الأميركية. لقد لاحظ عند أصحاب نظرية المؤامرة أمثلة عن هذه الآلية في الإسقاط النفسي حيث كان «سيغموند فرويد» يصفها بـ«الذهان الهذياني» وقد قال عن«جمعية جون بيرتش» وهي عدو لدود للشيوعية، إنَّها اقتبست منها (أي من الشيوعية) نظام البنى وفق خلايا وأساليب الحرب الأيديولوجية.

أجـرى اختصاصيان بعلـم النفس بحثاً على ١٩٨ طالبـاً[٧] والباحثان هما «باسكال فاغنـر إيغـر» و«آدريـان بانغيرتـر» من سويسرا .اختبـرا أولاً موافقة الطلاب على ثمانـي «نظريـات مؤامرة» كبيـرة وشهيرة أمثـال: اغتيـال كنيدي، حادثـة ١١ أيلول، صناعة فيروس السيـدا في المختبر... ثم قيّما مجموعة من السمات الشخصية وبحثا عن أية سمة منها لهـا علاقة قوية ومؤثرة في الموافقة على «نظريات المؤامرة».

هنـاك سمتـان حاضرتان فـي جميع الأحـوال: الريبة والفوضويـة، وهذا يعني الشعـور بعدم القدرة علـى التحكم بالعالم المحيط بهم ولا بالحياة الشخصية.

ثـمَّ قارنا بيـن فريقين صغيريـن: الأول مؤلف مـن أشخاص يعتقـدون بالمؤامرات المدبرة من قبل أقليات (القاعدة، اليهود...)، أمـا الفريق الآخـر فقد أطلقـا عليه اسم «نظـام» حيث تكـون فيه المؤامـرة منسوبة إلى أشخاص ذوي مناصـب في السلطة (الـ CIA، والمخابـرات...). لقـد لاحظـا أن الريبـة والخـوف من العالـم موجدان عند الجميع، الفريق المصنـف «أقليات» يتميز بأنـه محافظ اجتماعيـاً والفريق المصنف «نظـام» يتصف باللامعقوليـة أي موافقته على معتقدات سرية.

هـل هنـاك اختلافـات فـي الحافز والشخصية بين مؤيـدي النظرية التآمرية وبيـن الناس الذين يصدقـون بسهولة كل مـا يعلن لهـم دون ان يتخيلـوا المؤامرات بأنفسهـم؟ ربمـا بدرجات وليس بطبيعة الحالة. وفق دراسات حديثة عدة، الشخص الـذي يصـدق أنَّ هنـاك مؤامـرة يصدق غالبـاً مؤامرات عدة ويكون جاهزاً للكشف عن مؤامـرات بنفسه. حوافـزه الأساسية للموافقة على هـذه النظريات هي السحر الممارَس من رؤيـة بسيطة للعالم، منطقية تقسـم العالم إلى خير وشر، وتحدد بوضوح مصدر الشر وبالتالي تسمح بالنضال ضده. ثـم يأتي بعد ذلك الشعور المقيَّم بأنَّه خبير ومطّلع على سر وبأنَّه ليس غبياً خاضعاً لكل أنواع غسل الدماغ.

نيويورك في ١١ أيلول ٢٠٠١، في اللحظة قبل اصطدام الطائرة الثانية بأحد البرجين[٨].

لماذا نصدق بهذه السهولة

يبدو انَّ تقدّم التعليم والثقافة عاجز عن الكفاح ضد جاذبية نظريات المؤامرة الأكثر غرابة . يورد «ج. برونر G. Bronner» مؤلف كتاب «ديمقراطية السذج»[٩] دراسات عدة تظهر أنّ لا الإرهابيين مقتنعون ولا أعضاء المجموعات المذهبية أو المهتاجين بشكل جنوني فهم مجردون من التعليم العالي. الحساسية تجاه الفائق – الطبيعي وتجاه الطب التجانسي أي معالجة الداء بالداء، وتجاه النجامة (علم التنجيم) وتجاه الأساطير الحضرية هي أقوى عند الأشخاص ذوي الدراسات العليا مما هي عند الأقل منهم تعليماً. اعتداء ١١ أيلول ٢٠٠١م كان موضوعاً لاستقصاء الآراء. في الولايات المتحدة الأميركية، ٤٩٪ من سكان نيويورك وهم ليسوا المجموعة الأقل تعليماً في البلاد، يؤكدون بأنَّ الحكومة الأميركية كانت على علم بما سيحصل وقد امتنعت عن التدخل بإرادتها ووعيها.. هذه الآراء الضبابية يمكن تبريرها. التعليم يزيد من الفضول وانفتاح الذهن.

لنأخذ مثال علم الفلك: بعد أن مرّت قرون ونحن نعتقد بأنَّ الشمس تدور حول الأرض، اكتشف بعض علماء الفلك بأنَّ الأرض هي التي تدور حول الشمس. ثم برهنوا بأنَّ الشمس والأرض والكواكب الأخرى تشكل جزءاً من مجرّة وهذه المجرّة هي واحدة بين ملايين من أمثالها من المجرات التي لها البنية نفسها. فاحتمال وجود كائنات ذكية في الكون تمَّ أخذه على محمل الجد. يمكننا أن نفهم بأنَّ هناك أشخاصاً صدّقوا بفكرة وجود كائنات من خارج الكرة الأرضية نزلت على أرضنا سراً... وكلما اعتقدنا بأنَّ كل شيء محتمل وممكن، نكون جاهزين لتصديقه.

بالنسبة إلى التطور الرائع لتقنيات المعلوماتية، لقد اعتقدنا بأنَّها ستنظم المعارف، لكن ذلك لم يحدث لأنَّ وسائل الإعلام ليس لديها الوقت للتحقق من المعلومة وتجد لنفسها أسباباً وحججاً تجارية كي لا تقوم بذلك. والشابكة (الإنترنت) تمثل في الصف الأول بين المتهمين بسوء نقل المعلومات. المواد غزيرة لكنها سيئة التنظيم،والسيد «ج. برونر» Bronner يشرح ذلك بالأمثلة والبراهين. لقد فتح الشابكة (الإنترنت) ليستعلم عن حدثين مهمين وشهيرين: «موت الليدي ديانا» وزلزال «هاييتي» الذي حصل عام ٢٠١٠م.

في المرة الأولى سأل الشابكة دون أن يذكر كلمة «مؤامــرة»، وفي المــرة الثانية أدخل هذه الكلمة في بحثه، وكانت النتيجة الأولى أي دون ذكر كلمــة «مؤامرة»: موقعان فقط - مــن أصل ثلاثين موقعــاً اقترحهم جهاز بحثه - ذكــرا كلمة «مؤامــرة» محتملة في حالة «الليدي ديانــا»، لكنه لم يجد أي ذكر للكلمة في حالة «هاييتي». غير أنَّه عندما أدخــل كلمة «مؤامرة»، بــرز عشرون موقعاً من أصل ثلاثين قدمــوا نظرية تآمرية في حالة «الليدي ديانا»، وخمسة عشر من أصل ثلاثيــن في حالة «هاييتي». فــكل شيء إذاً رهن الأسلوب الذي نصيغ به السؤال...

برهن «ج. برونر» أيضاً - ومدعماً برهانه بالأرقــام - أنّه عندما يكــون هناك تنافس بيــن العلم ونظير العلم بصــدد ظاهرة ما، فالمواقع المخصصة للنظرية شبه الطبيعية هي الأكثر غزارة. وهذا يعود برأيه إلى الناس الذين ينتظرون الأخبار غير المتوقعة لأنهم أكثر اندفاعاً فيكثرون من الإصدارات غير التقليدية. لــو أنَّ عالِماً أو باحثاً في العلوم قام بجهد مرة واحدة فقط لنقض التنجيم وقراءة الأبراج أو «ذاكــرة الماء»[١٠]، نعتقد بأنَّه يكون قد عمل تماماً ما يلزم، ويستطيع أن يعود إلى دراساته بقناعة. فهو ليس لديه وقت ليهدره..

هل هي مضرة؟

الطروحــات التآمريــة يمكــن أن تكون غير مؤذية. قد نحضــر وليمة عشاء تكون فيهــا المحادثة فاترة مملــة. يقوم أحدهم بذكر فظاعــة ١١ أيلول، عندها يعبِّر جميع الحاضرين عن رأيهــم بالموافقة وهذا كل شيء. عندها يتخــذون هيئة العارفين سراً ويقولون: «ليست الأمــور كما تظهر أو كما يقال عنها، هناك براهين قوية تجعلنا نعتقد ونؤكّد بــأنَّ عناصر المخابــرات المركزية الأميركيــة والموســاد هــم الذيــن هدموا الأبــراج». بعضهــم يوافق ويــورد تفاصيل إضافيــة، لكن آخــرون يعترضون، وغيرهم كثر يذكرون مؤامــرات سابقة هي بالتأكيد صناعــة المخابرات المركزيــة الأميركية. والجميع يعــودون إلى منازلهم سعداء لأنَّهم أظهروا ذكاءهم والمخابــرات المركزية لم تتأثر بذلك سلباً.

لو كان الأمــر متوقفاً عنــد هذا الحد قد نتــرك الشائعات تســري. لكنها ليست غيــر مؤذية. أولاً يمكنها أن تكون قاتلة: في القرون الوسطــى لم يكونوا ليكتفوا بتوجيه تهمة التآمــر إلى المصابيــن بالبرَص، بل قتلوا جراء ذلك آلافاً منهم. وبشكل عام أن توصَم بالتآمر تلــك الأقلية أو غيرها يؤدي إلى فضحها والتنديد بها ومعاكسة جهودها للاندماج في المجتمع القومي.

الشائعات التي تندد بخطر هذا اللقاح أو ذاك بعد حصول مؤامرة بين المخابر والحكومة تكون نتيجتها عدم كفاية اللقاح لتغطية الحاجة إليه وبالتالي يتسبب ذلك بعودة بروز أمراض مثل الحصبة أو شلل الأطفال.

الشخص الذي يتبنى «نظرية المؤامرة» يقع بنفسه ضحية معتقداته، لأنهَّا تخرِّب قدرته وموهبته على المحاكمة: اجتماعياً، ريبته المعممة أصبحت سبباً في قلة أصدقائه. «ذهنية المؤامرة» مضرّة بالصحة: في الولايات المتحدة الأميركية برهنت الدراسات عن وجود علاقة بين نسبة الموت وبين مستوى العداء.

كيف نتصدى لها؟

بشكل عام، إنه من الصعوبة بمكان التصدي لشائعات المؤامرات. وقد كتب «تاغييف» Taguieff خلاصة مفادها: «كيف يمكن لأشخاص، قد حددت محاكمتهم العقلية سلفاً وفق مخططات ذهنية جامدة، أن يكتسبوا القدرة على تغيير رأيهم؟ الجواب تشاؤمي لأن ذلك يكون غالباً بعد فوات الأوان». خصوصاً عندما يعبر الشخص المعني عن الشائعة جهاراً على رؤوس الأشهاد وتكون أفكاره قد جعلت منه شخصاً مشهوراً كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من الرافضين. غير أنَّه من الممكن مهاجمة شائعة ونقضها على أمل أن يتأثر الجمهور المستمع بهذا الرفض.

وفق رأي مجموعة من الباحثين الأستراليين والأميركيين، فإن أفضل الطرق هي التالية: [11]

- تجنبوا تكرار الحجج التي تبغون محاربتها إذ تساعدون بذلك على تثبيتها في الذاكرة.
- لا تذكروا سوى الحجج التي تريدون إبرازها وتكرارها.
- استخدموا القليل من البراهين، واذكروها بقوة، لكن بلغة بسيطة.
- حاولوا ان تُفقِدوا الثقة والاعتبار للمصادر التي تبث أفكاراً مغلوطة.
- حاولوا أن تسبروا الرؤية إلى العالم التي تتموضع فيها معتقدات محاوريكم وأن تحددوها؛ فإذا هاجمتم مباشرة لن يكون لديكم فرصة للنجاح. فعلى سبيل المثال، إذا كانت جماعة البيئة مقتنعة بضرر «تقنية النانو»، فنلجأ نحن إلى الإصرار على استخدامها في حماية البيئة.
- ينبغي الحفاظ على تقييم الذات عند جمهور المستمعين. فإذا شعروا بأننا نعتبرهم أغبياء يصدقون كل شيء، عندها لن يعودوا يستمعون لشيء على الإطلاق.!!

ينبغـــي أن نجعلهم يتحدثون عن قيمهم وأن نحاورهم بهذا الموضوع.

هنـــاك إستراتيجية وقائيـــة تحوز على القبول العام وهي تنمية روح النقد. لكن من المؤسف بأنَّ الـــرأي العام قد أجمع وصرّح بأنَّـــه ينبغي البدء بذلك منـــذ الطفولة كي تنجـــح العمليـــة... لا يتوقف الأمـــر واقعياً علـــى التعلم والتمييز بيـــن الصح والخطأ، بل ينبغي اكتساب مرونة ذهنية للتوصل إلى تغييـــر الرأي دون أيـــة مشكلة، وللاعتراف بالأخطاء الشخصية دون أن نصنع دراما.

إنه برنامج كبير جداً...

كلما كانت الكذبة كبيرة فهي تسري بشكل أسهل

فـــي عام ٢٠٠٢م، نشر أحـــد الناشطين إعلامياً كتاباً زعم من خلاله بأن أية طائرة لـــم تسقط علـــى البنتاغون فـــي ١١ أيلول ٢٠٠١م. البرهـــان الرئيســـي: علـــى صورة واجهـــة البنتاغون نرى تماماً أنَّه يوجد ثقب لكنه صغيـــر جداً بحيث لا يمكن لطائرة أن تغوصـــ فيه كما لا يوجد هياكل عظمية ولا هياكل بنـــاء على المـــرج الأخضر. استنتج هذا«الناشط» الأمـــر التالي: لم يكن هناك طائرة بل صاروخ بالستي تم قذفه بأمر من الحكومة الأميركية.

في العام نفسه ظهـــر كتاب صغير كتبه صحفيان «جان غينيل وغيوم داسكيية»[١٢]، بعنوان «الكذبة المخيفة»[١٣]، وفيه يدحضان علـــى نحو منهجـــي مزاعم هـــذا «الناشط الإعلامـــي». وقـــد أجابا كالتالـــي: لم تقع الطائرة كما يقع الحجـــر لكنها اصطدمت بالجدار بقوة صاعقة. ففي مثل هذه الحالة، تنغرز وتتابع مسارها لمسافة معينة. تتكسر الأجنحة وتلتصق بالحواف مع الهيكل. لهذا السبب كان الثقب صغيراً نسبياً.

لم يذكـــر «الناشـــط الإعلامـــي» سوى شاهدين قالا إنهمـــا شاهدا الطائرة... ثم طعـــن بهذه الشهادة على الفور قائلاً: إنهما يعملان في خدمة الحكومة فهما يقولان ما يطلب منهما قوله.

أمّـــا «غينيـــل وداسكييـــة» فقـــد وجدا ١٨ شاهـــداً من بين مئـــات المارّة، وسائقي السيـــارات، وسكان المباني المجاورة الذين رؤوا كل شـــيء. فذكـــرا واحـــداً منهم على سبيـــل المثال، وشهادته قطعية وأكيدة: لقد رأى هذه الطائرة، حتى إنه تعرَّف على شعار الشركة. وهو لا يعمل للحكومة والغريب في الموضـــوع أنَّ لا أحداً حتى ولا شاهد واحد رأى الصاروخ المزعوم.

كل الأدلة التي جمعها «الناشط» هي من هذا النوع الغريـــب. ومع ذلك أصبح لكتابه شهرة عالمية بينما كتاب «غينيل وداسكييه» ظلَّ طي الكتمان...

لمحة تاريخية عن نظرية المؤامرة

إذا كانت أسس الفكر التآمري لا تتغيّر مطلقاً، فإنَّ طبيعة المؤامرات والمتآمرين الموشى بهم قد تغيرت عبر القرون.

الاتهامات الأولى التي استهدفت مجموعة معينة تعود إلى القرون الوسطى: في عام ١٣٠٠م، تمَّ اتهام اليهود والبرص بأنَّهم قد سمّموا الآبار، ثمّ نشروا داء الطاعون كي يبيدوا المسيحيين. الموضوع هنا يوصف بـ«المؤامرات الصغيرة»، وفق تعبير «بيير - آندريه تاغييف» Pierre-André Taguieff، وهي مؤامرات يُزعم أنها قد دُبِّرت من قبل أقليات محلية. وبعد الثورة الفرنسية، شوهد ظهور «مؤامرات ضخمة»، حيث اشترك وتآمر فيها سلطات قوية أمثال: البناؤن الأحرار أو ما يسمون بـ«الماسونية»، والأثرياء المتنفذون بثروتهم، والشيوعيون، والنخب الحاكمة ضد الفقراء أو ضد المسلمين.

الدسائس الوهمية مرتبطة بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي. تنامي قوة الرأسمالية أدّى إلى رؤية تآمرية للمال الدولي. الحرب الباردة حرّكت وقوّت التشهير بالمكائد المدبرة سواء أكانت من قبل الشيوعيين أو ضدهم. أشار الاختصاصي بعلم الاجتماع «لوك بولتانسكي» Luc Boltanski عن العلاقة الرابطة بين ظهور روايات التجسس وبين تنوع وتغيّر الأدوار المنسوبة إلى الدولة. في هذه الروايات، تبدو الدولة وكأنها قد ضعفت بسبب المؤامرات المدبرة من قبل نوعين من الأعداء.منهم أعداء من الخارج لكنهم مستترون بشكل جيد جداً لدرجة يلزم معها تدخل بطل من الأبطال كي يكتشفهم، كما في «الـ٣٩ خطوة»[١٤]، وبعضهم الآخر هم في الداخل يحركهم أعضاء النخبة المثقفة كما في روايات «جون لو كارّي» John Le Carré. وفي القرن العشرين نشأت الأسطورة التآمرية التي استمرت أكثر من غيرها من الأساطير ألا وهي: «بروتوكولات حكماء صهيون». يصف هذا العمل «مؤامرة» دبرها حكماء يهود للسيطرة على العالم، غير أنّه في عام ١٩٢١م تم اكتشاف أن شرطة القيصر قد أمرت أحد المزورين بكتابتها.[١٥]

من الدولة إلى المخابر

بالنسبة إلى المؤرخين أضحى هذا الكتاب رمزاً للتزوير غير أنَّه استمر معروضاً على أنَّه نص لمؤامرة حقيقية وعلى الأخص في بعض الدول الإسلامية[١٦].

هذا الانتشار الحالي والمستمر لكتب وأفلام التجسس كانت نتيجته المساهمة في تدمير ثقة المواطنين بالحكومات.

لهـذا السبـب نشهد كيف تم اتهـام القادة الأميركيين بأنَّهـم قد نظموا ودبروا هجوم ١١ أيلول عام ٢٠٠١م، ثم كيف دبروا عملية «ماراتون بوسطن» في ١٥ نيسان ٢٠١٣م.

انتشار الخيـال الحديث غذّى الاعتقاد بنـوع آخر مـن المؤامرة: أناس من خارج الكـرة الأرضيـة اتخـذوا شـكل البشـر الآدميين وعاشـوا فيمـا بيننـا بالتواطؤ مع أناس متنفذين، بحيـث كل شيء يبدو طبيعياً لكن «الحقيقـة هي في مكان آخر» وفـق شعار المسلسل المتلفز « X-Files».

ووفق تخيّل أقدم تقول الأسطورة بأنَّ العالم تحكمه مذاهب قوية لدرجة أن باستطاعتها تدبير مؤامرات في الظل مثل «الإشراقيين» وأعضـاء «دير صهيـون»، الذي كشفه «دان براون »[١٧] Dan Brown

وأخيـراً، احتـرام وإجـلال كل ما هو طبيعي حـركا الريبة تجاه كل ما هو مصنّع كيميائياً، ووضعا في موقع المتهم نوعاً آخر من المتآمرين: المخابر الدوائية التي ربما صنّعـت السيدا بناء علـى طلب قوى خفية باحثة عن طريقة لإفناء العالم الثالث.

الهوامش:

١ – صدرت هذه المقالة في ٢٠١٥/١/٣٠م في مجلة العلوم الإنسانية –
Théories du complot : notre société est-elle devenue parano ?

٢ – ذهان هذياني مزمن من أعراضه الرئيسية الهذاء الثابت المنظم مع نزعة للشك والارتياب أو أيضاً يدعى بالذهـان التأويلي وهو جنون هذائي من أعراضـه الأساسية الهذاء الثابت الذي يصحبه اضطراب عقلي من نوع آخر.

3 - Citroën C3.

4 - de Meaux.

5 - Pierre-André Taguieff, Court traité de complotologie, Mille et une nuits,2013.

٦ – الترجمة: فكرة تبرئة اليهود الصالحين لا تبرِّئ تآمر الصهاينة الجدد...

7 - Pascal Wagner-Egger et Adrian Bangerter - «La vérité est ailleurs: corrélats de l'adhésion aux théories du complot», Revue internationale de psychologie sociale, t. XX, n° 4, 2007.

8 - New York le 11 septembre 2001, juste avant le crash du second avion sur l>une des tours jumuelles.

9 - ديمقراطية السذج La Démocratie des crédules)2013).

١٠ – ذاكرة الماء: عند نشوء الحياة على الأرض كانت المياه ضرورية لحياة الكائنات. لكن بالنسبة إلى بعض العلمـاء ظهر لهـذا العنصر الأساسي خصائص غير متوقعة. في عـام ١٩٨٠م أكد طبيب متخصص في

المناعــة يدعى «جاك بنفينيســت» Jacques Benveniste بأنَّه اكتشف قدرة المياه على الاحتفاظ في ذاكرتهــا بخصائصــ ذرات كانت على تماس بها حتى لو زالت هذه الــذرات. نظرية مدهشة كانت موضع جــدل كبير. لكــن سرعان ما تم التشكيك بنظريته من قبل المجتمــع العلمي. لكن «لوك مونتانييه» Luc Montagnier الحائــز على جائزة نوبل في الطب أعاد تلك الأبحاث، ومنذ التجربة الأولى على بلاسما دمويــة لمرضى مصابين بفيروس السيدا اكتشف أمواجاً كهرطيسية فصرّح قائلاً: «لقد كان ذلك مفاجأة حقيقيــة لم أكن أتوقعها وسُحِرتُ بهذه الظاهرة». وهو قد فكّــر مباشرة «بتطبيقاتها الطبية». قرَّر «لوك مونتانييــه» كشف النقاب عن أبحاثه الحديثة واقترح تنفيذ تجربة هائلة امام الكاميرا وهي تجربة: تحوّل الــ«DNA» قاصداً بذلك الإضاءة على الخصائص المدهشة للماء والمكتشفة من قبل «جاك بنفينيست» الذي يعتبره «غاليله القرن العشرين». لكن هذه التجربة لا تزال موضع جدل وأخذ ورد.

11 - Stephan Lewandowsky et al., تصحيــح المعلومــات المغلوطة - علوم نفســية للمصلحــة العامــة «Misinformation and its correction. Continued influence and successful debiaising». 'Psychological Science in the Public Interest, vol. XIII, n° 3, 2012.

12 - Jean Guisnel et Guillaume Dasquié.

13 - L'Effroyable Mensonge,

14 - خطوة الـ39 John Buchan, Les 39 Marches, 1915م, rééd. Omnibus, 2011.

١٥ – الترجمة: لماذا لا تكون هذه الرواية أو هذا الاكتشاف مؤامرة ملفقة أيضاً لتبرئة الصهاينة؟

١٦ – الترجمة: لأن ما يحصل في هذه البلدان لا يختلف عما في الكتاب!!...

١٧ – دان بــراون، ملائكــة وشياطيــن Dan Brown، Anges et Démons، Lattès، ٢٠٠٥م، et Da Vinci Code، Lattès، ٢٠٠٤م.

المصادر

- «أصول الشمولية» «حنه آرنت»، ١٩٥١م، إصدار «غاليمار» ٢٠٠٢م.

.Les Origines du totalitarisme.2002.

Hannah Arendt, 1951, rééd. Gallimard, 2002.

- «ألغاز ومؤامرات»، تحقيق بصدد الاستقصاءات، «لوك بولتانسكي» «غاليمار» ٢٠١٢م.

Énigmes et complots Une enquête à propos d'enquêtes- Luc Boltanski, Gallimard, 2012.

- «ديمقراطية السذج»، «جيرالد برونر»، بوف ٢٠١٣م.

La Démocratie des crédules- Gérald Bronner, Puf, 2013.

- قصــة أسطورة «التآمر اليهودي وبروتوكولات حكماء صهيون»، «نورمــان كون» ١٩٦٧م، إصدار «غاليمار» مجموعة «وليو» ١٩٩٢م.

Histoire d'un mythe La «conspiration» juive et les protocoles des sages de Sion-Norman

Cohn, 1967, rééd. Gallimard, coll. « Folio », 1992.

- «حماقات الاختصاصي بعلم الاجتماع» «ناتالي هاينيش، كلينكسيك، ٢٠٠٩م.

Le bêtisier du sociologue -Nathalie Heinich, Klincksieck, 2009م.

- «الأسلـوب الذهاني الهذياني»، نظريات المؤامـرة واليمين الراديكالي في أميـركا، «ريشار هوفشتاتر»، ترجمه إلى الفرنسية «فرانسوا بوران» ٢٠١٢م.

Le style paranoïaque -Théories du complot et droite radicale en Amérique Richard Hofstadter, trad. fr. François Bourin, 2012.

- «المجتمع المنفتح وأعداؤه»، «كارل بوبر» ١٩٤٥م، ترجمه إلى الفرنسية «سوي» ١٩٧٩م.

La société ouverte et ses ennemis - Karl Popper, 1945, trad. fr. Seuil, 1979.

- «بحث مختصر في علم المؤامرة» «بيير أندريه تاغييف» «ألف ليلة وليلة» ٢٠١٣م.

Court traité de complotologiePierre-André Taguieff, Mille et une nuits, 2013.

الموت الجمعي بين الإبادة والانتحار

د. خير الدين عبد الرحمن ❁

لئن حضنا الله عز وجل تكراراً على التفكر في أمم قد خلت من قبلنا، وأمم لم تبق منها سوى الذكرى، وأمم لم تبق منها حتى ذكرى، فمن الحكمة في هذا التفكر والتدبر دعوة إلى الاتعاظ والانتفاع من تجارب تلك الأمم، وتحاشي أخطائها ومنزلقاتها لدى إدارة أمور حاضرنا وحسن التعامل معها، وفهم جوهر مسارات الماضي وروح أحداثه وتحولاته التي أنتجت وقائع الحاضر، دون الوقوع في شرك توهم أن ذلك الفهم يولد قوانين

❁ كاتب وباحث ومترجم ودبلوماسي سابق.

قطعيــة جامدة نستنسخ عبرها ما نشاء من الماضي مستقبلا.

إنَّ تذكيراً من قبيل «**وَكَـمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَـرْنٍ هُـمْ أَشَدُّ مِنْهُـم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِـلَادِ هَـلْ مِـن مَّحِيصٍ**» (ق:٣٦)، ربما لا ينفصــل عن تحذير مــن قبيل قول الله عز وجــل: «**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُـمْ لِيَـزْدَادُواْ إِثْماً**» (آل عمــران: ١٧٨) علــى الرغم مــن اختلاف الحالة والسياق، ويتكامل مع تأكيده: «**ذَلِكَ بِـأَنَّ اللّهَ لَـمْ يَـكُ مُغَيِّـراً نِّعْمَـةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيـمٌ**» (الأنفــال: ٥٣). ولئن بــدا ماضي البشر أشبه بظلام دامس تتخلله بقع مضاءة وومضات خاطفة هي بؤر معارفنا والذاكرة المتداولــة، فإن من هــذه المعارف ما هو مختلق ومتخيــل، ومن هــذه الذكريات ما هو موضوع قــد صاغه أصحاب غرض بما يخــدم غرضهم، أو قد صاغه خيال ليعكس المشتهى مما لم يجد واقع به!

يشتد تنقيب بعضنا في دروس الماضي هذه الأيام، قلقا بحق على أمته من غد تلوح نــذره مشبعة برائحة المــوت والفناء. سأل أحدهم بمــا يداني القنوط، عمــا إذا كان المجتمع العربي في مرحلة توقف الوظيفة أم تحلل الشــكل: «هل مات أم أنه يتفسخ؟» إذ رأى أن: «المجتمــع العربــي اليوم قاحل في كومة مشرذمة مــن ذرات فوضوية، في مجتمعات تتســم بتورم الأفراد، والغرق في الديون الخارجية، والنمو الخرافي لأجهزة الأمــن، والأرقام الخرافيــة لشراء السلاح، وتشقــق المجتمع إلى طبقــات تتآكل فيها الطبقــة الوسطــى؛ بأســرع مــن التضخم النقدي، ولا تــؤدي الخدمات العامة دورها بعدما تحــول المجتمع منذ أيــام الحجاج إلى قبيلة من الصياديــن تصطاد الفرص، فلم تعد (الفرصــ) حقاً دستورياً للمواطن، وبدن يتفســخ تجتاحه طوابير من الجراثيم الصهيونيــة فلا يملك ضــراً ولا نفعاً، كما تتحلــل الجثة في القبــر!»[1] نحن لا نغفل مدى النخــر الــذي أصاب بنانــا الفكرية والمجتمعية وسلوكنا الجمعي والفردي، لكننا لا نفقد الثقة بأمتنــا ولا اليقين بنهوضها. مع ذلــك، لعل من أول ما يجــدر تحديده ـ قبــل أن نقرر موقفا مما يذهــب إليه هذا التشخيص لحالة جسد عربي يشغل (قارة) تمتد ما بين المحيــط الأطلسي والمحيط الهنــدي ليس بوسع مكابــر أن ينكر ترنحه منهــكا بأمراضه، بل لا يحتاج غاز أو طامع إلى جهد كبير للإجهــاز عليه ـ توافق على أن بقية روح لاتزال في ذلك الجسد، بحيث يستحق الأمر نقاشا بشأنه واهتماما بمآله، أي إنَّه لم يمت بعد، وتوافق آخر على طبيعة

الإصابة: أهي بأمراض ذاتية، أم بضربات خارجية، أم بكليهما؟ أم أنه شروع في انتحار ذاتي جمعي في ظل تلاشي الاكتراث بالمصير العام؟!

لقد عرفت مجتمعات عدة حالات انتحار جمعي، وإن اختلفت الأسباب والوسائل والظروف. ويجدر بالمجتمع الذي شرع في الانتحار، بوعي أو من غير وعي، تذكر أن الله عز وجل قد نهى عن قتل النفس وحرمه تحريما قطعيا، هو أشد حسما في الحالة الجمعية: «**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً..**» (النساء: ٢٨. ٢٩). سمعنا أحدهم يردد قبل سنوات طويلة أن التفكير بالانتحار جبن شديد، بينما يحتاج الإقدام على تنفيذه إلى شجاعة فائقة نادرة لا تتوافر لمعظم الناس! فاعترضنا في حينه لاعتقادنا أن الإقدام على تنفيذ الانتحار ينجم عن تهور يلغى معه دور العقل، نتيجة يأس أو فقدان ثقة مطلق بالذات. تبدأ مقدمات الحالة الجمعية بيأس شديد يستشري أو انتشار دعوة للخلاص عبر إقدام على الانتحار، كما تنتشر الحمى في الجسد، ابتداء من فرد أو مجموعة أفراد يطلقون الدعوة مع ذرائعها أو تهديد بأدوات الإرغام التي تسندها، وما إن تسري الاستجابة الإيجابية حتى ينزوي المعترضون ويتلاشى دورهم، بل ويتظاهر أكثرهم بخلاف ما يرغبون أو يعتقدون تحاشيا لنبذهم عند ظهورهم بمظهر الشواذ، حتى لو كانوا الأكثرية من حيث يدرون أو لا يدرون، ذلك أن التأثير الساحق للأقلية الفاعلة ـ أو للعوامل الطاغية ـ يجعل المجموع ينساق لا إراديا لتنفيذ الدعوة أو تقليد من بادر إلى فعل والاقتداء به. نستعرض بعض حالات الانتحار الجمعي التي ذكرها التاريخ للتأكد من سلامة تشخيص حالة راهننا، فتلوح لنا المواجهة المأساوية بين أهالي صيدون (مدينة صيدا اللبنانية) والغزاة الفرس بقيادة الإمبراطور أرتحشيا الثالث الذين حاصروا المدينة في العام ٣٥١ قبل الميلاد، وهي مواجهة حدثنا المؤرخ الصقلي ديودورس عنها، وخلاصة روايته أن أهل المدينة حاولوا التفاوض مع الإمبراطور الفارسي على استسلام مدينتهم سِلماً بلا قتال، بعدما أدركوا أنهم لا قبل لهم بمقاومة التفوق الكاسح للغزاة، لكنهم أخفقوا في إقناع الإمبراطور الغازي بقبول استسلام يحفظ لأهل المدينة بعض كرامة، وبعد التداول في التصرف المتاح الذي يليق بهم، أقدموا على إحراق أكثر من مئة سفينة كبيرة كانت راسية في ميناء مدينتهم،

ثم أحرقوا منازلهم وممتلكاتهم عن آخرها فأتت النيران عليها وعليهم. لم يجد الغزاة عندما دخلوا أطلال المدينة سوى رماد العمارات والممتلكات والأجساد على أرضها، وبقايا أخشاب السفن المحترقة على سطح البحر عند شاطئها. لا بد أن بعض الغزاة قد تساءل عن السر في عدم استخدام سكان المدينة السفن للفرار بأطفالهم وأنفسهم وما غلا ثمنه من ممتلكاتهم، وهي سفن كانت تكفي لإنقاذهم جميعا، لكنهم فضلوا إحراقها بأيديهم والتضحية بفرصة خلاص ونجاة لهم جميعا. هل هو حرص على كرامة ترفض ذل الهرب والتشرد؟ أم هو قصور في الرأي ونقص في الحكمة؟ ألم يكن أكثر حكمة وصوابا وتعقلا إحراق المدينة دون السفن، والانتقال عليها إلى مكان آخر إنقاذا للذات ومبادرة إلى بناء قوة كفيلة باستعادة المدينة لاحقا من الغزاة، سواء عبر جهد ذاتي صرف، أو بتحالف مع آخرين، أو باقتناص فرصة مواتية قد تحملها تطورات ومستجدات قادمة؟ ليس لنا أن نخمن اليوم بعد ألفين وثلاثمئة وخمس وخمسين سنة. لكننا نأخذ مثلاً حالة ملايين ممن اقتلعهم الغزاة الصهاينة من فلسطين في العام ١٩٤٨ وشردهم في المنافي ضحايا تواطؤ متعدد الجهات، لم تفلح قسوة التشرد والمجازر الجمعية والقمع والقهر في قتل أملهم بالعودة إلى وطنهم. فبعض هؤلاء يصر اليوم على أن البقاء على أرض الوطن في العام ١٩٤٨، ولو تسبب بموت مؤكد على أيدي الغزاة، كان أفضل وأرحم من ذل المنفى ومرارة ظلم أولي القربى وعدم اكتراث العالم، بينما استدل آخرون بحيوية هذا الشعب وتواصل مشرديه مع من صمدوا على أرض وطنهم مقاومين الاغتصاب، وبتصميم هذا الشعب على بناء ذاته واستعادة حقوقه وانتزاع التقدم الفردي والجمعي بالعلم والجهد والتضحية وشجاعة المقاومة الأسطورية، إثباتا لصواب قرار المحافظة على الذات في لحظة اختلال موازين القوى، ومحاولة صنع ظروف أفضل وشروط أكثر ملاءمة لخوض الصراع.

هل لنا أن نقارن إحراق أهل صيدا سفنهم قبل انتحارهم الجمعي عن بكرة أبيهم بإقدام طارق بن زياد على إحراق سفن جيشه بعدما عبر المضيق البحري من البر الأفريقي إلى البر الأوروبي، ورسا عند الجبل الذي حمل اسمه إلى اليوم كما حمله ذلك المضيق، وخاطب جنده قائلا: «أين المفر؟ العدو من أمامكم، والبحر من ورائكم، وليس لكم والله إلا الصبر

والنصر أو الموت»! لا يمكن اعتبار ما أقدم طارق بن زياد عليه انتحاراً أو شروعاً في الانتحار، وإنما هو استحثاث لكل طاقات الصمود والشجاعة لدى مقاتليه من أجل ضمان النصر الذي من أجله جاء أصلا هو وجيشه، وهذا ما تحقق بفتح الأندلس.

هل يمكننا ـ في المقابل ـ مقارنة ما حدثنا عنه المؤرخ الصقلي ديودورس بشأن انتحار مدينة صيدا الجمعي بانتحار جمعي لحامية يهودية في قلعة تل بلدة مسعدة الفلسطينية، على نحو ما روى بعض المؤرخين اليهود الذين برعوا في تزوير التاريخ وتزييف وقائعه وتطويع دروسه وجعل رواياتهم وأساطيرهم وخرافاتهم مرجعية مقدسة لكل تاريخ العالم؟ تقول الرواية اليهودية المتداولة أن أفراد الحامية- بقايا يهود ذلك الزمان في تلك الأرض التي مروا بها لبرهة في تاريخ المنطقة- قد قرروا سنة ٧٢م الانتحار يأساً من المواجهة قتالاً أو النجاة فراراً، وبديلاً للوقوع أسرى في أيدي الرومان.

لقد شكك حتى كثير من المؤرخين والباحثين اليهود بهذه الرواية أصلا، مثلما شكك أكثر المؤرخين الثقاة المحترمين في العالم بمعظم الروايات والادعاءات اليهودية الأخرى التي شكل التحريف والغش والاختلاق والتزوير والكذب والافتراء أكثر نسيجها، على نحو ما أصاب توراة موسى، وما بني عليه تلمود الأحبار المفسدين. قام في اليهود من لم يحتمل كل ذلك الفساد والإفساد والتزوير والحقد على البشرية، كما هو شأن الفيلسوف اليهودي البرتغالي باروه سبينوزا الذي لم ينقذه الهرب إلى هولندا من طعنات خناجر الحاخامات الذين اغتالوه بعدما قال أن الحاخامات قاموا بتهريب الأكاذيب إلى داخل النصوص، ربما ليمنعونا من أن نكون بشراً «كثرت محاولات كشف باطل الروايات اليهودية عبر الأبحاث والدراسات الجادة، على الرغم من تفاقم عنف الانتقام اليهودي من الذين يتجاسرون على الاقتراب من تفحص تلك الروايات. نشير مثلا إلى كتاب البروفيسور البريطاني كيث وايتلام «تلفيق إسرائيل التوراتية» الصادر سنة ١٩٩٦[٢]، وكتاب «الأصولية اليهودية» للكاتب اليهودي الفرنسي إيمانويل هيمان[٣]، وأعمال المؤرخ الإسرائيلي زئيف هرتسوغ، وعالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل فنكلشتاين والكاتب الإسرائيلي جدع جلادي والبروفيسور الإسرائيلي إسرائيل شاحاك والكاتب اليهودي الأميركي الشهير نعوم تشومسكي، ومئات غيرهم فضحوا التحريف والأكاذيب والأباطيل والخرافات في توراة

محرفة وتلمود مخرب وتاريخ متداول ملؤه الخرافات والكذب والتزوير.[٤] لعلَّ من أوضح ما يثير الريبة والشك في كذب أمثال رواية انتحار مسعدة (مسادا وفقا للفظ العبري التداول) ما أكده أكثر المؤرخين بشأن الرواية/ الخرافة اليهودية عن خراب الرمز اليهودي المركزي (هيكل سليمان) في العام ٧٠م على يد القائد الروماني تيتوس. فقد جزم مؤرخون كثر على نحو قاطع أن الملك اليهودي أجريبا قد شارك الغازي الروماني تيتوس في تدمير ذلك الهيكل، وأن ثالث ثالوث هذا التدمير برنيكي، شقيقة الملك اليهودي أجريبا وعشيقة القائد الروماني تيتوس الذي يحمله اليهود، جيلاً بعد جيل، مسؤولية كوارثهم[٥].

أرجع المؤرخ اليهودي الشهير يوسيفوس السبب في المصائب التي نزلت باليهود عام ٧٠ الميلادي إلى تعاليم «يهوذا الجليلي». فلقد ألحقت يهوذا بالإمبراطورية الرومانية عام ٦ الميلادي. إذ أمر الإمبراطور أغسطس في ذلك العام بإجراء إحصاء لسكان يهوذا لفرض الضرائب عليهم. عندئذ أخذ «يهوذا الجليلي» يحرض اليهود على الامتناع عن دفع الضرائب، ورفض الاعتراف بالإمبراطور الروماني سيداً عليهم. تشدد الحكام الرومان في جمع الضرائب من اليهود الذين كانوا يكرهون دفعها.. فظهرت من بين اليهود جماعة إرهابية أطلق عليها اسم سيكارديم نسبة إلى سيكا، وهو الخنجر الذي كان يخفيه الإرهابيون في طيات ملابسهم. وانفجر العنف والإرهاب ليعم أنحاء واسعة. وراحت عصابات «سيكارديم» تقطع الطرق وتلحق الأذى بالرومان واليهود على حد سواء، لأن أفراد تلك العصابات ارتابوا في تعاون أغنياء اليهود مع الرومان، وأخذوا يفرضون إرادتهم على أعضاء المجلس اليهودي الأعلى (السنحدريم)، فيحضرون الاجتماعات ويغرسون خناجرهم في أجساد معارضيهم فتغص ساحة الاجتماع بالجثث. وعندما أدرك (يوسيفوس) العواقب المأساوية للمجابهة مع الرومان، آثر السلامة وانضم إلى الرومان. فرت فلول السيكارديم إلى القدس من وجه الرومان. وعندما دخل إرهابيو السيكارديم القدس، استعرت الحرب بين اليهود أنفسهم، وأخذ اليهود يجهزون على بعضهم بعضاً، بينما كانت ألسنة اللهب تتصاعد داخل القدس التي تحولت شوارعها إلى مقبرة تكدست فيها الجثث، فمن لم يمت بالخنجر مات جوعاً بعدما تعمدت تلك العصابات إحراق مخازن القمح والحبوب الأخرى. عندئذ بعث القائد الروماني تيتوس قواته إلى القدس لفرض

الأمـــن، فدخلتها بسهولـــة، بينما فرت فلول السيكارديـــم من القدســـ واتجهت إلى قلعة (ماسادا) بقيادة أليعـــازر أحد أحفاد يهوذا الجليلـــي، واستولوا على القلعـــة، وصمدوا فيها ثلاث سنـــوات. وعندما سقطت القلعة في يد الرومـــان، انتحر اليهود المحاصرون فيها بقتل بعضهم بعضاً وقتل أنفسهم، خوفاً من الموت صلبا على يد الرومان.

اهتمـــت دراســـات عديـــدة بمصيـــر حضارات قد انقرضت بعـــد ازدهار، وأمم قد اندثرت بعد قـــوة. يلفت النظر من بين تلك الدراســـات ثنائية جاريد دياموند التي بحث كتابه الأول منهـــا الحائز على جائزة بوليتزر «المدافـــع والجراثيم والفولاذ» في الأسبـــاب الجغرافية والبيئية التي أدت إلى ازدهار مجتمعـــات سكانية، بينما بحث كتابه الثاني «الانهيـــار: كيف تختـــار المجتمعات السقوط أو النجاح»[٦]. ففـــي الكتاب الثاني استعراضـــ لأسبـــاب اندثـــار مجتمعات مثل البولينيـــز فـــي جزيـــرة إيستـــر والمايا في جنوب غرب القـــارة الأميركية والفايكنغ في غرينلاند. استعمل الكاتـــب دراسات مقارنة تستند إلى علمـــي الآثار ودراسة المجتمعات البشرية(الإنثروبولوجيا)، إضافة إلى الكيمياء الحيويـــة وعلم وظائف الأحيـــاء، وتخصصه الرئيســـ البيولوجيـــا التطوريـــة لإثبات أن اندثار المجتمعات مرتبـــط بنوعية وطريقة تفاعلهـــا مـــع البيئـــة، مركزاً علـــى العوامل الجغرافية والمناخية والتاريخية، لكنه عرض حالات مضادة لمجتمعات تعرضت للظروف والتحديات نفسهـــا، فتغلبت عليها وصمدت، بـــل اشتدت قـــوة وازدهرت. تحـــدث جاريد دياموند عن نذر شؤم بدأت تلوح حاليا مشيرة إلى اندثار مرتقب لبعض المجتمعات، ومنها مجتمعات تبدو راسخة ومتقدمة.

إنَّ لسلـــوك المجتمع أهمية حاسمة في تحديـــد مصيره غالبا. فقـــد عرف التاريخ العربـــي مثلا حـــالات موغلة فـــي الغرابة لخنوع واستسلام للإبادة الجماعية على نحو يلامس انتحاراً جمعياً. لم يكن مجرد سلوك فردي شاذ أن يخرج آخر«خليفة» من قصره نصف عار، حاسر الرأس، للقاء هولاكو لدى اجتياحه بغداد سنة ١٢٥٨، بعد عشر سنوات من قرع أجراس إنذار ببدء سقوط الأندلس مع سقـــوط إشبيلية، سقوطـــاً كان لابد أن يستجيـــب له المشـــرق نهوضـــا أو سقوطا مماثلا، **أجراس قد أسمعت لو نادت أحياء..** خـــرج ذلك الخليفة من قصره لا دفاعا عن أمتـــه ودولته أو سلطانـــه الشخصي، وإنما ليناشد هولاكو متوسلا بمذلة أن يحافظ له علـــى سبعمئة جارية لم تـــر أي منهن ضوء الشمس! ليست هذه الواقعة مؤشراً على بؤس

حكم عفن فاسد وحكام بغاة تافهين بقدر ما تشير إلى انحطاط حال الأمة بأسرها إذ سكتت على مثل هؤلاء الحكام وتشاغلت باهتمامات فردية رخيصة عن التفكير بالمصير العام والسعي إلى حماية الذات الجمعية، وتخاذلت في الدفاع عن النفس. يتضمن الإنقاذ العام في ذاته إنقاذا للفرد والمجموع في آن واحد، لكن الإغراق في الأنانية والفردية والتشبث بالدنيا والخضوع لشهوات النفس الأمارة بالسوء يعمي الأبصار والبصائر، فلا يدرك المبتلون بهذا خلاصا إفراديا ولا جمعيا آخر الأمر، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهكذا تكون عاقبة التخاذل والتهاون والسكوت انهيار دولة ومجتمع وحضارة، وإبادة ملايين الناس، بحيث يعيش من ينجو من الذبح خارج الزمن والانتماء والفعل والجدوى، جيلا بعد جيل! لسنا نركز هنا على دور الحاكم أو القائد بأكثر مما يحتمل، لكننا نتفق مثلا بالتأكيد مع ما ذهب إليه الدوق ولنجتون، عدو نابليون بونابرت اللدود، عندما قال عن نابليون: يجب الاعتراف له بأن مجرد حضوره في ميدان المعركة كان يعادل زيادة في عدد جنود جيشه بما يعادل أربعين ألف جندي ترى كم يعادل وجود «خليفة» بمثل تفاهة مستجدي حارق بغداد وذابح معظم أهلها أن يدع له جواريه السبعمئة، في صفوف جيشه، لو افترضنا له نظريا جيشا غير جلادي الأمة ومغتصبي الإتاوات وناهبي الرعايا بالقمع من عصابة سميت جنداً؟

اجتاح الغزاة الفرنجة الصليبيون معرة النعمان بلدة الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري الواقعة في منتصف الطريق بين مدينتي حلب وحمص فجر يوم ١٠٩٨/١٢/١٢، بعد ساعات قليلة من رفع سكانها الرايات البيض على سورها ومداخلها وأسطح منازلهم، في أعقاب مفاوضات منح قائد الغزاة فيها الأمان لسكان المدينة إن استسلموا. وصف المؤرخ الفرنسي واؤل دي كين كيف نكث الغزاة بتعهدهم وأبادوا سكان المدينة عن آخرهم، فقال: «كان جماعتنا يغلون وثنيين (أي مسلمين) بالغين في القدور الضخمة، ويشكون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويين»[٧]. أكد مؤرخ فرنسي آخر كان مشاركا في ذلك الاجتياح ضمن قوات الغزو الصليبي هو ألبير دكس أن تلك القوات دمرت البلدة وأحرقت كل بيوتها بلا استثناء، وهدمت ما تبقى من أطلال جدران محترقة، وأبادت سكان البلدة عن آخرهم. قال دكس: «لم تكن جماعتنا لتأنف من أكل القتلى العرب والأتراك فحسب، بل كانت تأكل الكلاب أيضاً»[٨]. لم يكن حال مدن

فلسطين التي اجتاحها الغـزاة الصليبيون بعـد معرة النعمان أقـل بؤسا، فقد تكررت الإبادة في مـدن الساحل الفلسطيني، عكا وحيفا ويافا، وبلغت ذروتها في القدس التي تباهى المؤرخون الأوروبيون الذين عاصروا تلـك الغزوة بقتل أكثر مـن سبعين ألفا من سكانها[٩]، وبأن الدماء ظلت تجري أياما في شوارعها وأزقتها، فتخوض خيول الغزاة في دماء تغمرها إلى الركب! ترى أما كان أجدر بأهل معرة النعمان- وقد علموا بما عرفته أنطاكيـة من قبل- أن يقاومـوا الغزاة بدلا مـن الاستسلام لهم، مـا دام مصيرهم في الحالتين هو أن يلتهم الغزاة لحومهم مسلوقة أو مشوية؟ وأما كان أجدى لسائر أهل الشام أن يقاوموا أيضا بعدما تناهت إليهم أخبار ما حل بأهل معـرة النعمان من إبادة؟ ولئن اعتبر الجبناء باسـم «الحكمة والتعقل» أن المقاومـة اليائسة ضرب من الانتحار- وما أدراهـم أن تلك المقاومـة لا تكرر القانون الإلهي: وكم مـن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ـ فلماذا لا يعتبر الاستسلام الذي ينتهـي بأصحابـه إلى المذبـح متسربلين بالمهانـة والذل انتحاراً أيضاً؟ وهل من ذل أشد من الذي يتجدد باستذكار تلك الواقعة المشهورة لبعض أجدادنـا إذ دخلت حفنة مـن الغزاة حيا فجمعـت كل ذكوره (؟) إلى جدار، وراح الجلاد يقطـع أعناقهم واحداً بعـد الآخـر، دون أن يخطر فـي بالهم أن عددهم كان أضعاف عديد الغزاة، وبالتالي لو دافعـوا عن أنفسهـم بأيديهـم العزلاء وأسنانهم التي أدمنت المضغ، بمثل مقاومة الدجاجة عند الشروع في ذبحها، لانتصروا علـى شرذمة الغزاة تلك. كلـت يد الجلاد لكثرة ما أطاحـت برؤوس، ووهنت أصابعه وهي تنقل السيف من عنق إلى عنق، فسقط السيـف أرضا، وإذ بمـن كان قد حل دوره للذبح ينحني ويلتقـط السيف: أخال أرواح عرب ومسلمين اعتزوا بأمتهم وأعزوها في عصر سبق كانـت تراقب المشهد، فتوقعت أن يضرب الرجل عنق الجلاد الغازي بعدما صار السيف في يده، فتدب النخوة في نفوس من كانوا ينتظرون دورهـم للذبح ويتحدوا في مقاومة الغزاة دفاعا عن النفس والوطن والمصيـر، لكـن أمـل الأرواح التي راقبت المشهـد قد خاب، وأدركـت أن الناس غير الناس الذين عرفـت، وأن الأمة غير الأمة التي اعتزت بالانتماء إليها. لقد بلغ الخنوع والذل بالرجـل مبلغا أعجزه عن إدراك أنه مـا دام أسْوَأ احتمال هـو الموت الذي كان آتيه في كل الأحـوال، فإن الثأر من الجلاد للضحايا الذين سبقوه يفتح ثغرة أمل أمامه وأمام من بقي مـن منتظري الذبح! وهكذا

مد الرجل يده مناولا السيف للجلاد الذي استعاد سيفه وضرب عنق ذلك الرجل، حتى دون أن يشكره على مناولته السيف، ثم تابع عمله فأجهز على الباقين!

ترى هل كان الخنوع يبلغ مثل ذلك الحد المشين لو لم تغتصب حرية الناس طويلا وتنتهك كرامتهم وتغتصب حقوقهم، ولو لم يتم حرمان الناس من أن يكونوا هم مصدر الشرعية الفعلية للسلطان ولقوة أخلاقية وقانونية تقود المجتمع، بعد حرمانهم من التفكر والتدبر، والمشاركة في إدارة أمور دينهم وحياتهم وبلادهم وحقوقهم، والدفاع عن الدين والنفس والأرض والتصدي للفساد والمفسدين، على نحو ما تأمرهم شريعتهم، وبالتالي حرمانهم من أن يكونوا بشراً أسوياء، وتحويلهم إلى كائنات محرومة من كرامتها وإنسانيتها، خانعة مستسلمة مطواعة أمام كل جلاد أو غاصب أو معتد، وكل قمع أو بطش أو انتهاك..

نعود إلى راهننا، فنتمعن مجدداً بكلمات «للمستعرب» يفغيني بريماكوف، رئيس المخابرات ثم وزير الخارجية ثم رئيس الحكومة الروسية سابقا ورئيس غرفة التجارة الروسية حاليا، إذ قال مخاطبا العرب قبل أربعة عشر عاما: لقد فقد العالم توازنه، أما أنتم فقد فقدتم كل شيء.. شيء ما يشبه الجاهلية يحدث عندكم.. العرب يقومون بتنفيذ السيناريو بدقة!.. فالأميركيون يمسكون حتى بطريقة تعاملكم مع الهواء.. نجحت الولايات المتحدة في تفكيك كل الضوابط في المنطقة.. إن وضعا يؤمن لإسرائيل البقاء لا يتحقق إلا بتفكيك الدول العربية التي لا تنقصها عناصر الانفجار العرقي أو المذهبي أو أشكال انفجار أخرى مستحدثة.. الجهود يجب أن تتركز على تفتيت القوة الديموغرافية العربية وتحييد المناطق النفطية.. انتقل الإسرائيليون من مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ للسيطرة على البنى الاقتصادية في المنطقة. إن عدة عواصم عربية قد أخذت كلياً بالنظرية الأميركية القائلة بأن إسرائيل وحدها كقوة -إقليمية- هي التي تستطيع أن تحمي (حكومات) تلك العواصم من الاحتمالات الخارجية والداخلية على السواء» [١٠]! على الرغم من اتفاقنا مع تحليله العام، فإننا لم نقر بريماكوف آنذاك على ادعائه أن العرب قد فقدوا كل شيء، فقد قلنا آنذاك: لا يزال لدينا المستقبل، وإرادة مقاومة صلبة لدى نويات قادرة على التصدي للغزاة وأدواتهم.

لئن انقرضت مئات المجتمعات البشرية تماما على امتداد التاريخ، فمن أبرز أسباب

انقراضها غيابها أو تغييبها عن تقرير مصيرها والإمساك بشؤونها وإطلاق إرادة الخلاص لديها بما يجتث الفساد ويقاوم الانحراف ويعالج الخلل على الدوام، ويجدد اختيار الأفضل من البدائل المتاحة على كل صعيد، في ظل تمسك بقيم ومعايير أخلاقية وسلوكية شرعية لا تسمح بخرق أو انتهاك أو استثناء صاحب سلطان أو حظوة من المحاسبة. أول ضمانات استمرار المجتمع ونجاحه وتقدمه أن تكون قوة الشرعية والحق والأخلاق فوق قوة البطش والسلطان. جميل أن يعظ رئيس مثقف هو الرئيس الإيراني خاتمي في كتابه «الفكر والدين في شرك الاستبداد» مثلا من خلال إشارة إلى واقعة تاريخية موجزها أن آلاف الأشقياء وقطاع الطرق التفوا حول أبو ليث الصفار فروعوا العباد وأقلقوا البلاد ونشروا الرعب في كل جبل وواد.. ومع اشتداد سطوتهم قرر أبو ليث أن يحتل بغداد! حذره واحد ممن بقي لديهم حيز صغير للعقل والحكمة من أنه سوف يصطدم بحاجز «بيعة الخليفة» في بغداد. عندئذ التفت أبو ليث إلى أحد أعوانه قائلا: أحضر لنا «عهد السلطان» لنقرأه على الناس. أحضر الرجل لفة قماش ناولها لأبي ليث، فاستل منها سيفا وصاح في الناس: أيها القوم، هذا السيف هو ما أجلس الخليفة في بغداد، وهكذا فإن عهدي وعهد الخليفة واحد، فبايعوني على السمع والطاعة!

جدد أبو ليث بهذا جوهر وقفة زياد بن أبيه شاهراً سيفه في جامع دمشق الكبير إذ صاح بالناس: البيعة لمعاوية، ومن بعده لولده يزيد، وهذا السيف لمن لا يبايع! خنع الناس للبغي، فتوالد الخنوع مع توالد البغي إلى يومنا هذا. لكن المشكلة في مثل وعظ الرئيس خاتمي - في ظل اتساع الهوة بين رجل الفكر ورجل القرار -أن أكثر من يحتاجون إلى ذكرى تنفعهم وموعظة تصلح حالهم -وحال الأمة بالتالي- لا يقرؤون، ومن يشذ منهم ليس بوسعه أن يقرأ سوى ما يجيزه عسس السلطان!

تقترب حالتنا اليوم من تشخيص مالك ابن نبي في كتابه «ميلاد مجتمع» الذي رأى أن موت المجتمع موسوم بتمزق الشبكة الاجتماعية مع بقاء الفرد المتورم على حساب الشبكة، حتى يتم تصنيعه في أمة حية. ولعل هذا مغزى ما قاله نجم الدين أربكان، أول مؤسس للعديد من الأحزاب ذات المسحة الإسلامية في تركيا المعاصرة ورئيس الحكومة التركية الأسبق، في حوار مع الصحفي رضا هلال[11] من أن سبب تفكيره في تشكيل حزب سياسي واعتماد

بديل إسلامي هو هزيمة العرب أمام الجيش الإسرائيلي في العام ١٩٦٧ وانهيار زعامة عبد الناصر وإخفاقات تجربة التيار القومي العربي.

هل هو بحث عن عزاء يخفف وطأة الكارثة أن نتنفس قليلا عندما نقرأ من بين عشرات الكتب التي توقعت انهيار الولايات المتحدة واختفائها، على نحو ما توقع بول كينيدي سقوط بلاده ثم توقع اختفاء روسيا، أو كما توقع زبيجنو بريجنسكي أن يبدأ القرن الحادي والعشرون بهيمنة أميركية على العالم، لكنه شكك في أن تظل هناك ولايات متحدة أميركية بعد عقود قليلة؟

من آخر حلقات هذا التوقع المتكرر كتاب «ما بعد الإمبراطورية» لإيمانويل تيد، أحد أبرز علماء السكان في الولايات المتحدة، وصاحب التحليلات المتبصرة التي توقعت في كتابه «السقوط النهائي» الصادر سنة ١٩٧٦ سقوط الاتحاد السوفييتي السابق، وهو ما تم فعلا بعد خمس عشرة سنة. أكد تيد أن الولايات المتحدة تنهار حاليا وبتسارع واضح، على الرغم مما زعمته وزيرة خارجيتها السابقة مادلين أولبرايت، التي اكتشفت يهوديتها «فجأة» وهي تقترب من عامها السبعين أثناء زيارة لوطنها الأصلي تشيكيا، إذ تبجحت أن «الولايات المتحدة هي الدولة التي لا يمكن الاستغناء عنها أبداً». قال تيد إنَّ الولايات المتحدة لم تعد تستطيع إخفاء أنها غير مفيدة سياسيا، وتابعة اقتصادياً في ظل عولمة أصرت هي على فرضها، وبحكم تشبثها بمستوى رفاه لمجتمعها يستند إلى إدامة وزيادة نهبها الأمم الأخرى، بحيث بات المجتمع الأميركي يعيش عمليا إلى حد بعيد على نفقة الشعوب الأخرى، وبات العالم أكثر فأكثر «ينتج ما تستهلكه الولايات المتحدة». هذا ما يتم تحت غطاء واه لما كان الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال شارل ديجول قد فضحه سنة ١٩٦٥ وأسماه «نظام قنص وابتزاز» يفرضه الأميركيون على العالم بعضلاتهم وأسلحتهم، ويمولون عبره معيشتهم بإصدار مزيد من الأوراق الخضراء (الدولارات) التي تخدع شعوب العالم بقوة ذاتية مزعومة موهومة وامتياز راسخ مغتصب لتلك الأوراق. حقيقة الأمر لمن يتعمقون في خفايا النظام النقدي والاقتصادي العالمي هي أن شعوب العالم الأخرى تقايض ثرواتها وجهودها وأدمغتها التي تستقطبها الولايات المتحدة بوهم لا قيمة له في حقيقة الأمر

اسمه الدولار، على نحو ما يؤكد إيمانويل تيد، الذي يكرر تأكيد الانهيار والسقوط مآلا لبلاده الولايات المتحدة التي يجاهر بحبه لها، على الرغم من يقينه باقتراب نهايتها. إن «السقوط الأميركي في ذروة التحكم والبطش والهيمنة» أقرب إلى انتحار ذاتي لمجتمع مغيب عن الوعي والإدراك. لكن الانتحار الأميركي ليس عزاء لنا، ولامدعاة تلذذ بخدر فقدان وعي أدمناه طويلاً، طويلاً، بدورنا.

الهوامش

١- خالص جلبي، هل مات المجتمع العربي؟ الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٢/٩/٢٥م ص (١٥)

٢- الترجمة العربية بالعنوان نفسه لممدوح عدوان، دار قدس، دمشق، ٢٠٠٠م.

٣- لترجمة العربية بالعنوان ذاته لسعد الطويل، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

٤- انظر مثلا: أهرون ميجد، يديعوت أحرونوت، ١٩٩٩/٩/٨م، ود .أحمد علي مرسي، الفولكلور والإسرائيليات، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٥- مجموعة أكاديمية يهودية تبحث مستقبل إسرائيل، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠١/١٢/٢٦م، ص(٢٤).

6- Jared Diamond,COLLAPSE:How Societies Shoose to Fall or to Succeed,Vikings Books,2004.

٧- أمين معلوف، الحروب الصليبية، ترجمة عفيف دمشقية عن الفرنسية، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ص (٦٣).

٨- المصدر السابق، ص (٦٤).

٩- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص(١٨٩).

١٠- الكفاح العربي، بيروت، العدد ٧٧٧، ١٩٩٣/٦/٢١، ص(٢٢-٢٣)

١١- في: خالد بن فقة، تركيا تعود إلى هويتها..، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٢/١١/١٢، ص (٣٢).

المنظومات المعقدة من المورثات إلى الدماغ

موسى ديب الخوري ❁

ما هي النقطة المشتركة بين شبكة طرقية، ودماغنا، أو انتشار وباء ما أو الفيسبوك أو المورثات؟!! تشترك جميع هذه المنظومات بأنَّها تسمى «المنظومات المعقدة»، وهو أمر ناجم عن كثرة الكينونات المتصلة فيما بينها. ولكن لكي نفهم هذه المنظومات لا يكفي أن نعرف أو نفهم كلاً من هذه الكينونات. فوصف كل عصبون لا يسمح بتفسير عمل ووظائف الدماغ! لهذا بدأ يتبلور منذ بضع سنوات علم جديد، هو «علم الشبكات». وهو يتعلق

❁ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية الفلكية السورية.

بفهم ديناميكية التفاعلات في قلب هذه المنظومات المعقدة، وهو أمر حاسم من أجل وصف هذه المنظومات.

ما هي المنظومات المعقدة وكيف تتم دراستها اليوم؟ المنظومات المعقدة هي المنظومات المكونة من عدد كبير جداً من الكينونات أو العناصر بحيث يمنع تعقيدها من التنبؤ بسلوكها. على سبيل المثال، نعرف أن قاعدة اقتصادية واحدة لا تكفي لحل أزمة اقتصادية كالأزمة التي أثرت على معظم دول العالم مؤخراً. بالمثل، فإنَّ الوعي لا يمكن تقليص الوعي إلى مجرد مجموعة من العصبونات. فهو خاصية منبثقة تتطلب تفاعل مليارات نقاط الاشتباك العصبية. ولفهم هذه المنظومات، نحن بحاجة إلى مواجهة التعقيد نفسه أي تحليله وفهمه. لكن البحث حول التعقيد هو مشروع شائك. ذلك لأن موضوعه ليس واضحاً تماماً.

هل يتعلق الأمر بتكثيف بعض المعادلات الجميلة والحاذقة مثلاً التي لم يتوصل العلم إلى تفسيرها بعد؟ أم على العلم أن يستمر في الدراسات التفصيلية والتجزيئية من دون محاولة فهم العلاقات على مستوى التعدد والكثرة؟

إنَّ تطور الدراسات التفصيلية نفسها قادت العلماء إلى ضرورة البحث في الظاهرات المعقدة، لأن قوانين الجزئيات في المنظومات لا تنفصل كما يبدو عن قوانين أكثر شمولا تتعلق بالكليات!

منذ بضعة عقود، كانت نظرية التعقيد حكراً على كبرى الأفكار النظرية المستلهمة من تمثيلات مبسطة ومن معادلات تفاضلية. وهي أفكار علمتنا الكثير عن العلم نفسه، كما وعن الظاهرات، ولكنها في الحقيقة لم تعلمنا الكثير حول المنظومات المعقدة نفسها. فعلى سبيل المثال، أفادتنا القوانين الإحصائية في دراسة الغازات، إلاّ تعميمها على منظومات بيئية متعددة لم تكن كافية لتعطينا فهماً أعمق لبنية هذه المنظومات وللعلاقات التي تحقق توازناتها وتطورها.

جاءت دراسة الشبكات رياضياً وفيزيائياً ومعلوماتياً لتقدم لنا إطاراً جيداً للتقدم في فهم المنظومات المعقدة. حصل ذلك إثر تطورات هامة وجذرية تعود إلى التسعينيات من القرن الماضي، وهو الدفق الهائل من المعطيات القادمة من الإنترنت والاتصالات والتكنولوجيا الرقمية بشكل عام، بما فيها المعطيات القادمة من السوابر الفضائية والمراصد الأرضية. وأدى ذلك إلى مواجهة العلوم كافة مثل الفيزياء والبيولوجيا والعلوم الاجتماعية والاقتصاد والكونيات والجسيمات الأولية وغيرها لهذا الانفجار الهائل من المعلومات التي يجب إدارتها والاستفادة منها.

إن دارات ميكروية صغيرة (شيبات بيولوجية biopuces تفيدنا بشكل متزامن حول نشاط المورثات البشرية وبروتيناتها؛ وتولد مسرعات الجسيمات الضخمة آلاف وملايين المعطيات المعلوماتية (آلاف التيرا أوكتيت) في كل سنة؛ وتسجل هواتفنا النقالة معطيات حول الموضع والتنقلات؛ وتجمع قواعد معطيات عامة معلومات اقتصادية من الأنواع كافة. أمَّا مراكز الدراسات المتعلقة بالبيئة أو البراكين أو الأعاصير أو المناخ، فإنَّ كمّاً هائلاً من المعطيات يتدفق إلى قواعدها في كل يوم. أمَّا المراصد التي تدرس الشمس أو المجموعة الشمسية أو المعطيات الآتية من أعماق الفضاء، فإنَّ العلماء لا يستطيعون متابعة تفاصيلها ولا تحليلها...

لقد بتنا نعيش في عصر المعطيات والمعلومات. ولكن ما هي الشبكات إذا لم تكن روابط بين المعطيات؟ لقد انبثق علم الشبكات لمحاولة فهم هذه البنى التي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، ومن خلالها محاولة فهم المنظومات المعقدة التي تنمذجها.

إنَّ أية نظرية تخص الخلية أو الدماغ أو شبكة الإنترنت لم تعد تستطيع تجاهل الآثار التي تولدها الصلات المتبادلة فيما بينها. فإذا أردنا بناء نظرية للتعقيد، لا بد أن ترتكز بالضرورة على أسس أكثر فأكثر صلابة لعلم الشبكات.

لكن لماذا الحديث عن علم جديد للشبكات وبالتالي للتعقيد طالما أن علم الشبكات درس منذ فترة طويلة؟ في الحقيقة، تطور علم الشبكات ونما في مجالات مختلفة منذ أكثر من قرن، خاصة في الرياضيات عبر نظرية الـ graphes. مع ذلك، فإنَّ ثورة المعطيات التي ذكرتها أعلاه غيرت مستوى الشبكات التي كان يتعامل العلماء معها. وقد قادت إلى اكتشاف غير الطريقة التي كنا نتصورها أو ندركها بها. فحتى نهاية التسعينيات كان النموذج المعياري هو نموذج الشبكة العشوائية، حيث ترتبط العقد عشوائياً بوساطة روابط. وفي مثل هذه الشبكة، فإنَّ عدد الصلات التي تملكها كل عقدة يتبع قانون التوزع المعروف جيداً في الرياضيات، وهو قانون بواسون Poisson، وهو عبارة عن منحن جرسي الشكل ذي قيمة وسطية. بعبارة أخرى، فإن معظم العقد لها عدد من الروابط قريب من القيمة المتوسطة، في حين أن عدداً قليلاً من العقد يكون كثير الروابط وعدداً قليلاً من العقد قليل الروابط. فلو أخذنا شبكة اجتماعية، فهذا يعني أن معظم البشر فيها لهم عموماً العدد نفسه من الأصدقاء وأنه من الصعب العثور على أشخاص لديهم

الكثيــر من الأصدقاء أو على العكس القليل جداً من الأصدقاء. لكن العلماء لاحظوا أن الحال لا يكون دائماً على هذا النحو. فعلى شبكات مثل فيسبــوك أو الإنترنت عموماً، نجد «عقداً» لهــا الكثير من الروابط، وفي الوقت نفسه بعضــ العقد التي ليس لديها سوى القليل جداً من الروابط.

وفــي الواقــع، فــإنَّ غالبيــة الشبكات الواقعية هي شبكات متغايرة العناصر وغير متجانســة، فيمكــن مثــلاً أن تتواجد عقد قليلــة الترابطات جنباً إلــى جنب مع عقد كثيرة الترابطات جــدّاً. وكان اكتشاف هذه الشبكات التي «بلا مقياس» مفاجأة للعلماء وميز بالتالي ولادة هذا العلم الجديد.

بحــث العلماء في البدايــة عن الآليات التي يمكن أن تأخذ بعين الاعتبار هذه البنية المتغايرة أو غير المتجانسة. وفي أحد أولى النماذج الــذي نشرته ريــكا ألبرت Réka Albert مع لازلــو باراباســي[1] Laszlo Barabasi فــي عام ١٩٩٩م، حيث تمَّ خلق شبكة ابتداء من مبادئ بسيطة: عقد جديدة تضــاف واحــدة بعد الأخــرى، وتتصل كل عقــدة جديدة مع عدد m من الروابط في الشبكة الموجودة سابقاً باختيار العقد التي يكون الاتصال بها وفق احتمالية متناسبة مع العدد المجاور السابق من الروابط. يترجم هــذا المبدأ في الارتبــاط التفضيلي فكرة أن صفحة ويب جديــدة، بالنسبة للإنترنت على سبيل المثــال، سوف تتضمن نموذجياً روابط نحو صفحــات أخرى معروفة كثيرا مسبقــاً. ومع هذه الآليــة البسيطة، توصل العالمان إلــى إعادة إنتاج توزّع ارتباط غير متجانســ يميز الشبكات التي لا قياس لها. ومع كونه بسيطا جداً فقد كان هذا النموذج أساســاً للعديد مــن التحسينات التي قادت بدورها إلى التمييز الطبولوجي للعديد من الشبكات.

ولكن، هل تم العثور أو إيجاد بنى أخرى مشتركة بين الشبكات إضافة إلى التغايرات أو اللاتجانســات؟ يجيب لازلــو باراباسي: «أجــل. وخاصــة واقع أن الكثيــر من هذه الشبــكات هي «عوالــم صغيــرة». وبعبارة أخرى، ففي هــذه الشبكات كافة، فإنَّ أكبر مسافة ممكنة بيــن عقدتين (نسميها قطر الشبكة) هي مسافــة صغيرة. تمت نمذجة هذه الملاحظة للمرة الأولى في عام ١٩٩٨م على يد الفيزيائيين دنكان واتس Duncan Watts وستيفــن ستروغاتــز[2] Steven Strogatz . وكمــا فــي كل الشبكات التي بلا مقياس، فإن هذه الخاصية تؤكد حدس الكاتب الهنغاري فريغيز كارينثي Frigyes Karinthy الــذي كان قــد تخيل في عام ١٩٢٩م أن كل فــرد على كوكب الأرض كان متصــلاً بأقل من ستة «روابــط» بأشخاص

آخريــن لا علــى التعيين. وهــو حدس تم اختبــاره لاحقاً من قبل عالم النفس ستيفن ميلغرام فــي الستينيات وأثبــت اليوم على نطاق واسع.

يمكــن أن نتساءل أيضاً حول إذا ما كان لتغاير الشبكات، إلى مــا وراء بنيتها، تأثير علــى ديناميكيتها. وفي الواقــع فقد تمت دراسة الشبكات غيــر المتجانسة كثيراً من خلال مسائل جوهرية ونظرية ووصولاً إلى صيرورات تطبيقية مختلفة.

ويتم اللجوء في هذه الحالة إلى الفيزياء الإحصائيــة لأنها تنمذج منــذ فترة طويلة انبثــاق سلوك شامل (كما على سبيل المثال في المغنطة المجهريــة) ابتداء من قواعد تفاعلات مجهريــة أو دقيقــة (على سبيل المثال التفاعلات بين السبينات المتجاورة، حيــث السبين هــو خاصيــة كمومية تميز الأجسام في عالــم اللامتناهي في الصغر كافــة). والحال أن هذه الظاهرة في انتقال المرحلة قابلة للنقل والتطبيق على مستوى العديــد من نمــاذج التفاعــل الاجتماعي، وتشكّل الرأي أو انتشار المعارف.

وقــد سمحت دراســات علــى شبكات تفاعل واقعية، ومتغايرة جداً، بتمييز الدور الأساسي للتغاير في انتشار الآراء والمعارف. إن هــذا النمط من بنيــة الشبكات يتضمن من جهة أخرى مقاومة كبيرة للأعطال، بل وهشاشــة أيضاً تجاه الهجمــات الموجهة. إنها ظاهرة قام العلمــاء بتكميمها باللجوء إلــى تحليل الغــراف بعد حــذف جزء من العقــد أو الروابط. إن تأرجحات الاتصالية تظهــر في أساس هــذا التناقض بين القوة والضعف، بين الصلابة والحساسية.

من جهــة أخرى، يكتشــف العلماء يوما بعد يوم أن التطور الديناميكي للشبكات هو حجر الزاوية في علم الشبكات نفسه. ففي حين أنه يمكننا الاعتقاد بأن شبكة اجتماعية مثــلاً لا تشبــه بحــال من الأحــوال شبكة أيضيــة (أي شبكة التفاعلات البيوكيميائية فــي الخلايا مثلا)، نكتشف على العكس أن لهما خصائص طبولوجية مشتركة، وخاصة اللاتجانــس أو التغيــر كما وبنيــة «العالم الصغيــر». تكمن الصعوبة فــي فهم ما إذا كان يوجد بالطريقة نفسها سمات ديناميكية تطورية مشتركة على مستوى تنوع كبير جدّاً من الشبكات. وهذا ما يأمله العلماء عموماً! ولكــن حتى اللحظة الراهنــة يبدو أن تنوع وتعــدد الديناميكيات الملاحظــة تتجاوز بسعتهــا كل التصورات التي وضعها العلماء حتــى الآن. مع ذلك، هنــاك بعض النتائج المدهشة التي تم الوصــول إليها، وخاصة فيمــا يتعلق بانتشار الأوبئة. كما على سبيل المثال، مــن خلال مقاربــة تسمى «الحقل الوسطــي المتغاير الخواصــ»، وهو حقل

مستلهم مباشرة من نموذج «الحقل الوسطي» في الفيزياء الإحصائيــة. وهو يشتمل كما في هذا المثال على استبدال التفاعلات بين مختلف الأجسام. هنا بين مختلف الروابط.، بتفاعل وسطي، إنَّما مع الأخذ بعين الاعتبار أيضاً للطبولوجيا المتغايرة للشبكة. وباتباع هذه المقاربة، استطاع ألساندرو فسبنياني Alessandro Vespignani الذي يعمل مع لازلو باراباســي في الجامعة نفسها، أن يبرهن وجود طور انتقالي بين نظام مصاب بعدوى أثرت على جزء كبير من الشبكة فيه وبين نظــام ظلت العدوى محصورة فيه في منطقة صغيرة مــن الشبكة.[٣] ويتميز هذا الطور الانتقالــي بعتبة. ففي شبكة متغايرة بين فسبنياني أيضاً أن هذه العتبة الحرجة للانتشــار تميل نحو الصفــر عندما يزداد حجــم الشبكة. وهكذا، مهمــا كانت قابلية الانتقال والعدوى ضعيفة، فإن الوباء يستطيع الانتشار والاستمرار فــي الشبكات الكبيرة المتغايــرة. وهي نتائج تبيــن أن التحصين والتمنيع الناتجين فــي إثر عدوى أو حملة تلقيح فعالة يجب أن يقترنا بالدرجة الأولى بحمايــة العقــد شديدة الاتصاليــة، والتي تتمثل بـ«الناقلين الفائقين».

ويبدو واضحــاً أن الفيزياء الإحصائية لها اليد الطولى في علم الشبكات المعقدة. فللفيزيــاء الإحصائيــة روابط مــع نظرية الغراف، وتقتــرح منذ فتــرة طويلة أدوات من أجل التوصيف الإحصائي للمجموعات الكبيرة من المعطيات. وهكذا فقد وجدت نفسها فجأة بشكل طبيعي وتاريخي في قلب نمذجة الآليــات المجهريــة (على مستوى العقد والروابط) التي تسمح بالانبثاق الآني للخصائــص الإحصائيــة للشبكــة. ويعمل اليوم العديد من المعلوماتيين والمهندسين في مجال الشبكات، مقدمين طرائق جديدة مثــل الأدوات الخوارزميــة التــي تستخدم على سبيل المثال في قياس المسافات بين العقد.

كذلك فــإن المعلوماتيين ينشطون جداً من أجل إيجاد «تجمعــات»، أي مجموعات من العقــد التي يبــدو أنَّها تقــوم بالشيء نفســه على شبكة معينــة. إنَّ اكتشاف مثل هذه المجموعات يهم مثلاً المشتغلين على الإنترنت الذين يبحثون عــن تسويق موجَّه لمنتجاتهم، ويهم البيولوجيين الذين يبحثون عــن مجموعــات محــددة داخــل الشبكة الخلويــة من أجل إيجاد مجموعة المورثات التي تكون سبب مرض ما. من جهة أخرى، يهدف العلم الجديد الناشئ البيومعلوماتية، من خلال مقاربة مختلفة (تحليل وتصنيف المعطيات)، إلى تكميم التعقيد البيولوجي. فقد أصبح التعقيد وعلم الشبكات مشروعين متعــددي المناهج والعلــوم ويحتاجان إلى

مصادر فكرية وتمويلية من المجتمعات المهتمة كافة.

يقودنا ذلك إلى الحديث عن مشروع برنامج أوروبي FuturICT أقل ما يمكن أن نقول فيه إنه مشروع «نمذجة السلوك المجتمعي البشري على مستويات كبيرة»! وهذا هو تماماً ما يتحدث عنه العلماء حين يشيرون إلى ضرورات تمويل الأبحاث!! فالعلوم الاجتماعية باتت تستفيد اليوم من كمية هائلة من المعطيات المتوافرة عبر الدراسات المختلفة والإحصاءات الكثيرة. وهي توافر فرصة جديدة تماماً لدراسة السلوك البشري بشكل كمي وموضوعي.

إنَّ هدف المشروع الأوروبي FuturICT هو نمذجة ودراسة العلاقات الإنسانية من أجل التنبؤ بالأزمات وتخفيفها أو حلها إن أمكن (!)، لكنه بطريقة معينة يحاول الاستفادة من هذه الفرصة واستثمارها!! وقد أصبحت أدوات هذه الدراسة متوافرة ومعروفة لدى الباحثين والعلماء بشكل جيد، أكان مصدرها علم الشبكات، أم المعلوماتية (أي استكشاف المعطيات وكشف المجموعات من العقد) أم ميكانيك السوائل (ما أصبح يعرف اليوم بالديناميكية البشرية)، إلخ.

يقول لازلو باراباسي إنه يبقى علينا أن نكامل وندمج هذه المعطيات وهذه الأدوات كافة على مستويات كبيرة ومقاييس كبيرة جداً. غير أن هذه المكاملة مكلفة كثيراً وتتطلب الكثير من الخبرات. مع ذلك، فإن التوجهات الفعلية والدراسات القائمة على علوم الشبكات تواجه تحديات كثيرة في مختلف المجالات، من المورثات إلى الدماغ، ومن الجسيمات الأولية إلى المجرات وتشكلها، ومن علم النفس إلى نظرية التطور. فإذا كانت نمذجة المجتمعات البشرية لا تزال تتطلب جهوداً كبيرة، فهل من الممكن نمذجة الكائن الحي الفرد؟[٤]

في الحقيقة، يستكشف علماء البيولوجيا اليوم طريقا جديداً لدراسة المنظومات الحية، من خلال وصفها كمجموعات لتفاعلات بين كينونات أو عناصر أولية كالمورثات أو الجزيئات.

تتنفس أوراق النباتات عبر عدد كبير من المسامات الدقيقة. وعند حصول جفاف، فإنَّ هذه الحساسات تنغلق، الأمر الذي يقلّص التبخّر، ويقتصد في استهلاك الماء. وكلما فهمنا وعرفنا هذه الآلية أكثر كلما استطعنا ضبط الأنواع وزراعتها في المناطق الجافة.

استطاعت الباحثة ساره آسمان Sarah Assmann من جامعة بنسلفانيا تصنيف أكثر من أربعين عاملاً تدخل في هذه

الصيـــرورة: بروتينـــات ومورثـــات وأنـــواع الجزيئـــات كافـــة التـــي تتداخـــل، وتنتظم وتتعقد بعضها مـــع بعض. واستطاعت بعد ذلـــك مع زميلتهـــا ريكا ألبـــرت بناء نموذج تنبـــؤي لإشارة إغلاق المســـام عند نوع من النباتـــات Arabidopsis ، حيـــث أخذتا بعين الاعتبار هـــذه العوامل وتفاعلاتها.[٥] وهكذا فقد ساهمتا بتقدم فهم هذه الآلية، واكتشفتـــا بشـــكل خاص الـــدور الأساسي للبروتينات التي سميت G.[٦]

وبالطريقـــة نفسهـــا تنتـــج كل أو معظم الصيـــرورات المسؤولـــة عن عمـــل الكائن الحـــي، على المستويات كافـــة. من الخلية إلى المنظومة البيئيـــة الواسعة، من تفاعل عشرات بل مئات وآلاف العوامل: ومنها على سبيل المثال وجـــود أو غياب إيون، جزيء، مورثة، تَشكُّل أو تكييـــف أو انطباق بروتين على حالات معينة، إلخ. إنَّ تعميق فهم هذه الصيـــرورات يفترض بالتالـــي التمكن من استخدام أدوات قـــادرة على تمثيل وتحليل هـــذه التفاعلات المعقدة. وهـــذا ما نشير إليه اليوم بمصطلح «بيولوجيا الشبكات».

عقد وأقواس

تختلـــف الأداة الرياضيـــة الدقيقة تبعاً للموضوع المدروس. لكنها تشترك جميعها بقدرتها على أن توصف بوساطة شبكة، وهي عبارة عـــن «عقد» تمثل مختلـــف العناصر الداخلـــة في التفاعـــل، وترتبـــط بوساطة «أقواس» تشير إلى تأثير عقدة على أخرى. إنَّ المعلوماتية هي بالتأكيد عنصر أساسي في هذه العملية، فهذه الشبكات تُبنى وتحلل وتنمـــذج بوساطـــة الخوارزميـــات. وتسمح هذه النمـــاذج، التي هي مقاربـــات لأجزاء الكائـــن الحي بنمذجة آليات بيولوجية على الحاسوب. وبدراستها يصيغ العلماء تنبؤات الأمـــر الذي يقودهـــم إلـــى التجريب لكي يقارنوها بحقيقة وواقع الكائن الحي.

طبقـــت ريكا ألبرت نتائـــج خبرتها هذه علـــى تجزئـــة جنين ذبابـــة الخـــل، وعلى التفاعلات بين الكائنات الممرِضة والنظام المناعي. وحصلت بشكل خاص مؤخراً على نتائـــج هامة تتعلـــق باللوكيميا ذات الخلايا اللمفاوية T الحبيبية. ويمكن لنتائجها هذه أن تفضي إلى حل علاجي لهذا المرض.[٧]

إنَّ اللوكيميـــا ذات الخلايا اللمفاوية T الحبيبية الشكل هي عبارة عن عامل ممرض نادر يتميـــز بتكاثر خلايـــا مناعية خاصة، هـــي الخلايا اللمفاويـــة T السامة للخلايا (CTL). ودور هذه الخلايا السامة CTL التخلص من الخلايا التي يحقنها فيروس في الجسم. وبعـــد القيام بالمهمة تصبح خلايا CTL غير ذات فائدة، وتختفي عبر انتحار مبرمَـــج، وهو مـــا يسمى بـ «مـــوت الخلايا

المبرمَج». وعلى العكس عند المريض الذي يعاني من هذه اللوكيميا، فإنها تزدهر وتتكاثر وتستمر من دون حدود بدلاً من الانتحار، الأمر الذي يسبب اضطرابات عديدة ويهدد الإنذار الحيوي للجسم. وقد حاولت ريكا ألبرت وفريقها فهم لماذا استمرت هذه الخلايا حية. ولهذا، قامت بجرد المعارف حول الموضوع في المنشورات العلمية كافة. ثم بنيت شبكة تمثل مختلف العوامل . من مورثات وبروتينات وجزيئات أخرى . المشتركة في استمرار وموت هذه الخلايا اللمفاوية المبرمج كما في تفاعلاتها.

وبدراسة هذه الشبكة، وخاصة بنمذجة سلوكها، حدد هذا الفريق ما هي العقد التي كانت تلعب دوراً راجحاً في الانقلاب بين حالتين مستقرتين: من جهة الخلايا اللمفاوية السليمة، التي سيكون مصيرها الموت المبرمج، ومن جهة أخرى الخلايا اللمفاوية التي لا تموت، المرضية.

وهكذا استطاعوا التنبؤ ببعض جوانب الآلية التي لم تكن الدراسات التجريبية السابقة قد استطاعت حلها بعد. بل تحقق الفريق مخبرياً من أحد هذه التنبؤات، فكما تنبأ النموذج ثمة عائلة من البروتينات تسمى Smad، تنظم تعبير مورثات معينة، تنتج بشكل زائد في الخلية المرضية. وقد درس البيولوجيون بشكل منهجي نتائج التخلخلات الخارجية المتوقعة كافة على الجزيئات المتضمنة على حالة الشبكة، وبالتالي على حياة أو موت الخلية. واستطاع الفريق بذلك تحديد ١٩ من هذه التخلخلات كأهداف علاجية ممكنة. وتؤكد ريكا ألبرت قائلة: «وفقاً لنموذجنا، فإن كل إستراتيجية تعكس الوضع غير الطبيعي (فرط النشاط أو ضعف النشاط) لأحد هذه البروتينات ستؤدي إلى موت الخلية الليمفاوية الشاذة، وبالتالي تشفي من الحالة المرضية». وعلى سبيل المثال، الوصول إلى تدخل يوقف مورثة تسمى STAT٣، أو إلى تدخل آخر يعزز الإنتاج الخلوي لعائلة من الدهنيات (الليبيدات) هي السيراميدات.

اختارت ريكا ألبرت للوصول إلى هذه النتائج أن تمثل بوساطة «نموذج ديناميكي متر» شبكة التفاعلات الجزيئية التي تضبط الموت الخلوي المبرمَج للخلايا اللمفاوية T. وكانت هذه المقاربة قد أثبتت فعاليتها في تجارب سابقة، وخاصة في مجال الإشارة ما بين الخلايا. وقد استخدمت بشكل أدق نموذجاً ديناميكياً منطقياً (نسبة إلى جبر بول)، وفيه يمكن لكل عقدة أن تأخذ حالتين فقط. وتقول ريكا ألبرت مدققة: «في الكثير من الحالات، هناك حالتان بشكل طبيعي، على سبيل المثال قناة تسمح لأيونات باجتياز غشاء

تكون مفتوحة أو مغلقة، أو بروتين في حالة تشكل نشط أو غير نشط. وفي حالات أخرى، توافق بالأحرى متغيرات مستمرة، فإن المقاربة المنطقية تتضمن عتبة. إنها حالة تركيز أدنى من العتبة، وغير كافية، تمثلها حالة «مغلق off»، أو تركيز أعلى من العتبة، وبالتالي كاف، تتمثل بالحالة «مفتوح on».

يبني العلماء اليوم شبكات تنبؤية. في البدايات الأولى، قبل تسمية هذه الأعمال بـ «بيولوجيا الشبكات»، كان فرانسوا جاكوب François Jacob وجاك مونو Jacques Monod الفرنسيان، الحائزان على جائزة نوبل عام ١٩٦٥م، قد طورا رؤية بيولوجية للتنظيم، لدور النسج. أو ما سمي بالعرى أو العقد. في المفاعيل الرجعية أو ردود الفعل. وكان ستيوارت كوفمان قد استخدم منذ عام ١٩٧٠م في الولايات المتحدة شبكات «بولية» لوصف الظاهرات البيولوجية. ومنذ ذلك الوقت تم حرق مراحل كثيرة، ولم تعد بيولوجيا الشبكات محدودة بالتحليل السطحي لطبولوجيا هذه الشبكات.

يشير إريك شادت Éric Schadt إلى أن «ظاهرة حالية كبرى، في مشهد بيولوجيا الشبكات، هي إدخال مناهج وأدوات تسمح بضبط السببية في التفاعلات». ويعمل فريقه على نماذج تنبؤية لأمراض ولاستجابات على مواد دوائية في مجالات مختلفة مثل أمراض القلب والسكري والسمنة. يقول موضحاً: «إن العنصر الأساسي، من أجل بناء شبكة بيولوجية سببية. تكون العلاقات فيها بين العقد ذات طبيعة سببية. هو اللجوء إلى تبعيات شرطية ناجمة عن نظرية الاحتمالات، وذلك من أجل استنتاج العلاقات السببية، في إطار مصدر نظامي للتخلخلات». وفي الواقع فإن الدراسة المنهجية لأثر التخلخلات على الجزيئات التي يكون نشاطها مترابطاً هي التي تمكننا من استنتاج علاقة سببية فيما بينها.

إن الشبكات التي تبنى على هذا النحو لا تحاول رسم العلاقات الداخلية بين العوامل المتضمنة في صيرورة ما، بل هي تعيد إنتاج المنطق السببي للواقع البيولوجي المدروس. فهي تعمل تقريباً مثل هذا المنطق. هذا ما يسمح بشكل خاص بالوصول إلى تنبؤات قابلة للاستثمار، مثل التعرف على أهداف دوائية أو شفائية.

الهوامش:

1- A.-L. Barabasi et R. Albert, Science, 286, 509, 1999.
2- D. Watts et S. Strogatz, Nature, 393, 409, 1998.
3- R. Pastor-Satora et A. Vespignani, Phys. Rev. Lett., 86, 3200, 2001.
4- Pierre Vandeginste, Modéliser le vivant, La Recherche, dossier 2012 n°464, p. 47.
5- S. Li et al., PLoS Biology, 4(10), e312, 2006.
6- S. Pandey et al., Mol. Syst. Biol., 6, 372, 2010.
7- A. Saadatpour et al., PLoS Comput. Biol., 7(11), e1002267, 2011.

المراجع

1- D. Watts, Six Degrees, the Science of a Connected Age, WW Norton & co., 2004.
2- Daniel Durand, 1979, La systémique, 1998, PUF, coll. «Que sais-je?».
3- Dominique Bériot, 1992, Du microscope au macroscope, Préface de Joël de Rosnay - ESF Editeur.
4- Edgar Morin, La Méthode (Edgar Morin), Seuil.
5- Francisco Varela, 1989, Autonomie et connaissance, Essai sur le vivant, Seuil.
6- François Rechenmann et Hidde de Jong, 2005, Le vivant en équations, La Recherche, n°383, p. 32.
7- Henri Atlan, 2011, Le vivant post-génomique. Ou qu'est-ce que l'auto-organisation?, Odile Jacob, Paris.
8- Herbert A. Simon, 1991, Science des systèmes, science de l'artificiel, Dunod. Traduction et postface de Jean-Louis Le Moigne.
9- Jean-Louis Le Moigne, 1977, La théorie du système général. Théorie de la modélisation, PUF.
10- Jean-Louis Le Moigne, 1990, La modélisation des systèmes complexes.
11- Jean-Michel Penalva, 1997, La modélisation par les systèmes en situations complexes, Université de Paris XI - Thèse de doctorat.
12- Joël de Rosnay, 1977, Le Macroscope, vers une vision globale.
13- La Recherche, Dossier «Émergence», février 2007, p. 30.
14- La Recherche, Dossier «La cellule en équations», février 2005, p. 30.

15- Ludwig von Bertalanffy, 1993, Théorie générale des systèmes, Dunod.

16- M. Newman, Networks, an Introduction, OUP Oxford, 2010.

17- Michel Crozier et Erhard Friedberg, 1977, L'acteur et la Système, Le Seuil.

18- Patrice Abry, Patrick Flandrin, Darryl Veitch, «Internet, comment réguler le trafic», La Recherche, mars 2005, p. 50.

19- Vespignani, A. Barrat et M. Barthélémy, Dynamical Processes on Complex Networks, Cambridge University Press, 2008.

ما هو دور الدولة في ازدهار التكنولوجيا؟!

هبة الله الغلاييني ❁

حين نصف الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، بأنه حيوان اجتماعي فإن المقصود أنه يعيش بطبيعته في مجتمع ما، وأنه من دون هذه العلاقة ستصبح الحياة كما وصفها هوبز بكلماته الشهيرة «كريهة ووحشية وقصيرة».

ومن ثم فإن الحياة البشرية برمتها تسير داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية. وتنقسم هذه الارتباطات إلى فئتين: إلزامية وطوعية.

❁ كاتبة ومترجمة.

والملاحظ أن الغالبية من العلاقات الاجتماعية هي علاقات طوعية حيث لنا أن نختار، نظرياً على الأقل، ما إن كان لنا أن ننتمي أو لا ننتمي إلى دور العبادة أو النقابات أو جمعيات الحفاظ على البيئة أو نوادي التنس. أما المجتمعات الإلزامية فهي قليلة العدد، ولكنها ذات شأن حاسم. وثمة اثنان منها فقط: الأسرة التي نولد في كنفها وتعطينا توجهنا العرقي والثقافي، دون أن يكون لنا خيار في هذا، والدولة وهي المسؤولة عن الحفاظ على القانون والنظام داخل مجتمع إقليمي معين، كما تعمل على ضمان تلاحمه في مواجهة أي عدوان من الخارج.

ونؤكد ثانية أن ليس لنا خيار بشأن الدولة التي نولد داخل نطاقها. وهكذا تستقطب المجتمعات البشرية إلى جماعات تدافع عن نفسها وهي الدول، حتى إن اخترنا يوماً التخلي عن تبعيتنا لدولة ما إنما يكون لننقل التبعية إلى دولة أخرى. ولا معنى على الإطلاق لوجود إنسان بلا جنسية لاينتمي إلى دولة ما. ولهذا تعتبر الدولة شكلاً من أهم أشكال المجتمع، ولها إمكاناتها الهائلة في أن تحسن أو أن تسيء استخدام التكنولوجيا.

ونذكر أولاً أن الدولة تخضع هي الأخرى لنوع القيود والضغوط التكنولوجية نفسه فيما يتعلق بالحجم حتى أثّرت في نمو المدن، فالسلطة الفعالة للدولة من أجل الحفاظ على القانون والنظام وتطوير وسائل الدفاع الضرورية ضد أي عدوان محتمل، إنما تحددها كفاءتها التكنولوجية لكي تزيد من عدد قوات الشرطة والجيش وتزودهم بالمعدات، وكذا كفاءتها في نقل هذه القوات بسهولة إلى أي مكان مطلوب، وكفاءتها في توفير الاتصالات مع هذه القوات في أثناء عملياتها.

ومن الجدير ذكره أن الإمبراطورية الرومانية توافرت لديها شبكة طرق برية متميزة، وتنظيم سياسي عالي المستوى، ومع هذا اضطرت إلى أن تعاني من هذه القيود إلى أقصى حد. إذ كثيراً ما اضطرت جيوشها إلى أن تحارب خارج حدود سلطة إدارة الإمبراطورية. ولهذا بدأت هذه الجيوش تعمل وكأنها دول داخل الدولة، ومن ثم أصبحت تشكل تحدياً لعوامل تلاحم الإمبراطورية، وهو ماعجزت عن مقاومته في نهاية الأمر. ومع انهيار السلطة الرومانية في غرب أوروبا ارتدت المنطقة إلى شكل أبسط من المجتمعات بعدما أدخل الغزاة التيوتونيون نظام ولاياتهم القبلية القائم على العصبية العائلية، والذي أصبح يمثل الشكل الأصلي والأساسي لتنظيم الولاية. واستعادت المنطقة تلاحمها السابق بعد

طرد جحافل الغزاة بفضل زيادة رخاء وقوة المجتمعات المستقرة. هذا على الرغم من أن هذه المجتمعات لم تندمج معاً في دولة واحـــدة مما كان له أثـــره الواضح في تطور الحضارة الغربية. معنى هذا أن الغرب، على عكس الحال بالنسبة للحضارتين المصرية والرومانية، كان يفرز دائماً خليطاً كبيراً من البلدان المختلفة والتي أمضت غالبية أيامها فـــي تنافس واضح بعضها مع بعض. بيد أن هـــذه المنافسة ذاتها هيـــأت للغرب إمكان الوصول إلـــى أساليب بديلـــة للحكم مثلما هيـــأت إمكان تطور تقاليـــد حق الاختلاف والتسامـــح والليبرالية، وحفز هـــذا التنوع أيضاً التنافس في مجال التكنولوجيا.

كان لدينا فيما سبق مايبرر رصد أهمية توافر المنـــاخ الليبرالي في عمليات التطور التكنولوجي. وحري بنـــا الآن أن نشير إلى أن نطـــاق هذا المنـــاخ الليبرالي كان جزءاً لايتجـــزأ من العلاقـــة بين الـــدول الكثيرة المتنازعة داخل الحضـــارة الغربية، وليس معنى هذا أنـــه كان مقصوداً متعمداً. ذلك أن العلاقات بين البابوية والإمبراطورية، أو بين الكاثوليـــك والبروتستانت، أو بين أحد الملـــوك ومنافس له يدعي حقه في العرش لاتكشف عـــن شيء يماثـــل مايعرفه العالم الحديـــث من ليبراليـــة ديموقراطية. ولكن الانهمـــاك في هذه النزاعات بين الدول في الغـــرب. أو في كثير غيرهـــا مما له طبيعة شخصية أو عصبيـــة. خلق تراثاً لرأي أكثر حرية وحق الرأي في الاختلاف والتعبير عن نفســـه، بل شجعه على ذلك إذا ماكان قادراً علـــى دعم مصالح طـــرف أو آخر في هذه النزاعات، خاصـــة إذا ماتعلق الأمر بإمكان تحقيق رخاء تجاري أو كفاءة تكنولوجية.

وهكذا نجد أن مجموعة العوامل المميزة والجوهرية الفنية بـــدأت تتشكل كما بدأت الـــدول في أوروبا تضعها في الحسبان أكثر فأكثر. وكان من بيـــن السبل التي التمستها الـــدول لتشجيع التكنولوجيا التي يمكنها أن تهيـــئ لها ميزة على منافسيهـــا، أن منحت المخترعين حـــق الاحتكار بمـــا يكفل لهم جـــزاء مالياً لقاء أفكارهم. وتجلى هذا أولاً كوسيلة لدعم التجارة والصناعة عن طريق حمايـــة مشروعات بذاتها في مجال التوسع التجاري. مثال ذلك التجارة عبر البحار مع جزر الهند الشرقية. أو جلب حرفيين أجانب لاستخراج النحاس من المناجم الإنجليزية. وتعدل المفهوم بطريقة ملائمة بحيث يمنح المخترع بـــراءة اختراع مما يهيئ له فرصة تحقيق عائد مالي مقابـــل استثمار أفكاره. وبذلـــك يكون للمخترع وحده حق الاستفادة من اختراعه خلال فترة محددة.

والملاحظ أن النظام في بريطانية كان معقداً وباهظ الكلفة خـــلال القرن الثامن

عشر، ولهذا عجز كثيرون من المخترعين عن تحمل نفقات وأعباء الحصول على براءة الاختراع أو آثروا الاحتفاظ باختراعهم سراً. ولكن هذا لايمنع من الإشارة إلى أن عددا من رجال الصناعة المتمرسين من أمثال بولتون ووات اللذين عرفا كيف يفيدان جيداً من هذا الوضع لحماية براءة اختراعهما للمحرك البخاري الذي ظل سراً لهما على مدى ربع قرن. ولكن أصبح الوضع بعد ذلك أكثر بساطة وأقل كلفة مما هيأ الفرصة للمزيد والمزيد من المخترعين لكي يفيدوا من الحماية التي تكفلها لهم براءة الاختراع.

واستحدثت غالبية البلدان الصناعية في أوروبا وشمال أميركا نظماً مماثلة خلال القرن التاسع عشر. وبدأت براءات الاختراع تكتسب اعترافاً دولياً، وإن استطاعت بعض البلدان أن تستغل ثغرات في نص التشريع. ولكن أهم شيء من وجهة نظرنا بالنسبة لنظام براءة الاختراع ليس نطاق النظام أو فعاليته. بل وجوده في حد ذاته الذي يعبر عن الإقرار بحق الفرد، وبأنه جدير بهذا الحق، ومن ثم فهو عنصر عالي القيمة من بين مجموع العناصر التكنولوجية. وبحلول القرن الثامن عشر بدأت تخف القيود التقليدية على التطور التكنولوجي ونخص بالذكر هنا التفوق في بناء السفن الشراعية، وصناعة المدفع مما مكن دولاً أوروبية كثيرة من تكوين إمبراطوريات مهمة فيما وراء البحار. ومن دواعي السخرية أنه بينما ظل النقل البري داخل أوروبا بدائياً إلى أقصى حد كانت السفن الشراعية للبرتغال وإسبانيا وفرنسا وهولندا وإنجلترا والسويد تمخر أسراباً طويلة عبر محيطات العالم. واستطاعت هذه البلدان إنشاء محطات ومستعمرات تجارية لها على شواطئ الهند والعالم الجديد، ولكن تعذر عليها كثيراً الاختراق والتوغل إلى داخل القارات فيما وراء قواعدها.

ومن المسلم به أن الإسبان حاولوا بكل الطرق أن يفعلوا ذلك في أميركا الوسطى بفضل الشجاعة الفريدة للغزاة الإسبان وقسوتهم الوحشية، علاوة على تحالف الحظ معهم. إذ وجدوا سكان البلاد الأصليين وقد أعاقتهم الانقسامات والخرافات. ولكن ظل هذا الوضع استثناء إلى أن حظي البريطانيون بميزات مماثلة خلال غزوهم الهند في نهاية القرن الثامن عشر. وبعد ذلك بدأ المستوطنون الأوروبيون يتوافدون أفواجاً لم تنقطع. وتكدس المستوطنون الأوروبيون كما تكدست قوة السلاح الناري. وهكذا تهيأ إمكان ضم الجزء الأكبر من المناطق غير الاستوائية في العالم تدريجياً منطقة بعد أخرى. وفي شمال أميركا أخذ

المستوطنون هذه المهمة على عاتقهم بعد أن طردوا السلطة الاستعمارية البريطانية. ولكن كان على القوى الاستعمارية أن تنتظر فترة أطول لضم المناطق الاستوائية في العالم. وذلك إلى حين توافر الأدوات التكنولوجية الملائمة، خاصة البواخر صغيرة الحجم والموثوق بها. بحيث تكون قادرة على الملاحة عبر الأنهار وسط الغابات الاستوائية. هذا علاوة عن الحاجة إلى توافر عقاقير مثل الكينين لمقاومة الملاريا التي كانت سلاح الموت ضد الرجل الأبيض. وحين توافر هذا كله فضلاً عن التطور المستمر الصاعد للسلاح الأوروبي وزيادة شبكات السكك الحديدية عبر القارات.

وقد استطاع الدخلاء اختراق جميع القارات وإخضاعها لأوروبا. وبدأت الدول الأوروبية في القرن السادس عشر عمليات تكوين إمبراطوريات لها فيما وراء البحار. وذلك في وقت كانت هذه الدول المعنية لاتزال في حقيقتها منتجاً للتنظيمات الأسرية في العصر الوسيط. على الرغم من أن الإصلاح الديني البروتستانتي أضاف إلى الوضع بعد ذلك بعداً آخر للصراع الديني. حقاً لقد بدأت هذه الدول آنذاك في التفكير في نفسها باعتبارها «أمماً». ولكن الأمر استغرق زمناً طويلاً إلى أن نضج وساد المفهوم الحديث بكل مقوماته عن الدولة ـ الأمة. ولكن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وجهت ضربة قوية اهتزت لها أركان مبدأ الشرعية الأسرية، وقدمت مبدأ أكثر قوة، وأصبحت لهذا المبدأ السيادة في السياسة الأوروبية ألا وهو صوت الشعب. بدا التعبير أول الأمر تعبيراً غامضاً على لسان العامة. ولكنه تدريجياً ازداد وضوحاً وتماسكاً وأصبحت له دلالته الواضحة كتعبير عن الحركات الجماهيرية الشعبية في القرن التاسع عشر التي اتجهت غالباً نحو أهداف قومية. وتمخض هذا عن نتيجة محددة، وهي أن أصبحت دول أوروبا دولاً ـ أمماً، ومن ثم عدلت من أهدافها وفقاً لمقتضيات الوضع الجديد. وظلت على حجمها زمناً وإن أصبح بعضها أكبر حجماً، كما لم تخف حدة التنافس فيما بينها. بل ربما زاد التنافس حدة في بعض الأحيان. ولكن الشيء الجديد هو تبني الدول الأوروبية لمواقف قومية فيما يتعلق بلغاتها وأصولها العرقية وتراثها الثقافي. وظل التنافس فيما بينها حافزاً للتطور التكنولوجي مع فارق وحيد أنه يخدم اليوم تطلعات قومية، ولنا عودة إلى موضوع المساهمة المتميزة للتكنولوجيا في الحرب بين الدول ـ الأمم المتنازعة، ولكن من المهم هنا أن نلحظ أن التطورات التكنولوجية خدمت دائماً النزعة

القوميــة في مجالات أخرى. والجدير ذكره أن الإزالة العمليــة لكل القيود التكنولوجية المفروضة على توسيع الدولة بسبب طبيعة وسائل النقل والمواصلات الحديثة. ووسائل توليــد القــوى المحركة ساعــد على دعم النزعة القوميــة وأشبع أسباب الخيلاء في الإمبراطورية. ووضعت هذه الوسائل أيضاً في خدمة الحكومــات قوى هائلة للسيطرة على المعلومــات والدعاية مما ساعد على خلق رأي عــام ساكن راضــ بالواقع. وبدا واضحاً أثناء عبورنــا العام ١٩٨٤م دون أن يصدق الكابوس الذي تنبأ به جورج أورويل والذي أنذر باتخــاذ إجراء مروع من جانب الهيمنة الشاملــة للدولة ضد الشعوب، عن طريــق «أجهزة دعاية جديــدة والتحكم من بعــد» وغير ذلــك. ولكن الواضــح بالنسبة لبعض المجالات أن القوى المتاحة للدول - الأمم للإرهاب أو خداع المواطنين أضحت أكثر إزعاجاً من تلك التي تصورها أورويل. وأصبحــت اليقظــة ضــد تزايــد عمليات الإخضــاع القومية أمــراً حيويــاً بالنسبة لأي مجتمــع صحــي. إن مفهــوم الصحة الاجتماعيــة من شأنــه أن يثيــر تساؤلات كثيرة ما لم نحدده بوضوح. وهدفنا هنا أن ننقل فكرة توافــق الرأي الاجتماعي القائم على درجة عالية من المشاركة في عمليات اتخاذ القرار، سواء أكان قرار الدولة أو قرار مستويــات مباشرة أكثر تختصــ بالنشاط الاجتماعي، أو بعبارة أخرى، إننا نتحدث عن الديمقراطية، على الرغم من سوء استخدام هذه الكلمــة واختلاف معانيهــا باختلاف الناس، والتي تعني أن يكون «الحكم بوساطة الشعب» عنصراً فعالاً على وجه اليقين في هذه المشاركة. إذ من دون ذلك سوف ينتهي الأمر بأن تكون السيطرة الاجتماعية حكراً بين أيدي أصحاب الثروة أو الخبرة العملية، وهــو ما يوهن «سلطــة الشعب» إذا كان لها وجــود. لذلك فإننا نسلم هنــا كبدهية بأن أحد شروط الصحة الاجتماعية يوفر شكلاً ديموقراطياً للحكم الذي يدعمه مستوى عال من المشاركــة الشخصية، ونسلم هنا أيضاً بأن هــذا الوضع يعني ضمناً سيادة القانون بطريقــة واضحة لا لبس فيها، حيث تتحدد قوانين الدولة بناء على عملية عامة معترف بها لصياغة القوانين والتي تتضمن أحكاماً بتغيير القانون والذي يخضع له جميع أبناء المجتمــع دون استثنــاء وإذ اتفقنا على أن هذا تعبيــر منصف عن نــوع الحكم الذي يتضمنه مصطلــح «الديمقراطية» وأن هذه الشروط إجمــالاً، أكثر استصواباً ومعقولية من أي تدبيــر اجتماعي آخر، ومن ثم فهي السبيل الــذي يصل بنا إلى أقصى قدر من المجتمع الصحي، إذن سيكون يسيراً علينا أن ندرك أن لهذا كله نتائجه المهمة بالنسبة

للتكنولوجيا، وذلك لأسباب عدة، منها أولاً أن موارد التكنولوجيا الحديثة تهيئ قوى هائلة وتضعها في خدمة الدولة الديموقراطية لتوصيل المعلومات ولتشجيع المشاركة.

ولكن هذه الموارد ذاتها يمكن أن تتوافر لأشكال حكم أخرى وتستخدمها لأغراض أقل استصواباً على نحو ما شاهدنا في مثال الدعاية القائمة على تعصب قومي. وثمة أمثلة كثيرة عن ديكتاتوريات القرن العشرين البغيضة، وما أكثرها، وأكدت هذه الأمثلة إلى أي حد أساءت السلطات استخدام قوى التكنولوجيا، وهذا النوع من الحكم هو الذي يشكل مادة الكابوس الذي حدثنا عنه أورويل. ولعل من الحمق أن ننكر أن التكنولوجيا يمكن أن تستخدمها الدول بكفاءة عالية جداً على الرغم من أنها دول لاتحكمها توجهات أو نوايا ديموقراطية، ومن ثم يتعين علينا التزام الحذر السياسي اليقظ ضد هذه الانتهاكات، ويكفي هنا أن ندرك أن مثل هذه الانتهاكات غريبة على مفهوم الثورة التكنولوجية الذي عرضناه في كتابنا هذا، إذ إن هذه الثورة جزء مكمل لمجموعة عوامل من بينها أن السياسة جزء لايتجزأ وشرط لازم للتحرير وسيادة الليبرالية التي هي الطريق إلى الديمقراطية. وإذا كان ثمة خطر حقيقي داهم يتمثل في تسخير التكنولوجيا لأغراض مناهضة للحرية والليبرالية فإن نجاح هذا لن يفضي فقط إلى تدمير الديموقراطية، بل أيضاً إلى تدمير الثورة التكنولوجية كما نفهمها. وإن مثل هذه النتائج تعني ضمناً انهيار بنية المجتمع الحديث وتفكك نسيجه، وهو مايعني نذيراً أسود لمصير المجتمع العالمي كله. وإذا كان علينا ألا نقلل من هذه الأخطار، فإننا نؤكد مجدداً أن الدول الديموقراطية الليبرالية الحديثة يمكنها أن تتخذ إجراءات وقائية للحيلولة دونها، والتي تشتمل، من بين ماتشتمل على اعتراف بدور التكنولوجيا. وتمتد هذه التدابير الوقائية إلى محاولات التربية والتعليم والعلم والثقافة والحرب. وحري أن نتناول كلاً من هذه على حدة فالملاحظ بالنسبة للدور التكنولوجي في التعليم أنه لم يحظ بتقدير دائم، ولكن تزايدت أهميته باطراد خلال القرنين الأخيرين. إذ كان التصور حتى القرن الثامن عشر أن التعليم نظام يخص الصفوة، ويهدف إلى تثقيف عقول أبناء الطبقة الحاكمة عن طريق تعليمهم الكلاسيكيات وكذلك، وبنسبة محدودة، النظرية الرياضية. أما اكتساب المهارات سواء من أجل الحصول على عمل أو للإشباع الشخصي. فقد كانت المجتمعات تعتبره غير ذي فائدة بالنظرية أو بالممارسة التعليمية، لذلك لم يكن

هنـــاك تخصص رسمي لـــه. وكان المتوقع أن المهارات التقنيـــة خاصة تكتسب خلال الممارسة العمليـــة: مثال ذلك أن المهارات التقليديـــة القديمة مثل مهـــارات البنائين والنجاريـــن وصانعي البراميـــل والحدادين وصنـــاع الأدوات والأوعيـــة المعدنية فقد تواضع المجتمـــع علـــى أن يكتسبها المرء من خلال نظام التلمذة الصناعية. ويقضي هـــذا النظام بأن يلتـــزم التلميذ بناء على عقد بالتلمـــذة على يد المعلـــم فترة تمتد سنـــوات عدة يكـــون من المتوقـــع أن يتعلم خلالهـــا التلميـــذ الحرفـــة. ويدفـــع آبـــاء التلاميـــذ ثمناً مقابل ميزة تعلم التلميذ كلاً من التدريـــب على المهنـــة والانضمام إلى طائفة الحرفيين. ومـــن الأهمية بمكان أن نعترف بأن نظام التدريب عن طريق التلمذة الصناعيـــة ظـــل ناجحاً على مـــدى قرون طويلة، وكان يمثل خلال هذه الفترة الشكل الوحيد المتاح للتعلم التكنولوجي. وليس لنا أن ندهش، إزاء هذا التراث الطويل العريق، حين نعرف أن المحـــاولات التي استهدفت فـــي العصـــر الحديث، تغيير هـــذا النظام التعليمـــي وإبداله بنظام مؤسسي اجتماعي واجهت مقاومة أول الأمر. ولكن الواقع أنه بحلول القـــرن التاسع عشر، إن لم يكن قبل ذلـــك، اتخذت عدد من الحـــرف الأساسية مثـــل العمارة والجراحة خطوات تهدف إلى تحسين وتنظيم عملية تعليم الملتحقين بها لتعلم المهارات الخاصة بالحرفة، ذلك لأن التلمـــذة الصناعية لم تعـــد ملائمة للوفاء بحاجـــة المجتمع الجديـــدة للتعليم الفني، إذ زادت حاجـــة المجتمـــع نتيجـــة لزيادة حركة التصنيع. وتغيرت التلمذة الصناعية نوعياً نتيجة تطبيـــق اختراعات تكنولوجية واكتشافات علمية جديدة. مثال ذلك أن ظهور السكك الحديدية وشيوعها خلقا حاجة إلى عـــدد من المهندسين أكثـــر من طاقة نظام التلمذة الصناعية السائد آنذاك. كذلك فإن المجالات الجديدة مثل الكهرباء والكيمياء العضويـــة، وهي مجالات تولي أهمية كبرى للخبرة التكنولوجية ليست من المجالات التي يمكن تعليمها عن طريق التلمذة الصناعية، لأنها تتجـــاوز خبرة الممارسيـــن العمليين لهـــا. وكان حل هذه المشكلات وغيرها من المشكلات ذات الصلة هو استحداث نظام للتعليم التكنولوجي في المدارس والمعاهد والجامعات. ولسوء الحـــظ أن هذا النظام تعايشـــ بصعوبـــة أول الأمر مـــع التقاليد القديمة في الممارسة التعليمية، ولكنه تمثل واستوعب آخـــر الأمر في صورة مزيج دائم ومعقول. وكانـــت الحاجة إلى ذلك واضحة البرهان.

وعندما تبيـــن أن المؤسسات التعليمية القائمة عاجـــزة عن التلاؤم مـــع الجديد،

خطط لهيئات جديدة بديلة. وقادت الدولة الفرنسية الطريق إلى التجديد بعد الثورة عام ١٧٨٩م، إذ أنشأت المدرسة الفنية متعددة التخصصات «البوليتكنيك»، وأعقبتها بروسيا التي أنشأت معاهد رفيعة المستوى للتعليم التكنولوجي. وتبنت معاهد «المنحة الأرضية» Grant Colleges Land في الولايات المتحدة موضوعات تقنية عند تأسيسها في الولايات الجديدة. وقامت السويد أيضاً بدور رائد في مجال التعليم التكنولوجي في جامعتها التي أسست العام ١٨٢٩م، واتخذت لنفسها اسم التاجر الإسكتلندي وليام كالمرز الذي وهب منحة إنشائها، ولكن ظلت بريطانيا وحدها متشبثة بطرق التعليم التقليدية على الرغم من أن نجاح التصنيع البريطاني في مطلع القرن التاسع عشر رآه البعض حجة قوية ضد التغيير، كما أن النزوع القوي في منتصف القرن إلى تطبيق مبدأ حرية العمل Laissez Faire في التعليم وفي غيره من إدارات السياسة العامة، قضى على أي إمكان لقيام مبادرة من جانب الدولة. ومع هذا اضطرت بريطانيا أخيراً إلى الإقرار بحاجتها إلى التغيير، وهو ما أكدته النجاحات الملموسة التي حققتها البلدان المنافسة في النصف الثاني من القرن. وشرعت بريطانيا في وضع مقررات دراسية جديدة، وأقامت مؤسسات جديدة احتل التعليم فيها مكاناً بارزاً. وهكذا مع نهاية القرن أصبحت كل دولة في العالم الغربي ملتزمة بالتعليم التكنولوجي. وأقامت له المؤسسات الملائمة حتى وإن تضمن هذا تغيير التصور العام عن دور الدولة والوفاء بالالتزامات التعليمية الموضوعية التي لم يكن بمقدور الإدارات السابقة النهوض بها. وأصبح التعليم الفني، بناء على ماسبق، جزءاً لايتجزأ من جهود الدولة. وكان من مظاهر اكتساب التعليم التكنولوجي صبغة رسمية متزايدة باطراد، تزايد الطابع المهني المتخصص، والملاحظ أنه قبل أن تتخذ أي دولة إجراءاتها المسؤولة بشأن التعليم، شرعت جماعات من أصحاب المهارات في التخصصات التكنولوجية الجديدة في تشكيل جمعيات تعبر عن مصالحهم خاصة عن طريق ضبط وتنظيم الانضمام إلى صفوفهم. ووضعت هذه الجمعيات أهدافها ومنها: تعويض النقص في المنشآت التعليمية الرسمية، عن طريق تطبيق نظام التعليم الذاتي لأعضائها من خلال المناقشات في أوقات الراحة والمرح.

ويعتبر المهندسون البريطانيون مثالاً رائعاً للتعبير عن هذا الاتجاه. فبعد أن كان من المتعذر وجود فريق معترف به قبل منتصف القرن الثامن عشر بدأ عدد قليل

منهم يطلقون على أنفسهم اسم «المهندسين المدنيين»، وذلك عن رغبة واعية منهم في تمييز أنفسهم عن المهندسين العسكريين الذين كانوا مشهورين اجتماعياً. واستطاعوا بفضل قيادة جون سميتون تشكيل «جمعية المهندسين المدنيين» العام ١٧٧١م، لتكون على هيئة نادٍ للرجال مع القيام ببعض الوظائف المهنية المنوطة بها.

وبعد جيلين، أي في العام ١٨١٨م تزايد عدد أبناء المهنة الوليدة زيادة كبيرة كفيلة بأن تنشئ منظمة مهنية كاملة الحقوق والواجبات تحت اسم «مؤسسة المهندسين المدنيين»، وتولى رئاستها توماس تلفورد، وصاغت في عهده ميثاقها الملكي العام ١٨٢٨م، ثم أصبحت النموذج الذي تحتذيه مؤسسات هندسية مماثلة في بريطانيا وفي أنحاء الإمبراطورية البريطانية وفي الولايات المتحدة. ولم تكن الدولة مسؤولة عن إنشاء هذه المؤسسات وماشابهها مثل هيئة المهندسين المعماريين أو الملاحظين المعماريين أو غيرها من الجماعات المهنية الجديدة.

ولكن الدولة اتجهت في القرن التاسع عشر إلى النظر إليها نظرة رضا وأقرت بها باعتبار أنها تمثل توسعاً وامتداداً للنظام الاجتماعي القائم على الاعتماد على النفس، ورأت فيها أمراً صائباً. وهكذا ترسخ نظام التخصص المهني وأصبح موضع ترحيب اجتماعي عام كمنتج مشتق من التكنولوجيا الحديثة، وعمد هذا النظام في الغالب الأعم إلى خلق علاقة حميمة مع تعليم الفريق المتخصص المعني، ليقدم إسهاماً موضوعياً من أجل ظهور صفوة من الطبقة المسؤولة عن الإدارة.

وتوازى نمو النشاط التكنولوجي في العالم الحديث مع نمو العلم في ترابط وثيق بين الاثنين. ولكن يتعين الإقرار بأن الاثنين ظاهرتان متمايزتان وإن ارتبطا بعضهما ببعض، كما لاحظنا في مستهل هذه الدراسة، فالعلم معني بالمعرفة وبفهم طبيعة البشر في بيئتهم، بينما التكنولوجيا معنية بصنع وعمل الأشياء. أي معنية بالطريقة التي يغير بها البشر بيئتهم، وإذا كانت التكنولوجيا قديمة قدم النوع البشري فإن الخبرة العلمية اعتمدت على مهارات تعلم الكتابة والحساب، ولهذا فهي حديثة نسبياً وليست أسبق من الحضارات الباكرة. واتجه العلم والتكنولوجيا إلى التطور مستقلين عن بعضهما نظراً لتباين الخصوصيات الاجتماعية. فمن المسلم به أن العلم أرستقراطية، بينما اقترنت التكنولوجيا بالحرفيين والعمال والعبيد. ولم يبدأ التقارب بين البحث العلمي والمهارات العلمية إلا في المجتمع الأوروبي

الغربي في العصر الوسيط، عندما تهيأت له ظروف تتسم بقدر ضئيل من الانفتاح، وتجلى هذا في عديد من مظاهر التقدم المهمة في مجالي ضبط الوقت والملاحة. وأسست الجمعية الملكية العام ١٦٦٢م، كما أسست خلال هذه الفترة تقريباً مؤسسات علمية قومية مماثلة في بلدان أخرى.

وشجع على هذا ما أكده الكشف العلمي من فائدة مرجوة، أو بعبارة بيكون الشهيرة أن الكشف العلمي استهدف «زيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة». وطبيعي أن اختراعات مثل اختراع المحرك البخاري ماكان لها أن تتحقق دون تطور العلاقة الخصبة بين العلم والتكنولوجيا. ولكن الملاحظ خلال القرنين الأخيرين أن هذه العلاقة أصبحت أكثر توثقاً وتكافلاً مع اطراد مظاهر الاعتماد المتبادل بين العلم والتكنولوجيا. مثال ذلك أن النجاح الهائل للمحرك البخاري حفز أهل الفكر إلى استكشاف طبيعة العمليات داخل المحرك الحراري وإلى تطوير نظريات الديناميكا الحرارية، التي حققت إسهاماً مثيراً في مجال الفيزياء الحديثة. وأدى التقدم في فهم هذه الظواهر بدوره إلى تحفيز مهندسين من أمثال رودولف ديزل إلى تطوير المحرك داخلي الاحتراق بفضل تصوره النظري عن محرك عالي الانضغاط، وحدثت تطورات مماثلة في فروع أخرى للعلم والتكنولوجيا كان أوضحها في العلاقة بين علم الكهرباء والهندسة الكهربائية، وكذا بين علم الكيمياء وتكنولوجيات الهندسة الكيميائية والصيدلة.

وسبق أن أشرنا إلى الدلالات الضمنية لهذه الرابطة الوثيقة المتزايدة في ضوء الإجراءات التعليمية. إنها إجمالاً زيادة اعتماد التكنولوجيا على النظرية العلمية، وفهم أن هذا أدى إلى زيادة الحاجة إلى تعليم رسمي مؤسسي في هذه المجالات، ولكن لايزال كل من النشاطين محتفظاً بهويته المميزة. ونذكر بوجه خاص أن تطور المعرفة العلمية ينزع إلى التحرك في طفرات أو «نقلات للإطار الفكري»، بينما الخبرة التكنولوجية يغلب عليها الطابع التراكمي في صورة آلية متدرجة ومتشابكة. ولكن ثمة أسباب عملية وجيهة تبرر لنا معالجة كل منهما على حدة.

شجعت الدول الحديثة التعليم الفني وأحاطت برعايتها التكافل بين العلم والتكنولوجيا. وأفاد هذا كثيراً في خلق وتعزيز ظروف الحراك الاجتماعي بحيث أصبح الأفراد واعين بالفرص المتاحة أمامهم لتحسين أوضاعهم، ومدركين أن لكل امرئ دوره الشخصي الموضوعي والمهم، وبذلك رسخت الدول أسس الديموقراطية

الليبرالية. ويصدق الشيء نفسه إلى حد كبير على علاقة الدولة بالعديد من الأنشطة الثقافية العامة مثل الآداب والفنون والدين والرأي العام. وليس من المطلوب ولا الصائب أن تتدخل الدولة على مستوى كبير في هذه المجالات. ولعل الأصوب أن الدولة التي تنزع إلى التسامح ستحقق الكثير في سبيل النهوض بالمزايا والمغانم المحتملة للتطور التكنولوجي، أكثر من دولة تنزع إلى توجيه مسار التحول الثقافي بأسلوب قائم على العدوان أو عدم التسامح، أو بعبارة أخرى إن المحاولات التحكمية من جانب الدولة بفرض رقابة صارمة على الفنون أو إيثار عقيدة دينية على حساب عقائد أخرى، أو صب الرأي العام في قوالب يصوغها الإعلان والدعاية بإمكاناتهما الطاغية، إنما هي محاولات غير صائبة. وليس هذا فقط لأنها ستؤدي إلى تقويض أساس الديموقراطية الليبرالية، بل أيضاً لأنها سوف تستنزف مناهل النشاط الفني التكنولوجي. وحري بنا أن نتذكر أن منابع الإبداع التكنولوجي ذات الثراء والخصوبة إنما تستمد طاقتها من احتياطيات القوة الإبداعية نفسها التي تحفز الجوانب الأخرى للنشاط الثقافي، ومن ثم فإن تقييد أحدهما يعني تقييد الآخر. والعلاقة الوثيقة بين التكنولوجيا والإبداع الثقافي واضحة على جميع المستويات، حقاً إن التكنولوجيا لم يكن لها بروز واضح في الأدب التقليدي في أوروبا وشمال أميركا، ولكن ثمة ألفة متزايدة بين الأدب والتكنولوجيا العالية في صورة الخيال العلمي.

وإذا كنا لانزال ننظر إلى القدر الأكبر من هذا النوع من الأدب باعتباره أدب العامة، فإن بعضه يخلق تياراً من الكتابة الجيدة التي تستحق هذه العلاقة، كما يثير العديد أن نأخذها مأخذاً جاداً باعتبارها شكلاً من أشكال الأدب، ومجالاً للتأمل المهم في جوهر المجتمع التكنولوجي. ولقد استطاعت التكنولوجيا في مجال الفنون البصرية أن تحدث تأثيراً امتد زمناً طويلاً، وذلك في مجال الفن المعماري لمحطات السكك الحديدية وفي الجسور الخرسانية، وأيضاً في حركات فنية مثل الانطباعية وحركة الفن الجديد والتكعيبية. ولكن تأثير الموسيقى أقل وضوحاً، هذا على الرغم من أن الموسيقيين المحدثين يغتنمون الفرص التي هيأتها لهم التقنيات والآلات الجديدة، لتوسيع نطاق عملهم ولتسجيل وعمل توليفات من إبداعاتهم.

وهناك أيضاً ظاهرة موسيقى البوب، فإنها تقدم صورة مضخمة قوية ولكنها متوازنة لجماهير عريضة من المستمعين، وتمثل تعبيراً واضحاً ومميزاً عن هذه

العلاقة، كما تثير العديد من المسائل المهمة عن الضبط الاجتماعي، فإذا كانت مصلحة المجتمع تقتضي ممارسة قدر من الضبط بشأن مواعيد ومواقع احتفالات البوب، فسوف يكون خطأ شنيعاً استخدام هذا الحد الأدنى من السيطرة كوسيلة لتوجيه شكل هذه الأحداث أو جعل السيطرة عليها أمراً مستحيلاً، إن العلاقة غالباً هي علاقة حساسة، ولكن المثل الأعلى كما في أي مكان آخر هو الحد الأدنى من تدخل الدولة، والحد الأقصى من حرية الفرد في التعبير. ويصدق الشيء نفسه على العلاقة بين التكنولوجيا والدين. حقاً إننا للوهلة الأولى لانرى رابطة واضحة بينهما. لقد كان الدين تقليدياً موضوع اهتمام كبير ونشاط مكثف من جانب الدولة التي اعتادت توجيه المواطنين إزاء التزاماتهم في الوقت الذي تحظر فيه أي رؤى بديلة. ولكن جميع دول العالم الغربي تخلت تماماً الآن عن موقف التدخل في الدين حتى وإن وجدنا بعضها يحتفظ بما يشبه الكنيسة القومية. وأثبتت الخبرة المرة أن التسامح هو العلاقة الوحيدة التي يمكن دعمها واستمرارها بأريحية وسعادة بين المعتقدات الدينية التي تبدو في ظاهرها متباينة. وهذا درس له دلالاته بعيدة المدى بالنسبة للإبداعية الثقافية وللديمقراطية الليبرالية وللمجتمع التكنولوجي. علاوة على هذا فإن الدين هو المعني بأهداف وغايات الحياة البشرية، ومن هنا نجد تجاوباً وثيقاً بينه وبين الأوضاع المادية التي هيأتها ووفرتها التكنولوجيا. إن التكنولوجيا يمكنها أن تحقق ثراء مادياً أو دماراً مادياً، وهذا من شأنه أن يفرض مشكلات يتعين على جميع الأديان في عالمنا الحديث أن تنظر إليها نظرة جادة للغاية. ونعود لنقول إن هذا يقتضي بالضرورة بيئة تسودها روح التسامح الاجتماعي. مجال آخر للتحول الثقافي العام هو الرأي العام، وله أهمية كبرى في أي مجتمع ديمقراطي. إنه يمثل مجالاً لتوافق المشاعر بين قطاع بارز ومهيمن في المجتمع ويعني ضمناً قدراً من المشاركة من جانب جميع أبناء المجتمع في عمليات اتخاذ القرار، وليس من الملائم على سبيل المثال الحديث عن رأي عام داخل دولة ديكتاتورية حيث جمهرة الناس لايستشيرهم أحد في أي من أمور السياسة العامة. وليس من الملائم كذلك الحديث عن رأي عام في مجتمع عاطل من وسائل الاتصال التي تصوغ الرأي العام وتعبر عنه. والمعروف أن التكنولوجيا الحديثة حين وفرت وسائل الاتصال السريعة والسهلة من خلال الكلمة المكتوبة والاتصالات اللاسلكية، فإنها أسهمت إسهاماً بارزاً في تطوير

رأي عـــام أصيل داخل المجتمعات الغربية. واستطاعت التكنولوجيا بذلك أن تؤدي دوراً في تعاظم المؤسســات الديمقراطية، ومن ثم في دعم وتعزيز قيام مجتمع صحي بكل ماتعنيــه هذه العبارة. وحــري بنا أخيراً أن نتدبر العلاقة بين التكنولوجيا والدولة فيما يتعلــق بموضوع الحــرب، إذ إن هذا مجال له أهمية قصوى لتماسك، بل لبقاء الدولة، وأسهمت التكنولوجيــا فيه إسهامات مبرزة ومتزايــدة باطراد. لقــد كان هدف الدول دائمــاً منذ قديــم الزمان امتــلاك أسلحة تفوق ماتملكه الــدول المنافسة كماً وكيفاً. وسبــق أن لاحظنا كيف أن المدافع والسفن الشراعيــة مكنتــا الــدول الأوروبية من أن تؤسســ إمبراطوريات بحرية شاسعة ابتداء من القرن السادس عشر. ورأينا أيضاً كيف أن التحسينات التالية في مجال التكنولوجيا هيأت لهذه الإمبراطوريات الأوروبية فرصة للتوسع خــلال القرن التاســع عشر. ولكن سادت بين الدول القومية في أوروبا الحديثة حالة من شبــه التــوازن التكنولوجي نظراً لأن كل دولة ناضلت مــن أجل أن تكون نداً لمنافسيهــا فيما يملكونه من أسلحة، بل أن تتفوق عليهم. وأفضــى هذا إلى خلق حالة دائمة من سباق التسلح حتى وإن خفت حدة المنافســة بين حين وآخر مع نقص مشاعر العداء بين المتنافسين الرئيسيين. وتسارع سبــاق التسلح من ناحية أخــرى مع نشوب حرب، أو بسبــب الخوف من حرب وشيكة، وهنا يجب البحث عن أسلحة أضخم وأفضل حتى وصــل الأمر إلى نسب كبيرة جداً مما أدى إلى استهلاك القدر الأعظم من فائض ثروة المجتمعات المتورطة في الصراع.

ونجد هذه العملية واضحة خلال القرن التاسع عشر ولكنها زادت حدة خلال القرن العشرين بسبب عوامل عــدة. وكان العامل الرئيسي في ذلك هو زيادة العلاقة الوثيقة بين الابتكارات التكنولوجية وأهداف الحرب أو قابلية هذه الابتكارات للتعديل والملاءمة بحيث تفي بأهــداف الحرب. إذ وقتما كان المحــرك البخاري هو القــوة التكنولوجية المهيمنــة لم يكــن واضحاً آنــذاك، وعلى مدى بضعة عقود، كيــف يمكن تعديل هذا المحــرك سريــع العطــب ليكــون صالحاً لاستعمــالات حربية، ويتعيــن في الحقيقة النظر إلــى المحــرك البخــاري باعتباره واحــداً من أهم الابتــكارات نفعاً للإنسان، إذ لم يكن له أكثــر من دور مساعد للقوات البرية. ومن المسلم به أنه أحدث أثراً كبيراً فــي الحــرب البحرية لأنه حــوَّل المعارك التقليدية التي كانت تدور بين سفن شراعية كثيفة التسليح، إلى اشتباكات سهلة الحركة نسبياً بين سفن تعمل بقوة دفع الرفاصات. والمعــروف أن السفن التــي تعمل بدولاب

ذي أرياش «الرفاص» كانت دائماً عرضة للأعطال بحيث لاتستهوي القوات البحرية لاتخاذها سفناً حربية مثالية، ولكن لم يكد الرفاص يصبح هو الشكل الأفضل للدفع البخاري حتى حدث تحول سريع إلى السفن الحربية البخارية.

كذلك مع التحول إلى التشييد بالحديد والصلب، ومع استخدام المدفعية الثقيلة المثبتة في أبراج متحركة تطلق القذائف المتفجرة Shells بدلاً من كرات المدفع التقليدية Cannon ball، بدأ التحول إلى السفينة «المدرعة» . والمدرعة طراز من سفينة مصنوعة من الصلب، وتنطلق بسرعات عالية بوساطة توربينات بخارية ومجهزة بتصفيح ثقيل وقوة نيران رهيبة، واكتملت عملية صنع المدرعة قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومع اندلاع هذه الحرب كانت القوات البحرية الأوروبية الرائدة في حالة توازن قلق، ومن ثم كان كل طرف حريصاً على كشف أوراقه، ولهذا لم تقم القوات البحرية إلا بدور صغير في العمليات القتالية، ولكنها برزت وأكدت أهميتها فقط في حرب الغواصات، وذلك بفضل المحرك داخلي الاحتراق، والكهرباء اللذين زودا الغواصات بالقوة الحركية.

بيد أن أهم إسهامات التكنولوجيا في حرب القرن التاسع عشر لم تكن في مجال المحركات الأساسية، بقدر ماكانت في مجال العمليات الكيميائية خاصة استحداث وتطوير المتفجرات الشديدة، إذ كان بالإمكان صناعتها في أشكال مناسبة للخراطيش مما شجع على تطوير البندقية التكرارية والمدفع الآلي وكذلك القذائف التي تطلقها مدافع كبيرة جداً. ويمكن استخدام هذه المدافع في المعارك البحرية والبرية. ونجد أثر ذلك واضحاً في عمليات القصف الكاسحة التي تسبق أي تقدم محتمل لحرب الخنادق التي سحقت إقليم الفلاندرز في شمال أوروبا فيما بين العامين ١٩١٤ و ١٩١٨م. وأصبح إنتاج هذه المتفجرات من أجل الاشتباكات العسكرية صناعة مهمة في جميع بلدان أوروبا مما يبرر وصف الحرب العالمية الأولى بأنها «حرب الكيميائيين». وطبيعي أنها كانت أكثر من ذلك، ولكن الاعتماد الكبير على الإنتاج الكيميائي كان على وجه اليقين أحد المحاور التكنولوجية لهذا النزاع. ونجد الابتكارات المهمة الأخرى في الحرب العالمية الأولى مستمدة من المحرك داخلي الاحتراق، وأولها الدبابة، وهي مركبة ثقيلة مسلحة ومجهزة بحصيرتين (مجنزرتين) يمكنانها من اختراق الأراضي الوعرة، ثم الطائرة التي ظهرت، كما رأينا، في الوقت المناسب لملاءمتها للأعمال العسكرية، وسرعان

ماهيأت مسرحاً جديداً للعمليات القتالية هو مسرح الحرب الجوية. واستخدمت الطائرات الأكبر حجماً طائرات قاذفة على الرغم من أن حمولتها من القنابل كانت قليلة، وكفاءتها الهجومية الجوية محدودة جداً. وكان الدور الأكثر فعالية وكفاءة للطائرة هو الاستطلاع، والعمل كوسيلة لتوريط تشكيلات العدو في معارك بين الطائرات المقاتلة.

وعملت في هذه الأثناء أيضاً في الخطوط الخلفية الشاحنات والسيارات، وأسهمت إسهامات مفيدة في الحرب، إذ كانت عاملاً مكملاً للسكك الحديدية في توفير ونقل الإمدادات والتموين والتعزيزات العسكرية علاوة على خدمات الإسعاف. وهكذا كانت الحرب حافزاً قوياً حث على إنتاج هذه الماكينات الجديدة، ومن ثم ساعدت على خلق صناعات كبرى لتحل محل وحدات الإنتاج الأساسية الصغيرة والمتجزئة التي كانت النمط العادي في السابق.

وإذا كان تشخيص الحرب العالمية الأولى بأنها حرب «الكيميائيين» تشخيصاً مقبولاً، فإن الحرب العالمية الثانية يمكن اعتبارها حرب «الفيزيائيين». إذ بينما هيمن على تكنولوجيا النزاع الأول إنتاج المتفجرات الشديدة فإن مسار الحرب العالمية الثانية حدده الرادار، وهو تقنية مسح إلكتروني حققت ميزة حيوية للسلاح الجوي الملكي في معركة بريطانيا. وأسهمت في تحديد مسار الحرب أيضاً ماكينات التشفير المعقدة، وحل الشيفرات مما هيأ للمخابرات دوراً حيوياً، ومهد السبيل للحاسب أو الكومبيوتر الإلكتروني. وأخيراً تحقق الانتصار والفوز بالحرب على ساحة الشرق الأقصى بفضل نجاح علماء الفيزياء في تطوير قنبلة ذرية خاضت المعركة الفاصلة لمصلحة الحلفاء.

وهذه الابتكارات امتداد وتطوير لنظريات فيزيائية معقدة لم تكن بصعوبة معروفة قبل الحرب. وكان تحويلها إلى عتاد هندسي للاستخدام في محطات الرادار والطائرات يستلزم تخصيص موارد هائلة من رأس المال والقوة العاملة البشرية الماهرة، وأياً كانت حدود هيمنة هذه الابتكارات فقد كانت جزءاً من التطور التكنولوجي السريع الذي أنضجته الحرب، إذ نجد من بين هذه التطورات الأخرى المحرك النفاث والطائرة الهليكوبتر وأسلحة الانتقام ف ١ وف ٢. ونخص بالذكر هذا السلاح الانتقامي الأخير وهو القنبلة الصاروخية التي كانت نذيراً بتطبيق تقنية ثورية جديدة، من شأنها أن تفتح حدود الفضاء خلال العقود التالية للحرب. أضف إلى هذا تسارع إنتاج المضادات الحيوية مثل البنسلين وتطوير

المبيدات الحشرية مثل الـ «دي، تي» من بين سلسلة من التقنيات الجديدة الأخرى. وفي ضوء كل ماسبق يمكن اعتبار الحرب العالمية الثانية حرباً غنية جداً بالابتكارية التكنولوجية. وثمة سبب مهم لثورة الابتكار التكنولوجي في الحرب العالمية الثانية هو أن الدول المتحاربة بذلت جهداً نشطاً في سبيل النهوض بما يعرف باسم «البحوث والتطوير» R & D. ذلك أن الحرب، ولأول مرة جعلت من الابتكار مسألة ملحة بالنسبة للدولة واستطاعت الأمم، نتيجة هذا الشرط التكنولوجي، أن تتبارى في سبيل الابتكار أو الهلاك، واستشعر الحلفاء قلقاً من أن هتلر ربما كان عاكفاً على إنتاج قنبلة ذرية، وكان هذا القلق حافزاً قوياً للعمل، ومبرراً لرصد نفقات هائلة لإنجاز مشروع مانهاتن الذي اعتمد عليه الحلفاء لإنجاز مشروعهم للتطوير الذري. ولم يكن ثمة مبرر لهذا الالتزام الشديد من جانب المستويات العليا بعد ذلك لولا الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق، التي أرغمت القوتين العظميين على مواصلة استثماراتهما الضخمة من الموارد في مجال البحث والتطوير في مجال الأسلحة المعقدة. وهكذا تحدد الدرس الذي تعلمناه من الحرب الحديثة وهو أن لامنجاة لأمة تهمل التكنولوجيا بعد ذلك، وأنه ما دامت المنافسة مستمرة على أعلى المستويات بين الأمم فسوف يظل لزاما عليها رصد الموارد الضخمة لتطوير الأسلحة، على الرغم من كل مايحمله هذا من آثار اقتصادية وسياسية شديدة الوطأة على المجتمع كله.

المراجع:

١ - التكنولوجيا الملائمة والتنمية/ مراجعة وتقديم: نجيب صعب. بيروت: مركز الشرق الأوسط للتكنولوجيا الملائمة ١٩٩٤م.
٢ - في مملكة العلم والتكنولوجيا/ تأليف الشافعي منصور، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٣ - آفاق الاتصال ومنافذه في العلوم والتكنولوجيا/ تأليف جاك ميدوز، وترجمة حشمت محمد علي قاسم، القاهرة ١٩٧٩م.
٤ - العلم والتقانة: التكنولوجيا/ خير شواهين، إربد (الأردن: عالم الكتب الحديث) ٢٠٠٩م.
٥ - تاريخ التكنولوجيا/ تأليف ايفون لارسن، ترجمة مصطفى ماهر. القاهرة، ١٩٧٧م.

تداعيات إلى العصر الحجري الأول

(نص شعري)

ساجدة الموسوي*

كان الإنسانُ
يقتلُ حيواناً كي يأكلْ
صار الإنسانُ
يقتلُ إنساناً كي يأكلْ

* * *

كان الإنسانُ بلغةٍ يُفهم
صار اليومَ بكل لغات العالمِ لا يُفهم

* * *

كان الإنسانُ بلا بيتٍ ،فالعالمُ بيته
صارَ له بيتٌ
فسعى لخراب بيوت الناس

* أديبة وشاعرة عراقية.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كان الشغلُ الشاغل للإنسان
أن يحمي بيته
من غضب الحيوانْ
صار الآنْ
يخشى من فتكِ أخيه الإنسان

❁ ❁ ❁

كان الإنسانُ بجلدة ماعز يستر جسمه
كان حيياً مستوراً مسرور
واليوم بأنفس أثوابهْ
يمشي والعينُ عليه تدور
يتساءل والخوفُ يلاحقهُ: أأنا عارٍ أم مستور؟

❁ ❁ ❁

كان الإنسانُ حكيماً يتفادى الأخطار
يخشى البحر ويخشى النار
يخشى الدم والدمع المهدور
لا يحسد.. لا يحقد.. لا شأن لهُ غير الأسرةِ والكهفِ
وصيد الريمِ وجمع الأحجار
صار اليومَ يعدُّ جيوشاً و يدمِّرُ أوطاناً
يحرقُ يقتلُ لا يخشى
الأخطار

❁ ❁ ❁

كان اللهُ بقلب الإنسان
والقلب اليومَ يعشعشُ فيه الشيطان

❁ ❁ ❁

آه .. لو نرجع ثانيةً للعصر الحجري الأول
كي ندرك معنى الإنسان

القصيدة المقبلة

عصام ترشحاني ❁

هِيَ الآنَ تخطفُ

زهرة روحي

وشعرية اللون والضوء والمفردة..

هي الآن..

تبلغُ جوزاء قلبي..وترحلُ..

أراني أيمِّمُ

❁ ❁ ❁

في خَفَقان الغياب

وفي صورتي كالعذاب

فأدخُلُ في تيهِ أحوالها

قارئاً.. أعذب أوقاتنا

❁ أديب وشاعر فلسطيني.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

في التماع السراب...
فكم هَزّ أكتافها
قمرٌ.. طاعنٌ بالشّذا..
هَزّها بأنامل كادت
تُجرِّح من شهوة الشوقِ
جسم الكمان..
وكم حافياً..
بالصهيل أتاها
ليدهش وحشية النوم
بالزعفران العليِّ وجمر الغضى..
مثيرٌ.. هو اللمسُ..
في عزلة الريحِ
كالانخطاف الذي في رجيف الرحيق
لهُ.. صَبَواتُ الغصونِ
التي كُلّما حَكَّ أجفانها
أُصبع الطلعِ
هَبَّ وَهِيجُ الجنون
مثيرٌ... هو الهمسُ في هالَتَيْهِ
ويشبهُ ماء الجُمانِ،
وهسهسةَ الأرجوان..
فيا امرأةً ..

في العصيِّ من الوقتِ
أو.. في أقاصي الدخان ..
لماذا ..
على طرفٍ غامضٍ،
لا يُسمّى من الأرضِ،
تركْتِ غمامتنا الشاهدة؟
لماذا ..
ونحن بعافية الشمسِ
كُنّا نحبُّ،
وكنّا نُغنّي
تُريقين زَهْوَ البلاد بنا
ثمّ تمضين.. تمضينَ
للّحظة الجاحدة..!؟
أنا الآنَ يا...
غابةً في كتاب اليبابِ،
أنا الآنَ جذعُ فؤادٍ،
تهاوى.. وغابْ...
فهل توقفين الهباءَ قليلاً..
وهل تسحبين عن الظِّل..
بعض ظلام السماء...؟
سأخرج بعد دموعي الأخيرةِ..

بعد طيور البياض التي
كلمتني.. لكي أمسكَ
الأرض من لهجة الخصبِ،
والحلمَ من
متعة السنبلة..

ثمّ أُلقي..
على الذاهبينَ،
مع الريح والشمسِ،
أُلقي.. قصيدتنا المقبلة...

اللعب في المقهى القديم

سامر أنور الشمالي ❁

(١)

- من يلعب النرد؟

سؤال ألقاه أحد أقدم روَّاد المقهى القديم، فمنذ تسلمه لأوَّل راتب اعتاد على قضاء مساء كل يوم في المقهى ذاته كي يهرب من شكوى زوجه، ومشاكل أولاده التي لاتنتهي، والأهم من ذلك كله لكي يجتمع بالأصحاب الذين أدمنوا مثله الجلوس لساعات طويلة في المكان ذاته، وإن كان لكل منهم سببه الخاص.

- من يلعب النرد؟

❁ أديب وناقد.

أعـاد السؤال الـذي لم يحـظَ بإجابة جادة وهو يتثاءب ويرمي حجري النرد على الطاولة ليعـود ويلتقطهما مـن جديد، ثم خاطب الرجل الجالس بمحاذاته:

- لم أرك تلعب النرد يوماً يا أستاذ!.

ابتسـم الأستاذ من دون أن يحول بصره عـن الصحيفة التـي يقرأ فيهـا، وغمغم قائلاً:

- لدي ما يشغلني.

- الأستـاذ ماهـر في لعـب الشطرنج فقط، إنها لعبة المثقفين يا جاهل.

قال مازحاً رجل يرتدي بذلة سوداء وهو ينظر إلـى الموظف الذي بادله غمزاً خفيّاً قبل أن ينطق:

- المثقفـون لا يجيـدون اللعـب، إنهم ماهرون في الثرثرة فقط.

- وأنت؟

سـأل النـادل وهو يوزع كؤوس الشاي الساخن على طاولة خشبية تآكلت حوافها.

- في الثرثرة أيضاً.

أطلقوا قهقهاتهم عالياً في فضاء المكان المثقـل برائحة التبغ والتنبـاك والضجيج وحطام الأمنيات، فقد كانـوا متلهفين إلى شيء مـن المرح فـي مساء هطـل سواده الدامس في الأزقة الخاليـة المبللة ببقايا مطر شحيح.

- لقد مللنا من اللعب!.

قال صاحب البذلة السوداء وهو يساوي من وضـع ربطة عنقه بحكم عـادة قديمة اكتسبها بعـد ارتداء أول ربطـة عنق. ولم يقصـد إغاظة صاحب المقهى الذي تململ علـى مقعد كبير منجد بأقمشة فاخرة بهت لونها منذ زمن بعيد، قبل أن يصيح مدافعاً عـن هجوم طـال مقهـاه وإن بطريقة غير مباشرة:

- العيب في اللاعب يا عزيزي، فالناس يلعبون منذ آلاف السنين ولم يشكُ أحد من اللعب يوماً ما.

- يجـب ألا يهـدر الإنسـان حياته في اللهـو، وحبذا أن يملأها بشيء مفيد يخدم الناس.

قال الشيخ بجديته المعهودة وهو يصلح من وضـع عمامته البيضـاء النظيفة على رأسه الكبير الخالي من الشعر.

كتم صاحب المقهـى غيظه وهو يرمق الشيخ بعينيه الضيقتين اللتين لا تكفان عن مراقبة روّاد مقهـاه. بينما انبرى الموظف للرد:

- ماذا نستطيع نحن أن نصنع؟

اكتفـوا بالابتسام وهـم يرمقون الشيخ باحترام وترقب، وبادلهـم الشيخ النظرات بعينيـن صافيتين لا يعكرهما أي أمر طارئ مهما كان صاعقاً، وقال بثقة لا تتزعزع:

- أتحدث مع عباد الله، وأستمع إلى مشاكلهم، علنا نسعى معاً إلى ما يرضي العبد والمعبود.

أجوبة الشيخ التي لا تخلو من بلاغة لطيفة تجعل المتحلقين حوله يتأملون في أطوار الحياة المستعصية على الفهم لدقائق قصيرة، فسرعان ما تزول حالات الزهد المؤقتة ويجرفها ضجيج الحياة الذي لا يتوقف جريانه حتى في مقهى تنخفض درجاته عن مستوى الشارع الضيق في حي صغير نشأ مصادفة على أطراف مدينة عظيمة تتكاثر فيها الأضداد.

- من منكم يعرف لعبة نجهلها يعلمها لنا؟.. ألا توجد ألعاب جديدة حقاً على هذه الأرض الشاسعة؟!.

على الرغم من ضعف صوت الدكتور أنصت الجميع إليه باهتمام، فروَّاد المقهى يحترمونه ويبجلونه، وكثير منهم يعتقد أن من حقه ممارسة شيء من الصلف والغرور عليهم لمكانته الاجتماعية التي لا يمكن تجاهلها بسهولة.

- كل الألعاب استنفدت منذ زمن بعيد.

قال ماسح الأحذية الذي يختم يوم عمله بساعات يقضيها بين أحذية روَّاد المقهى الذين يدفعون إليه ببعض النقود، وكؤوس الشاي، وفناجين القهوة، نظير عمله المتقن، وتعاطفاً مع وضعه المالي الرديء.

- ما أدراك أنت؟! دونك الأحذية.

قال الدكتور مستنكراً وهو ينظر إلى أسفل حيث ابتسم ماسح الأحذية من دون حرج، وتابع عمله باهتمامه المعهود. ثم قال بفخر لم تقلل منه ثيابه الملوثة ببقايا (البويا) السوداء الداكنة:

- منذ طفولتي وأنا أقضي يومي كله متنقلاً بين المقاهي. أعرف كل الألعاب، ولا يوجد لعبة لا أجيدها.

- إذا كنت ماهراً في النرد فاجلس قبالتي، فإذا غلبتني أدفع ثمن ما تشربه، وإذا غلبتك تدفع أنت.

قال الموظف ما بين الهزل والجد، فالتفت إليه ماسح الأحذية، وقال وهو يرفع فرشاته السوداء ذات الرائحة المميزة، فأرجع الدكتور رأسه باشمئزاز وهو يطوح بيده السمينة أمام أنفه الضخم:

- أنا أراقب فقط.

وأردف وهو ينهض بعدما قام بواجبه تجاه حذاء الزبون الذي وضع أجرته على الطاولة:

-أتعرف كم حذاء يجب عليَّ مسحه لأحصل على خبز يكفي أولادي وأمهم؟

-ليعنك الله في دار البلاء.

قال الشيخ وهو يبتسم بود إلى ماسح الأحذية الذي وضع يده على صدره بامتنان، قبل أن يبادر الأستاذ وهو ينحي الجريدة

جانياً بالكلام:

– الدعـــاء وحده لا يكفي.. يجب تقديم مساعدة حقيقية.

– المؤمنون إخوة في السراء والضراء.

قـــال الشيـــخ وهـــو يشيح بصـــره عمَّا حوله، فوقع بصره على كوة انكسر زجاجها فسمحـــت لدخـــان السجائـــر والنرجيلـــة بالهـــروب منها إلـــى الفضـــاء اللامحدود في الخـــارج حيث السكينـــة تشمل المنازل الصغيرة المتجاورة.

– هل من المعقول أن تتواصل الاختراعات في كل المجالات باستثناء الألعاب؟

أعـــاد الدكتور طرح أفـــكاره ذاتها، وإن بأساليـــب عدة، فلـــم يشأ ألا تكـــون أفكاره محور اهتمام الجميع من وقت لآخر.

–لو كانت الألعاب تُخترع لاخترعنا منها الكثير في السجن.

قال رجل متوسط العمر وهو يبتسم عن بقايا أسنـــان محطمة، فضحك الجميع، إلا الدكتـــور الذي قال بلهجة لا تخلو من عداء مبطن:

– الألعاب بحاجة إلى إعمال الفكر، وليس إلى وقت ضائع.

– لـــم نكـــن نعبث، وقـــد دفعنـــا الثمن باهظاً.

قال صاحب الأسنـــان المحطمة بحدة، فتجاهله الجميع مـــن دون اتفاق مسبق كي لا تنقلب جلستهم التـــي يريدون منها اللهو والســـرور إلى جد يرهق الأعصاب والفكر. وعادوا إلى الحديث عن الألعاب التي كانوا يمارسونهـــا في طفولتهـــم، وشاب أصواتهم الخشنـــة حنيـــن لا يمكن الفـــرار منه على الرغم من تعاقب السنوات الطويلة. وبعدما هدأ حماســـ الذكريات المتبقية قال الشيخ بصوته العذب:

– لم يخلـــق الله الإنسان في الأرض إلا لحكمة سامية.

تردد أكثر من صوت مؤكداً قول الشيخ، ولم يكن أصحاب الأصوات يدركون المرمى البعيد للرأي الذي سمعوه. ولم يشأ الدكتور أن يطغى حضور الشيخ على حضوره، فعاد إلى طرح فكرته بدأب:

– يجب الانتبـــاه إلـــى أن الألعاب التي نمارسها اليوم كانت في زمنها مجرد أفكار لرجال عظماء.

– قول صائب لا يخلو من حكمة.

– أجل.

– كيف تمَّ اختراعها في زمنها؟!.

– لنحـــاول الإجابة على هـــذا السؤال، فقد نخرج بنتيجة لم نكن نتوقعها من قبل.

قـــال الأستـــاذ بجديته المعهـــودة لدى مناقشـــة أي موضوع، ثم أشعـــل لفافة تبغ، وأخـــذ ينصـــت باهتمـــام إلى أجوبـــة روَّاد المقهى على اختلاف الآراء والأمزجة.

- اللعب متعة بذاتها.
- كي ينسى الإنسان همومه ومشاكله.
- طلباً للهو والتسلية.
- من يا ترى لديه القدرة على اختراع لعبة جميلة نلعب فيها جميعاً.

قال شاب بصوت لا يخلو من الاستعراض، من دون أن يحول بصره عن شاشة كمبيوتره المحمول الذي يأخذه معه أينما حل.

- كيف يكون ذلك؟
- ليس هذا بالأمر السهل.
-الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير.

(٢)

- لنجرِ انتخابات ونرَ من سيفوز؟

تدخل الرجل الجالس في الزاوية للمرة الأولى في النقاش الدائر بعدما وضع على الطاولة المذياع الصغير الذي كان يلصقه بأذنه.

التفت الجميع دفعة واحدة إلى المتحدث الأخير، وكأنهم فطنوا لجلوسه بينهم، وتبادلوا النظرات بدهشة بدت في أسئلة ملحة تنتظر إجابات شافية:

- ما علاقتنا نحن بالانتخابات؟
- من سيفوز يا ترى؟
- بل ماذا سيكسب الفائز؟.. وماذا سيصنع؟
- لا تحشرونا في السياسية. أريد أن أنام في منزلي هذه الليلة.

قال الموظف، فابتسم صاحب المذياع وهو ينظر إلى الجميع من مكانه المتطرف في أقصى المقهى، وقال وهو يشير بيديه بحركات سريعة لا معنى لها:

- إنَّها مجرد لعبة.. المرشح يلعب والناخبون يلعبون أيضاً.. ولدى معرفة النتيجة تنتهي اللعبة.
- أمر معقول لا ضير منه.
- قد تروقنا اللعبة فنزاولها كل يوم.
- لنجرب.
- لن نخسر شيئاً.

حرك صاحب المقهى جسده المترهل بصعوبة، وقال برويه وهو ينقل بصره من شخص لآخر، وكأنَّ الجميع ينتظرون إقراراً منه بالموافقة ليبدؤوا لعبتهم الجديدة:

- لا مانع لدي من إدخال هذه اللعبة إلى المقهى.

ما كادت تتصاعد بعض الصيحات المؤيدة لكلام صاحب المقهى حتى قال الدكتور وهو ينظر حوله باحثاً عن منافس قوي له فلم يجد من يعادله:

- يجب أن يكون المرشح لائقاً بالمنصب.
- طبعاً.
- يجب أن تتوافر فيه المؤهلات المطلوبة.

أكد الأستاذ وقد أحس بأهمية الموضوع المطروح، وأن الأمر لم يعد مجرد لعبة عابرة.

ودب الحماس في صاحب الأسنان المحطمة، وخرج عن حذره المفرط ليسأل بأعلى صوته:

– من سينتخب؟

– لا بد من شروط ما؟

– ما هذه الأسئلة الغريبة؟!.. كلنا سننتخب.

قال الشاب صاحب الكمبيوتر المحمول، وهو يلتفت حوله باحثاً عن مؤيدين، فقال الجالس بمحاذاته وهو يعتدل في جلسته:

– أنا لم أشارك في أي انتخاب من قبل.

– وأنا أيضاً.

قال صاحب الأسنان المحطمة، ثم سرعان ما سحب ابتسامته وأخذ ينظر حوله بحذر.

– من سيرشح نفسه؟.. من يقول أنا؟.

قال صاحب المقهى بأعلى صوته المبحوح من كثرة الصياح طوال اليوم، وقد برقت عيناه الضيقتان بشهوة جديدة.

– أنا.

قال بائع ورق اليانصيب الذي دخل للتو المكان من دون أن يعرف حقيقة الأمر، وبدأ كعادته يطوف بين روَّاد المقهى ليبيعهم أوراقاً جديدة، ويمزق أوراقهم الخاسرة.

– يبدو أن اللعبة لا تسير كما يجب.

قال الدكتور باستياء وهو يطلب فنجاناً من القهوة، ولم يأبه له أحد هذه المرة، فقد كان الجميع مشغولين بمناقشة لعبة الانتخابات.

– يجب وضع هيئة استشارية لوضع قانون للانتخاب، وقانون للمرشحين أيضاً. وقانون لـ..

كان الموظف يتحدث بلهجة العارف عندما قاطعه الشاب صاحب الكمبيوتر المحمول بنبرة جادة لا تخلو من الحدة:

– يكفي هيئات واستشارات، لا نريد سوى صندوق للاقتراع، وكلنا سنشارك من دون أي استثناء.

– هذه فوضى.

لم يهتم أحد لاعتراض الموظف، وأيد الجميع الشاب، فلم تكن لديهم رغبة في خوض نقاشات لا طائل منها، وسرعان ما أحضر النادل صندوقاً خشبياً عليه رسوم لأسماك صغيرة مرصوصة في علب من الصفيح. وأخرج أحد الشبان من حقيبته دفتراً قص منه أوراقاً ملونة عليها رسوم لقلوب حمراء غُرِسَتْ فيها أسهم ذهبية ووزعها على روَّاد المقهى الذين تلقفوها وهم يطلقون بعض التعليقات الطريفة، عدا الشيخ الذي رفض المشاركة واكتفى بالصمت.

ثم جلس الدكتور علـى المقعد الطويل بجانـب صاحب المقهى حيث اتفق الجميع علـى جلوس المرشحيـن، وعلى الرغم من ذلـك ظل بائع اليانصيب واقفاً لأنَّ صاحب المقهى لم يفسح لـه المجال للجلوس على الرغـم من أنـه المرشح الثالـث. بل صاح بوجهه:

- أتقف ضدي وضد الدكتور، لن أدعك تدخل القهوة بعد اليوم.

شعر بائع اليانصيـب بخطورة ما أقدم عليه، فقال بخيبة وهو ينزل عن المصطبة المرتفعة التي عليها مقعد صاحب المقهى وطاولته.

- لم أقصد الإساءة إلى أحد، ظننت أنَّ الأمر مجرد لعبة لا غير.

- إذا انسحبـتَ فسـوف أرشـح نفسي والرزق على الله.

قال ماسـح الأحذية بحماسـ، ونهض واقفاً، فانتبه الحضـور إلى قامته الطويلة للمـرة الأولى، ونظر إليه صاحب الكمبيوتر بإعجاب قائلاً:

- إنَّها لعبة جماعية، وهذه أهم حسناتها، لهذا تستطيع ترشيح نفسك أنتَ أيضاً.

- لا.. أنـا منسحب لصالح زميلي الذي أرجو ألا يتراجع عن موقفه.

اكتفى بائع اليانصيب بهز رأسه بامتنان، فلم يقو على الكلام لأنَّ الدموع كادت تطفر من عينيه، فأردف ماسح الأحذية وهو يربت على كتف بائع اليانصيب:

- أتمنـى لك حظاً جيداً على الرغم من أنك لم تبعنا سوى الأوراق الخاسرة.

ضحـك روَّاد المقهى، وتبادلوا الكلمات الضائعة بين المحبـة العميقة، والسخرية الطريفة، بينما تجهم وجه الدكتور، وهمس لصاحـب المقهـى الذي كان يرمـي نقوداً معدنية في جرار طاولته.

- الأمر لا يبشر بخير.

- هذا ما كنتُ أخشاه.

- الاقتراع غير عادل، لقد تساوى صوت الحكماء مع الدهماء.

- يبدو أنكَ لا تؤمن بالديمقراطية.

تدخل في الحـوار الهامس النادل الذي كان يستـرق السمع وهو يضـع فنجاناً من القهـوة أمام الدكتور الذي عـراه الارتباك فلم ينبس بكلمة. بينما قال صاحب المقهى بصوت خافت:

- منذ متى بدأت تفهـم بالديمقراطية يا حمار؟!.

لـم يأبه روَّاد المقهى للهمسات المبادلة قرب طاولة صاحـب المقهى الكبيرة، فقد انشغلوا بالتصويت، وشعـروا بألفة المكان وبهجتـه بطريقـة لم يحسوا بهـا من قبل، وهذا ما عزز من أهمية العمل الذي يقومون به، وكأنه واجب مقدس يجب عدم التفريط بطقوسه مهما كانت النتائج.

(٣)

- مرشحكم الذي حصد أعلى عدد من الأصوات..

صاح الأستاذ بأعلى صوته وهو يلتفت حوله بترقب، فحدق الجميع صوبه باهتمام، فأردف باسماً:

- الفائز بالانتخابات هو بائع اليانصيب.

رفع الفائز يديه وقد دمعت عيناه فرحاً، وبدأ يتلقى التهاني من الذين شرعوا يهتفون باسمه، وهذا ما شجع ماسح الأحذية على حمله على كتفيه والدوران به بين الطاولات وسط التصفيق، قبل أن يوقفه على إحدى الطاولات التي تحلق حولها أكثر روَّاد المقهى وقد بدؤوا ينشدون أغان قديمة حفظوها في طفولتهم. وظل الشيخ مكانه يهز رأسه بأسف، بينما استعد الدكتور للمغادرة وقد اربد وجهه، فودّع صاحب المقهى الذي حاول استبقاءه لبعض الوقت.

❁ ❁ ❁

ضُرِبَ بقوة باب المقهى على حين غرة، واندفع ثلاثة رجال ملثمين، سدوا الباب، وأشهروا أسلحتهم.

- انزل..

صرخ أحد المسلحين بوجه الواقف على الطاولة، فلم يقوَ على التحرك من شدة ارتباكه إلا بعدما مدَّ النادل إليه يده لمساعدته، وسيطرت ملامح الذعر على وجوه رواد المقهى الذين تجمدت عيونهم في محاجرها.

وسرعان ما خرج المسلحون، وقد اقتادوا بائع اليانصيب.

من دون اتفاق مسبق شرع روَّاد المقهى ينسحبون تباعاً، وكل منهم يتساءل في نفسه عمن استغل فرصة الهرج والمرج وأوشى بهم إلى المسلحين الذين لا يعرفون شيئاً عنهم.

❁ ❁ ❁

كأن صاحب المقهى اكتشف مصادفة أن جدران قهوته التي خلت باكراً- على غير العادة- قد علتها الشقوق المتصالبة حتى رسمت عليها خريطة كبيرة غير مفهومة، ولكنها تنذر بالتقوض والسقوط من ثقل الصور القديمة المعلقة لوالده الذي ورث عنه جسده الضخم، وعمه ذي الشارب الكبير، وجده الذي بَهتت ملامحه وغابت.

وظلَّ النادل واقفاً مكانه.. وقد مزقته الحيرة، وشتته الاضطراب، فلم يعرف إذا كان يجب عليه خلع ثوب العمل ومغادرة المقهى ليلتحق بالراحلين، أو انتظار أوبتهم ليعود كل شيء إلى سابق عهده.

صديقي المُشَوّه

محمد فطومي ❁

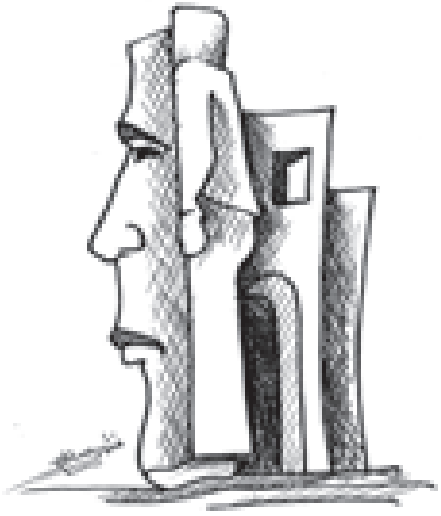

منذ قليل غـادر لؤيّ. شاب رأسُـه لكنّه لـم يتغيّـر كثيراً. مـازال يحرص علـى أن يُفطر في الصّبـاح أصابع البسكويت المنزلـيّ مُغمسـاً فـي قهـوة الحليـب، ويفضّـل الوقـوف طويلاً أمـام واجهات المحلاّت حيثُ تُعرَضُـ البدل التي تُقفل فتحاتها الخلفيّة بسحّاب عوضاً عن الأزرار. عندما أُصاب بنوبة فقدان جدوى الاهتمام بالأشياء،

❁ أديب وقاص من تونس.

العمل الفني: الفنان فتحي صالح.

أسعى للقائه والاستماع إلى قصصه اليوميّة التـــي لا تنتهي والتي لم أشـــكّ يوماً في أنّه كان سيُفضّل روايتها على

اثنيـــن لا يعرفهمـــا لـــو خيّـــروه بينهما وبينـــي. فقط لأنّهما أكثـــر منّي عدداً. كان ثمـــلا إلى درجة أنّي لـــم أُفلح في الردّ على كلامـــه بقول يتّفق مـــع كـــمّ الأمزجة التي تلبّستـــه. إنّها المرّة الأولـــى التي أبوح فيها بأنّنـــا ظللنا طوال حياتنـــا نبحث عن مُسوّغ ليقتل أحدنـــا الآخر فلم نجد غير أن يتعلّق أحدنـــا بالآخر كأمّ. ظـــلّ طوال فترة مكوثه عنـــدي يـــردّد علـــى مسامعي بيـــن الفينة والأخرى، كلازمة أغنية، بأنّه أقوى رجل في العالـــم. في فترات هدوئـــه كان يطرح عليّ أسئلة أقرب إلى الامتحان من قبيل: «لم قد ينجو مصباح زجاجـــيّ منصوب في العراء بعد ساعـــات من الاقتتـــال».. أجملها كان: «هل تعلم لِم يجبُ أن نحبَّ الثّلج؟ أمر وحيد ينبغـــي أن نحبَّ الثّلج من أجله يا صديقي.. هل تعلم ما هو؟». أجبتُه: «طبعاً.. أقصد.. ربّما لأنّه أبيض..».

قـــال: «أحمق.. أترى.. قلـــتُ أحمق كي لا أقـــول مُخطئ... لأنّ الخطأ... هذا ليس موضوعنا... أليس كذلـــك؟ الثّلج.. الثّلج.. كـــم هو نبيـــل ذاك المخلوق.. أتـــرى.. إنّه لايعوي ولا يقـــرع النّوافذ والأسطح والعلب وكلّ الخرافات الأخـــرى.. بل ينزل صامتا، تمامـــا كما يمشي القـــطّ.. من دون ضجيج يأتـــي ليُغيّر شكل الدّنيا لبعض الوقت ثمّ يمضـــي صامتا أيضـــاً... الثّلج رجل جميل بمعنى الكلمة يارجل..».

لم أُفلت حرفا واحدا ممّا قاله. ولافاصلة ولا نفســـا. هـــا إنّ أنفاســـه الحـــارّة بدأت تتلاشـــى وها إنّ وخزات الرّطوبة في البيت بـــدأت تعود تدريجيّا وأخـــذ انصهار رائحة المفروشـــات وخشـــب الأثاث مـــع الرّائحة النفّـــاذة للمقاعد الجلديّـــة يُحفّز ذاكرتي. إنّـــه حقّا لأمر يدعو إلى السُّخرية أن أنتظر لحظة خروج لؤيّ بفارغ الصّبر لأشي به إلى دفتر. شعرتُ في الإبّـــان وأنا أمسك بالقلم بأنّي أتصرّف كطفل يكتب كما لو أنّه يراسل نفســـه المُقيمة في زمن لاحق.. على الرغم من يقينـــي بأنّه لن يأتي البتّـــة اليومُ الذي سيتحوّل فيه أمـــر كهذا إلى دافع يُسعدني. أعرف جيّداً ما لا يمكن أن يكون.

قبل أن يُطبق الباب أطلّ برأسه وقال:

«قلتَ عنّي يوما بأنّي عنصريّ.. أتذكر؟.. أنـــا أذكر على أيّة حال.. كنّا صغاراً، لكن لمَ لم تُبدّدها عندما صرنا كباراً..؟ لعلمك هي تتجوّل الآن في الغلاف الجويّ لمعطفي..» ضحـــك عالياً ثمّ أغلق البـــاب بلطف مبالغ فيه ما جعله يلامســـ الإطار مرّتين.. فجّر

القصّة في رأسي واختفى.. كم أشتهي أن أقتله مرّة..نعم كنّا صغاراً. بل لعلّ أغرب ما في القصّة أنّنا كنّا صغاراً.

كنتُ في الصفّ الرّابع أو الخامس لمّا وفد على حيّنا الجيران الجدد. كان لديهم أغراض كثيرة. وهم يكدّسون بعضها في ردهة المنزل ويمرّون بالبعض الآخر إلى الداخل أمكنني أن ألحظ كمّ الألعاب المهول لديهم. يُفترض في تلك الدّقائق أنّي ردّدتُ في نفسي: «لن أسأم أبداً لو كانت تلك الألعاب لي». ثمّ سرعان ما استقرّ الجيران الجدد وصمت منزلهم مثل منازلنا. رُويدا نشأت بيني وبين ابنهم صداقة وثيقة على الرغم من أنّي كنت أكبره بسنتين، لا أدري إن كان السّبب هو فضول لا يُقاوم بشأن عاهته التي لا يُشهدك القدر عليها كلّ يوم، أم أنّها ببساطة طريقة طفوليّة لأصرف نفسي عن السّخرية من هيئته القبيحة. سبب ما لا علاقة له بكمّ الألعاب المهول الذي لديه أو اللّهجة المُهذّبة التي يتكلّمها جعلني أنصّب نفسي حاميا له من سخرية بقيّة الأصدقاء، إذ لم يكن باستطاعتي مُقاطعتهم من أجله، كان الحلّ الوحيد أمامي هو أن أفرضه عليهم فرضا. في المُقابل كان عليّ أن أشاركهم إلحاق الأذى به، مثلما فعلتُ حين عقدنا جلسة طارئة لنطلق كنية بشعة على جميع أفراد العصابة كما سمّيناها آنذاك. خلال الجلسة الطّارئة تفنّنا في إلصاق كنايات فظيعة من اختيارنا، أي كلّ حسب ما يرغب. مُعين هو الوحيد الذي اخترنا نيابة عنه كنيته البشعة فكان من نصيبه مُعين الوحش. معينُ بالنّسبة إلينا كائن كان لابدّ أن يظهر في حياتنا كي نعيش بداهة سلامتنا الجسديّة بلذّة متجدّدة. بعضهم لم يكن يطيق لمسه أو حتّى الاقتراب منه. لؤيّ وعماد مثلاً كانا يفعلان ذلك من باب التّباهي بالشّجاعة، عماد المستعدّ دائماً لفعل أيّ شيء يجعله مُنغمساً في أمر ما، ما انفكّ يتباهى بطرفه الأخير كأنّه من صنع يديه. أمّا مُعين فكان يُواجه تصرّفاتنا بتفهّم حطّ كثيراً من كرامتنا الغضّة. قال لي مرّة إنّه لا يرغب في مواصلة التّعلّم في المدرسة الخاصّة وأنّ أباه هو الذي يصرّ على ذلك لأنّهم يعرفون كيف يتعاملون مع الأطفال المختلفين. قال ذلك تماما كما يتحدّث الكبار. لم أفهم كلامه إلاّ بعد سنين. في بيتنا ما فتئت أمّي تردّد كلمات الشفقة كلّما رويتُ لها حادثة وجدتها مثيرة أو شدّت انتباهي في طريقة تحركه، كانت تكتفي بالقول: مسكين! وحين تسأل أختي: «أمّي لم لا يُشبهنا مُعين؟» تجيبها: «إنّه مريض ولا ينبغي أن يسمعك أحد تقولين ذلك.»

أحيانا كان يحاول الجري بصورة طبيعيّة، لكنّه إمّا يسقط أو يتعب بسرعة. مع مرور الوقت بدأنا نعتاد هيأته وطريقته الطّريفة في التّعامل مع الأشياء، واعتماده الكلّيّ على يديه.. كنّا نرى العالم الصّغير المُحيط بنا عبارة عن جبل من المآزق والعراقيل التي ينبغي أن تُشقيه وتجرح إحساسه. كرهنا الأشياء نيابة عنه، تمنّينا أن نسمع منه حنقا يُشفي غليلنا. رأينا الطّريق طويلا نيابة عنه.. والشّجرة عالية وشرّيرة نيابة عنه.. لكنّه كان دائما يخذل تصاميمنا لمشاعره تجاه العالم، فقد كان مُحبّا لكلّ شيء.. بعبارة الكهل الذي صرتُه اليوم، كنّا نتصرّف إزاءه كمخمور يبحث في كتاب فهرسه لا يُطابق ترقيم الصّفحات. استقامته الغريبة، ملابسه التي لا أحد يدري من أيّ المحلاّت كان يحصل عليها، والتي كنتُ أتوهّم أنّها تكبر معه. وأشياء أخرى كثيرة اعتقدتُ أنّي نسيتها، تعاود الظّهور الآن أمام عيني كما لو أنّها مشكل يستوجب حلّه.

كان نابغة في الدّراسة، يفهم الظّواهر ويحلّلها بشكل عميق وواضح. وكنت في سرّي أشعر بالغيرة بسبب تفوّقه الصّارخ غير المستحقّ. لكنّي كنتُ أواسي نفسي بتفوّقي الجسدي عليه وبأنّه لن ينال مركزاً أفضل من مركزي بجسمه المشوّه.. كان على علم بأنّه فاقد تماما لحظوظ الفوز على أحدنا في اشتباك بدنيّ أو تحويل اهتمام فتاة ناحيته.

أبي متحامل على النّصيب الذي جعل مُعين متفوّقا وجعل منّي فتى ثقيل الفهم والأصابع وربّما ثقيل الظلّ أيضا. لم أشقّ على صدره لكنّي أراهن بكلّ ما أملك أنّه قد أرهق تفكيره كثيراً ليقنع نفسه بالسعادة التي يمنحها الأطفال الأسوياء لوالديهم. كانت طريقتي لأسخر من مُعين في سرّي وعلى نحو حقيقيّ، هي أن أساعد أبي على إتمام طقوس حسده لوالد مُعين من دون أن أزعجه بأسئلة الأطفال البائسة المعيدة إلى الرّشد. كثيرة كانت الاتّفاقات غير المعلنة بيني وبين والدي، فمثلاً بوسعي في قمّة غضبه أن أميّز «كفى!» التي يصرخ بها في وجهي والتي يريد منّي بها الاستمرار في الهرج. يحدث ذلك غالبا عندما نحلّ ضيوفا على عائلة أخرى وأنجح تحت تشجيع من عينيه في تعنيف أحد أبنائهم بطرفي الأخير. مع ذلك لم أكن وحشاً ولا كان أبي وحشاً. بل أكثر من ذلك كنتُ أشاهد على شاشة التلفاز علماء الحشرات والزّواحف وهم يقبّلون السّحالي قائلين: أوه.. يا ملاكي الجميل..!

وحده مُعين كان وحشاً على نحو ما.

لقد امتلأ لديّ حقّا ما يُمكن أن أسمّيه منسوبا مُحترما من الوضوح، على الرغم من ذلك مازلتُ أتساءل لِماذا لم تستغرق منّي العودة إلى الماضي كلّ ذلك الوقت الذي احتجته للوصول إلى هنا. ها إنّي هناك ثانية وها نحنُ نلتفّ حول شجرة غرسها للتوّ ناس كثيرون بمناسبة عيد الشّجرة. منذ اللّحظات الأولى التي تلت رحيلهم ذبلت الشّجيرة المسكينة وتقوّس أعلاها، حينها لمع في ذهني أنّها تشبه طرف أبي الأخير. في اليوم الموالي يبست ثمّ بعد ذلك اندثرت. أنجزنا حلقة، ثمّ طفقنا نحوم حولها ممسكين ببعضنا مغيرين الاتجاه في كلّ مرّة بصورة عشوائيّة بقرار من أحدنا، كم كان حلواً أن يُطيعك عدد يتجاوز ثلاثة، غيّرت اتّجاه الدوران مرّتين. أثناء قيامي بمحاولة ثالثة أحسست بأنّي أسحب شيئاً مستعصياً له قوّة حيوان. حينها أدركت أني استنزفت حظوظي من قلب نظام الدّوران.

بلغت المنافسة على القيادة أشدّها بيني وبين لؤيّ. كلّ ذلك يحدث تحت أنظار معين الوحش. كان يبدو في عينيه أنّه فخور بي.. أعتقد أنّي ما زلتُ، على نحو ما، أحتفظ بتلك الطّاقة تسري في بدني.. حين تشكّلنا قطاراً انضمّ إلينا مُعين. اتّخذتُ وضعيّتي وراءه مباشرة. لمّا انطلقنا أحسست بجسده يندفع كقاطرة حقيقيّة. كان ذلك بفضل طبيعة اللّعبة المصمّمة لتُخفي مُشكلته المضحكة. حين أستجمع الآن كلّ تلك اللّمسات الحانية وهو يطوّقني بذراعه من رقبتي وكيف كنتُ أتخيّل بأنّنا كائن واحد برأسين. أشعر بالأسف والإشفاق عليه. لقد اختفى معين فجأة.. أخيراً، أليست قصّة جديرة بالرّواية أن يمّحي من حياتك أحدهم فجأة بصورة جادّة كجثّة؟ شيء ما قد احترق فعلا. سبق وقلتُ إنّي أعرف ما لن يكون.. لن أرى مُعين الوحش، صديقي المرفوض، مبتور الذّيل.

(التراثيةُ) الجديدة

د.بغداد عبد المنعم ❁

لماذا التراثيــة وليس التراث؟ ومن غير التوغل عميقاً.. أقــول، التراث ثابتٌ بحكم الزمن الذي أُنْجِزَ فيه، وأما (التراثية) فهي الحركة المشغولة عليه من أبحاث وتحليلات ونقد يكون بها هذا التراث موجوداً على أرض الواقع وفي قلب اللحظة بحيث يكون فاعلاً فيها مُنْجِزاً في الحضور الثقافي..

في تاريخية العلاقة مع التراث القريبة منا مباشرةً نلاحظُ أنَّهُ وحتى الربع الأخير مــن القــرن الماضــي صــدرتْ المشاريعُ والبحــوث الفكرية (التراثية) فــي السياق النهضوي الذي أجَّجَ بداياتِ القرن العشرين، كان مــن أهمها وأكثرها شيوعاً على امتداد المنطقــة العربية بحــوثُ ومؤلفات حسن حنفــي ومحمد عابــد الجابــري ومحمد أرغــون وحسين مروة والطيب تيزيني وعبد الله العروي وطه عبد الرحمن والشيخ عبد الله العلايلي وجورج طرابيشي..

لن يكون هذا المقال مجالاً نقدياً لرؤاهم (التراثية) بل يمكن الإلماح إلى ثلاثة أنماط ظهرَتْ بها (تراثيــة) القرن العشرين، وهي تمثــل الطريقة التي تــم الاشتغال بها على التــراث (كي يتم تحويــل الموضوع التراثي إلى كائن معرفي موجود مُنْتَج)، كان من هذه

❁ كاتبة وباحثة في التراث العربي.

التجسيدات التراثيــة المعرفية (التوظيفُ الأيدولوجــي للتــراث).. و(الفهــم التراثي للتــراث) وهمــا شــكلان مــا زالا شديدي الوضوح والحضور فــي (التراثية الراهنة) ولئــن كان التوظيــف الأيدولوجــي للتراث قد حوَّلَهُ إلى ذخيرة فــي مواجهة أخرجتْهُ مــن إمكانية النمو الثقافــي الطبيعي، فإنَّ الحضور التراثي للتراث لم يُشكل إلا قراءة دائرية ضيقة تخــرجُ من النص لتدخلَ إليه مــن جديد فــي استسلام مطلــق لأهدافه وأساليبه ومشكلاته وحتى لـ لغته!!

والشكلان السابقــان افتقدا إلى تخليق حــوار مــع التــراث مــن موقعنــا الزمني والتقنــي.. يعانيــان مــن فقديــن كبيرين: النقد والنظرة التاريخيــة، وانعَدَمَتْ العتبةُ الإبداعيةُ المتجاوِزَة لما افتُرِضَ بأنَّهُ مُقدَّس أو تابــوه.. وبقيت نتائــج هذين الاتجاهين مُغَلَّفَة وبعيدة.

أمَّا الشكلُ الثالثُ التاريخي من الحضور المعرفــي للتراث فلعلــه الظهــور الأقدم والأعمــق تأثيراً فــي المستــوى البحثي.. ذلك هو الحضــور (الاستشراقي الخارجي للتــراث)، وقد تشكل باحثــوه ومنتجوه من المستشرقيــن وتلامذتُهــم العــرب الذين تخرجوا من المراكز والجامعات الأوروبية.. وأجيــال بحثيــة استمرت علــى منوالهم.. ومن هذه (التراثيــة الاستشراقية) انطلقتْ أبحاثُ تاريخ العلوم العربية في نسخ باهت أو غير باهت عن مناهج عمل المستشرقين. ومن استمراراتهــا الراهنة أيضاً التوجهات اليونيسكية نحو إيجــاد صيغ أممية ثقافية للاهتمــام التراثــي.. مثل إصــدار (وثيقة التــراث غير المادي) وغير ذلك.. مما بقي يستدعــي إقداماً إلى التبني السطحي لهذه الطُروحات مــن قبل القائميــن على (أمر الثقافــة) أو (أمر التراث).. من دون نقدها أو تقديــم وجهة نظر وطنيــة أو خصوصية تجاهها!

و(التراثيــة) مــع تساؤلاتهــا الحداثية ستحتفظ أكثر من السابق بالبعد التحميلي بل بالإمكانية الولادية من كونها إرثاً مشتركاً عربيــاً معرفياً قابلاً للتجــدد والتثوير مثل باقي أبعاد الواقع.

التراثيــةُ الجديــدة.. المشروعيــة والداخلية

حيــن دخلَــتْ الثقافــةُ العربية خلال القــرن الماضي في تغريبتها طويلة الأمد.. قامت بشــكل طبيعي ببرمجــة الأسلوبيات الفكريــة وصنعتْ بالنتيجة واقعــاً حقيقياً امتــدَّ حتى ما قبــل هذه اللحظــة بقليل، واقعٌ احتلتهُ مجموعــةُ أمراضٍ مُتداخلة ما بيــن (الاقتصادي) و(السياســي) وبالتأكيد (الثقافــي) ..كان مــن الوقائــع المَرَضِيّة

للتغريبة الثقافية العربية حالاتٌ من الفصام، منها الانفصال بين الواقع العلمي والثقل التاريخي الهائل.. فثم عقدة مرضية تجاه هذا التاريخ بأبعاده الشاسعة، ولم تكن هذه العقدة ببعد واحد أو باتجاه واحد، لكنها بالتأكيد حملت باتجاهين على طرفي نقيض.. اتجاهان بينهما مئة وثمانون درجة كلاهما محمولٌ على عقدة مرضية تضعفه فيمسي مصدرَ انحطاطٍ وتراجع..

الاتجاه الأول تعامل مع التاريخ تعاملاً سكونياً مفصولاً عن الجسم التاريخي المتفاعل والمتجادل.. الاتجاهُ الثاني، لا يعرف تاريخَهُ أصلاً.. لكنه ينحني صاغراً لتاريخ الآخر، من دون أن يبحث في هويته بل من دون أن يصنعها أو يحاول إنشاءَها وتقديمها..

شيءٌ من أمراض هذه التغريبة جعلنا بعيدين عن البنائية من داخل التاريخ العربي بمعناه الحضاري الشامل وليس كتاريخ للأحداث السياسية وتفاعلاتها فقط. ذلك أن التاريخ كائن متعدد الأبعاد والأرواح.. وداخل هذا التاريخ يجثم بكثافة وجبروت التاريخُ العلمي العربي مثلما تكمنُ كذلك أبعاد تاريخية كثيرة كالتاريخ الأدبي والفني والتاريخ التشكيلي والتاريخ السياسي..

لقد خلقَ الغربُ مصطلحَ تاريخ العلم (A History Of Science) وفروعه في تاريخ الطب وتاريخ الكيمياء والهندسة، وتاريخ الهيدرولوجيا وتاريخ الميترولوجيا وكذلك تاريخ العمارة وتاريخ الهندسة.. هو كذلك كان قد وضع الإستراتيجية الفكرية الشاملة بتأسيسه الخالص لكل ذلك فأنشأه إنشاءً من جملة تاريخه وأعلامه، فأضحى هذا التاريخ تاريخاً غربياً بمحوره الكبير والعام والتأسيسي وصُدِّرَ إلى كل الأرض على أنه تاريخٌ عالمي!!

إنَّ استنباط وبلورة هذه الفروع التاريخية عربياً وإسلامياً هو مهمةٌ شاسعة وطويلة الأمد وذلك بسبب غزارة النصوص التراثية العربية التي كَمَنَتْ بداخلها موضوعاتُ هذه التأريخات، ولكون عدد ليس قليلاً منها ما زال مخطوطاً ومتناثراً في مكتبات العالم، وكذلك فإن هذه العملية البنائية من داخل التراث العربي ستكون حتماً في مواجهةٍ مع التواريخ الغربية التي وضَعَتْ أزمنتَها ومدنَها ومؤرخيها فقط على لوحة العالم حتى أصبحت الأليادة والأوديسة جزءاً من التاريخ الأدبي العالمي الذي فُرض على كل الأرض.. في حين لم تغدُ معلقةُ امرئ القيس الليلية الهائلة جزءاً من هذا التاريخ.. فهذا الشاعرُ الملكُ هو الذي شَكَّلَ من شعره تلك اللوحاتِ الباقية التي أعتقد أنها تشكل مصدراً من مصادر تاريخ الشعر العالمي، ومع ذلك فهو لم يحملْ على الإطلاق شهرةَ

هوميروس..! والسبب باعتقادي خضوعه منذ أمدٍ بعيد لـ قراءتنا التراثية الداخلية الدائرية والمسطحة..

فقد بقي (كتابُ الطبيعة) لأرسطو من المبادئ التي اعتُمِدَت عالمياً (غربياً) في بعض فروع تاريخ العلم فأصبح المبدأ لعدد من التاريخات العالمية (الغربية) ومنها (تاريخ الهيدورلوجيا).. لكنَّ كتاباً مميزاً مثل:كتاب وصف المطر والسحاب لابن دريد الأزدي (القرن الثالث الهجري) لم يغدُ جزءاً ولا حلقة من هذا التاريخ.. ولا كذلك الباب الرصين الذي أفرده الثعالبي عن المياه في كتابه الموسوعي (فقه اللغة وسر العربية)..

لقد تمَّتْ إهانةَ هذه النصوص التراثية من قبلنا حين أُخْضِعَتْ لتناولٍ لغوي فقط، وفي أحسن الأحوال لبعض القراءات الأدبية السطحية.. وحتى هذا بقي في الحدود الدُنيا البائسة.. ولم يُفطن إلى أنَّ بُعداً علمياً وعتبةً إبداعية قابلة للوجود في تلك الدرب (الافتراضية) المنطلقة من عمق التاريخ إلى نقطةٍ ما من المستقبل لن تتضحَ ما لم تغدُ تحت إدارةِ خطةٍ بحثية وطنية تمتلكُ الإستراتيجية والشمولية، ولها من التأثير والقرار ما يعطيها المقدرة على تفعيل المكونات الكلية للتراث العربي

- المحقق والمطبوع وكذلك المخطوط
- ومن ثم الصعود إلى السوية التجديدية في البحث التراثي. وهذه الإدارة البحثية الشاملة هي من يمتلك الأسلوبية الحديثة لنشر وترويج هذه النتائج عالمياً عبر القنوات الأممية والدولية مما يستدعي حتماً مجالاً واسعاً من الفعل الديبلوماسي المواكب للفعل البحثي والمؤمن به وبنتائجه بعيدة المدى.

إنَّ توسيع مفهوم المصادر المشكلة لمثل هذه التواريخ يُشَكِّلُ استناداً مهماً لأن النص العربي المكتوب واللغة العربية بشكل عام بقيت هي التجلي الأكبر للعطاء الحضاري العربي الإسلامي.. وبَدءاً ننطلق ونخرجُ من بوابة المصطلح الغربي ومن ثم تكون إعادة ملئه بشكل فعال بالحلقات العربية المغْفَلَة في معظم الأحيان والمسطحة والمهمَّشَة هذا في حال أنها ذُكِرتْ..

حقاً أنَّ (التراثية الاستشراقية) قدَّمتْ جهداً ضخماً ووجهة نظرٍ من التراث العربي (لكنَّها قدمت هذا المنجز إليها.. إلى الغرب!) وأطلقتْ روحَ النشر في جثث المخطوطات، لكنَّ ذلك ظل في دائرة خاصة بعيداً عما صنعهُ الغربُ وبناه من تواريخ علمه وتكنولوجياته والتي بناها بصلابةٍ وصلف وعن سابق إصرار

باستنادات تاريخيــة يونانية لاتينية فقط.. فــي بُعد بعيد عن الموضوعيــة والعلمية.. وهكذا قام بجهد عتيد لصالح مشروعه في الشرق.. وليس لأجل هذا الشرق.. وإذاً، ليس مــن المحتمل على الإطــلاق أن تكون هذه العملية البنائية الطويلة (التراثية الجديدة) عمليةً خارجية أو استشراقية.. وتلك ليست مسؤولية الغرب أصلاً.. فمن الطبيعي جداً أن تُحمَــل (التراثية الجديدة) على محورين عريضين: المشروعية والداخلية (المحلية – الوطنية – العربية).

وهــذه (التراثية) تعني من بين ما تعني: تشكيل ذاكرة جديدة وإعادة قراءة خالية من عُقد النقص لكل الأبعــاد التاريخية والتي سبق أن أدخلتها عقــدةُ الذُهان(الثقافي – السياســي) في أضيق حــدودٍ، فمنعتها عن النمــو وقطعتهــا عن حقيقتهــا في معظم الأحيــان.. وسلبتنا طاقتهــا الهائلة.. تلك الطاقة التي تغذي عادةً النهضات القادمة.

لقــد جــرى تشويــهَ النصِــ التاريخي باعتبــاره قــراءة مستمرة ونامية.. فتلبث التشوهُ فــي الرؤيا العامة للوقائع فلا يمكنُ فصــل هذه عن تلك – طاقة التاريخ وطاقةُ بنــاء الوقائــع–.. وبالنتيجة تــمَّ بشكل ما تكريس (ذُهانية) مقطوعة عن الأمرين معاً: التاريخية الحقيقية ومبادرة صُنع الواقع..

الثقافةُ الجديدة

إنَّ حوامل الثقافة، وكذلك ما يتجسد في الأداء الإنساني داخــل منظومة المجتمع.. حوامــلٌ تعطي تجلياتها فــي كل لحظة، لا يمكن أن تتوقف ولا يمكن إيقافها، لكنَّ لحظةً بعد لحظــة يمكن تعميق السويــة أو تغيير زاوية النظر، لنغدو أمام فعل أو تجلٍّ ثقافي جديد غيــر وصائي ولا مُتعالٍ ولا نخبوي.. بل فعلٌ حيوي قائــم بحكم معادلات الواقع وصراعاتــه وتناقضاته.. وبحكم خصوصية واعتلاء هذه اللحظة.. ليتكون فيها وعبرها وبسببها تجددٌ حقيقي في مفهوم (ثقافتنا) وتتوالــد على هــذه العتبة الجديــدة زمنياً وتفاعليــاً ونفسياً فاعليةُ التحاور بكل أنواع المشــاكل بدءاً من المشــكلات المجتمعية المدنية المباشرة كالصحة والتعليم وانتهاءً بـــ القيم والتعدد الثقافــي والتقاليد واللغة والتربية والهوية والمواطنة والأديان..

وهــذا التجدد الثقافي والذي يخرجُ من تربتنــا هذه المرة بشكلــه المبادر والصانع والمستمر، يحملُ بأمرين أساسيين تفاعليين، الأول: الانتماء إلى (الحداثة التكنولوجية)، والثانــي: انبثاق (حداثة) كلية غير مسبوقة في الأداء المجتمعي عموماً..

ويمكن أن نقول بكل بساطة بأن الثقافة الجديدة تشمل تقنيات التكنولوجيا الجديدة ليس كرافعــة ومُسَرِّع فحســب بل وكنتائج

جديدة تماماً، وعلى قدر هذه التسارعات التقنية وعلى قدر خصوصية هذه اللحظة غير العادية في تاريخنا الحديث.. على قَدْرِ كُل هذا سنكونُ بانتظار ظهورٍ(ثقافي جديد) يكون قادراً على بناء حالة النقد بمعناه الواسع.. (التراثيةُ) فيه أمرٌ حتمي مادام يمتلك أمرين: الهُوية والجغرافيا.. سينزع الجذور السيئة وامتداداتها وأوهامها التاريخية التي دخلت البنية الحضارية للمجتمع.. الحداثةُ في هذا الظهور الثقافي الجديد ستتجاوز حمل المعرفة إلى بنائها.. وسنغدو بالتأكيد أمام مثقف واسع المرجعيات والإمكانيات بسبب المدى التقني الهائل للتواصل، لكنْ لن يكون هذا كل شيء! ..سيكونُ قادراً على الاختزال والفرز والخلق.. مثل هذا المثقف (الجديد) كان موجوداً وفاعلاً في الأزمنة المفصلية.. والمفصلُ لن يغدو متحركاً وفاتحاً إلا إذا غدا عددُ المثقفين الجُدد كافياً.. من دون أن يكونوا (نُخبة) ولا مُصْطنَعين ولا متحركين على أجندات جاهزة..

يجب أن تتكاثر الأسئلة لتُحاصرَ الجوابَ وتعتقلَ حقيقتَهُ.. إنها أسئلةُ المئة سنة السابقة وأسئلةُ المئة سنة الآتية.. وحين تتكاثر الأسئلة تتوضح اللغة وتوشكُ على ولادة: هل صنع المثقفون خلال المئة سنة الأخيرة نبضَ الواقع؟ هل صنعوا ذهنيتَهُ أم كانوا في أحيان كثيرة خطباء نمطيين ورسميين؟؟

هل سيستعيرُ المثقفُ نبضَ الواقع الجديد ليكون جديداً ومقبولاً وليتم الاعتراف به.. وذلك بعد أن أمسى هو بجهة والواقع في جهة متباعدة عنه باستمرار..؟؟ هل سيكون خروجُ المثقف الجديد عمليةً جدليةً مع الشارع بحركته المباشرة؟ مَنْ سيعطي الآخر؟؟ مَنْ سيكتب للآخر؟ مَنْ مرجعيةُ الآخر؟ وبالتأكيد ما بين المثقف والشارع ثمة أزمة نوعية! ولئن كان هذا الشرخُ قائماً في علاقة المثقف بواقعه فإنَّ شرخاً موازياً لا شك قائماً في العلاقة بين المثقف نفسه وتراثه..

هذا الواقع يغدو مؤهلاً ليكونَ حاملاً بكل شيء من التاريخ والذاكرة إلى التفاصيل اليومية العادية والتي غدت بحدِ ذاتها حاملةً للحداثة.. حداثة نوعية يمكن أن نقول أنها محلية أو وطنيةأو عربية.. وحين يكونُ الأمرُ بهذا الشكل وبهذا المضمون فهو على الأقل يُشكِّل مبدأً إحداثياً لعصرٍ جديد.. سيُشَكِّلُ مشروعَهُ التأريخي الحقيقي لهذه اللحظة ولـ اللحظة التي تليها.. ولكنَّ هذا المشروع لنْ يستند إلى فراغ في الهوية أو الذاكرة أو الثقافة أو اللغة.. إنها فقط استناداتٌ

حداثية تختلفُ عمَّـا تعودنا عليه في المئة سنة الأخيرة..

ففي كل مفصل من التاريخ أعادتْ اللغةُ ولادةَ ذاتِهَا استجابةً وتماهياً مع بَدْءٍ جديد.. وكان التغيـرُ المعجميُّ وانبثاقُ فنونٍ كتابيةٍ جديدة أمراً يدعو إلى الدهشة.. بينما ماهو ملفتٌ للانتباه عدم الصعود البحثي الفكري عمومـاً والتراثي خصوصاً.. بقي في دوائر محـدودة غير مُتفاعلـة كأنها عمل مقطوع عن الحياة والنمو.. وبشكل أكثر تركيزاً بات عملاً مقطوعاً عن الثقافة!

ويتحـول سـؤالُ التجديـد فـي هـذه المقاربة إلى بُعد مُحدد في إجابة رَمَتْ إلى تشخيص ثلاث مشكلات فـي الطريق إلى الوصول: كيف تتبنى (التراثية) في الثقافة العربية الجديدة بينابيعهـا غير المسبوقة (الحداثة التقنيـة والإلكترونية وما يتبعها، وفـي الحركـة التغييريـة المتسارعة على الإحداثيـات الأرضية لهـذه الثقافة..؟) فـ عمليـةُ الولادة لم تنتهِ بعد لأنها ترتبط بكل ذلك وبها تتضح سماتُ هُوية ثقافية شديدة الثقل بواقعها وليس بتاريخيتها فحسب.. ولئن كان (التـراث) كائناً شديدَ الصلابة.. غير أنَّهُ بقي متوارياً ومُسْتلَبَاً في الكينونات الثقافية التاريخية (الحديثة) وحتى الآنية.

إذن، سيكون على سؤال التجديد أن يتوجه إلى (التراثيـة).. أي إلى (الحركة الجديدة على التراث).. وكيـف تتبنى (التراثية) في علاقة تجديدية في هوية ثقافية؟

النقـد التراثـي.. مـن (التراثيـة) إلى (هوية ثقافية).

لا تُولـدُ الحالـةُ النقديـة المواكبـة لـ (التراثيـة) مـن خـارج التجربـة البحثية والنفسية بآنٍ معاً..

إنَّ فقـدان (النقـد التراثي) لـم يُمكِّنْ كل الأنمـاط التراثيـة المُنتجـة في القرن الماضي: الشكلان الداخليان (الأيدولوجي والدائري) أو الشكل الخارجي (الاستشراقي وامتداداتـه) مـن العبـور الحقيقـي إلى الثقافـة.. تصلَّبَ هذا المنجـز ضمن أُطُرٍ محدودة من دون أن تؤدي إلى الوصول إلى التيـار الثقافي العام وتحقيـق بناء مستمر في داخلـه.. فبقيتْ كلُّ الأشـكال السابقة خارجيـةً بالنتيجـة ومحـدودة التأثيـر. ولن يمتلـك إلا النقد مهمـة المواجهة مع المُنتج التراثـي المُتَوَقَع.. وقد لاحظتُ أن المجـلات التراثية خصوصاً أهملت إهمالاً شديـداً آلية النقد فـي إصداراتها ومحاور بحوثهـا وتحولـت عن النقد إلـى ما يشبه لجـان تحكيم للبحوث تُقيّـم بـ(نعم أو لا)! وبقيت هذه المجلاتُ والمؤسساتُ التراثية

الصادرة تعيشُ مرعيــةً في حوض يخصُّها داخــل الأكاديميات غيــر المفتوحة أصلاً على المجتمع وتفاعلاته اللحظية. (وبقيت لجامعاتنا تلك الأسوار العالية كأنها سجون لصد المجتمع عنها ويبــدو ذلك استمراراً لعقليــة الطاغيــة) وتبعاً لذلــك بقي هذا (المنجز التراثي المعلب والمبْعَد) في شكل يُقاربُ الإهمال المهذَّب (المتَعَمَّد) مقطوعاً عن التفاعل ومقطوعاً عن أنْ يُتفاعل معه.. معزولاً.. مع انعدام (النقد التراثي).. فهذا النقــد لم يكن موجوداً ولم يكن فرعاً قائماً بذاتــه في يوم من الأيــام.. في حين صبَّتْ أعمالٌ نقديــة فكرية في القــرن الماضي على التراث نفسه.. وكان من أهم التناولات النقدية للتراث خــلال القرن العشرين تلكَ التي اهتمتْ بتقسيــم التراث إلى مستوياتٍ أربعة (الفكر المُنتج للتراث – الفكر المُستغل للتراث – الفكر المُستهلك للتراث – الفكر الدارس والمبلغ للتــراث). وهي تقسيمات مهمــة وتشريحية للباحــث المفكر محمد أرغــون حاول من خلالهــا أن يضع التراث وإنتاجاتــه في سويات كبيــرة متداخلة في معظم الأحيان.. وقد جعــل السوية الأولى تمتد حتى القــرن الخامس الهجري وحَمَّلَ هذه السويــةَ بأدائين كانــا موجودين معاً: الأداء التقليدي النصوصي، والأداء الإبداعي الذي أنتج النصوصــ العربية الجديدة في وقتهــا مثل: نص الجاحــظ ونص الفارابي ونص البيرونــي ونص ابن رشد.. وكان في الأداء الإبداعي مُنتَجٌ علمي واختراعي أيضاً فمنه على سبيل المثال النظريات الرياضية الجديــدة عند الخوارزمــي، والموضوعات الجبريــة والتفاصيل الهندسيــة التنفيذية عند الكرجي، وهي ليست إلا مبادئ تنتظرُ إعادة كتابة تاريخها (تواريخها) على خارطة غير مستوية بل تقتحمُها الأبعادُ اقتحاماً.. هي أبعادُ الحداثة تقنياً وإدارياً وبحثياً.

لنقل أن هــذا النوع النقدي الواقع على التــراث مباشرةً حــاول بقــراءات خاصة استجــلاب نمــاذج مــن التــراث موحيــة للحاضر.. كأنها أداة تغيير مثلاً.. استحضار صــورة تاريخية (ديمقراطيــة) أو (نقدية) أدَّتْ تاريخياً إلى تكوينٍ (جديد) في لحظته تلك.

إذن، ليســت الحالــةُ السابقــة هي ما أقصدها، إنما إيجــاد آلية (النقد التراثي) بأدواتــه وفلسفته وبنيتــه الخاصة.. وهذا النقــد الجديد من الممكــن أن يستفيد من أدوات النقــد الثقافي، وساحــةُ عمله هي المنطقة البحثية التراثية الحالية.. والنقد التراثــي لم يكن له من يعتنــي به ويخلصه ويبلوره ليكون واضحاً..

فـــي مجمل هـــذا المنجز غـــاب النقدُ الاحترافـــي الفعال.. الوصـــول إلى المعنى في النص التراثي من النص ذاته، ولعل من بديهيات هذا النقد تجَاوز التحميل المسبق سواء التراثـــي أو الأيدولوجي.. ثم التحليل التاريخي مـــن خلال ربط النصـــ بمجاله الزمنـــي وبمرجعياته الثقافيـــة والسياسية والاجتماعيـــة، وذلك لأجـــل تأصيل حضور هـــذا النص فـــي صورة جديـــدة وبعلاقات جديـــدة من أجل أن يكـــون معاصراً لنا. إن بنـــاء أركان هذا النقـــد (النقد التراثي) قد تتطلب حواراً واسعاً ومستمراً.. وقد نقترب قليـــلاً أو كثيراً من بناءات النقد الثقافي أو الأدبي..لكـــنَّ هذه الخُطـــة النقدية طويلة الأمد ستخلقُ جسراً نشطاً من التراثية إلى هُويّةٍ ثقافية حقيقية هذه المرة.

قميص

مالك صقور ❁

..«قميص» . عنوان قصة قصيرة للزميلة القاصة بلسم محمد؛ تناولت من خلالها بداية الأحداث الدامية في قطرنا الغالي، وإن لم تكن هذه القصة هي الأولى في موضوعها ومضمونها، فربما كانت من القصص الأولى التي تحدثت عن الإرهاب والإرهابيين.

ولما كان للعنوان أهميته، لأنه العتبة، والمفتاح للقصة، وهو يشي أيضاً بمضمونها، فإنَّ لعنوان القصة (قميص) . دلالته.

❁ أديب وناقد ومترجم ورئيس تحرير «الموقف الأدبي».

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

لـم تضـع القاصـة عنـوان القصـة: (القميص)، لم تسبقه بأل التعرف. فمجرد (قميص) أيضاً دلالة ما، كما سنرى.

فقد يوحـي (قميص)، مثـلاً أن يكون (قميصـاً) لفقير، لا يملـك صاحبه غيره، بمعنـى من المعانـي، أن يغسلـه صاحبه، ويبقى عارياً حتى يجف. وقد يكون قميصاً مزهـراً، ذا لـون لا يُنسى، كهديـة عاشقة لحبيبها، وقد.. وقد..

وفـي موروثنا، توجد دلالات عدة لكلمة (قميص). منها، مثلاً: قميص النبي يوسف عليه السلام، ولقميص يوسف ذاته أكثر من معنى ودلالة:

الدلالة الأولى: «**وجـاؤوا علـى قَمِيصِه بدمٍ كذبٍ...**» من سورة يوسف، الآية(١٨).

والدلالـة الثانيـة: «**واستبقـا البـاب، وقدّتْ قَمِيصَهُ من دُبُرٍ...**» من سورة يوسف، الآية(٢٥).

«**قـال هـي راودتنـي عـن نفسـي. وشَهِـدَ شاهِـدٌ مـن أهلهـا إن كان قَمِيصُـهُ قُـدَّ مـن قُبُـلٍ فصَدقـتْ، وهـو مـن الكاذبيـن ❁ وإن كان قَمِيصُـهُ قُـدَّ مـن دُبُـرٍ فكذبـتْ وهو من الصادقين**». من سورة يوسف، الآية(٢٦و٢٧).

الدلالة الثالثـة: «**اذهبُـوا بقمِيص هذا فألقوهُ على وجه أبي يأتِ بصيراً**». من سورة يوسف، الآية(٩٣).

والمشهـور جداً، أيضاً، هـو (قميص) عثمـان الخليفة الراشـدي الثالث (رض)، والذي اتخـذ للفتنة الكبرى فـي الإسلام، وصار مضرب الأمثال.

ثمة قصـة أخـرى، بعنـوان: (قميص الصـوف) للقاصـ اللبنانـي توفيق يوسف عواد، لكن بمضمون مختلف. ويوجد قصة عن (قميصـ السعـادة) لكاتـب فرنسي، إلخ...

ولا أخطـئ إن قلت، إن مغزى (قميص) هنـا، ونهايتهـا تتقاطـع مع نهايـة قصة (المعطـف) الشهيرة، والمعطـف الشهير أيضاً للكاتب الروسي غوغُل، والتي قال عنها أشهر روائي روسي فيودر دوستويفسكي:

«كنا خرجنا من كمّ معطف غوغُل».

لا أريد أن أجري مقارنة بين (المعطف) و(قميص) لكن كما فهمت أن المغزى واحد في القصتين من حيث الرمز والدلالة.

وهنا، لابـد لي من القـول، إني أعرف سلفاً، أنه لم يكـن في ذهن القاصة، أو في نيتهـا، أو فـي ذاكرتها علـى الأقل، كل ما ذكرت من قمصان: يوسف، وعثمان وعواد، ولا معطف غوغُل حتى، وما قلته، يجولُ في ذهن القارئ بادئ ذي بدء، عندما تقع عينه على عنوان (قميصـ)، ولهذا كان مثل هذا التداعي.

❁ ❁ ❁

قميص . بلسم محمد . قصة قصيرة، مؤثرة، واقعية، معاصرة، مؤلمة، تشهد على حدث مروّع، جريمة نكراء شنيعة، تناقلتها وكالات الأنباء، وعرضتها المحطات الفضائية العدوّة قبل الصديقة. وكانت بداية الحرب والأحداث الفاجعة التي حلّت بالوطن الغالي، كما نوهت أعلاه.

قميص . قصة رسمت بكلمات بسيطة، شفافة، مصير إنسان، ومصير هذا الإنسان، تحوّل إلى مصير وطن بحاله.

فالكادح البسيط، عبدٌ من عبيد الله، يسعى إلى رزقه، وله حياته، وآماله، وأحلامه، ومهما كانت هذه الأحلام بسيطة، فهي أحلام كل إنسان شريف، في الحصول على رزق حلال، ثم، يحلم ببناء عش الزوجية، ولقاء خطيبته، ورضا والدته.

وفي يوم، من الأيام المتشابهة الكثيرة، التي كان يعمل بها، ويذهب إلى السوق، حاملاً (بضاعته) في سيارته المتواضعة، من أجل العيش الكريم، كعادته كل صباح، حصلت المفاجأة، مفاجأة لم تكن بالحسبان، لا في حسابه، ولا حساب أمه، ولا حساب خطيبته، ولا حساب أحد من معارفه.

فعن أي مفاجأة يمكن الحديث عنها لمواطن كادح، يحمّل صندوق سيارته بالخضار والفواكه ويذهب إلى السوق. فقد تكون المفاجأة، مثلاً أن تتعطل السيارة في الطريق، فلا يصل السوق (ساحة الرزق) في الوقت المناسب، وهذا احتمال. فتتلف المواد التي ينقلها. وقد يسطو عليه قاطع طريق، فيسلبه حمولته، وماله، وسيارته، وهذا ليس مفاجأة، وهو احتمال لكن السنين الطويلة، الطويلة، خلت من قطاع الطرق، والبلاد كان يضرب بها المثل في الأمن والأمان، المفاجأة أن تموت أمه، التي تركها في الفجر، وندم لأنه لم يفتح الباب، ويلقي عليها نظرة، قبل أن يغادر، أو لماذا لم يسألها ماذا تريد؟

لكن المفاجأة، المفاجأة الصاعقة، الصادمة، الحقيقية، التي لم يستطع أن يجد لها تفسيراً، أو جواباً، أو مبرّراً، ولم يكن قد خالجه شعور ما، أو إحساس ما، بأن يحصل ما حصل، ولم يخطر في باله ذلك، فهو لم يخشَ، ولم يخف، ولم يدخل الرعب قلبه، وهو على علم ودراية بما يجري من إرهاب في مناطق متفرقة من البلاد، لذلك كانت مفاجأة، مفاجأة، أن شباباً طوقوه، وبالأمس، كانوا يتقاسمون الخبز معاً ويتسامرون، فهو الذي يأتي إليهم محمّلاً بالخضار والفواكه كل يوم، وفيها منفعة لهم وله.

و«فجأة».. وعندما وجد نفسه قد وقع في الفخ، أدرك أن مكيدة تحيق به، سأل ببراءة:

. مــاذا هنــاك؟ ويأتــي الــرّد الفاجع المفاجئ:

. ألم تسمع نداء الجهاد؟

فيقــول المسكين: إني حاضــر، سأذهب إلى فلسطيــن، إلى القدس الشريف... هكذا، عرف، ووعى، أن الجهاد في هذه الأيام يجب أن يتجه إلى فلسطين يجب أن يتجه إلى تحرير القدس، يجب أن يحرّر الجهادُ بيت لحم مهد السيــد المسيح، ومسرح ومعــراج محمد إلى السماء، إلى هناك يجب أن يتجه الجهاد.

لكــن «جهــاد» هــؤلاء، يا للأســف، يا للألم، يا للفاجعة، يــا للخيبة، لا يتجه إلى فلسطين، ولا يدين دولــة الكيان الغاصب، ويكون الجواب الصاعق:

. الجهاد فيك.

لكن وببراءة أكثر يتساءل:

. ولماذا أنا؟

ويأتي الجواب، أقسى، وأصعب، وأفظع:

. جاء يومك أيها الكافر...

وعندما قرأ الشر في عيونهم، صاح مرة أخرى، وببراءة أيضاً:

. أنا لم أرتكب ذنباً!

أيضــاً، يأتي جواب أقســى وأفظع من الأول:

. لقد أفتى الشيخ أنك آثم سليل آثمين... ومن ثم يتم الإجهاز عليــه ذبحاً، وتقطيعاً، وتمثيلاً بجسده.

لكن القصة لم تنته باستشهاد هذا البطل الــكادح، الذي لم يستسلم لقــدره ببساطة، ولكن تكاثر الثعالب والذئاب عليه، وبأيديهم البنادق والخناجــر والسواطير، وهو أعزل تمامــاً، مع ذلك حاول المقاومة، التي كانت غير متكافئة.

أقول: لــم تنته القصــة باستشهاد هذا الكادح.. بل بدأت القصة: لقد ارتفع مثل كل الشهداء إلى السماء، وأولهم السيد المسيح، وصار دمــه، وجسده، وقميصه رمزاً. تحوّل قميصــه إلى شبح، وصــار القميص شبحاً مخيفاً، لهــؤلاء الذئاب، تحوّل هذا الإنسان المغدور، مــن شهيد إلى شهيــد حي يزور المساجــد أيام الجمعــة، والكنائــس أيام الآحاد.

وقميصه المعطّــر بدمه الطاهر أمسى وأصبح شاهداً ليس يوم القيامة، بل أمامنا، نحن الأحياء.

❁ ❁ ❁

تكمن أهميــة هذه القصــة، من وجهة نظري، إضافة إلى كونها من القصص الأولى التي تناولت بدايــة الأحداث الدامية، التي أراد منهــا الغرب وأعداء سورية أنها «ثورة» ولكــي تثير فتنة طائفيــة تتحول إلى حرب أهلية. وهذا ما أخفق الإرهابيون في فعله، سلطت القصة الضــوء على الخطر القادم مــن «الفتاوى» التي حللّــت الدم، والعرض،

باسم شياطين الفتنـــة، وقتل الإنسان الذي حـــرم الله والأديان قتله. كمـــا وأشارت إلى خلفيـــة المجرميـــن الذين يتهمـــون الآخر بالكفـــر. والحقيقة هم الكفـــار، والسؤال، مـــن أعطى هؤلاء الجهلـــة الحق في الحكم علـــى إنســـان، كائناً من يكـــون، بالكفر، ثم بالذبح، ثم بالتمثيل بجسده، فقط لأنَّ ذنبه وذنـــب الكثيرين أن اسمه (كـــذا)، أو هويته (...)؟!!!

لو لم تثبت الحقائـــق الكثيرة، والوقائع الدامغة، المسجّلة بالصوت والصورة، والتي عرضت على شاشات الفضائيات أمثال هذه الجريمة النكراء، في أنحاء البلاد، ربما قال قائـــل إن هذا من شطحـــات الخيال، خيال القاص، والقصة. لكن ما حصل في (عدرا) العمالية، وفـــي أماكن كثيـــرة، يثبت صحة هذه القصـــة. وكما تحوّل صاحب المعطف إلـــى شبح يـــدب الذعر في قلـــوب النبلاء والجندرما وكل الظالميـــن في بطرسبورغ، هكذا تحوّل قميص الشهيد إلى رمز وشبح يرعـــب المجرميـــن الذين ولغـــوا في الدم السوري...

في مثلَّث المسرح السوري

أنور محمد ❁

ثلاثة مسرحيين؛ أعتقد أنَّ مسرحهم لعبَ دوراً تفكيكياً للاكتئاب المسرحي، اكتئاب العقل المسرحي السوري، هم: سعد الله ونُّوس ومحمد الماغوط وممدوح عدوان. مع أنِّي أُقدِّر كثيراً مالعبه مسرح فرحان بلبل ومصطفى الحلاج اللذان سنخصُّهما بدراسة لاحقاً. فالمسرح على أيديهم كان مقدِّمة لثورة ثقافية شغَّلت التفكير النقدي في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي وما تزال، لدرجة أنَّ مسرحهم كان أكثر من بيان (رسولي) ولكن مادي، لزمن (إنساني) جديد، قام على

❁ ناقد وباحث مسرحي سوري.

البيِّنــة الثقافية، والحجــة العقلية؛ في أنَّ المسرح هو ينبوع النبالة المرشد للفروسية الحقيقية، وليس لتصفية الحياة بالمسدَّس الثقافي.

١- مسرح سعد الله ونُوس

كأنَّ ما كتبه سعد الله ونوُّس من مسرح، إنَّمــا هو فعلٌ من أفعــال الفلسفة، التي لا تــرى نفسها إلا بالحيــاة؛ فنصير ندركها، نــدرك الحياة بالحدســ. وربَّما وحده من بيــن المسرحيين العــرب، كان يسعى في مسرحه، منذ تلــك المسرحية التي اجترأ فيها على الحاكــم العربي (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران) وعلــى مباشرتها سياسياً وفنيــاً؛ إلى تأكيد (الأنا) أنــا المثقَّف، أنا الشعــب المفكِّــرة؛ كقصدٍ وفعــل؛ كتفرُّد وكليَّة.

فمسرحه مــن «بائع الدبس الفقير» إلى «منمنمــات تاريخية»، هو بحــثٌ في ترقية شعور القــوَّة عند الضعيف /الحق/ الخير، حتىَّ يقوى، وما أن يصير باطلاً- شراً حتى يتخلــى عنه. هو هنا لا يسمِّن؛ يغذِّي الخير ليصيــر باطلاً، شراً، لأنَّــه نقيضه. بل هو يبحــث عن الحقيقة ليس لأنَّها مشكلة، لكن لأنَّها وجودٌ يمثِّــل (الله) بوصفه ملجأً، قوَّة يستغيث بها الضعيفُ فلا يتستَّر على الشر، فيزيِّف العقل، يزيِّــف العلم بعنفه ليضلِّلَنا، يخدعنا.

سعد الله ونوس فــي مسرحه، هو ضدّ تزييف الحقيقة بحجة الحفاظ على الحياة، فالمسرح غنيٌّ بقيم الجمال الذي فيه الخير، الذي يحمي الحيــاة؛ يحمينا من الإحباط، والسأم، والملــل، والضجر، والانغماس في العدم. هو في مسرحه يقهرُ البشر بوساطة البشر. لكنَّه يــرى أنَّ المسرح وحده من بين الفنون، كل الفنون، من يقدر على أن يصنع الحياة الكريمة؛ ووحده الذي يقدر على أن يغوينا بها.

فهــو يرفض حيــاة الخضــوع والفقر والدونيــة، والتخلي عن القــوَّة، التي فيها الخيــر كما فــي «يوم من زماننــا»، فيحقِّر الأنانية- المُخبر؛ العميل؛ المطيع الذي لا يفكِّــر في معصية الحاكــم، رغم ما يخفيه فــي أعماقــه من قــوَّة حيوانيــة متوحِّشة ومفترسة.

في مسرحيــة «الملك هو الملك»، يريد أن يُقنــع الشعب /المواطــن الذي تدعسه؛ تدوســه نعال الملك، بأنَّ هــذا الحق الذي للملــك إنَّما هو (باطــل)، فليس الملك في (الأسمــى) وليس له عندنــا كشعب من حقٍّ فطري فيدوسنا؛ يدوســ الأسمى الأعلى- الأدنى. فالأدنى هنا في مسرح ونوس، يمثِّل

الجمال الــذي فيه قداســة، القداسة التي فيها غضبه وثورتــه، التي هي ضد رغبات وشهوات الملــك. قداسة يحوِّلها الملك إلى سلعــة. شعبٌ سلعة، وطــنٌ سلعة، إلا الملك فهــو صاحب السلع/ السلعــة. ملكٌ، ملوكٌ مصابون بجنون العظمة والقوَّة.

سعد الله ونوس وإن كانت الأيديولوجيا كمــا يشتمُه بهــا بعضــ المتمسرحين من السوريين تغلِّف مسرحه، لكنَّها الأيديولوجيا التي تساعدنا للتمسُّك والمطالبة بحقنا في أن نعيش أحــراراً لا عبيداً، وليس بوصفها سرطان الحياة.

ما أحقــر العبيــد، يكتبــون ويثرثرون ويمثِّلون ويغارون من سعد الله ونوس، غيرانَ الخصيِّ مــن الفحل، عبيــد بسلوكهم وإن كانوا لايزالون يحملون؛ يحتفظون بصكوك الحريــة، حريَّتهــم، لأنَهم بوعيهــم الرديء يزيِّفون ويدمِّرون حريتهم، كونهم تعوَّدوا أن يعيشوا حياة القطيع، فدائماً هم في حالة من الرضا والتسليم: قدَّرَ الله، أرادَ الله، مشيئةُ الله، وينســون تاريخهــم العابــق بالخيانة، بالشبــق المؤامراتي في الســرِّ والعلانية، فيتزيَّنون بالمساحيق؛ بمسرحيات ومقالات وأشعــار ومؤتمــرات- مؤامــرات حاكوها ليخفــوا قباحتهم وجبنهــم وضعفهم، التي فضحها ونوس فــي مسرحياته؛ مسرحياته التي نــرى فيها الأكثر حزنــاً وشقاءً وبؤساً وضجراً بالحياة، يصيــر الأكثر روعة وقوَّة و(فرحــاً) حين يقلب هذه اللحظة (الحزن) رأساً علــى عقب، فيمنــع الرئيس، الملك، الأميــر، الشيخ. صاحب الفخامة؛ المعالي؛ السعادة، من أن يستفــرد بالحياة لحسابه، فلا يحوِّلنا في مَخابِــره إلى كائنات بشرية من نوع جديــد، نوع مستنسخ لا يعرف غير الطاعة الخالدة الجامــدة المتجمدة لمثل هؤلاء (الكراكــوزات) وهــم يعتمرون فوق رؤوسهم قبعة الأيديولوجيا، وبأيديهم عصا الأيديولوجيا، فيمــا يشتموننا وينهوننا عن الاقتــراب مــن الأيديولوجيــا. كراكوزات، عملاء، مخبرون، لكنَّهم من ملوك؛ يريدون أن يموتــوا فــي ساحات المعــارك لا على أسرَّتهــم ليصيــروا أبطــالاً. خونة يريدون أن يشلــوا الحركة الفكريــة للعقل الذي هو أنبل وأشرف المخلوقــات، فيحجروا عليه بالأوهام-توهيمــه- ويقيّــدوه بالخرافات، ويخرِّفوه.

كراكوزات؛ مسرحيون، مثقفون يريدون تحريضــ شهوة ولــذَّة السلطــات العربية لإجهاض الأمل، لشحنه بشبقيتهم، فيركبونه بتلك الوضاعة والنذالــة التي تربُّوا عليها، بصفتهم مخلوقات رخوية، بصفتهم عبيداً. فيا حُزن الفرسان.

٢- مسرح محمد الماغوط

علـى خـلاف المسـرح، أو النصوص الوعظيـة التي تطلب منـك أن ترفع يديك إلى فوق لتستنجـدَ أو تستغفر، فإنَّ مسرح محمد الماغوط يمدُّ يده- يدفع أيادينا إلى تحت «ليفرجيها» صـوت الأحداث لاصوت الكلمات؛ التـي تُصنع منها هذه التراجيديا التي نعيشهـا والتي اسمها زوراً حياة. وكأنَّ محمـد الماغـوط وبفطرتـه الثورية في أشعـاره وفي مسرحياته وفي مقالاته، ينعي حركة الثورة العربية التي لم تستطع أن تنتج معرفتها النظرية؛ وهذا ما أدَّى إلى إخفاقها في إنجاز مشروعها. فلا اليسار ولا اليمين ولا الوسـط الـذي بيـنَ بيـنْ؛ استطاع أن يفرِّق أو يستفيد مـن غيفارية «أرنستوتشي غيفارا»، ولا مـن غيفارية «أبا ذر الغفاري» الذي مات وحيداً في صحراء الربذة.

محمـد الماغوط فـي مسرحه كما في شعره، نعـى الثورة والثورييـن، ولم يندمج بهما. بـل شقَّ طريقـه لوحـده، واستطاع بنزعته الفردية التي بدت فوضوية وإلى حدٍ ما متطرِّفـة أن يربح صفَّ الشارع الشعبي، حتى تلك السلطـة (الثوروية) التي هجاها، بـل التي انتقدها في مسرحه كانت مرتاحةً له، وعندمـا نزلت إلـى الشـارع بصفتها مواطنـة وشافت مسرحـه -رأت فيما بعد أن تستخدمـه في تحريـر الفرد/المواطن من سخطـه عليهـا- أي رأت أنَّه يمكن أن ينفِّس عن ضيق وكرب هذه الجماهير، وهنا رأى المواطن العربي فـي الماغوط مثقَّفاً (فطريـاً) ما يـزال يحافظ علـى طهارته القومية. من جانب آخر؛ كان الماغوط يثير فـي مسرحه اللعبة الأيديولوجية ويدفع بها نحو الانفجـار، وهي أيديولوجيـا السلطة العربية- أيديولوجيا القمع، وظهرت أفكاره، وآراؤه المعارِضة لـكلِّ أشكال الهيمنة التي يتعرَّض لها المواطن في معظم مسرحياته، وبدا الماغـوط ديمقراطياً هازئـاً ساخراً ناقماً وليس حاقداً. كما ظهر حنينه لكلِّ ما هو طبيعي وشعبي، بل وافتتانه به- افتتانه بالشعبـي وباندفاعاتـه الطبيعية،فبـدت شخصياتـه شديـدة التجريـد (الكهـل- الطالب) في مسرحية «العصفور الأحدب»، و(المهـرِّج- صقـر- دحام) فـي مسرحية المهرِّج .

في مسرحية «المهرِّج» ثمَّة ظاهرة- هي موقفٌ نجده في مسـرح الماغوط، وكذلك في شعره، وهو أنَّ حريَّته الشخصية تصطدم وبشكل مباشـر مع القانون الـذي تشرِّعه الدولة القمعية، وذلك لأنَّه يريد أن يستعيد دور المثقَّـف الناقـد، وليـس دور المثقَّف الهلامـي، فنـراه- نـرى الصـراع تحرِّكه حماسـة أخلاقية، هنا الماغوط يستند إلى مرجعيـات أخلاقيـة هي فطريـة شعبية-

أخذ منها عهداً علـى نفسه بأن يعمل على تحقيق أهدافهـا السامية، فصرنا نرى في مسرحه البشاعة -بشاعـة القمع تصطدم مع عذابات الـروح- روحه، فتسمو المعاناة التراجيديـة لأبطاله وخاصَّـة في مسرحه الذي اشتغله مع «دريد لحام»، فبطله يدخل الزمن المسرحي جريحاً، ويخرج منه جريئاً جريحـاً، وهو يحسُّ بالخجـل النبيل،لأنَّ أهدافه /أحلامـه لم يقدر على تجسيدها، فالسلطـة القمعية ماتزال تسـوِّر أحلامه، ماتزال تسجنها، فهي ترعى الفساد والرشوة والغشـ والتسيُّب والفوضى. بـل وشجَّعت علـى تكريس قطيـع (المتنمرين) الذين لا يردعهم ضميرٌ أو وجـدان، ولا تفيد معهم الشكـوى ولا الدمـوع ولا صرخات الرجاء، بأنَّ ما يفعلونه هو اغتصاب لعذرية الشرف الوطني والقومي، وهـدرٌ لروح المقاومة - مقاومة أي عدوان/ اعتداء خارجي قد يقع على الوطن.

لـذا نرى الماغـوط بقدر مـا يتمسَّك بحريَّة روحه ويدافع عنها- يدفعها للصدام مع قوانين الدولة القمعية، نراه وبقوَّة الشعر الـذي يسكنه يشـقُّ عن الدولـة هذه ثوب الوقار- ثوب وقارها ينزعه. فصراعه معها هـو صراعٌ أخلاقي، ومعركتـه معها معركة رجوليـة فارسـ لفارس، وعشـرة لفارس. فينشر غضبه علـى كامل الزمن المسرحي وقد مسَّنا لهبه، فلا يعود قبح الدولة القامعة قبحـاً جميلاً، كمـا تُصوِّر هـي نفسها به، فالطبيعة البشريـة بفطرتها، وبمرجعياتها الشعبية التي تسكن أعماقه صارت تحرِّك، صارت تصنع الفعل التراجيدي لشخصياته وتشوفها وقـد أصبحت شخصيات مرعبة، لأنَّها شخصيات متماسكة روحانياً وعقلانياً، شخصيات تنتزع حقـاً ضائعاً، مضيَّعاً لها، فلا تبطش ولا تقمـع، بل تقاتل وبفروسيةٍ؛ الشهوةَ العمياء للتنمُّر عند قطيع المتنمرين الذيـن يرعون في جسد وروح الوطن، ومردُّ هذا إلى غزارة أفـكاره التي يُصيِّرها فعلاً تراجيدياً، وإلى تدفقها بسلاسة ومرونة.

قد يخطر لدارس مسـرح الماغوط أنَّ شخصياته تحمل قـدراً من السوقية بسبب من إفراطها فـي إظهار مشاعرها الحاقدة والغاضبـة وبهزء وسخريـة مريرتين، لكن هذا لا يقلِّـل من سموِّ طبيعتهـا الفطرية، لأنَّ غضبهـا أساسه الحـزن- هو من جرح ينزف حزناً قديماً- دمـاً حزيناً فيه صورةٌ لمشاعرهـا السياسيـة النبيلـة، التي هي مشاعر بطولية.

فالماغـوط أيـن (يدفِّر) بـل أين يفرُّ بأهـواء هـذه الشخصيات التـي اغتُصِبَ وانتُهِـكَ حقَّها في ممارسة حياتها بحريَّة؟. هو سيبقى في الأرض، ولن يهرب منها إلى الفردوس. الماغوط سيبقى يبحث ويجتهد

فـــي الشأن الأرضي- وكما قلنا في السفلي، ولن يرفـــع عينيـــه أو يديه إلـــى العلوي لا بصفتـــه سيصنع معجزات، ولكـــن بصفته فارســـاً محارباً ولو اضطرَّ أن يحارب بفأس الحطَّـــاب أو بأصابع يديـــه التي تسيل منها مفرداته اللغوية.

هذه المفردات والتي رغم شعبيتها، فإنَّها لم تكن مفردات متقوقعة على ذاتها- ثمَّ إنَّ الماغوط لـــم يُقِم مسرحه علـــى المواقف اللغويـــة فحســـب، بل هـــو اجتـــرح اللغة، أخرجها من خدرها، مـــن نعاسها، ودفشها إلـــى المحافـــل الرسمية والشعبيـــة، وإلى مجالســـ السمر والعزاء، وأطلق لها لسانها، فكَّ عقدة خجلها وحيائها ، فصارت تتنفَّس وتصرخ حين تتوجَّع بلا حرج وبأعلى صوتها حتى لو أخطأت، والماغوط يدرك أنَّ اللغة تحمل فـــي معناهـــا دلالات، إشارات،لأنَّها تعبِّر عن أفكار.

فـــي مسرحيتـــه «العصفـــور الأحدب» يقول صانـــع الأحذية للكهل في جواب على سؤال له (ماذا تشتهي)؟ فيجيبه: أشتهي أن أصنع خفَّاً من المطر لكلِّ الحقول الحافية في العالم. فتشـــوف أنَّ صانع الأحذية لَزِمَ مهنتـــه ولـــم يطالبنا بـــأن يصنـــع سجناً أو طائـــرة. لكنَّه عبَّر عن فكرتـــه/ حلمه، بعد أن يئســـ من البشر؛ مِـــنْ صنع أحذيةٍ لهم- وبجـــلاءٍ وصفاء قبضنـــا فيهما على لحظةٍ من أشدِّ لحظات المكاشفة مع النفس حين تتكلَّم بصوت الضمير الجمعي للأمَّة، فكان مفاجئـــاً، لكنَّه لم يكن غريباً رغم سرياليته. فمن المستحيل صنع خـــفٍ من حبَّاتِ، من قطراتِ المطـــر وللحقول كـــي تمشي بها، الماغـــوط هنـــا وبسريالية فيهـــا صوفية، فيها عشق يتوحَّد فيـــه العاشق بالمعشوق، يفرجينا صورة من أغرب الصور السريالية: الحقول وهي تنتعل خفاً من قطرات المطر وتتمشَّـــى، فتتبـــادل الزيارات فيمـــا بينها، وربَّما، ربَّما تلعـــب بخفِّها هذا بالكرة حين ترمي به الجســـد وقد انسحبت منه الروح. الماغـــوط يرفع الغطاء ، فـــلا حجاب بينه وبين اللغـــة -هو يفجِّر خيالاتهـــا، يحرِّكها لترسم صـــوراً جديدة يدافع فيها عن موته، صوراً تنتشي باللغة- مفردة تخطف قارئها فيسكـــر. قد يشعر القـــارئ أحياناً أنَّها لغة يوميـــة، والماغوط يرسم بهـــا (كاريكاتيراً) ساخراً وساخطـــاً، وسخريته لاذعة حارقة، لكنَّهـــا- وهذه تُحسب له، لغـــة صامدة أوَّلاً لأنَّها تسخر مـــن المبتذَل والتافِـــه. وثانياً لأنَّها مغمَّسة بنشاطٍ رجولي- رجولة الشعبي الذي لا يخون، وإن ماتَ فيموت واقفاً.

مسرح الماغوط كمـــا العقل، فلا يلتزم إلا بما هو عقلي، فيستخدم عقله بكل جرأةٍ وشجاعة، حتى لو أشهرَ مَنْ أشهرَ في وجهه سيفَ/ســـلاحَ التكفير. إذ كيف سيُصدِّقُ أنَّ

القنبلة التي ألقتها أميركا وتلقيها إسرائيل في العراق وسورية وفي الجنوب اللبناني، إنَّما هي برتقالة أو تفاحة. مسرحُ الماغوط على قلّة نصوصه وليس كثرتها، يدفع العقل إلى التحرُّر من «الدوغما» السماوية والأرضية، فيذهب إلى الحرية والإبداع فلا يستسلم، لا يسلِّم الراية، فيما لو -كما ذكرنا آنفاً- اتَّهَمَتْهُ بالكفر والزندقة، ومهما كان شكل ولون سيف القهر والتسلط والإرهاب الذي تمارسه عليه قوياً وعنيفاً. إذ كيف تسلبه حقَّه في التفكير والتفسير والتأويل وهو سيِّد المخلوقات!؟. مسرحُ الماغوط وبطبيعته الفطرية يفرِّقُ بين السلوك الوحشي وبين القيم المتوحِّشة، فلا يسمح باستباحة حقوق العقل/ حقوق الإنسان من حقِّ الحياة إلى حقِّ المواطنة، فحقِّ التفكير والاعتقاد، فلا نموت تلك الميتة الحضارية، وندفن في تلك المقبرة الجماعية، ويُكتب على شاهدتها: كانت خير أمَّةٍ أخرجت للناس.

٣- مسرح ممدوح عدوان

ممدوح عدوان كان يلزمه أكثر من حياة، كي يعيش مايلزمه من حياة وكان يلزمه كل الأجناس الأدبية والفنية، وإذا لزم أيضاً، اخترع أجناساً جديدة لتتَّسع لما يودُّ أن يقوله في الحياة. ممدوح كان يتأمَّل، كان يفكِّر في ذاته كفرد، وفي ذاته كأمَّة. وكان يرى أنَّه لوحده يشكِّل قوَّة خاصَّة، قوَّة فيها بطولة. وكان رصيده من الأعداء أكثر من رصيده الذي يملكه من الأصدقاء،وكان دائماً على (نفير). فوعيه النقدي كان يدفعه للفعل- فعل الحكي الذي لا ينفكُّ عنه؛ وفعل الكتابة الذي يعدل فيه الحياة -يصحِّح لها مسارها- وفي كل هذا كان جدياً، حتى وإن مازحكَ فهو جدِّيٌ، هو يقرأ بجدِّية كما يحلِّل ويكتب بجدِّية.

عندما كتب مسرحيته «هاملت يستيقظ متأخراً» كان يبرز تناقضات الأنظمة العربية، والتي سيفرُّ بعضها أو أحدها إلى الصلح مع العدو الإسرائيلي. ليست نبوءة؛ ولكنَّها فلسفة المثقف العضوي الذي ينظر إلى السياسة على أنَّها ترجمة لتفكير أنظمة علاقاتها بأمَّتها، علاقة أستاذ بتلاميذه. مسرحه/مسرحياته التي كتبها (٢٧) مسرحية، على ضعفها وعلى قوَّتها فنياً وفكرياً، كانت أكثر من بحث، وأكثر من دراسة، ضمَّنها فكره الفلسفي الذي كان فيه حرَّ التفكير. إذ كان ضدَّ كل التيارات بما فيها اليسار، لكنَّه لم يكن ضدَّ أمَّته، بل كان يفكِّر ويتأمَّل ويحارب عنها، تفكيره كان تعبيراً عن مزاج جماهيري عام، وشخصيات مسرحياته كانت تعبِّر عن روح التمرُّد لدى هذه الجماهير. شخصياتٌ عكست

-أو عكسَ ممدوح عدوان من خلالها- خصوصية مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، باعتبارها مرحلة الهزيمة، المرحلة التي خيَّمت فيها الهزيمة بكلِّ ثقلها على معنويات هذه الجماهير.

هو لم يفعل مثلما فعل سعد الله ونوس؛ أقام مذبحته، أقام وليمته العظيمة في مسرحيته «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران»؛ ممدوح بقوَّة فكره الشعبي، كفلاح، وبقوَّة حسِّه وحدسه الشخصي كمتعلِّم جرح كرامته بقاء السيف معلقاً على الجدار؛ استيقظ عنده الشعور القومي، فصار يلاطمنا بحثاً عن قوَّة الجماهير القومية الشعبية، وكيف تمَّ التفريط بها، كيف تمَّ تدجينها. طبعاً ممدوح وكأيِّ مثقفٍ عضوي، لا يمكن أن يقوم بمهام الزعيم القومي، الزعيم الموحِّد. لكن يمكن أن يكون زعيماً ثقافياً، أو المثقف الزعيم غير المتوَّج.

لذا مسرحياته كانت تنقل صراعها، أو كان الصراع الذي فيها يصدمنا/يصطدم معنا؛ لأنَّها كانت تبدأ نزاعاً خفيفاً، بسيطاً، عفوياً، ثمَّ يسخن، يسخن حتى يصير صراعاً وينفجر.

ممدوح في هذه الصراعات التي في مسرحياته لم يكن يرى الناس، البشر بما فيهم «أكلة لحوم البشر» وهي إحدى (مونودراماته) أكثر من ضحايا فقر، بل ضحايا مستبد.

ففي«هاملت يستيقظ متأخراً» يرى ممدوح أن نخلعَ؛ أن نشيلَ أنظمة الخيانة، نقلعها، نجتثها. فكلُّ دولةٍ تنتج الفساد من عهرٍ ودعارةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وثقافيةٍ- هاملت كان منشغلاً بالثقافة- هي آيلة إلى الخيانة وليس للسقوط. فهاملت كان عليه أن يغيِّر الملك (عمَّه) قاتل أبيه مع حاشية الدولة، فهذا مطلب شعبي، مطلب الشعب، لا أن يثأر لمقتل أبيه. هاملت لم يسرق، ولم يهرِّب ثروات المملكة، ولم (يصالح) عدو المملكة التاريخي (فورتينبراس). لكنَّه بانشغاله بالثأر -أي بالشأن الشخصي- فوَّت عليه، على الأمَّة كل فرص الحياة الكريمة التي كانت في متناوله. فيتم الصلح مع العدو، ويسمن ويثرى القتلة والمرتشون والمفسدون، ويموت هاملت شرَّ ميتة في مبارزة مفتعلة.

ممدوح في مسرحيته هذه كان يكزُّ على أسنانه وهو يرى القاهر العربي يصير مقهوراً ذليلاً أمام عدوه التاريخي، كيف يردُّ له روحه؟.

ممدوح ومن قبل وفي مسرحيته «كيف تركت السيف»حاول طويلاً أن يوقف هذه الكارثة. لـ «نيتشه» مقولة تفيد: (أنَّ الدولة هي أكثر المخلوقات غلاظة وبشاعة، فهي تكذب ببرودة عندما تقول: (أنا الدولة صوت الشعب). هنا الدولة، دولة الأغنياء؛

الدولــة التي حاول إقناعها أبو ذر الغفاري فــي أن تعطي بعض مالهــا للفقراء!!، لكن أي أغنياء هــؤلاء؟.. أليسوا الأغنياء الذين امتصّوا ثــورة الإسلام وصيّروها دولة فيما بعد حَمَتهم وحَمَت أموالهم وأعراضهم؟.

ممدوح يحاكم يحــاور أباذر. صحيح أن عثمــان بن عفان الخليفــة الثالث نفاه إلى صحــراء الربــذة، حيث مات هنــاك أبوذر وحيــداً -لقد كان عثمــان أثرى أثرياء مكة قبل الدعــوة- إلاَّ أن ممــدوح والذي تركنا نرى أباذر شخصية حية، أكثر منها شخصية استعاديــة، كان يريد أن يقــول على لســان أبي ذر:

كلُّ حــق لاتسنده القوَّة هو باطلٌ، يصير باطلاً ما لم تشهر السيف- تدعمه بالسيف. ممــدوح في «كيف تركــت السيف» كما في «هاملت يستيقــظ متأخراً» وفــي «الغول» و«ليل العبيد» هو يريد أن يهزَّنا، يلذعنا، بل يجدع أنفنا،- فالموت لــم يعد موتاً، مثلما الحريَّة لم تعد حريَّة. ف «وحشي» الذي قتلَ حمزة عم الرسول (صلــى الله عليه وسلم) ثمناً لحريَّته، القتل×الحريَّة، في مسرحيته «ليل العبيد» وجدَ في نفسه أنَّ هذه الحريَّة لــم تمــحُ عبوديته، بقيــت الحريَّة في هذه الحالة مثل العبودية، بينما(بلال) وجد فيها إنسانيته حين صار يدافع عن الدين الجديد. في مسرحية «ليل العبيد» يحيلنا إلى قراءة الحريَّة فــي بداوتها- الحطيئــة ووحشي؛ فالحطيئة يأخذ علــى وحشي حيازته على الحرية مقابل قتل رجل هو حمزة عمُّ النبي (صلــى الله عليــه وسلم)- القتــل من أجل الحرية- بقوله مستنكراً: (ألم تجد ياوحشي سبباً أفضل من القتل لتنال حريَّتك؟).

لأنَّ الحطيئة وهو الحــرُّ الذي لايملكه أحد؛ يجد نفسه أتعس (عبد) في بلاد العرب كلها، بل نراه يصعِّد غضبه ويقول لوحشي: (أنــت تكره عبوديتك ولا تكره مستعبديك). وحشي يكره حريَّته- فأبو سفيان يطرده من مجلسه فهو ما يزال يراه عبداً، على الرغم من أنَّ زوجته هند هي التي أعتقته. فلا هو حرٌّ ولا هو عبد؟! وحتىَّ يتأكَّد من ذلك تراه يعرضــ نفسه للبيع في ســوق النخاسة فلا يجد من يشتريه؛ فيعرض، يقدِّم، يهب حاله عبداً لهند فترفضه.

إنَّهــا لعنة الحريَّة التــي نالها وحشي بـ (الغــدر) الغدر= الحريــة. لذلك لم يستفد منهــا، صــارت تشــكِّل ثقلاً علــى روحه، ضجــر منها، صارت تستعبده. ولهذا فقدت صلاحيتها رغم أنَّــه أسلم وعفا عنه رسول الله (صلــى الله عليه وسلــم). هنا تنهض الحريَّة، أو ستنهضــ من جديد، فإذا كانت فــي مسرحية «ليل العبيــد» مطلباً فردياً- شخصيــاً- لكلٍ من وحشي وبلال، فإنَّها في مسرحيــة «الغول» والتــي تتناول فترة حكم

السلطان العثماني جمال باشا الذي أعدمَ في مطلع القرن الفائت وفي السادس من أيار عدداً من الزعماء الوطنيين في كلٍ من دمشق وبيروت على خشبات المشانق، مطلباً شعبياً.

هنا ممدوح يواجه الدولة المستبدَّة، الدولة التي تقطع، وتطحن وتحيي وتميت كما يقول جمال باشا في المسرحية في حوار بينه وبين المراسل الذي يخبره فيها بأنَّ «شكري القوتلي» قد انتحر. كيف ينتحر؟ يقول جمال باشا للمراسل: (من المسؤول عن المساجين في الخان -خان أسعد باشا- ؟ أريد أن أراه اليوم على الخازوق. مفهوم؟ يجب وضع حدٍ لهذه الفوضى، تصوَّر ماذا يحدث لو أنَّ الجميع يفعلون مثل شكري القوتلي، أن يقرِّر أيُّ إنسان منهم أن يموت ساعة يشاءْ. ماذا أشتغل أنا إذاً:

أفهمني. أتعرف ماذا يعني انتحار شكري القوتلي؟

يعني أنَّه يقول لي: طز، نعم، طز في عظمتك وفي دولتك، ها أنذا أموت ساعة أشاء ولا تظل لك سلطة علي، اسمع، لا تقولوا لأحدٍ إنَّ شكري القوتلي قد انتحر، علِّقوه على المشنقة حتى وهو ميِّت).ما يذكِّرنا، الأمر الذي يذكِّرنا، بمقولة للكواكبي: لو خُيِّرت ملكة بريطانيا (فيكتوريا) بين أن تحكم بالديمقراطية مدى الحياة، وبين أن تحكم مستبدة خمس دقائق، لاختارت أن تحكم... دقائق.

ممدوح عدوان في مسرحه كما في حياته كان يتميَّز عن غيره من المثقفين السوريين، بأنَّه كان يملك إرادة استثنائية؛ كان صريحاً حتى لتحسبه وقحاً، وجريئاً حتى لتحسب أنَّه عدوُّك. ممدوح لم يكن من السهل أبداً إقناعه أنَّ أميركا، أو الإمبريالية ومن ثم العولمة هي التي تحرم شعوب العالم، بما فيها الشعب العربي، من حقِّ الاستمتاع والتلذُّذ بنعمة الديمقراطية. ومقاومته في شعره كما في مسرحه للاستبداد، لم يكن بحثاً عن بطولة، بل كان إبرازاً للرعب والقسوة المفرطة التي نمارسها على بعضنا.

فالفعل المسرحي عنده كان ترجمةً للحيونة والنمرنة والقمعنة والوحشنة والوسخنة والسلبطة. ترجمةً شفناها في تعابير مصوَّرة، في سخرية عارية لا تخشى أحداً ولا تكترث به مهما كان شأنه. ممدوح سعى في مسرحه إلى تحطيم الأوثان التي من نوع العجول الذهبية التي تسكن أعماقنا، فهزَّنا، هزَّنا بعنف. قد يقول قائل: ولكنَّه كان قروياً- لم يحدِّث ثقافته.

ونقول بقيت قرويته؛ بقيت بدويته في أعماقه، فكانت بنبرتها (الصاغ) الساخطة الساخرة الناقمة تولِّد حداثتها.

تأمــلات ثقافيـــة

عبد الباقي يوسف *

معضلة اللاحكمة

عندمـا يفقـد الإنسان الحكمـة، فإنه يصبـح في تيـه وشتات من أمـره، ولذلك فإن الحكمة هي المشكاة التي يستهدي بها الإنسان في سائر شؤون حياته.

لعل أكثر ما يفتقده عصرنا، هو افتقاده إلـى روح الحكمة، حيث باتت الحكمة نادرة في جـل السلوكيـات، والمواقـف، وردّات الفعل سواء التي نعيشها في حياتنا اليومية، أو التي نشاهدها في وسائل الإعلام.

* أديب وناقد

والحقيقـة، أنَّ الحكمة تقـدم التهدئة والعـلاج لسائر الإشـكالات التي يستعصي علـى الإنسان علاجها، والحكمة تعني فيما تعنيـه، أن يضـع المرء الأمـر في موضعه المناسب بذكاء حتـى لايرتدّ عليه. تعرفتُ أكثـر مـا تعرفـت علـى روح الحكمة من خلال دخولي إلـى عالم قطب الحكمة في التاريـخ الإنساني (لقمـان الحكيم) عندما اقتنعتُ بجـدوى كتابة رواية عنه هي رواية (إمـام الحكمة) التي طبعتها وزارة الأوقاف الكويتيـة سنـة ٢٠١٠م، واقتصـرت على تقديمهـا كهدية لضيـوف الكويت، دون أن تأذن لبيعها في المكتبات لتكون في متناول الناس عامة.

أمضيتُ سنوات عـدة، أقرأ فيها كل ما هو متعلق بلقمـان الحكيم سواء من قريب، أو من بعيد، ثم قمـت بجمع كل ما أمكنني من حكمة قالهـا، عندئذ باشرتُ العمل في هذه الرواية.

إنَّهـا حكمة متجددة تصلـح لإنسان كل زمـان ومكان، هذا الرجـل الذي بلغ مرتبة متطورة من عبقريـة الحكمة إلى درجة أن استشهـد الله بحكمته، وحملـت سورة من القرآن اسمه.

لقمان الحكيم الذي قال ذات يوم لرجل: إن كنت تراني غليـظ الشفتين، فإنه يخرج من بينهما كلام أبيض، إن كنت تراني أسود، فقلبي أبيض.

إنَّ لقمان الحكيم لا يتحدّث إلا الحكمة، وكل كلامـه فـي جـل أوقاتـه حكمة في حكمة.

وواقـع الأمـر أن الإنسـان الحكيم هو إنسـان قدوة للناس في سائـر أوقاته، فإن الناسـ يأخـذون عنه ويتخذونـه قدوة في أقواله وأفعاله.

لننظر إليه كيف يتعامل مع الناس، حتى أولئك الذين يريدون الإساءة إليه، فذات يوم تقدّم إليه رجل وسط جمع من الناس وأراد أن يستفزه قائلاً: ما أقبح وجهك يا لقمان

غـرق لقمان فـي صمت، وهـو يكظم غيظه، بيـد أن الرجل أعـاد كلامه وطلب الإجابة.

عنـد ذاك نظر إليه لقمان وقال بهدوء: أتعيب على النقش، أم على النقاش؟!

لقد نبّه لقمان الحكيم إلى أوبئة الجمود التي تصيب عقل الإنسان وقلبه، ولذلك دعا إلى أن يجدّد الإنسان نفسه، وليس من سبيل شطـر تجديد النفس البشريـة سوى سبيل الإشراق الفكري.

يبقـى أمام الإنسان أن يعمل جاهداً في تحصيل العلم كي يطوّر نفسه ويبني أواصر

متينة بينـه وبين المتلقيـن لحديثه، وكلما اتسعت مطالعاتـه، واتسعت دائرة علاقاته وولوجه إلى قاع المجتمع، استطاع أن يترك أثراً، ويمتلك مقدرة حقيقية على تغيير الناس وتطويرهم، وفي هـذا يقول لقمان الحكيم على شكل وصيـة: (تعلم الحكمة وأخلاقَها كلها، واجعلها لك شغلا، وفرّغ نفسك لها.

أسرع إلى كسبها، وأبطئ إذا أنفقتها، وقر عينا إذا جمعتها، واعلم أن الحكمة لاتصلح إلا بالليـن، وأن اللين جـراب الحكمة، وأن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة ما في يدَي غير خازنه أباحه سارقـا ووجده مَعوزا، أو كمثل غنمٍ تروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدهـا ضائعة فأكلهـا، وتعاهد مع ذلك لسانك، واعلم أن اللسان باب الحكمة، فإذا ضيعـت الباب دخل مـن لا تريد أن يدخل، فإذا حفظته حفظت الخزانة، وإن من ملك لسانـه إن قال، قال بعلم، وإن صمت صمت بحلم.

إذا رأى لقولـه قرارا تكلـم، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد، وإن استنطقه السفهاء صمت.

من خلال شخصية لقمان الحكيم يتبيّن لنا أن من الناس ناس يقودون أنفسهم قيادات فكريـة سليمة، ومنهم من يقـودون أنفسهم ويقودون عائلاتهم قيادة فكرية سليمة، ومن الناس ناسـ يقودون أمة كاملة قيادة فكرية سليمـة، فكم من رجل استطـاع بمفرده أن يكـون علامة مضيئة من علامات مجتمعه، حتى بات عصـر بأكمله يُعرف بقائد الفكر هذا دون غيره، وإذا تأملنا سيرة حياة لقمان الحكيم، نـراه كان دائم التفكر، ومن خلال علاقاته وتأملاته في ملكوت الكون وفي نفس الإنسان، أخرج جواهر حكمته.

عبء الإعلام

تحوّلت وسائل الإعلام إلى وبال وقـع على الشعوب العربيـة، وقـاد الانفتاح الإنساني إلـى أبواب مسدودة، وأمسـت التكنولوجيا المعاصـرة عبئاً ترزح تحتـه غالبية الدول العربية.

عندما بدأت ثورة الأنفوميديا المعاصرة تتسرّب إلى بلدان العالـم العربي المنسي، يبـدو أنـه لم يكـن مؤهـلاً بشـكل جيد لاستخدام هذه التكنولوجيا المعاصرة، ومع مرور السنوات، بـدأت هذه الثورة تنال من بنية هذه المجتمعـات العربية، وتعمل على تفكيكها، حتـى تكلل ذلك بأكبـر انعطافة شهدتها المنطقة العربية.

رأينا كيف أن هـذه البرامج باتت تُسهم فـي إرواء نزعـة العـداوة وتقويتهـا بين

الطرفين، عندما أخذت تأتي بشخصين، كل واحد يمثــل الاتجاه المعاكس للآخر، وبات مدير الحوار يعتقد بأنه يبلغ النجاح وحسن الإدارة على قدر ما يؤجج الخلاف، ويزيده إشعــالاً بين هذيــن الشخصيــن الممثلين لجهتين، حتى بات هذا المدير يشبه الديك، ينفش ريشه ويتبختــر على قدر نجاحه في ارتفاع حــدة التصعيد إلــى درجة انحدار الحــوار إلى جملة شتائــم واتهامات يكيلها أحدهما للآخر، والحقيقة أن الإنسان يحق لــه أن يشعر بالفخر والنجــاح عندما يردم هــوة بين شخصين، لا عندما يصعّد بينهما العداوة والبغضاء.

ثــم من ناحية أخرى أطــل علينا أناس بذقــون، يرتــدون جبباً وعمامــات، وباتوا ينادون بفتنة بين المكوّنات الإسلامية ذاتها، ثــم بفتنة بين المكوّنــات العرقية والدينية، والثقافية.

إنَّ مجرد النظر إلى أربع سنوات مضت، يرينا تلــك المنجزات السوداء التي حققتها تلك الوسائل الإعلاميــة، وسوف نرانا إزاء كــوارث بشرية مفزعة لعلها لم تكن لتُرتكب لولا وجود هذه الوسائل، لأنها ارتكبت فقط في سبيــل إظهارها في تلــك الوسائل، ويا لتلــك المشاهد المأساويــة المزرية عندما ترى هؤلاء في أروقة المحاكم، وهم يحملون القرآن بتلك الأيدي الملطخة بدماء النساء والأطفال والسياح ومحبي الحياة والرفاهية، والقــرآن الــذي لا يتشرف بــأن يمسه إلا المطهــرون، فمــن المحقــق لا يتشرف أن يمسه قتلــة الأبرياء، ولا تحمله تلك الأيدي اللعينــة التي تمتهن مهنة قتل عباد الله في أرضه، وانتهــاك كل الحرمات الإلهية التي حفظها القرآن.

بتنــا في واقــع مرعب باتــت القنوات الفضائية مصدر فــزع للناس، حتى بدؤوا يتحاشونهــا، لأنهــا تحولــت إلــى مسرح لكل هــذه الانتهــاكات الإنسانية، وهي في حقيقتهــا وسائــل ترفيهية مسليــة للناس استبشر الناس بها خيراً عند ظهورها، كما الأمــر بالنسبة لوسائــل التواصل الإنساني الأخــرى مــن هواتــف محمولــة، ورسائل إلكترونيــة، وصفحــات شخصيــة تيســر التعارف والمودة والتعاضد بين الناس، وقد وُجدت بالأصل لهذا الغرض، وهذا ما تتبعه المجتمعــات المتحضرة، حيــث تحقق لها هذه التكنولوجيا عوامل الرفاهية والازدهار والتطــور، بيــد أنها عندما حلــت في ديار العــرب والمسلمين، تــم استخدامها لنشر الفتن، وإعطاء صــورة سلبية عن الإسلام، وإظهار مــدى ما يبلغه الناســ مع بعضهم البعض من درجات الوحشية التي لا موضع

للرأفة والرحمة فيهــا، فهذه الوسائل باتت تصور كل تلك الممارسات الجاهلية الأولى التي جــاء الإسلام وأوقفها، بيــد أنها الآن تُمارس على أنها من متن الإسلام، ومَنْ يقوم بها هم مسلمون يحملون بأياديهم القرآن في قاعات المحاكــم الضخمة في العالم. وقد تم ضبطهم وهم يقومون بتفخيخ المطاعم، أو الســكك الحديديــة، أو المطــارات، أو أنهم يحتجزون طائــرات مدنية بركابها، أو يتخذون رهائن من المدنيين العزل.

إنَّ غالبية هذه الانتهاكات لعلها لم تكن تحدث لو لم تكــن بنيّة إظهارها في وسائل الإعــلام، وإن نظرت إلى بعضها، ترى بأنها صُــورت، وأُخرجــت وفــق أحــدث معايير الإنتاج، ولعل بعض هذه الأفلام يتم إنتاجها وتقديمهــا في شــركات إنتــاج محترفة، لا تنتمــي إلى هذه الجهــات، بيد أنها تحصل على أموال طائلة نظيــر إنتاج هذه الأفلام وفق هذه التقنيات الحديثة.

هيبــة المعلّم

المعلّم في نظــر تلميذه الطفل هو عالم مــن المعرفة والنضج والقــدوة، وعلى هذا المفهوم يتولــد شعور بالتبجيل والتقدير في نفوس هؤلاء التلاميــذ تجاه معلميهم، فهو يعرف مــالا يعرفون، ويدرك مــالا يدركون، ويــرى مالا يرون، والتلميذ فــي نظر معلمه مهمــا كان متقدما في الصفــوف، فإنه مثل طير وليد يتعلم الطيران للتو، ولذلك فإن أي تلميذ وفي أي مرحلة دراسية يحب أن يكون معلمه قدوة له.

عندمــا يتعامل الطفل مــع معلمه، فإنه يشم رائحــة الأبوة من هــذا التعامل، لكنها هذه المرة أبوة الدراسة والتعليم والتحرر من الأمية، وتعلم القراءة والكتابة، والانفتاح على معارف ومعلومات جديدة يدركها لأول مرة.

يلمس شيئا من الأبوة التربوية والتعليمية والمعرفيــة في شخصية وسلوك معلمه إلى جانب منارة القدوة الحسنــة والتخيّل بأنه ذات يــوم سوف يقف في مقامه، وعلى ذلك فإن المعلــم الماهر لا يكــون منارة وقدوة للطفل إلا على قدر ما يلمس شيئا من البنوة لديهم ، إنــه يعيش معهــم بالفعل حميمية مشاعر الأبوة.

يــؤدي المعلــم وظيفة هامة فــي بنية المجتمع، ويسهم في صناعة جيل مستقبلي جديــد، وأي مرحلة متقدمــة من المراحل المزدهــرة التي تقوم بهــا المجتمعات من ثــورات فكرية، أو علمية، أو تقنية، أو فنية، أو أدبيــة، فإن لمعلمي تلك الأجيال فضلهم الجليل علــى ولادة تلك المنجزات البشرية الانتقالية الكبرى، ذلــك أنهم غرسوا بذور العبقريــة في نفوس الأطفــال الذين قاموا

بتقدم تلك المنجزات الكبرى عندما كبروا، إنهم يقفون على سواعد معلميهم ومربيهم.

إنَّ وظيفة المعلم لا تنتهي لدى خروجه من باب المدرسة، أو مــن درس خاص، بل هي شبيهة بوظيفة الأديب، فهما يلبثان في بحث مستمر عــن مصادر التطوير الفكري والتثقيف الذاتي.

يطــور المعلم دائــرة معارفه بالاطلاع والمناشط التثقيفية والاجتماعية والتربوية، فهو لن يؤدي وظيفتــه المعرفية والتعليمية التنويريــة بصورة حسنة مــا لم يكن ملما بتفاصيــل إيقاع المجتمع الــذي يقوم فيه بهذه المهمة البالغة الخطورة والحساسية.

المعلم هــو شعلة استنــارة متقدة، وهو شخصــ متكلــم بامتيــاز ومتقــن لألفاظ التأثيــر والإقناع، يمضي وقتــا طويلا في الحديث والتمهيد لدرســ جديد، ثم يتولى شرح هــذا الدرس وفق مفهومــه وتطلعاته المستقبلية فيستأنس لحديثه التلاميذ إلى جانــب شعورهم بالمتعــة لاكتساب معارف جديــدة والتخلص من الأميتيــن التعليمية والمعرفية.

عزلة كولن ولسن

يُعد كولن ولسن من الأسماء المؤثرة على تغيير نمط التفكير البشري سواء في القارة الأوروبية، أو في سائر أنحاء العالم.

لقــد أسس هذا الرجــل العبقري لبنية تحليلية بالغــة الحساسية بالنسبة للنزعات الإنسانية، ولعــل أكثر ما اشتغل عليه ولسن هو مسألــة اللاانتماء التــي تتسبب بعض الظروف في تعزيزها لدى الأفراد، وكذلك لدى الشعوب.

استطاعــت أفكار ولسون أن تتفاعل في عمق الأوســاط الثقافية، وكذلــك أوساط الشبــاب مــن مختلف الأعمــار، حتى غدا البعضــ يعلّق صــورة ولسن علــى صدره، وكذلك يفتخــر بأنه يحمل كتابــاً من كتب ولســن، حيث بــات يتزعم منهجــاً ونمطاً خاصاً في طريقة الحياة.

عندما قرر ولسن عزلته الطويلة، اعتقد البعضــ بأنه مــات بصمــت دون أن يسمع به أحــد، حيث اختفت أخبــاره من وسائل الإعلام بسبب العزلة الصارمة التي فرضها على نفسه.

بيــد أن بدايــة شهر ديسمبــر ٢٠١٣م، أعــادت حضور هذا الفيلســوف الذي ولد سنة ١٩٣١م إلى بعض وسائل الإعلام التي بدأت تتحــدث عن وفات هــذا الفيلسوف الذي يعد علامة مؤثرة في الفكر الفلسفي، وقــد تلازم موته مع مــوت نيلسون مانديلا في الشهر ذاته حيث يعد الشخصان من أهم الشخصيــات التي لبثت حيــة، واستطاعت

أن تحتــل تلك المرتبة المتقدمة من المجد والشهرة والتأثير الجماهيري.

لقد أحدث كولن زلزالاً بأفكاره الجديدة حول فكــرة وجدلية اللاانتمــاء، واستطاع أن يسيطر على أفــكار وشخصيات أجيال برمتهــا ، ولم يكن أقل شأنا، ولا سطوة، ولا قوة من جان بول سارتر.

اشتهــر ولســن بالكثير من كتبــه التي أحدثــت جــدلاً فــي أوروبا وسائــر أنحاء العالم، وامتدت شهرة ولسن إلى بلادنا حيث استقبلــه المثقفون العــرب، وكذلك الكرد بالكثير من الترحيب، وبات ولسن مسيطراً بشكل خاصــ على طلبــة الجامعات حيث بات كتابــه «اللامنتمي» الذي قام بترجمته المترجم العراقي زكي حسن، وروجت له دار الآداب اللبنانية من الكتــب الأساسية التي غدا طلبة المدارس يتداولونه، ويتبارون في إثــارة الجدل حول مضمونــه، وبذلك غدا كولــن ولسن بأنه صاحب أكثر الكتب مبيعاً، وأكثرها إثارة للجدل.

الأمر الآخر أن ولسن تناول أهم الأسماء الأدبية وما تركت مــن نتاجات وفق مفهوم اللاانتمــاء الــذي عمل في مجالــه، فبات يتنــاول هــذه الإبداعات منطلقــاً من هذه الأرضية مما أكسبه شعبية أكثر.

عندمــا تحــدث ولســن عــن إبداعات المركيز دي ساد مكتشــف النزعة السادية بيّن أن معظــم المبدعين الذين قرؤوا ساد يعانون من ثنائيــة ساد الساذجة عن الخير والشر ولكن بشكل أخــف، فالطقوس التي تؤديها المرأة العانس في «نور في آب» لفوكنر تسيــر على قاعــدة ساد، وكذلــك الشذوذ الــذي نراه في «المــلاذ» ووهم الاغتصاب وعــود الذرة، ويحــاول جيمســ جويس أن يحل مشاكله مــع الكاثوليكية بنشوة الضعة في «مدينة الليل»، ويميــل غرين أيضا إلى ربــط الجنس بالخطيئة، ويحاول جاهداً أن يقنع القارئ بأن الشيطان موجود لأن العالم مكان مسحور قاس.

يحاول الجميع إنــكار الموقف العملي الذي يتوصل إليه تولستــوي ودستويفسكي والقائل بــأن الشر هو فقــط غياب الخير وغيــاب الحب، وحسبما يــورد كولن ولسن مرة أخرى فــإن ليوناردو يعبر عن الموقف العملي فــي مذكراته قائــلا: «إن الشر هو ألم جسدي» أي إن الألم الجسدي هو الشر الوحيد الذي يمكن أن يعرفه البشر.

حيــن فقد كولــن ولسن جميــع رفاقه، فضــل أن يبقى منعزلاً يعيشــ وقائع حياة اللاانتماء الذي أسس له إلى درجة أنه بات يعيش في قطيعــة تامة عن العالم ويرفض أي شــيء من شأنه أن يشيــر إلى حضوره، حتى الأحداث الكبرى التي وقعت رفض أي

حديث بشأنها وكان ذلك خلف سبب اعتقاد الكثيرين بأنه مات، والحقيقة أنه كان يعيش في تلك العزلة التامة، وهو شكل من أشكال الموت الذي فرضه ولسن على نفسه خلال كل تلك السنوات الطويلة.

وتشاء المصادفة أن يموت كولن ولسن، صاحب أكثر الأفــكار الفلسفية تأثيراً على العالــم، في الشهر الذي مــات فيه نيلسون مانديــلا -ديسمبــر ٢٠١٣- صاحب أكثر الأفــكار الداعية إلى حرية الإنسان، بيد أن الثاني لبث متفاعلاً مــع الواقع حتى اليوم الأخيــر من حياته ، في حيــن أن الكثيرين أيضاً لم يسمعوا بموت كولن ولسن.

لقــد لبث كولن ولســن مخلصاً لأفكاره ولذلك لم يخطط أن تنكس الأعلام، أو يقام حداد، أو يشارك العالم في وداعه إلى مثواه الأخير كما حــدث الأمر بالنسبة لمانديلا، لأن ذلــك كله في واقع الأمــر لم يكن يعني لولســن شيئاً ، ولم يكن ليضيف إلى تاريخه شيئاً. لقد عاش ولسن كما كان يريد، وكذلك مات بالطريقة التي اختارها لنفسه.

تحول موت ولسن إلــى فرصة للأجيال الجديدة كــي تطلع على أفكاره، خاصة وأن الواقــع العربي بات يفرز الكثير مما تحدث عنه ولســن، هكــذا عندما يجلســ المرء لامنتمياً، ثم يفقــد أي معنى وقيمة لحياته وكذلك لحيــاة الآخرين، بل لظاهرة الحياة برمتها، وذلك هــو اللامنتمي السلبي الذي تنــاول ولســن شخصيتــه فــي الكثير من الأعمال الأدبيــة لكبار المبدعين، هذا إلى جانب شخصية اللامنتمــي الإيجابية التي عاشها ولسن نفسه في مرحلة عزلته.

لوحة الذئاب في لاميّة الشنفرى

ظهير خضر الشعراني ❁

إذا كان المنطلق الأول الذي يشترط قيام أدب رومانسي، هو رفض الواقع القائم، والبحث عن مجتمع ذهبي يقع خارج المجتمع الواقعي، ويتمثل في الطبيعة، سواء أكانت عياناً محسوساً ، أم كلية مجرّدة ، أشبه بالمقام الصوفي . وبعبارة أخرى . إذا كانت الرومانسية في رأس ما هي «إحلال الطبيعة كبديل عن المجتمع» أو كخروج عنه وعن مؤسساته القائمة، فإنّ لامية العرب، تحقق هذا العنصر من عناصر الرومانسية أمثل تحقيق، بل لعلّ هذا العنصر نفسه هو جلّ مضمون هذه القصيدة الخالدة (اللامية).

❁ أديب وناقد.

والطبيعة فيها لاتُحال إلى الخيال التجريدي، كما أحالها الرومانسيون الأوروبيون، لاسيما الألمان منهم، بل هي جملة مشاهدات قائمة يتمثلها الشعور تمثلاً تجسيدياً للحواس فيه الدور الأكبر. وهذه في الحقيقة، هي السمة الطاغية على الشعر الجاهلي، وعلى موقفه من الطبيعة برمته.بيد أن هذا المذهب لايعني أن الشنفرى شاعر رومانسي بالمعنى المعاصر للكلمة، إذ هو لايشترك مع هذه المدرسة إلا في هذه الخصلة الأساسية وحدها، بل هو يفارقها حتى في هذه الخصلة نفسها. ففي حين ينسحب الرومانسي إلى الطبيعة هارباً من مواجهة القهر الذي يمارسه المجتمع والحياة على الفرد نجد الشنفرى ينسحب للسبب نفسه، ولكن ليشهر سلاحه في وجه المجتمع عبر الإغارة والغزو. ولذا فهو أقرب إلى المتمردين والخارجين على القانون منه إلى سواهم. وإذا كان الرومانسي متمرداً هو الآخر، فإن تمرده سلبي يمارس الحوار التاريخي. ولهذا فإن كل رومانسية جاهلة هي رومانسية على السطح فقط، إذ هي في الحقيقة تخفي تحتها واقعية مأساوية.

الشنفرى ولامية العرب:

يقول الدكتور يوسف الخليف عن الشنفرى: «إذا كان عروة بن الورد يمثل الجانب الإنساني في حركة صعاليك العرب، فإن الشنفرى ولاشك يمثل الجانب الشيطاني فيها، واسم الشنفرى، ونسبه، ونشأته الأولى، غامضة كل الغموض، فكل مايُعرف عن الجانبين الأولين أنه الشنفرى، وأنه كان من الإواس بن الحجر بن الأزد، وأنّ أباه كان في موضع من أهله، ولكنه كان في قلة ، وأن أمه كانت سبية»

تحليل اللامية:

١.أقيموا بني أمي صدورَ مطيّكمْ
فإني إلى قوم سواكمْ لأميَلُ
٢.فقد حُمّتِ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ
وشُدّتْ لطيّاتٍ مطايا وأرحُلُ[1]
٣.وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ
٤.لعمرك مافي الأرض ضيقٌ على امرىءٍ
سرى راغباً أوراهباً وهو يعقلُ

تنطلق القصيدة، كما هو واضح، من بتر العلاقة القائمة بين الفرد وإطاره الاجتماعي، والانسلاخ عن هذا الإطار، أي هي تتخذ من التفارق والانبتات عن الجماعة (فإني إلى قوم سواكم لأميل)، أو الانتماء إلى «نحن» بلغة علم النفس، تتخذ

من هذا الموقف بذرة تتنامى منها. فاللامية تشعركَ، ومنذ البيت الأول، أن الشاعر يمثلُ حالة اللاانصياع والاستنكاف عن مجاراة المشروع الاجتماعي، والتحوّل أو التسرّب إلى خارج المنظومة الجماعية (القبيلة). وإذ يرى في «الأرض منأى» فإنه لايقف من المجتمع موقف اللاقبول فحسب، بل هو ينهج نهجاً هروبياً ينسحب وفقاً له إلى الطبيعة خشية «الأذى»، إنه يبدي، وبجلاء، جنوح الرومانسيين نحو البحث عن عالم أمثل، ولكنه كشأنهم تماماً. لايجد مكاناً يبحث فيه عن هذا العالم إلا الطبيعة.

٥.ولي دونكم أهلونَ سِيْدٌ عمَلّسٌ
وأرقطُ زهلولٌ وعَرفاءُ جْيأَلُ (٢)

٦.همُ الرّهطُ لامستودعُ السرّ ذائعٌ
لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

٧. وكلُ أبي باسلٌ، غير أنني
إذا عُرضت أولى الطرائدِ أبسلُ

هاهنا تواجهنا (النحن) البديلة، أو الانتماء المتخيَل والموهوم. فالشاعر مدفوعاً بقوة الدافع إلى الانتماء ، هذا الدافع الأصيل أو الملاصق للموجود البشري، هو الذي يجعل الإنسان حيواناً اجتماعياً، ولولاه لانعدمت الحضارة التي لايمكن أن تقوم إلا على تآلف البشر في منظومات جماعية. ولكن هذا الإبدال الشبيه بحلم يقظة لايعدو كونه إرواء لحاجة ناقصة أو غير متوافرة في المجال الإنساني، بمعنى أنها تحمل نقيضها في داخلها. لنلاحظ هنا لفظة «ولي». وكذلك تصدّرها للبيت، نظراً لأهمية ذلك التصدّر: إنني امتلك جماعة، فهو بذلك يحاول أن يرتق الشرخ الذي أحدثه الافتراق عن الجماعة في شخصيته. فالذئب والنمر والضبع تتصف بثلاث صفات هي ما يفتقر إليها مجال الشاعر:

١. لاتذيع السر
٢. لاتخذل الجاني
٣. وتمتاز بالبسالة والإباء معاً

ولما كان رفض الجماعة للفرد، أو إقناعه بأنه غير صالح للعيش ضمن الثلة، أو المنظومة الاجتماعية أياً كان شأنها، هو قتل له، فإن الشاعر سعياً وراء تعويض، يطرح هذه الحيوانات كمجتمع بديل، أو كإشباع لدافع محظور إشباعه في الواقع المعاش إنسانياً.

وعلى أية حال، إنَّ علاقته بالحيوانات الثلاثة هي محاولة للعيش وفقاً لقوانين الإمكان، لالقوانين الضرورة. إنها إحلال للجائز محل الحقيقي.

٨.وإني كفاني فقدَ من ليسَ جازياً
بحسنى ولا في قربهُ متعللُ

٩. ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مشيّــعٌ
وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ (٣)

١٠.هتوفٌ من الملس المتون يزينها
رِصائع قد نِيطت إليها ومَحمـلُ

١١.إذا زلّ عنها السهمُ حنّت كأنها
مُــرزّأةٌ عجلى تــرنّ وتُعــولُ

وهنــا يواجهنــا انتمــاء بديــل جديد أيضاً. ففي حين كان «الرهط» في اللحظة السابقة ثلاثة وحوش، فإن «الأصحاب» في اللحظة الراهنة ثلاثة أشياء: قلب حديدي، وسيف صقيــل، وقوس مكتملة. إنه الانتماء إلى الذات (القلب الحديدي)، وإلى السلاح الــذي هو امتــدادات الشخصية وقدراتها. وإذ أطنب في وصف القوس وفعاليتها إنما كان ينهــج نحو تأكيد قوتــه، ونحو اكتفائه بذاته عبر توكيد تلك القوة. وهذا التصدي، أو لنقــل السلوك المتصدي، أو الراغب في المصادمــة، هو الذي دفــع بالشنفرى إلى الإمعان في إضفاء القوة على القوس. ولكن لماذا القوس؟ يبــدو أن المجتمع الجاهلي لم يكن قد تجاوز مرحلة الصيد بعد، الأمر الــذي من شأنه أن يجعــل القوس أهم أداة يمتلكها الإنسان. هــذه مسألة عامة. ولكن القوس تخص الشاعر بمفرده هنا. إن هذا المنبــوذ لايملك أن يواجه أعداداً كبيرة من الناس (وأعــداؤه كثر) في قتال قريب، فهو مرغم، إذن، على الركون إلى المصاولة وفقاً لمبدأ «اضرب واهرب» الأمر الذي يتحقق بالقوس لابالسيف.

١٢.أديمُ مطالَ الجوعِ حتى أميتــهُ
وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فاذهــلُ

١٣.وأستفُّ تربَ الأرض كيلا يُرى له
عليّ من الطول امــرؤٌ متطــوّلُ

١٤.ولولا اجتنابُ الذأم لم يلفَ مشربٌ
يُعاش به إلا لديّ ومأكــــلُ (٤)

١٥.ولكنّ نفساً مُرّة لا تقيم بــي على
الــذأم إلا ريثما أتحــــوّلُ

١٦.وأطوي على الخمص الحواياكما انطوتْ
خيوطةُ ماريٍّ تغارُ وتفتــلُ (٥)

يمكــن تلخيــص هذه الأبيــات بلفظة واحدة: المكابرة، .إنه يواظب على استئناف اللاانتمــاء، هــذا الاستئناف الــذي يمثله خير تمثيل البيتــان الثالث عشر والخامس عشر. إنّ هــذه الأبيات الأخيرة تتحول إلى استرحــام مبطن، فهو في الحقيقة يمد يده إلى الجماعة ليصافحها. إن مايبديه الفرد من تعاسة فإنه يحمل، في كثير من الأحيان، غايــة استعطاف الآخريــن، ويخفي وراءه، بالتالي، الحاجة إلى الحنان.

ومـا يمكن الإشارة إليه بشكل خاص هو البيـت الثاني عشر لأنه يحتوي على تجربة يمكننا أن ندعوهـا بالتكثيف المركز. وقد مارس مثل هذه التجربة أحد الصحابة حين بتر الجراحـون قدمه وهو صافح عن ذلك، ومركّـز لقواه النفسية حـول ترتيل القرآن، فأجريـت العمليـة دون أن يحسّ بها. ومما يجدر ذكـره أن علم النفس قد انشغل بمثل هـذه التجربة في العصـور الحديثة، وهذا مايحاول الشنفرى إجـراؤه في بيته الآنف الذكر. إنه يصرف انتباهه عن الجوع صرفاً مكثفاً ومركزاً بحيث يملك أن يسلوه تماماً ، أوان يذهل عنه.

١٧.وأغدوعلىالقوتالزهيدِكماغـدا

أزلُّ تهاداه التنائفُ أطحـلُ (٦)

١٨.غداطاوياًيعارضُالريحَهافيـاً

يخوتُ بأذناب الشعابِ وَيعسلُ (٧)

١٩.فلما لواه القوتُ من حيثُ أمّـهُ

دعـا فأجابتـه نظائرُ نُحـلُ

٢٠.شكاوشكتْثمارعوىبعدُوارعوتْ

وللصبر إن لم ينفعِ الشكوُ أجملُ

٢١. وفاءَ وفاءتْ بادراتٍ، وُكلهـا

على نكظٍ مما يكاتمُ مجمـلُ (٨)

علينـا أولاً أن نوحـدَ بيـن الشاعـر والذئـب، أي أن نـرى وجـود تطابق هوية بينهمـا، فالذئـب هو الشاعـر نفسه، ذاب فيه واندمج وإياه فـي كيفية واحدة، أو هو النائب والممثّل لمشاعره وبنيانه الداخلي، وبذلك استطاع اللاشعـور أن يصوغ صوراً فنية من محتوياتـه. ولكننا لن ننسى كذلك تركيبة الرمز. ففي هذه اللوحة نجد الشاعر يسحب السحق من المجتمع على الطبيعة. لقد هـرب الشنفرى مـن المجتمع القاهر إلى الطبيعة، فماذا وجد؟ وجد سحقاً أشد ضراوة. فالوحوش تتعرضـ لقمع الطبيعة تماماً كما تعرض هو لقمـع المجتمع، إنها الفجيعة فـي كل مكان. وإزاء هذه الفجيعة الكليـة الحضور، لم يكن فـي وسع الشاعر أن يضـجّ. إنها حالة القهـر الجاثمة على الموجودات أنّى يولي الشاعر وجهه.

ففـي مضمار طبقة القهـر من الرمز الذي تحمله الذئاب، نجد الشاعر ينطلق من نواة أساسية فحواها إقامة تماثل بينه وبين الذئاب. وثمة طبقة ثانية في رمزية الذئاب هـي: الجـوع، إذ لنا أن نربـط بين جوعه الخاص والجوع الذي تعانـي منه الذئاب. وهنا نلمس تلاحم النفسي والفني، ونكتشف العلاقة القائمة بين كل رمز، وكل تقنية وكل

شـــكل من جهة، وبين الأرضية النفسية التي أنبتته، ترى لماذا اختلف ذئب الشنفرى عن ذئب الفـــرزدق وذئب البحتري؟ لأنّ كلاً من هـــذه الذئاب يعكس تجربـــة داخلية معينة. فما مـــن ريب في أن ذئـــاب الشنفرى هي، في رأس ماهي أفكاره عن الجوع، أحاسيسه بالجوع، معاناته للجوع تقنية المسرحية في التعبيـــر عن الجوع. ولا يمكن أن يبتكر هذه الشخوضـــ الحيوانية إلا مـــن مارس الجوع فسحـــب إحساســـه به إلى تصـــوره بوصفه قانوناً للكائنات الحية، ولعل الجوع هو أحد أبرز الدوافع إلى إنتاج القصيدة برمتها، إذ لا يمكن لصـــورة الذئب الذي «لواه القوت» أن تكون إلا صورة الشاعر نفسه، وقد أخفق في الحصول على الطعام.

وعلـــى أيـــة حال، فـــإن الذئـــب الذي «يخوت بأذناب الشعاب ويعسل» هو رغبة أو دافع يخوت ويعســـل في داخل الشاعر. ولا يسعنـــا أن نقبل هذا التأويل إلا إذا آمنا بأن الصورة الفنية هي خروج لمكنونات الشعور ومحتوياته. وفي البيت (١٩) نجد الإحباط شاخصاً في عبارة «لواه القوت» بينما نجد فـــي الشطر الثاني توافـــداً انتمائياً يفرض نفسه على الشاعر:

«دعا فأجابتـــه نظائر نحّـــل». فالذئب يطـــرح هنـــا منتميـــاً، أي هو يعكســـ دافع الانتمـــاء لدى الشاعر نفســـه على نظائره» هو.

وفي البيتين (٢٠.٢١) من لوحة الذئاب تتجلى رغبة الشاعر في النكوص عن متابعة السلوك غيـــر المتكيف، وذلك عبر لفظتين يقتسمهمـــا البيتان: «ارعوى»و«فـــاء».و إذا ماعلمنـــا أن أولاهما تعنـــي: تخلى أو ترك، والثانية تعني رجع أو عاد فإن شعورنا برغبة الشاعر في العودة عن سلوكه الراهن يتعزز ويثبـــت. وهذا ممـــا يشير إلـــى أن الشاعر مروّضـــ ومقموع حتى مخ العظام، وبإيجاز، إن ارعواء الذئب هو ارعواء الشاعر نفسه، وذلـــك لأن الذئاب هي فلـــذات من أنسجة روح الشنفرى.

لعـــلّ المبـــدأ الفني العام الـــذي بُنيت اللاميـــة وفقاً له (وربما الـــذي بُني الشعر الجاهلـــي كلـــه تقريبـــاً علـــى أساسه) هو تحويل الانفعـــالات والمشاعـــر إلى حركة درامية منقسمـــة إلى فصول ومشاهد تبدو غيـــر متناسقة في الظاهر، ولكنها مترابطة ترابطـــاً داخليـــاً ، غير أنـــه ترابط تحتاني لايـــرى بالعين المجردة. ومن أهم موحدات

القصيدة الجاهلية أن شخصياتها وأحداثها كافــة معاً تتمحــور حول مركــز واحد هو الشاعر نفسه.

وعلى الرغم من أن شخصيات اللامية وحوش، فإنــك لاتحترمهــا وتتفاعل معها فحسب، بل لابد لك من الشعور بأنها شديدة الواقعية، لأنها انعكاســات وجدانية لحالة قائمة فعلاً في المجتمع والطبيعة معاً. ولعل مصدر واقعية هــؤلاء الأبطال المسرحيين هو كونهــم المرآة العاكسة لعواطف الشاعر الصادقة، والتجسيم الموضوعي لانفعالاته إزاء الطاقــة القمعية للحيــاة. إنَّ مجموعة الحيوانــات (الذئب والنمــر والضبع) التي تجسّد المطلب الانتمائــي للشاعر، «الثلة» والتــي هي أول بدائلــه الاجتماعية. وتمثل هــذه الثلــة المجتمــع الأنموذجــي الذي يبتغيه الشاعر لأنها لاتذيع السر ولا تخذل الجاني، ولأنها تتمتع بالبسالة. هذه السمات الأساسية لــروح الجماعــة أو مزاجها كما يريدها الشنفرى. وهــو يقيم علاقته معها على أساس من الغيرية والإيثار، على الرغم من أنه يحــاول أن يضع نفسه فوقها، وهذه الفوقية هي ضرب من إشباع نزعة ترويض الواقع التي يعاني منها هو نفسه.

هــذه المجموعة هي إذن نماذج حياتية وشخصيــة لتجسيم القهــر، أي هي السمة المسرحية في اللامية، أو لنقل خصيصتها الحدثيــة، ولاريــب فــي أن كل شعر عظيم يتمتــع إلى هــذا الحــد أو ذاك بخصيصة مسرحية، فضلاً عــن خصيصته الغنائية، وهذان أمران تتمتع بهمــا اللامية إلى حد بعيد. فالمسرحية لم تمكّنْ الشاعر من طرح عواطفــه عبر الآخر فحســب ، بل ضمنت لهــا . وهذه هي واحدة مــن أهم المميزات التي حققت خلــود القصيدة الحركية غير المنقطعة التي من شأنهــا أن تحقق تجدد العناصــر دوماً أثناء تنــاول الموضوع، مما يبعــد الملل عــن جو اللاميــة، ويحقق لها بالتالي عنصر التشويق. وهذا ينطوي ضمناً على أن اللامية تواظب على تنويع فعاليتها فتنتقــل باستمرار من لون إلى لون آخر، من برهة إلــى أخرى، ولكن مــع الحفاظ على وحدة الموضوع.

يعتمد الخيــال التصويري في اللامية علــى التشابيه، مــن جهة، وعلــى الطاقة الإيحائية للفظة، مــن جهة ثانية، أكثر مما يعتمد على الاستعارات، التي هي لب الشعر وســر جماليته، ومع أن مفــردات الصور ،

فــي الغالب منطقية الترتيب، فإن كل لفظة تحمل انبثاقاً من انبثاقــات المعنى، وذلك بسبــب من دقتها، ومــن تناسقها وجرسها، وكذلك بسبــب من بهائها وحيويتها. ويشعر المــرء أن المبدأ الأساسي لنفسانية اللفظة فــي اللامية ولطاقتها التصويرية، هو هذا: اللفظة الأقســى للحالة الأقسى، فالحقيقة أن ماهية اللامية تقوم على صدق المشاعر وعمق الانفعالات، مــن ناحية، وعلى حسن تدبير اللغة تدبيــراً اقتصادياً، وعلى توءمة الإيقــاع مع المواقــف من ناحيــة أخرى، أكثر ممــا تقوم على بهــاء التصوير ورونق الخيال.

بقيت مسألة عامة تتعلق بقدرة الألفاظ على النقل، بل وعلى تصوير ما هو داخلي، أي الألفــاظ الدالة على الجــوع والحاجة إلى الطعــام، إلى حد نملك معــه أن نقول بأن غريزة الطعــام مسؤولة إلى مدى بعيد عــن إنشــاء اللاميــة. إن هــذه الكثرة من الألفــاظ الطعاميــة الدلالــة تعكس ماكان يعانيــه الشاعر من قهر أمــام هذا الدافع، وإن كنا لايعوزنــا الدليل المباشر على تبيّن حالــة الجوع ، ولاسيما فــي لوحة الذئاب، تلك الحيوانات المهزومــة شر هزيمة أمام الجــوع، إنَّ الشنفــرى الجائــع يحسب أن الموجودات كافة جائعة، والحقيقة أن تردد ألفــاظ الجوع بيــن الفينة والأخــرى إنما يشيــر إلى حالة الشاعر استناداً إلى المبدأ النفسي المعروف والذاهب إلى أن الإنسان يداوم على التحدّث عما ينقصه أو مايحتاج إليه. وكلما ألحــت الحاجة إلى إشباع دافع ما، كثر التحدّث عن هذا الدافع وما يتصل بــه، والعكس صحيح، بمعنــى أنه كلما كثر التحــدّث عن دافع ما، ألحّــت الحاجة إلى إشباعه.

مــن الواضح أن الشنفرى يعيش الحياة كمأســاة، وفي تعامله مــع الوحوش نوع من الأورفية. ولايختلف الشنفرى عن أورفيوس إلا في أن شاعرنا ينوح (ويتجلى هذا النواح صراحــة حين وصف الذئــاب بأنها «نوح») أما اليوناني فيغني. شاعرنا يندب الطبيعة وقحلها وجورها وما تتعرض له كائناتها من سحق وقهر، أما الإغريقي فيلحّن للجمادات كيما تستيقظ فتمارســ لذة العيش، وشتان بين هــذا وذاك. إن من يبتغي أن يذيق لذة العيشــ للجماد إنما هو يمارس لذة العيش، وإلا لما خطر ببالــه أن يحيي الموات. أما الشنفرى، فلا يرى إلا القحل، فلا يملك أن يُطرب الأشياء، ولن يكون في مقدوره إلا أن يتفجّــع من أجلها. ولعل ســرّ خلود اللامية كامن في هذا التفجّع الذي يجد مايبرره.

الهوامش:

١. حُمّت: حضرتْ. المطيّات: الغايات

٢. سيِّد: ذئب، عمَلّس: سريع، أرقط: نمر، زهلول: أملس، عَرفاء: طويلة العرف، جيأل: ضبع.

٣. فؤاد: قلب، أبيض: سيف، إصليت: صقيل، عيطل: طويلة العنق.

٤. الذأم: الضيم.

٥. الخُمص: الجوع، الحوايا: مفرد حوية وهي مما يحويه البطن، الماري: الفاتل، تغار: تفتل.

٦. أزلّ: ذئب، التنائف: القفار، أطحل: بلون الطحال.

٧. يخوت: ينفض، يعسل: يمرّ بلين.

٨. نكظ: جوع.

المراجع

١. كتاب (الأغاني)، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية.

٢. كتاب (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي)، د يوسف خليف، دار المعارف بمصر.

٣. كتاب (مقالات في الشعر الجاهلي)، د.يوسف اليوسف، دار الحقائق بالجزائر، ١٩٨٣م.

رسائل إلى دون كيشوت من يوسف الخال

مفيد نبزو ❁

يبدو الشاعر يوسف الخال في نهاية مرحلة من مراحل مسيرته الأدبية في هذه الرسائل، فهو من روَّاد الحداثة الشعرية، حيث نشأ في مناخ الرمزية اللبنانية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، ونشر كتابه «الحرية» عام ١٩٤٤م، وكذلك «هيروديا» عام ١٩٥٤م، وأقام في نيويورك بين -١٩٤٨و١٩٥٥م- حيث شغل منصباً في دائرة الإعلام في الأمانة العامة للأمم المتحدة، ورئيس تحرير جريدة -الهدى- خلفا لسلوم مكرزل، ولما عاد إلى لبنان عام ١٩٥٥

❁ أديب وباحث.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

م اشتغل بتدريس الأدب العربي في الجامعة الأميركية، وأنشأ مجلة -شعر- التي حملت لواء الحركة الشعرية الحديثة منذ ١٩٥٧م إلى حين توقفها عن الصدور عام ١٩٧٠م، ومما عرف عنه كتاباته الثقافية في صحيفة النهار، إضافة إلى عمله منذ عام ١٩٧١م مع لجنة من العلماء اللاهوتيين على وضع ترجمة عربية حديثة للكتاب المقدس، صدر منها أخيراً -العهد الجديد- عن اتحاد جمعيات الكتاب المقدس.

ولا شك أن المتمعن في هذه الرسائل لابد أن يكتشف البعد الجمالي المستوحى من مخزون معرفي عميق ومتنوع، وفكر منغمس في السحيق من التاريخ الغابر، فهو يتكئ على الأساطير والآلهة القديمة، ولكن من منظور عصري ليعبر عن أفكاره، وذلك ما بدا جلياً في غابة لبنان إذ قال:

أحببتك حباً لا يضاهى، فرددنا عنا شر الآلهة في السماء، وقتلنا الغول في غابة لبنان، والآن كيف تموت؟ أتموت وحدك من دوني لتشمت عشتار ويسخر مني البشر؟.

ويبقى النفس الأسطوري، والتعبير الملحمي من خلال التأثر الذي كأنه ينسج فيه على منوال -ملحمة جلجامش- في أسلوبها وطريقة صياغتها، فهو قتل الغول في غابة لبنان، وجلجامش وأنكيدو قتلا ثور السماء وخمبابا حامي غابة الأرز:

أيُّها الشعراء ابتعدوا عني..

لا ترثوا أحداً غلبه الموت.. فماذا ينفع الرثاء؟.

الرثاء للصعاليك ونحن جبابرة..

الرثاء للبشر ونحن آلهة.

وإذا كان اعتماده على فلسفة الاستنتاج أحياناً، فلأنه يبحث عن الحقيقة -كأنه يبحث عن نبتة الخلود- التي راح يبحث عنها أنكيدو في القفار والوديان والبراري، ولكن هنا برؤيا جديدة يؤكد فيها على القداسة والجمال لأن لكلاهما سر الكبرياء عند اتحادهما بالكون، وانفصالهما عنه لحظة الموت المتواضع بالمعرفة:

للملك صولجانه، وللراعي عصاه، ولنا نحن الجبابرة قوس قزح عبر الفضاء الغائم..

ثم يمجد الموت لمعرفته به، فمن يعرف الموت يدرك كنه الحياة في اللحظة الأخيرة، فيموت سعيداً:

أموت سعيداً لأنني عرفت الموت.. عرفته في اللحظة الأخيرة..

تألهت أيها الموت لأنني عرفتك، وكل شيء يزول إلا وجهك الحبيب، فضمني إليك واغفر كبريائي.

هو ذا مفتاح الشاعر يوسف الخال إلى رسائله الموجهة إلى دون كيشوت، والتي يفتح من خلالها آفاقاً واسعة توحده مع

الوطن الساكن فيه بالمتناقضات التي تؤدي إلى نشوة العشق وذروة الانتماء:

ما أجمل اللحظة التي أنت فيها أيها الوطن!.

ماأجملك في اللحظة هذه وما أبهاك!.

ومن نوافذ الظلمة المدلهمة تشرق شمس المحبة، وينتصر صوت الخير على جحافل الشر، فإذا به يتعالى بقدسية الوطن وإشراقاته التي لا تغرب مع المغيب:

تفتح أبوابك ونوافذك للصوص وقطاع الطرق.. تقتل وتنقتل.. تخلق وتتخلق.. تهدم وتتهدم.. تطاول يمينك النجوم، وأنت في بطن الهاوية.

نعم ما أجملك أيها الوطن!.

وإذا أردت أن تدرك محبة الوطن فما عليك إلا أن تعلم علم اليقين أنه من التضاد ينبثق التوافق ومن النشاز يتم الانسجام كما قيل: والضد يظهر حسنه الضد:

بل لا أجمل منك في الأوطان لأن جمالك حياة في الموت، وصلابة في اللين، وقداسة في الرجس، وقوة في الضعف، واستعلاء في الضعة، وكفر حتى منتهى الإيمان.

وأنت كيف تكون في الكون الواسع؟:

أنت صغير على كبر، وقريب على بعد، وقليل على وفر، وأنت الممكن المستحيل، والقديم الجديد، وجهك جبلك، وجسدك البحر، لا حد لحدودك غير أنت.

وتحلق الرسالة الثانية في فضاءات التكوين -كن فيكون- وتتخذ السخرية دليلا على الحكمة الجادة من خلال الفرح بعد الحزن، والرياح الأربعة التي تعصف من الجهات الأربعة لتكون المتاهة، ولذا ما عليك إلا أن تحذر إذا شئت الوقوف بثبات:

أرخ يديك ومط شفتيك علامة الفهم الراجح، ولا تقل لا لئلا يحسبها الفقهاء نعم، ولا تقل نعم لئلا يحسبها الجهلاء لا.

وخلاصة القول في العبر والمواعظ، والانحياز للطيبين الودعاء:

كن فيكون، هذا هو التكوين..

لكننا مع الدهر على انقضاء، فويل لودعاء القلوب لأن على آثار أقدامهم التائهة يهتدي المبصرون.

ولا تخلو الرسالة الثالثة من بعض هذه المفارقات التي تضعنا على ضفاف الفهم والاستيعاب، حين نرى علامات الأزمنة وهي تخالف العرف السائد:

من علامات الأزمنة أنك تجلس وأنت واقف، وتصمت وأنت تتكلم، وتنسى أنك موجود فتعلق بخيط مشدود لا تعرف أوله لأنك تجهل آخره.

ولا يكتفي بهذا التوضيح بل يتابع معادلته التي يعتمد فيها على التأمل حين يقول:

ومن المفارقات، وهو من علامات هذا الزمان أن الذي يقول لا يعرف، وأن الذي

يعرف لا يقول، فيكون أن الذي يفعل لايقول، وأن الـذي يقول لا يفعل، والكون يدور على محوره لا تزعزعه العواصف والزوابع.

وللأمانـة يجـب أن نعـرف أن هـذه المقتطفات لا تغني عن التفاعل مع نصوص الرسائـل كاملـة لأن الاختـزال والاجتزاء يفقدهـا جوهر فلسفتها وعمـق أسرارها، لأن هـذه الومضات لها فائدتها الأدبية من خـلال الانتقال من فكرة إلـى أخرى، ومن خلال السياق والارتباط اللغوي والدلالي:

هذه هي المسألـة و-تكون أو لا تكون- هي المسألة، فكن مطمئن البال، قرير العين إلى أن ترتاح وتريح.

ولمـا كان لكل نفـس أن تعرف، اعرف نفسك، فهاهي دعوته إلى الوضوح والعطاء كي لا تكـون عقيمـا كشجـرة عقيمة في صحراء العدم، فمن أنت؟:

أنت علامة استفهام تحولت في الذاكرة إلى سؤال: هل أنـت موجود أم وجودك هو الموجـود؟. لـكل غصن ثمـر فإلى متى لا يخرج ثمرك؟.

وإذا كان الانتصـار للوطن هو الهاجس الأوحـد، والمجـد للوطن الـذي لا ينكسر أبـداً رغم ما يتعرض له من هجمات شرسة تتحطم على صخرته، فلأنه الباقي بمنعته، وبطبيعته الحية والجامدة:

علـى رؤوس الأصابع يجـري فرسك المستعـار، وبعنقه تسيل الأباطح، فحديثك عذب، وأسرارك مرهونة بأوقاتها..

لكنني أراك أيها الفارس طائراً،
وأراك أيها الطائر شجرة،
وأراك أيتها الشجرة وطناً،
وأراك أيها الوطن صخرة،
وعلى الصخرة قرن مكسور.

ولا تـزال المدينـة مدينتنـا، والفارس فارسنا، والوطن الساكن في أعمق الأعماق والمرتفع بسمو إلى أعلى الأعالي وطننا:

مدينة أصداف مدينتنا.. مدينة أحداق فارغة وسياج مهدور، والجدران ولا أساس، فالأساس مـن هنـا غيره مـن هناك في «حساب اليكون واللايكون».

وكذلـك نجـد الفارس الـذي له غير مالنـا، فـلا تسأل لـمَ؟ لأنـه يتطلع إلى مشارف الأقحوان المصبوغ بلون التضحية، والمرسوم بريشة الفداء:

لك الهيبـة، ولنا زهـرة الزيزفون، لك الصولجـان، ولنـا حفنـة من الثلـج، لك الخيام المضروبة فـي الفيافي، ولنا كهفنا المسحور.

فخذنـا بعينيـك أيها الفارس تتطلع، وانظر مشارف الأقحوان.

وللبساطـة وفلسفـة المألـوف حضور

بالتساؤل الذي يزرع حروفه كلمات عساها تورق وتثمر فـي الرسالة السابعة، والحيرة من الرتابـة الكونية، فمتى تهب عليها رياح التغييـر ليتم تبـادل الأدوار، وتنتهي قصة البداية والنهاية:

إلـى متى تشـرق الشمس مـن الشرق، وتغـرب الشمس من الغرب، إلى متى تشرق أو تغرب الشمس في وادي ظل الموت؟. إلى متى لا يصعد البحر على السفوح الملطخة بالدم.

إنها مشيئة من يريد الخلاص بالتطهر، ومن يريد بالإيمان الحقيقي النزيه أن يولد الوطن ولادة جديدة:

أبي رجل صالح أيها الفارس، كان يعشق أعشاب البرية، وينام على ظهره في العراء.

كان واحداً من العابرين، يلتحف السماء، ويغمض عينيه على الجنة.

ولم يكتف بذلك بل يذهب إلى أبعد من خلال الحالـة التي تفسر بسذاجة مفهومي الحزن والفرح:

كان أبـي يبكي لأن النجمـة تاهت في ظلمة ليل بهيم،

كان يضحك أيها الفارس..

كان يضحـك لأن الشمس تـدور وهي ثابتة هناك إلى الأبد.

ولدلالة المكان وجود في الرسالة الثامنة، ومن هذه الأمكنة الراسخة في الذاكرة عشقا أبعد من جغرافيـة المكان المادي: ضفاف العاصـي- أرز لبنان- نبع صنين- القدس- غرناطة- جبيـل- بعلبك- صور- صيدون- دمشق- تدمـر- إنطاكيا- إضافة إلى وادي عرار وطهمزان وحمشريت وحبرنون ووادي حنانيل، وما هو مستوحى من العهد القديم، فيخاطب الفارس مخاطبـة الابن المغامر معلنـاً العصيان ضد كل قوى القبح والزيف والبهتان، ومعززاً الجمال الروحي والمحبة السرمدية بأسلوب ملحمي رائع:

من طهمزان سآتيك بالمخمل والطيلسان والديباج، ومن حمشريت بالياقوت والزمرد والذهب والإبريز، وآتيك بالعقيق من وادي عرار، وبالوشي والنقش من دقموش، وبالنور والنـار من جمجمـة المدائـن، وبالغزلان وزغاليـل الحمام مـن غيمـة سقطت في حبـرون، وآتيـك بالمن والتريـاق من بلاد الما بين بين، وبالحبر والورق والقصب من وادي حنانيـل، وآتيك مـن دردون بالمسك والطيـب والحنـاء، ومن قيرفـان بالنسيج المطرز والخشب المصنوع، وآتيك بالغلمان والجـواري من عربجان، فـلا تحزن.. لك المسرح العجيب ونظارة يحسدون العميان.

وكمـا يحـارب الفارس دون كيشـوت طواحيـن الهـواء هكـذا تتجلـى هواجس

الخيال ومحاربة الوهـم من خلال الفارس الجديد المتطلع إلى سماء الحمام، والقابض علـى سيفه الخشبي فـي معركته الحاسمة عسى يعم الإخاء ويعمر السلام في الرسالة التاسعة:

قيـل لي طيِّر حمامـاً زاجلا في سماء المدينـة، فالحمام الزاجـل يتآخى في كل مكان، فطار السرب في سماء المدينة، طار وحوَّم وحلَّق، فلا هو عاد، ولا أنا قعدت على السطوح أنتظر رجوعه.

طار الحمام.. غطَّ الحمام..

هكذا كانت أخبار أيامنا الأخيرة.

وبنظرة مغايرة يـرى المصير المحتوم الذي هو نتيجة سيف خشبي وفرس عرجاء، فيوجه رسالته هذه إلى دون كيشوت قائلاً:

للغواني خلعنا ثيابنا، وغطسنا في معركة المصير..

بسيف خشبي وفرس عرجاء غطسنا.

ويوظـف العبـارات والأسماء من خلال مدلولاتهـا ورموزهـا، وهـي مستمدة من المعتقدات الدينية والتاريخ السحيق، فنجد علـى سبيل المثال قوله: مـا في مكان في الأرض بريء مـن دم يعقوب، وكذلك حمام نوح والطوفان، وعشتار، والمتنبي والسموءل والمعـري وأم اسماعيل التـي يخاطبها يا أمي:

يا أم اسماعيل يا أمي

طريدة مهجورة أنت لطفلك ولك اللّه.

ثم يخاطب المرأة طالباً منها أن تقول:

أغلق عليَّ الباب

لا أشتهي الزيتون

ولا حمام نوح

بل سفراً ميموناً في أبد الطوفان.

ولا شك أن الرغبة المباركة لهذا الطوفان تعنـي احتراق الإثـم، واختنـاق الخطيئة، والانتصار للفضيلة والبراءة والعفاف :

تحزَّمـوا بحزام من جلـد وكلوا عسلاً برياً أيها الداعون إلـى التوبة، فأنا أشتاق إلى عين البحر وأحلم بالعمران.

ثم يعلن في الرسالـة العاشرة والأخيرة أنـه صديـق دون كيشوت، فهـو مثله، وإن اختلف الزمان والمكان كما يقول:

خذني معك أيها الفارس.. فرسي يعربية كفرسك، وسيفـي حلم هـادر.. وأنا مثلك أعشـق القتال، فإذا أعوزنـي عدو حاربت ظلي، وظلي عنيد أيهـا الفارس، كطواحين هوائك، وأنا مثلك تغريني الهزيمة، فالهزيمة كالنصر كلاهما ينضحان بالدم القاني.

ويظـل على الوتيرة ذاتها، بالأسلوب نفسه ليختصر كل غاياته وآماله رافضاً واقعاً غريباً يعاكس تطلعاته ورؤاه الخصيبة، وتأملاته فيما

وراء المجهول عسى يفترُّ ثغر الأمل، ويصدق الوعد، وتزقزق عصافير الرجاء:

للسرور نحن، وللأحلام الصغيرة نحن.. ننوح في الأعراس، ونرقص في المآتم، ويجمعنا الشتات ويشتتنا الجمع.

وينادي فارس الحلم الذي عاشه متعة رغم انكساره فيه وانقلابه عليه:

على رؤوس الصنوبر نشرنا ثيابنا، وبقينا عراة كالقلم الرصاص.. فجرد سيفك أيها الفارس واتبعني.

بقي الآن السؤال: هل يصح ما قاله بالأمس لليوم وللغد حين قال؟: في هذا الوقت العصيب لا مجال إلا للهذيان، فالحكمة تقلصت إلى مدار الكف، والتأمل ذاب في مجاري النسيان، والعلم أصبح خبراً، والخبر لا معنى له، والمعنى في قلب المتكلم، والمتكلم هو الصامت الأكبر؟!.

هكذا تفتح رسائل يوسف الخال إلى دون كيشوت طاقات الوعي بالإبداع المبتكر المغاير والمرتكز على الفكر الخلاق، والمنعتق من ربقة الضيق في فضاءات المعرفة الخاصة، والثقافة الرائدة بجنون الاكتشاف للمفاهيم الغريبة الجديدة..

الهوامش

١- رسائل إلى دون كيشوت من يوسف الخال، دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٩ م، رسوم مها بيرقدار.

٢- مؤلفات يوسف الخال:

١ – الحرية (مجموعة شعر) دار الكتاب، بيروت١٩٤٤م.

٢ – هيروديا (مسرحية شعرية) دار الهدى، نيويورك ١٩٥٤م.

٣ – البئر المهجورة (مجموعة شعر) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.

٤ – قصائد في الأربعين (مجموعة شعر) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٦٠م.

٥ – الأرض الخراب لإليوت (ترجمة) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.

٦ – ديوان الشعر الأميركي (ترجمة) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.

٧ – روبرت فروست (مختارات شعرية) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.

٨ – النبي لجبران خليل جبران (ترجمة) دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٨م.

٩ – الأعمال الشعرية الكاملة، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، طبعة أولى ١٩٧٣م.

١٠ –الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت طبعة ثانية ١٩٧٨م.

١١ –الحداثة في الشعر (نقد)، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨م.

ما بين الفكر الجمعي والإبداعي

د.ريمه الخاني ❁

تدهشنا العبارات ويلفت نظرنا السبك اللغوي، حتى نكاد لانفرق ما بين الإبداع الحقيقي المتجدد، والإبداع المتكئ بقوة على ما قبله من متشابهات، ويكاد القارئ الحذق والفطن والناقد الدقيق يفرقان ما بين طريقتين من التفكير، تفكير متجدد مبدع مبتكر يحجز مساحة إبداعية تفوق ما اقتبس وجمع وأحضر، وتفكير يجمع من هنا وهناك من دون أن يشكل هوية خاصة به تميزه عن غيره..

❁ كاتبة وباحثة.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولــو رجعنا لبداية انبثــاق الأفكار فماذا عسانا نقول؟:

سنقول بداية:

إنَّ «القلق» صنو الباعث الإبداعي الخاص بالأعماق، كاستثارة فردية عن خاصة كيانه، ووجدانه وصراعاته وانقلاباته.

لكن «القلق» صنو الباعث النظري أيضاً، باستلهامه الوعي الجمعي، وبواعث الصراع على أشكاله.[1]

ولكن هل هذه حاله عامة؟، وهل يختلف الوعــي الجمعــي عن التفكيــر الجمعي أم يسبقــه؟، ما يهم هنا عدم التسليم بالمقولة الإعلامية التاليــة: العربي الساذج والغربي الحصيــف،[2] وفي كل الأحوال لا يمنع هذا من النقد الذاتي، بحيث لا يمكننا هنا نكران أن لكل طريقة تفكير مجالها الذي يحتويها وبحاجــة لعطائها الكريم، وهنــا يبرز دور التوجيه نحــو ما يبرع فيه الإنسان كطريقة فكــر وكاختصاص وتوجه فكــري عام، وبه نعرف الطريقة التــي يستطيع عن طريقها العطاء والعمل.

نتهم نحن العرب في عصرنا هذا بالفكر الجمعي الاستهلاكي، وهل لنا خيار في دفع التهمة عنــا؟.. هنا علينــا التأمل لمعالجة ومعرفة العلة وإيجاد الحل.

ولن ننكر أبداً أنَّ لدينا مفكرين هجرونا لأنهــم لم يجدوا من يفيــد منهم، أو يحترم عقلهــم العميــق، ولا ساحة تتقبــل العطاء النظيــف ليقدروها حق قدرها، إلا ما رحم ربي، فهل هو كثرة عددهم، أم توقهم لساحة غير موجودة؟.

فكم تكون نسبة تلك العقول أمام الفكر التقليدي السائد في مجتمعنا؟...، وهل زاد العالــم الرقمي مــن نسبتــه أم مازال كما هو؟....

يقول الدكتور قدور رحماني:

(لا توجــد ثقافة تغلغلــت جذورها في ذهنية المجتمــع العربي كثقافة الاستهلاك التي لا تقتصر على الجانب الثقافي وحده، بل إنها توسعت لتطال جميع إيقاعات الحياة في المجتمع العربي، وسيتحول مجتمعنا إن طال به العهد في هذا الطريق، إلى ما يشبه الأطــلال الدارسة التــي لا مبرر لوجودها، ولــو استمر الوضع هكــذا تموت كل موهبة رغبة، وتموت كل موهبة قادرة على الابتكار والإبداع والإضافة، وتزداد الشقة بيننا وبين الحياة الحق).[3]

ما الفرق المعجمي بين المفهومين؟

١ - معجمياً:

فَكَــرَ في لسان العرب: فكر الفكر والفكر: إعمال الخاطر فــي الشيء، قال سيبويه: (ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر، التفكر: التأمل، والاسم الفكر والفكرة، والمصدر الفكر).[4]

جمــع في لســان العرب: جمــع الشيء على تفرقه يجمعــه جمعاً وجمعة، وأجمعه فاجتمع واجمع وهي مضارعة وكذلك تجمع واستجمع والمجمــوع: الذي جمع من ههنا وههنا وإن لم يجعل كالشيء الواحد).[٥]

نطق في لسان العرب: من نطق الناطق ينطــق نطقــاً: تكلــم، والمنطــق: الكلام، والمنطــق: البليغ، أنطقه الله واستنطقه أي كلمه وناطقه، وكتاب ناطق: بيّن على المثل كأنه ينطق).[٦]

بدع في لسان العرب: بدع الشيء يبدعه بَدْعــاً: أنشأه وبدأه، وبدع الركية: استنبطها وأحدثها، وركّيٌ بديع: حديثة الحَفْر.

والبديــع والبدْع: الشيء الذي يكون أولاً وفي التزيل: «**قل ما كنــت بدعاً من الرسل**» من سورة الأحقاف، الآية(٩) أي ما كنت أوَّل من أرسل، فقد أرسل رسل كثير قبلي.[٧]

أمَّا الجذر (هلك) فيفرد له لسان العرب ثلاث صفحات هامات؛ نختار منها الأهم:

هلــك: الهلك الهلاك، وهلك يهلك هلكاً وهلَكاً وهلاكاً: مات، ويجوز أن يكون ماضي يهلك وهلك كعطبَ، استهلك الرجل في كذا: إذا جهد نفســه واهتلك معــه.. ومستهلِك الوِرد: من سلكه).[٨]

٢ – معرفياً:

لــو عرفنــا التفكيــر الجمعــي مبدئياً وباجتهاد متواضع نقول:

تفكير تقليدي يعنى بالتجميع والاحتفاظ بالمعلومات والمعارف بلا تنسيق مسبق ولا تخطيط واضح لغاية خاصة؛ إما إكمالاً لما توصل إليه مــن سبق، أو متابعة لما سينجم عنه البحث المرصود.

للأسف لم نجد عبر الشابكة الكثير من المراجع التــي تعنى به بجدية، أو حتى في المراجع الورقية، لكننــا وجدنا تعريفاً قد يهمنا هنا إلى حد ما؛ يقول الأستاذ «محمد السموري»:

(الذاكــرة الجمعيــة هي أهــم ما يقوم عليــه مفهــوم التاريــخ الشفهــي، ومفهوم الذاكــرة الجمعية كما يــراه عالم الاجتماع الفرنســي: «موريس البواكســ» Mauric Halbwachs هو نظريــة تعتبر أن عملية التذكــر فردية، بحيــث لا يمكــن أن تنشأ ضمن إطار اجتماعي معين، ويربط الذاكرة الجمعيــة والذكريــات الشخصيــة للفــرد بالمجتمع الذي ينتمي إليه).[٩]

حقيقــة كان هذا تعريفاً يمس المهتمين بالتــراث حصراً، وهو شطر هام مما نبحث عنه، لكنه ليس كله.

تقول خريجــة التربية الأستــاذة ميسم الحكيــم:[١٠] (هــو مصطلــح قــد لا يكون مشهــورا بهذا الاسم حصرا، لكن يمكننا أن ندعوه «الفكر غير المبدع» الذي يعتمد على حفظ المعلومات واسترجاعها بطريقة ما).

ويشرحه الدكتور «عبد الكريم بكار» بقوله (بتصرف)[١١]

(ما الطبيعة العامة للعقل الجمعي)؟

١- قصور وانخفاض مستوى التعليم يجعلان من صاحبهما قاصراً عن فهم تركيبة العقل الجمعي نفسه وينحصر هذا غالباً في نسبة تزيد عن ٣٠٪ من الأميين الذين يباهون بحوارهم الجدلي العقيم.

٢-العقل الجمعي يعاني من سطحية فكرية وضحالة، وانخفاض مستوى الفهم.

٣-يشبه إلى حد كبير الأم الرؤوم التي لا تملك سوى ولد واحد تتعلق به، وتعتبر كل من يقترب منه منافساً لها).

ويعزو الكاتب تفوق الغرب علينا إلى قصور تفكيرنا حالياً، وانحصاره ضمن هذا المفهوم المذكور، فكما يتبدى لنا أن لديهم وحدة حال وفكراً يجمع ولا يفرق، إلا أن الحقيقة أنهم ما كانوا ليجتمعوا لولا فكرهم المصلحي، وعلى أية حال هم منتجون وهذا ما يهمنا في هذا المقام، وليس لفكرنا العقائدي مثيل مما يجب أن ننهض به ونرتفع، ولا سيما إذا كان شاملاً وجامعاً لنا بقوة، وهذه تهمة توجه لنا الآن، مع أن التفوق لا يعد ذكاء فقط فجلهم ناجحون ومتفوقون؛ لكنها الدربة والمران والمثابرة والظروف المناسبة للعمل والهدف المرتبط.

ويعتبر الدكتور أن الفكر الجمعي نوع من الابتلاءات الربانية، واختبار يجب أن نعرف سبيل الخلاص منه بحكمة.

ويضيف أن صاحب الفكر الجمعي لايفكر خارج الصندوق، لأنه لا يملك رؤية شاملة ويميل للعولمة بأفكاره ضمن نطاقه الخاص، على الرغم مما يملكه من طاقة روحانية هائلة، فاليابانيون جدوا واجتهدوا حسب زعمه لأنهم جوعى ولا مصدر معاشي لهم غير العمل،[١٢] لماذا لم يبدع غيرهم ممن لا يملكون من ثروات البلاد ما يكفيهم؟، هل هي طريقة تفكير ومنطق؟

اليهود تفوقوا بفكرهم وعبر معونات خارجية ومن خلال صلاتهم التي حصلوا عليها بفطنتهم ومكرهم ودهائهم، وأهم انطلاقة لهم كانت بداية من بلاد الإسلام... لتسامحنا ودفعنا لنهضة الشعوب عامة.

الصدق يحتم هنا ألا نلتف على المعطيات التي لا تعجبنا، كي نمشي قدما، لذا فنرى أن الفكر الجمعي، لا يفرق بين القيم الأصيلة والمبادئ العقلية الهامة، ويسلم بها دون نقاش.[١٣]

هذا مقتطف هام ومختصر خطير عن هذا الفكر المتأخر.

إذن، فنحن بحاجة لمنطق يعيد الحسابات من جديد:

ما هو تعريف المنطق إذن؟...

المنطق:

المنطق في اللغة العربية من النطق يعني الكلام الدال على التعقل والتفكير فكلمة منطق تجمع بين الكلام والتفكير في آن واحد وفي اللغات اللاتينية فإن هذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية «Locos» التي تعني التعقل والكلام.

وقد عرف «أرسطو» المنطق بأنه آلة العلم وصورته وجعل المنطق مدخلاً وآلة لجميع العلوم على اختلاف أنواعها. و«الفارابي» عرف المنطق بأنه صناعة القوانين التي من شأنها أن تقوّم العقل وتسدد الإنسان نحو الحق والصواب.

وعرفه «توما الأكويني» بأنَّه الفن الذي يكفل لعمليات العقل الاستدلالية قيادة منظومة خالية من الخطأ. أمَّا في العصور الحديثة فكان المنطق علم قوانين التفكير. فالمنطق إذاً في موضوعه علم يتناول العمليات العقلية التي تستهدف المعرفة للوصول إلى الحقيقة، وهو مهارة وفن التمييز بين الخطأ والصواب في الأفكار والأحكام والقضايا فالعقل عندما يتكلم يكون المنطق.[١٤]

لدى مقارنتنا بالفكر المنطقي والذي يكون عادة ممتزجاً بالإبداع وقد قال العروضي «فؤاد بركات» عن الموهبة بأنها موجودة لكن صقلها هو الذي يظهرها وينميها. فبماذا يتميز؟

- المنطق يساعد على تجنب الخطأ في التفكير.
- الاستدلال هو أهم موضوعات المنطق وهو الانتقال من المعلوم إلى المجهول.
- أهمية دراسة المنطق وفائدته:

١- يساعد على فهم مبادئ وأسس الاستدلال المنطقي ومناهجه.

٢- يساعد على التمييز بين الأدلة السليمة وغير السليمة.

٣- يحرر الفرد من تأثير العاطفة والدعاية والإشاعات.

٤- يساعد الإنسان على اختيار ألفاظه بدقة.

٥- ينمي الاتجاه النقدي لدى دارسيه.

٦- ينمي الروح العلمية لدى الفرد.[١٥]

حتى الفكر الجمعي لو كان تابعاً لفكر ما ومنحى فكري عقدي ما فإنه يحتاج لضوابط، وإلا لتفلت وشرد عن جذره الأول؛ يقول الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه: (في إشراقة آية):

(وبما أن الحياة الجمعية لا يمكن أن تستقيم وتنتظم من غير ضوابط عرفية تؤمن نوعاً من التعاون، وتحول دون بغي الخلطاء بعضهم على بعض كان الجواب دائماً:

إنَّ ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية هو ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من الأعراف والعادات والتقاليد، وما حياتهم إلا استمرار لحياة سلفهم الذين يفاخرون بهم، والخلف لا يكتفي عادة بالتلقي الأصم عن السلف؛ لكنه ينشئ من الفلسفات والمقولات والخرافات ما يمنح ما ورثه من تقاليد القداسة والاحترام مما يجعلها محوراً للمنظومات العقدية والفكرية والرمزية والتاريخية).[١٦]

ويقول في مكان آخر من الكتاب:

(ليس كل ما يرثه المرء عن آبائه وأجداده رديئاً -لأنه لا يوجد جيل مختص بالرذائل -لكن الرديء هو أن نفقد القدرة على الحكم على تلك الموروثات ونحلها في محل القبول والاقتداء).[١٧]

لكن الباحثين في دهاليز العالم الرقمي مثلاً، قدموه لنا بطريقة جديدة جداً وهي أن العالم الرقمي يعتمد أصلاً على الذكاء الجمعي الذي يقدم لنا كل جديد ومستحدث اعتماداً على ما سبقه من معلومات متاحة؛ يقول في هذا الصدد الباحث محمد أسليم (بتصرف):

(اعتمدت المصادر الرقمية على الذكاء الجمعي؛ وهذا ما قاله الفيلسوف «بيير ليفي» إن العالم الافتراضي تجسيد لما يدعى الذكاء الجمعي، وهو أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون، وهو ما كان يدعوه الفارابي وابن سينا وأمثاله: بالعقل الفعال)،[١٨] وهذا ما نبحث عنه بدقة.

هل هذا يعني أن هناك قسماً لا بأس به من عالم الفكر الجمعي يعنى بالاجتهاد على أنواعه ويقدم الجديد، غالباً أو حالياً، اعتماداً على ما سبق طلباً للتجديد والتحديث؟

ما يحدد طريقة التعلم هو الهدف المرتبط به؛ يقول الشيخ سلمان العودة في كتابه (مع العلم):

(الإسلام لم يأمرنا أن نطلب العلم لذات العلم، بل علمنا أن نطلب العلم للعمل، ولذلك كان السلف يقولون: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»).[١٩]

ويقول في مكان آخر من الكتاب:

(يجب على الشاب أن يسير على منهج واضح مستقيم منضبط، وإلا تغلبه شهوة العلم إلى الاندفاع في جمع عشوائي للمعلومات؛ فإنَّ هذا ينتج ثقافة تراكمية ولا ينتج عالماً مؤصلاً).[٢٠]

ونستشف من بعض محاضرات الدكتور طارق سويدان عن المتفوقين علمياً ودراسياً كذلك ما معناه: إنهم ينقسمون إلى قسمين: منهم من يملك فكراً تقليدياً متفوقاً بمنهجية لا يحيد عنها، وهؤلاء قد يكملون طريقهم تقليدياً كما بدؤوه، لكن هناك فريق قد لايكون متفوقاً وربما كان ذكاؤه غير دراسي،

لكنه مبدع بطريقة ما، وهؤلاء ينطبق عليهم أمثلة المخترعين والمبتكرين الذين لم يكن تحصيلهم الدراسي ملموساً.

يبدأ طريق الإبداع من اكتشاف الأسرة لمهارات الذكاء في طفلها وتوجيهه الاتجاه الصحيح،[٢١] فكم من خسارات نخسرها من توجيهنا الخاطئ، لذا فالبحث الدائم عن هدف الطفل من دراسته ومن محبته لمهارة أو هواية معينة أمر في غاية الخطورة؛ قد يحدد مصيره الحياتي كله.

هل يمكن للفكر الجمعي التحول لفكر خلاق مبدع؟..

لا يمكننا الجزم والحسم، فهو أمر فطري أولاً، ثم كسبي ثانياً، لكن يمكننا استعارة نظرية من الطب النفسي غير تجريبية قد نستأنس بها فقط هنا:

يقول: «خالص جلبي»:

(وإذا كنا من أجل «أجهزة» معينة نضطر لتحويل السيالة الكهربية بشكل معاكس من ١١٠ فولت إلى ٢٢٠ فولتاً، كذلك يمكن نقل سيالة «اللاوعي» إلى الوعي»؛ وهو ما يفعله المحللون النفسيون أحياناً، فإذا ظهرت تلك «العفونات» المختبئة من دون «أكسجين عقلي» إلى الضوء والهواء الطلق تعافى الإنسان وكأنه نشط من عقال، وهذا إن دل على شيء فهو يفيد بمدى قدرتنا على تشكيل الإنسان وتحويل الأخلاق إلى ساحة العلم.

هذه هي بعض مفاتيح تغيير الإنسان، وعندما نستطيع تغيير الإنسان يمكن أن نمسك بمقود التاريخ).[٢٢]

تبقى فترة التنشئة وجودة المتابعة والحوار والحياة التربوية الفعالة، التي تربط القول بالفعل مفتاحاً للتوجيه السليم، إن كان المربي يدرك مدى خطورة مهمته، ونضيف من خلال استعراض المناهج التعليمية العالمية أنه يجب علينا أن نكتشف المواهب والتوجه الإبداعي إن وجد؛ وهو موجود غالباً مبكراً قبل أن يموت ويذبل.

ويحزننا أن نقول إن العالم الرقمي بقدر ما زاد نسبة المبدعين بقدر ما زاد نسبة الفكر الجمعي؛ وذلك لقلة ساحات العطاء وتبادل الأفكار في الواقع، وحتى الذين يقدرون المقدرة الحقيقية إلا ما ندر، كما كشف ما لدينا من طاقات وعلينا استثمارها جيداً.

ويبقى السؤال الملح من أين يأتي الفكر الإبداعي؟

حقيقة لم أجد مقالاً واحداً يبحث عبر تلك القناة بموضوعية وتفصيل عميق الغور، وكأنَّ تقييد الحريات هو فقط المسؤول عن كبتها.[٢٣]

وأقول: هــذه المقولة صحيحة إلى حد مــا؛ فهناك الإبداع العلمي والإبداع الأدبي، الأوَّل يحتاج إلى مختبرات ودعم مؤسساتي كبيــر؛ وهذا مــا نفتقده في طــول الوطن العربي وعرضه، أمَّا الثاني فهو مقيد بحرية التعبير أوَّلاً، ونهاية بتقدير الجهود المبذولة بصمــت وفي الظل، وعلــى الرغم من هذا هناك من وجد فرجة؛ إما بماله فهياً لنفسه عالمــاً خاصاً به خارج وطنــه أو داخله من خلال قنــوات رائدة لا تكفــي لتستثمر كل مــا يجود به الوطــن، أو عبــر المحسوبية المريضة.

لكن السؤال يبقى ملحاً: إلى متى؟

الهوامش

١- سليم بركات: من كتاب التعجيل في قروض النثر.

٢- المصدر السابق.

٣- انظر مجلة الرافد العدد(١٦٦) مقال الكتابة الأدبية بين اللذة ومتعة القراءة.

٤- لسان العرب: فكر.

٥- لسان العرب: جمع.

٦- لسان العرب: نطق.

٧- لسان العرب: بدع.

٨- لسان العرب: هلك.

٩- انظــر لكتاب المؤلــف السمّوري التاريخ الشفهي والذاكرة الجمعية (صــ٢١-٢٢) يمكن التبحر في عالم الأسطــورة والتراث عبر هــذا المفهوم من خلال الصفحتين (٢٤و٤١) مــن الكتاب نفسه حيث يبين كون الأسطورة والعادات والتقاليد والتراث من ضمن الذاكرة الجمعية.

١٠- خريجة تربية ورياض أطفال مدربة كوادر تربوية، من سورية.

١١- تكوين المفكر: (ص٦٩).

١٢- من المعروف أن اليابان لا تملك ثروات باطنية لذا فقد لجأت للفكر والإبداع العلمي.

١٣- انظر من الصفحة المبينة من كتاب تكوين الفكر (حتى ص٧٦)-بتصرف

١٤- مقتبس من الرابط: topic-com/t٣٦٦.yoo٧.http://drdsha٢٠٠٩

١٥- من منهاج المنطق لدارسي الثانوية في مصر/الرابط: topic-http://wessam.allgoo.us/t٨٨٣٨

١٦- (ص٩٩) منه.

١٧- (ص١٠٠) من الكتاب ذاته.

١٨- كتاب العربي العدد(٢)، (ص١٣٨).

١٩- انظر (ص٩٢) من الكتاب المذكور.

٢٠- (ص١٢٢) من الكتاب المذكور.

٢١- راجع بحثنا «الموهبة الكاذبة» والتي تضع مسبراً لمعرفة الموهبة الحقيقية من غيرها.

٢٢- لقراءة النص كاملاً راجع الرابط

http://www.albiladpress.com/demox/column__inner.php?wid=٣٤٦&colid=٨٠٥٠

٢٣- لمزيد من الاطلاع راجع الرابطين اللذين يتحدثان عن مقال الدكتور أحمد البغدادي

http://dialog٥-menber١.com/news.php?action=view&id=٤٥٦٩

http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=٤٧٠٠٩

قسنطينة.. عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٥

مدينة الجسور المعلّقة، والمساجد التاريخية، والقامات الفكرية المبدعة

محمد مروان مراد ❁

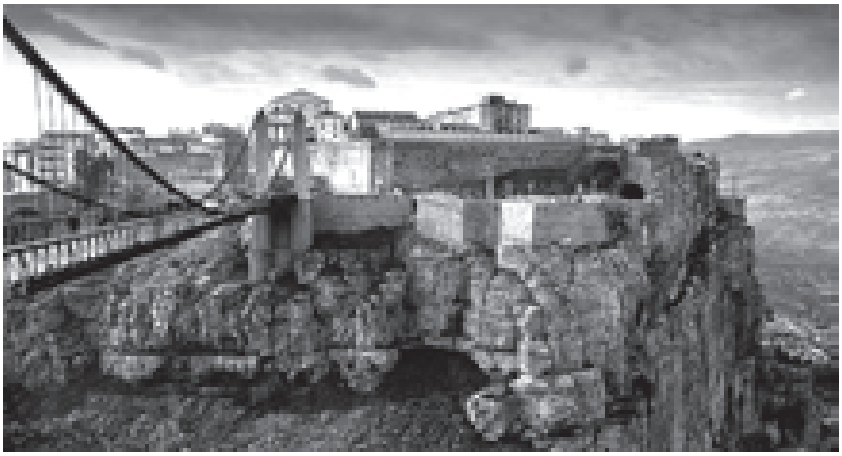

تستعد مدينة «قسنطينة» الجزائرية لاحتضان فعاليات «عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٥»، يُطلق على «قسنطينة» اسم «مدينة الجسور» و«عاصمة الشرق» الجزائري، وتعتبر من كبريات مدن الجزائر تعداداً، تتميز المدينة القديمة بكونها مبنية على صخرة من الكلس القاسي، مما أعطاها منظراً فريداً يستحيل أن يوجد مثله عبر

❁ كاتب وباحث.

العالم في أي مدينـــة، للعبور من ضفة إلى أخـــرى شُيّـــدت عبر العصور عـــدة جسور، فأصبحت قسنطينة تضم أكثر من ٨ جسور بعضها تحطم لانعدام الترميم، وبعضها ما زال يصـــارع الزمن، لذا سُميـــت قسنطينة مدينة الجسور المعلّقـــة. يمر وادي الرمال على مدينة قسنطينة القديمة وتعلوه الجسور على ارتفاعات تفوق ٢٠٠ متر.

قسنطينة: تاريخ و حضارة وتراث:

بـــدأ تاريخ المنطقة مع قـــدوم الأمازيغ وانتظامهم في قبائل، أطلق الإغريق عليهم اسم الليبيـــن، النوميديين، وينسب تأسيس قسنطينة إلى التجار الفينيقيين، كان اسمها القديم هو (قرتا) ويعني بالفينيقية (القرية أو المدينـــة) وكان القرطاجيـــون يسمونها (ساريم باتيم).

اشتهـــرت «سيرتـــا» - الاســـم القديـــم لقسنطينـــة - لأول مـــرة عندمـــا اتخذها ماسينيسا ملك نوميديـــة عاصمة للمملكة، عرفت المدينة بعدها حصـــار «يوغراطة» الـــذي رفض تقسيم مملكـــة أبيه إلى ثلاثة أقســـام، بفضل دعم الرومـــان وبعد حصار دام خمسة أشهر اقتحم تحصينات المدينة واستولـــى عليهـــا، وعادت «سيرتـــا» لتحيا مجداً جديـــداً مع «يوغراطة» ملك نوميدية الجديد.

دخلـــت المدينـــة بعدها تحـــت سلطة الرومان، وأثناء العهد البيزنطي تمردت سنة ٣١١م، على السلطـــة المركزية فاجتاحتها القوات الرومانية من جديد وأمر الإمبراطور ماكسينوس بتخريبها.

أعـــاد الإمبراطـــور قسطنطيـــن بناءها عام ٣١٣م، واتخـــذت اسمه وصارت تسمى القسطنطينة أو قسنطينة، عُرفت ابتداءً من سنة ٤٢٩م، غزوات الونـــدال، ثم استعادها البيزنطيون.

مع دخول المسلمين إلى المغرب عرفت المدينة نوعـــاً من الاستقلال فـــكان أهلها يتولون شؤونهم بنفسهم وحتى القرن التاسع، عرفت المنطقة قدوم القبائل الهلالية، في القرن العاشر وطغت بعدهـــا اللغة العربية على أهالي المنطقة.

ثـــم دخلت المدينة في عهـــدة الزيريين ثـــم الحماديين أصحـــاب القلعـــة وبجاية، واستوطن المدينة الأندلسيون كما استقرت بها جالية يهودية، تعامل معها أهل المدينة بالتسامح المعهود.

وجديـــر بالذكـــر أن قـــدوم اليهود بعد سقـــوط الأندلس التي كانـــوا يعيشون فيها بسلام في ظل الحكم الإسلامي، ثم طردهم المسيحيون المتعصبون للكنيسة الكاثوليكية في روما بعد سقوط آخر حكام الأندلس.

ومنذ القرن الثالث عشر انتقلت المدينة إلى حوزة الحفصيين أصحاب تونس، وبقيت في أيديهم حتى دخول الأتراك العثمانيون.

قبل استقرارهم نهائياً في المنطقة حاول الأتراك احتلال المدينة مرات عدة، وكانوا دوماً يصطدمون بمقاومة الحفصيين، قاد الداي محمد صالح رايس عام ١٥٦٨م حملة على المدينة، واستطاع أن يستولي عليها من غير قتال. ودانت له البلاد بعد أن دحر عبد المؤمن زعيم الحفصيين ومعه قبيلة أولاد صاولة.

تمّ اختيار قسنطينة لتكون عاصمة بايليك الشرق، وعمل «صالح باي» (١٧٧١ - ١٧٩٢م) على تهيئة المدينة وإعطائها طابعها المميز. ومن أهم أعماله بناء جامع ومدرسة «القطانية»، ومدرسة «سيدي لخضر» التي عُني فيها بتدريس اللغة العربية، كما قام بإنشاء حي خاص لليهود بعد أن كانوا موزّعين في أنحاء المدينة.

ومع احتلال الفرنسيين الجزائر رفض أهالي المدينة الاعتراف بسلطة الفرنسيين، وقاد «أحمد باي» الحملة، واستطاع أن يرد الفرنسيين مرتين خلال سنتين في معارك للاستيلاء على القنطرة، التي كانت تمثل بوابة الشرق، تمكنت الحملة الفرنسية عام ١٨٣٧م بقيادة دومورييير من التسلل إلى المدينة عبر معابر سرية توصل إلى وسط المدينة) جراء خيانة من بعض اليهود في المدينة، وعن طريق المدفعية أيضاً استطاع العدو إحداث ثغرة في جدار المدينة، ثم جرى الاقتحام، واصطدم الجنود الفرنسيون بالمقاومة الشرسة للأهالي، واضطروا لمواصلة القتال في الشوارع والبيوت، انتهت المعركة أخيراً بمقتل العديد من السكان، واستقرار المحتلّين في المدينة بعد سنوات عدة من المحاولات الفاشلة، وتمكن «الباي أحمد» وخليفته «بن عيسى» المغادرة إلى الجنوب.

المعالم الطبيعية والآثار في وادي قسنطينة:

توجد بولاية قسنطينة معالم وآثار تاريخية عدة أهمها:

- **مقابر عصر ما قبل التاريخ**: كانت مقابر أهالي مدينة قسنطينة على قدر كبير من الفخامة، تقع بقمة جبل، سيد مسيد، في المكان المسمى «نصب الأموات».

- اكتُشفت قبور أخرى تقع تحت «كهف الدببة» وأخرى ناحية «بكيرة»، كما توجد مقابر أخرى بمنطقة «الخروب» بالمواقع المسماة «خلوة سيدي بو حجر» قشقاش، وكاف تاسنغة ببنوارة وتعود كلها إلى مرحلة ما قبل التاريخ.

- **المقبـرة الميغاليتية لبونـوارة**: على بعـد ٣٢ كلم عن قسنطينـة، وعلى الطريق الوطنـي رقم ٢٠ المؤدي باتجـاه «فالمة»، تقـع المقبـرة الميغاليتيـة لبونـوارة على المنحدرات الجنوبية الغربية لجبل «مزالة» على بعد ٢ كلم شمال قرية بوتوارة. وتتكون هذه الدولمانات «dolments» من طبقات كلسيـة متماسكـة تعود إلـى عصر ما قبل التاريخ، ويبدو أن عدداً كبيراً منها قد تعرض للتلف والاندثار.

يُشار إلى أن النموذج العام لهذه المعالم التاريخية يكون علـى شكل منضدة متكوّنة من أربع كتل صخرية عمودية وطاولة، تشكّل بدورها غرفة مثلثة الشكل، وعادة ما يكون الدولمان محاطاً بدائرة من حجارة واحدة، وفي بعضـ الأحيان مـن دائرتين أو ثلاث أو أربع، وقـد كان سكان المنطقة القدامى يستعملونهـا لدفن موتاهم بهـذه الطريقة المحصنة التي يبـدو أنها قد استمرت إلى القرن الثالث ق.م.

- **كهـف الدببـة**: يبلغ طوله ٦٠م ويوجد بالصخرة الشمالية لقسنطينة.

- **كهـف الأروي**: يقـع قرب كهف الدببة ويبلـغ طولـه ٦م، ويعتبـر كلا الكهفيـن محطتين لصناعات أثرية تعود إلى فترة ما قبل التاريخ.

- **ماسينيسا وضريح بالخروب**: على بعد ١٦كلم جنـوب شرق قسنطينـة يقع ضريح ماسينيسا وهو عبارة عن برج مربع، تمّ بناؤه على شكل مدرجـات فيه ثلاثة صفوف من الحجارة وهي منحوتة بطريقة مستوحاة من الأسلـوب الإغريقي - البونيقي وقد نسب هـذا الضريـح لماسينيسا الـذي ولد سنة ٢٣٨ ق.م، وتوفي سنة ١٤٨ ق.م، حمى هذه المنطقـة لمدة ٦٠ سنة، ويعـود له الفضل في تأسيس الدولة النوميدية، كما أسهم في ترقية العمران وتطويـر الزراعة بالمنطقة وأسس جيشاً قوياً.

- **ضريـح لوليوس**: يقع ضريح لوليوس في جبل شواية بالمـكان المسمى «الهري» علـى بعـد حوالـي ٢٥ كلم شمـال غرب قسنطينة، غير بعيد عـن «تيدس» له شكل أسطوانـي، بُني من حجـارة منحوتة وشيّد من طرف «ك لوليوس إبريكيس» حاكم روما آنذاك تخليداً لعائلته.

- **تيديـس**: تقـع على بعـد ٣٠ كلم إلى الشمال الغربي مـن قسنطينة وتختفي في جبـل مهجور، كانت لها قديمـاً أسماء عدة مثـل: «قسنطينـة العتيقة»، «رأسـ الدار» كما سُميت أيضـاً «مدينة الأقداس» نظراً لكثـرة الكهوف التـي كان الأهالي يتعبدون بهـا، ويبـدو أن اسمها الحالـي «تيديس»

هـو اسم محلـي نوميـدي، أمـا الرومان فأعطوهـا اسـم castelli respublica tidditanorum.

ومعنى «كاستيلي» هو المكان المحصن، ومعنى «روسبيبليـكا» أي التمتع بتنظيمات بلدية، وقد كان دور هذه المدينة هو القيام بوظيفـة القلعـة المتقدمـة لحماية مدينة سيرتا من الهجمات الأجنبية.

ولا تزال الآثار شاهدة على الحضارات التـي تعاقبت على «تيديس» بـدءاً بعصور التاريـخ، فالحضارة البونيقيـة، الحضارة الرومانية، الحضارة البيزنطية إلى الحضارة الإسلامية.

ويتجلّـى عصـر مـا قبـل التاريخ في مجموعة من القبور تسمى «دولمن» ومعناها «المناضد الصخريـة»، وهي مقبرة قديمة تقع على منحـدر الجانب الشمالي، وتجمع عدداً من المباني الأثرية الدائرية المتأثرة بطريقـة الدفـن الجماعي والتـي تسمى «بازناس» وتدل النصب والشواهد الموجودة على العصـر البونيقي، فيما يتجلّى الطابع الرومانـي في المناهـج المتعلقـة بنظام تخطيط المدن.

- **بـاب سيرتـا**: وهو مَعلـم أثري موجود بمركز سـوق بومزو، ويرجَّح أنه كان معبداً، ويعـود تاريخ اكتشافه إلى شهر حزيران من عام ١٩٣٥م، وحسـب بعض الدراسات فإن هذا المعبد قد بُني حوالى سنة ٣٦٣م.

- الأقواس الرومانية: موجودة بالطريق المـؤدي لشعـاب الرصاصـ، وكان الماء المتدفـق بهـذه الأقواسـ يمر مـن منبع «بومـرزوف» ومن الفسقيـة (جبل غريون) إلـى الخزانات والصهاريـج الموجودة في «كدية عاتي» بالمدينة، وهذا المعلم هو من شواهد الحضارة الرومانية.

- **حمامـات القيصـر**: ما زالـت آثارها قائمة إلى اليوم، وتوجد في المنحدر بوادي الرمال، وتقع فـي الجبهة المقابلة لمحطة القطار، غير أن الفيضانات قد أتلفتها عام ١٩٥٧، وقد كانت هذه الحمامات الرومانية تستقطب العائـلات والأسـر، للاستحمام بمياههـا الدافئـة والاستمتـاع بالمناظر المحيطة بها، خاصة في فصل الربيع.

- **إقامة صالح باي**: منتجع للراحة، يقع على بعد ٨ كلم شمال غرب قسنطينة، وقد كان من قبل منزلاً ريفياً خاصاً، قام «صالح باي» ببنائه لأسرته في القرن ١٨، لينتصب بناية أنيقة وسط الحدائق الغنّاء التي كانت تزين المنحدر حتـى وادي الرمال، وتتوفر الإقامة على قبـة قديمة هي محجّ تقصده النساء لممارسة بعضـ الطقوس التقريبية التي تُعرف باسم «النشرة».

- **قصر أحمد الباي:** يُعد قصر الباي إحدى التحف المعمارية الهامة بقسنطينة وتعود فكرة إنشائه إلى «أحمد باي» الذي تأثر أثناء زيارته للبقاع المقدسة بفن العمارة الإسلامية، وأراد أن يترجم افتتانه بهذا المعمار ببناء قصر، وبالفعل انطلقت الأشغال سنة ١٨٢٧ لتنتهي سنة ١٨٣٥. يمتد هذا القصر على مساحة ٥٦٠٠ متر مربع، يمتاز باتسّاعه ودقة تنظيمه، وتوزيع أجنحته التي تدل على عبقرية في المعمار والذوق معاً.

تعرض القصر طوال تاريخه إلى محاولات تغيير وتعديل عدة، خاصة أثناء المرحلة الاستعمارية حيث حاولت الإدارة الفرنسية إضفاء الطابع الأوروبي على القصر، بطمس معالم الزخرفة الإسلامية والقيشاني(سيراميك)، أما الريازة المعمارية للقصر، فقد حورت كثيراً عن أصلها الإسلامي بعد الاحتلال الفرنسي للمدينة، وأصبحت عبارة عن خليط من الريازات المعمارية، ومع ذلك فإن الهوية الأصلية للقصر ظلت هي السائدة والمهيمنة على كل أجزائه وفضاءاته الرائعة، وإن الزائر له يستمتع بنقوشه وزخرفته وتلوينات مواده التي تحيل إلى مرجعية معمارية ضاربة في الأصالة والقدم. وتضفي المدينة القديمة بدروبها الضيقة وخصوصية بناياتها طابعاً مميزاً، وتشتهر ببيوتها المسقوفة وهندستها المعمارية الإسلامية التي مكّنتها من الصمود مدة أطول، ملمحة إلى حضارة وطابع معماري يرفض الزوال.

وتُعتبر المدينة القديمة إرثاً معنوياً وجمالياً يشكل ذاكرة المدينة بكل مكوناتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، وقد عُرفت قسنطينة كغيرها من المدن والعواصم الإسلامية الأسواق المتخصصة، فكل سوق خُصّ بتجارة أو حرفة معينة، وما زالت أسواق المدينة تحتفظ بهذه التسميات مثل: الجزارين، الحدادين، سوق الغزل، وغيرها. هذا إلى جانب المساحات التي تحيط بها المنازل والتي تسمى الرحبة، وتختص بحرفة معينة مثل رحبة الصوف ورحبة الجمال، أما الأسواق الخاصة بكل حي من أحياء المدينة، فإنها كانت تسمى السويقة.

أشهر المعالم العمرانية

طغت على قسنطينة صبغتها الثقافية والدينية منذ القدم، وتكرس هذا المظهر بعد استقرار الإسلام بها، فعرفت بناء المساجد الرحبة الباهرة، ومن أهمها:

- **الجامع الكبير:** بُني في عهد الدولة الزيرية سنة ٥٠٣هـ - ١١٣٦م، وقد أُقيم على أنقاض المعبد الروماني الكائن بنهج «العربي بن مهيدي» حالياً تغيرت هندسته الخارجية جراء الترميم، ويتميز بالكتابات العربية المنقوشة على جدرانه.

- **جامع سوق الغزل:** أمر ببنائه «الباي حسن» وكان ذلك عام ١١٤٣هـ - ١٧٣٠م، حولته القيادة العسكرية الفرنسية إلى كاتدرائية وظل كذلك إلى أن عاد إلى أصله بعد الاستقلال.

- **جامع سيدي الأخضر:** أمر ببنائه الباي «حسن بن حسين» الملقب أبو حنك في عام (١١٥٧هـ - ١٧٤٣م) كما يدل عليه النقش الكتابي المثبت على لوح من الرخام فوق باب المدخل، وتوجد بجانب المسجد مقبرة تضم قبور عدة من بينها قبر الباي حسن.

- **جامع سيدي الكتاني:** يوجد بساحة «سوق العصر» حالياً، أمر «صالح باي بن مصطفى» ببنائه عام (١١٩٠هـ - ١٧٧٦م) وإلى جانبه توجد مقبرة عائلة صالح باي.

- **مسجد البيضاوي:** يوجد بحي باب القنطرة، بُني في فترة ما بعد الاستقلال، تعاقب عليه كبار علماء مدينة قسنطينة منهم الشيخ الطولقي والشيخ يوسف بوغابة الداعية المعروف، ويوجد بجوار المسجد معهد الإمام البيضاوي للعلوم الشرعية.

- **مسجد الأمير عبد القادر:** يعتبر من أكبر المساجد في شمال إفريقيا، يتميز بعلو مئذنتيه اللتين يبلغ ارتفاع كل واحدة ١٠٧م وارتفاع قبته ٦٤م، يبهرك منظره بهندسته المعمارية الرائعة، ويعدّ إحدى التحف التي أبدعتها يد الإنسان في العصر الحاضر، ويتّسع المسجد لنحو ١٥ ألف مصل، ونشير إلى أن المهندس المصري «مصطفى موسى» الذي يعدّ من كبار المهندسين العرب هو الذي قام بتصاميم المساجد والجامعة.

كما تزخر المدينة بعدد آخر من المساجد من بينها: جامع سيدي فعان - جامع سيدي محمد بن ميمون - جامع سيدي بوعنابة، جامع السيدة حفصة - جامع سيدي راشد - جامع سيدي نمديل - جامع سيدي عبد المؤمن - جامع سيدي بومعزة - جامع سيدي قموش - جامع الأربعين شريفاً.

أبواب قسنطينة:

كانت المدينة محصنة بسور تتخلله سبعة أبواب، وبعضهم يقول ستة، تُغلق جميعها في المساء وهي:

- **باب الحنانشة:** الذي يسمح بالخروج من شمال المدينة عبر وادي الرمال، ويؤدي

إلـــى الينابيع التي تصب في أحواض مسبح سيدي مسيد.

- **بـاب الـرواح**: يـؤدي إلـــى الناحيـــة الشماليـــة مـــن وادي الرمـــال ويوصل هذا الباب إلى منابـــع سيدي ميمون التي تصب في المغسل.

- **باب القنطـرة**: يصل المدينة بالضفة الجنوبية لوادي الرمال.

- **باب الجابية**: ينفتح على الطريق الممتد إلى سيدي راشد ويقع على ارتفاع ٥١٠م.

- **بـاب الحديد**: يقع شمـــال ساحة أول نوفمبر، هدم سنة ١٩٢٥.

- **بـاب الـواد أو «بـاب ميلـة»**: يسمـــح بالوصول إلى روابي كديـــة عاتي، وقد كان موجوداً بمكان قصر العدالة حالياً.

قامت هـــذه الأبواب بمهمـــة التحصين للمدينـــة ضـــد الغربـــاء، وبـــدأت تختفي بالتدريـــج إلـــى أن أزال الاحتلال الفرنسي آثارها كلية.

جسور المدينة:

نظراً لتضاريس المدينة الوعرة وأخدود وادي الرمال العميق الـــذي يشقها، أقيمت عليهـــا سبعة جسور لتسهيـــل حركة التنقل، واشتهرت بعد ذلـــك قسنطينة باسم مدينة الجسور المعلقة، وهي:

- **جسر باب القنطرة**: وهو أقدم الجسور، بناه الرومان ثـــم رممه الأتراك عام ١٧٩٢، هدمه الفرنسيون ليبنوا على أنقاضه الجسر القائم حالياً وذلك سنة ١٨٦٣.

- **جسـر سيـدي راشـد**: قـــام بتصميمه المهندس الفرنسي «أوبيـــن ايرو»، وتحمله ٢٧ قوســـاً، يبلغ قطر أكبرهـــا ٧٠م، ويقدر علوه بـ ١٠٦م، طولـــه ٤٤٧م، وعرضه ١٢م، بـــدأت حركة المرور في سنـــة ١٩١٢، وهو أعلى وأضخم جسر حجري في العالم.

- **جسر سيدي مسيد**: بناه وقام بتصميمه المهندس الفرنسي «فرديناند أرنودان» عام ١٩١٢ ويُسمـــى أيضاً بالجسر المعلق، يقدّر ارتفاعه بـــ ١٧٥م، وطوله ١٦٨م، وهو أعلى جسور المدينة، والأعلى في أفريقيا.

- **جسـر ملاح سليمان**: هو ممر حديدي خصصـــ للمشاة وقد بُني بيـــن سنة ١٩١٧ و١٩٢٥م، ويبلـــغ طوله ١٥م، وعرضه مترين ونصف، يربـــط بين شـــارع محطة السكك الحديدية ووسط المدينة.

- **جسر مخازن الغنم**: هو امتداد لشارع رحماني عاشور، ونظراً لضيقه فهو أحادي الاتجاه.

- **جسـر الشيطـان**: جســـر صغير يربط بين ضفتـــي وادي الرمال ويقـــع في أسفل الأخدود.

- **جسر الشلالات:** يوجد على الطريق المؤدي إلى المسبح، وتعلو الجسر مياه وادي الرمال التي تمر تحته مكونة شلالات عدة، وبُني عام ١٩٢٨.

- **مشروع جسر الرمال العملاق:** نسبة إلى وادي الرمال وسيكون عند إنجازه بطول ١١٥٠م، وبعرض ٢٥م، يشتمل على طريقين ذهاباً وطريقين إياباً إضافة إلى سكتي «ترامواي» في وسط الجسر وعلى ارتفاع أكثر من ١٠٠م، وسيمتد من مرتفعات «حي المنصورة» وصولاً إلى حي «جنان الزيتون».

البساتين والحدائق:

يطلق الشعراء على قسنطينة اسم مدينة «الهوى والهواء» وذلك نظراً للطافة جوها، ورقة طباع أهلها، وانتشار البساتين والأشجار في كل أرجائها، وبذلك تتوفر المدينة على حدائق عمومية عدة تعمل على تلطيف الجو داخلها، ولعل أهم هذه الحدائق والتي ما زالت تحافظ على رونقها وجمالها، حديقة «بن ناصر» أو كما يُطلق عليها «جنان الأغنياء» وتتوسط شارع باب الواد، وبحي سيدي مبروك توجد حديقتان إحداهما تقع في المنطقة العليا والأخرى تقع في المنطقة السفلى، كما توجد حديقة بحي المنظر الجميل تحمل اسم «فرفي عبد الحميد» وتجدر الإشارة إلى أن قصر «أحمد باي» يتوفر على حديقة رائعة الجمال، تذكر بعض الروايات أن الباي نفسه كان يشرف عليها، ومن بين حدائق قسنطينة التي كتب عنها بعض المؤرخين والرحالة حديقة قسوم محمد (التي تدعى سكورا قامبيطة) الكائنة خلف شارع بلوزداد، التي ما فتئت تستقطب الكثير من الناس لجمالها وكثافة أشجارها، ويوجد بها تمثال للنحات «لوست LHoest»، وتحت جسر باب القنطرة توجد حديقة رائعة الجمال، ونظراً لموقعها في المنحدر، فهي تفتن الأنظار من بعيد.

الرحبات والأسواق:

تُعتبر الرحبة المكان الواسع المستعمل لأغراض تجارية، حيث تُباع فيها مختلف السلع والبضائع كالملابس، والأقمشة وغيرها. عُرفت قسنطينة قديماً رحبات عدة منها ما يزال قائماً حتى اليوم ومنها ما تحول إلى مباني وطرقات كـ «رحبة الزرع» التي كانت تتوسط المدينة وتُقام فيها نشاطات عدة تجارية كبيع الحبوب، التمور والزيوت، ومن الرحبات المعروفة في قسنطينة قديماً نذكر «رحبة الشبرليين»، «سوق الخرازين»، «سوق العطارين»، «سوق

الصاغة»، و«سوق الصباغين» وغيرها... وحالياً لا تزال بعض الرحبات موجودة مثل: «رحبة الصوف» التي تحولت اليوم إلى سوق لبيع الخضار والفواكه والأواني وبعض الأغراض المنزلية، أما «رحبة الجمال» التي يذكر المؤرخون أنها كانت مبركاً للقوافل التي تأتي من مختلف الأنحاء محملة بالبضائع، فقد أصبحت اليوم سوقاً لبيع الملابس، ومكاناً مفضلاً للمطاعم الشعبية بوجباتها الشهية، وهناك «سوق العصر» الذي كان قبلاً يُسمى «سوق الجمعة» ويشتهر بتنوّع خضره وفواكهه وباللحوم والأقمشة، وعادة ما تكون أسعار هذا السوق معتدلة مقارنة مع بقية الأسواق، ومن أهم أسواق المدينة أيضاً في الوقت الحالي نذكر: «سوق بومزو» يُعد من أهم الأسواق ويعود تاريخ بنائه إلى عهد الاحتلال الفرنسي، يقع بمحاذاة ساحة أول نوفمبر ويعرف يومياً حركة نشيطة، «سوق بن بطو» ويُعتبر من أقدم الأسواق، ونظراً لموقعه المتميز بشارع بلوزداد وجودة السلع والبضائع التي يعرضها فهو يستقطب الكثيرات من ربات البيوت.

الحمامات:

لا تزال حمامات مدينة قسنطينة التي يعود تاريخ بنائها إلى العهد العثماني محافظة على شكلها وهندستها ووظيفتها، ويبلغ عددها حوالى ٢٠ حماماً، ما زال سكان المدينة يقصدونها ويفضلونها على الحمامات العصرية، ولعل أول حمام بناه الأتراك كان حمام «ثلاثة» الكائن بحي الشط، ويطلق عليه أيضاً اسم «حمام الهوا» كونه بُني فوق المنحدر أما سبب تسميته بحمام «ثلاثا» فلأنه كان الوحيد الذي حدد سعره بثلاثة «صوردي» بينما حدد في الحمامات الأخرى بخمسة.

أعلام الفكر في قسنطينة:

عُرفت قسنطينة بأنها مدينة العلم والعلماء فقد كانت ولا زالت موئل كوكبة من العلماء والأدباء والفلاسفة من بينهم:

- **يوسف بوغابة**: من كبار دعاة وعلماء مدينة قسنطينة إمام وخطيب ومدير معهد الإمام البيضاوي للعلوم الشرعية، تقلّد العديد من المناصب منها: رئيس المجلس العلمي للشؤون الدينية، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- شعبة قسنطينة.

- **أحمد باي**: آخر بايات قسنطينة، قاوم الاستعمار الفرنسي وهزمه في معارك عدة.

- **صالح باي**: أحد بايات قسنطينة وبايلك الشرق.

- **سيدي نمديل**: جزائري تركي، علاّمة إسلامي ورجل وطني.
- **عبد الحميد بن باديس**: من أكبر فقهاء الجزائر كان له دور كبير في الحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية.
- **مالك بن نبي**: مفكر كبير.
- **مالك حداد**: كاتب معاصر.
- **أحمد رضا حوحو**: كاتب وأديب معاصر.
- **حسيبة بولمرقة**: بطلة عالمية وأولمبية في ألعاب القوى ١٥٠٠م.
- **رابح بيطاط**: أحد رؤساء الجمهورية الجزائرية (١٩٧٨ - ١٩٧٩).
- **زيغود يوسف**: أحد قيادات ثورة التحرير الجزائرية.
- **أحلام مستغانمي**: كاتبة وأديبة معاصرة.
- **كاتب ياسين**: كاتب وأديب معاصر.
- **عبد الحميد أبركان**: رئيس المنظمة العالمية للصحة (١٩٩٦ - ١٩٩٨).
- **عبد الحميد مهري**: سياسي جزائري.
- **عبد الحق طوابي**: شاعر وأصغر نائب بالمجلس الشعبي الولاتي.
- **زهور ونيسي**: كاتبة ووزيرة سابقة.
- **محمد الطاهر الفرقاني**: فنان.
- **عبد الله حمادي**: كاتب وشاعر.

دور المماليك في إدارة الدولة الفاطمية: الأستاذ جوذر أنموذجاً

سيف الدين القصير ❁

اتسمت الدولة الفاطمية التي أسسها عبد الله المهدي في شمال أفريقية عام ٢٩٧/٩٠٩ بسمة عامة نطلق عليها اليوم تسمية «التعددية»، وهي إتاحة الفرصة لسائر أطياف المجتمعات بالمشاركة في إدارة الدولة وعدم التعصب لفئة أو مذهب أو عرق على حساب الآخرين. وفي هذا المجال قدم حامد حاجي[1] دراسة ممتعة في كتاب قلاع العقل من تحرير عمر علي- دو- أونثاغا ومنشورات المطبوعات الإسلامية المحدودة (لندن، ٢٠١١)، تضمنت سيرة شخصية لمملوك «صقلبي» خصي لعب دوراً هاماً في الإدارة الفاطمية خلال عهود أول أربعة أئمة- خلفاء فاطميين حكموا من أفريقية (تونس اليوم)، قبل انتقال عاصمة الخلافة الفاطمية إلى القاهرة في مصر زمن الخليفة المعز (ت.٣٦٥/٩٧٥).

وهذه الشخصية هي الأستاذ جوذر، الخصي الصقلبي الأصل وأحد العبيد الذين كانوا في ملكية أسرة الأغالبة التي أطاح بها الفاطميون وورثوها بكل ما كانت تملك. وكانت أصول الخصيان الصقالبة، الذين حققوا بروزاً لهم في أفريقية خلال فترة حكم الأغالبة، تعود في معظمها إلى مناطق

❁ كاتب وباحث سوري.

البلقان. وكان فصلهم عن بلدانهم الأصلية، وحرمانهم من وجود أي أقارب لهم في مساكنهم الجديدة، قد جعل منهم مرتبطين بشكل كلي بأسيادهم ومخلصين لهم.

أما حياة الأستاذ جوذر العملية في خدمة الفاطميين لمدة تجاوزت الستين عاماً، وولاؤه النموذجي لأسياده ورعاته، فقد حظيت بتوثيق وافٍ في كتاب سيرة صنّفه كاتب جوذر الخاص، أبو علي منصور العزيزي الجوذري[٢]، الذي عمل معه بحرص وإخلاص طوال العقد الأخير من حياته. كان جوذر لا يزال صبياً عندما دخل عبد الله المهدي رقّادة. وكان من بين عبيد النظام القديم الذين تم تجميعهم أمام الحاكم الجديد. وقام المهدي بتوزيع هؤلاء العبيد على مهامهم في إدارة دولته الجديدة. واختار جوذراً ليكون في خدمة ولي عهده، القائم بأمر الله. لقد أُعجب المهدي بزهد جوذر وإخلاصه وتقواه فأولاه حظوة خاصة منذ البداية. وبرهن جوذر عن التزامه وحسن خدمته من خلال عمله كرئيس لخدم قصر القائم. وتولى شؤون القصر بكاملها عندما كان القائم في حملة عسكرية خارج العاصمة. ولقيت إدارة جوذر المتقنة وأعماله إعجاباً خاصاً من القائم، فكرّمه وزاد من إنعاماته عليه وصار يصطحبه في بعض حملاته العسكرية[٣].

وبعد وفاة المهدي، أوكل الخليفة الفاطمي الجديد، القائم، إدارة بيت المال إلى جوذر إلى جانب أمور مخازن القصر الخاصة بالألبسة والأقمشة. ثم جعله وسيطاً بينه وبين أتباعه، وبينه وبين جميع عبيده. وبلغت درجة ثقة سيده به حدّاً بحيث أنه عندما كان القائم يُحضّر لدفن المهدي استدعى جوذراً جانباً وأسرّ له بتسمية ولده إسماعيل ولياً لعهده. وأخذ القائم من جوذر وعداً بمبايعة ولي عهده المسمّى والمحافظة على مكانته سرّاً حتى يقوم هو نفسه بإعلان تعيينه على الملأ. وطبقاً لهذا الوعد فقد أبقى جوذر الأمر سرّاً لمدة سبع سنوات[٤]. وقد سبق لولي العهد إسماعيل، الخليفة المنصور فيما بعد، أن أبدى تعاطفاً واهتماماً كبيرين بجوذر، فكثيراً ما كان يتوقف عند منزل جوذر ليقوم بزيارته. وتحتفظ السيرة برسالة هامة بعث بها المنصور، عندما كان ولياً للعهد، إلى جوذر حول موضوع ضبط المرء لنفسه عند الغضب استشهد فيها بنصائح لجالينوس اليوناني.[٥]

مارس جوذر سلطات واسعة اشتملت على حقه بمعاقبة المخالفين ممن هم يخضعون لأمرته. وحدث في أحد الأيام أن عاقب بعض شباب الصقالبة الخصيان وسجنهم بسبب مخالفة ارتكبوها واستحقوا

التأديب عليها. فبعث هؤلاء الشبان برسالة إلى ولي العهد المنصور يناشدونه التدخل للإفراج عنهم. ولم يدرِ جوذر بهذا الأمر حتى تلقى رسالة من المنصور أعلمه فيها أنه قد تجاوز حدّه قليلاً وعليه أن يكون رحيماً تجاه أولئك الذين عاقبهم.[٦]

وبعد وفاة القائم وتولي المنصور لسدة الخلافة سنة ٣٣٤/٩٤٥، ارتقت مكانة جوذر الذي احتل مرتبة أكثر سموّاً وأعظم رفعة. وعندما انطلق المنصور لملاحقة أبي يزيد الخارجي المتمرد على الفاطميين منذ ٣٣٢/٩٤٣، عمد إلى تقليد جوذر سلطة الإشراف على القصر وعلى كامل البلاد، وائتمنه على صناديق بيت المال وحمّله مسؤولية الحفاظ على سلامتها. فأصبح جوذر بهذا الشكل ثالث أهم شخصية في الدولة الفاطمية، بعد الخليفة وولي العهد. ولما انتصر المنصور أخيراً على أبي يزيد الخارجي وقضى على ثورته، أقدم الخليفة على تكريم جوذر بإعلان عتقه وتسميته «مولى أمير المؤمنين» ثم وجهه في اتباع صيغة محددة في بروتوكول المراسلات من شأنها أن تجعله في أعلى مرتبة بعد ولي العهد. كما أمر الخليفة الفاطمي بنقش اسم جوذر على شرائط الطراز التي تُزين الأقمشة والسجاد المصنوع في المهدية. وعندما جلس المنصور إلى الطعام بعد عودته إلى القصر منتصراً أمر جوذراً أن يجلس معه إلى مائدته، فكانت تلك أول مرة حظي فيها بشرف الجلوس مع الإمام-الخليفة إلى طاولة واحدة.[٧]

وتعدى الدور الذي لعبه جوذر في الإدارة الفاطمية الجوانب الإدارية والمالية ليشمل النواحي الثقافية أيضاً. فكان المنصور قد اعتاد جمع أجود الكنوز وأفخرها من شتى الأنواع، وكان يعتبر كتب أسلافه أغلى وأغنى كنوزه. وفي أحد الأيام بعث بمجموعة من هذه الكتب إلى جوذر للاحتفاظ بها ونسخها، ومنها كتاب الإيضاح للقاضي النعمان والخطب التي ألقاها هو نفسه وتلك التي لسلفه، القائم. وفي مناسبة أخرى جرت في العام ٣٤١/٩٥٣، بعث الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس براهبٍ سفيراً له يحمل هدايا ثمينة إلى بلاط المنصور في المنصورية. وكان الهدف من هذه السفارة إقامة علاقات ودية وسلمية مع الملك الفاطمي عقب هدنة بين الطرفين توصلا إليها بعد تعرّض القوات البيزنطية لهزيمة مذلة في صقلية على أيدي الفاطميين. وقد أُعجب السفير بعظمة الملك الفاطمي والبهاء الذي يُحيط به، وهو ما لم يشاهد مثيلاً له في بلاده. وبالنتيجة، وردّاً على ذلك، أراد المنصور إرسال هدايا أكثر جمالاً وسخاءً من تلك

التي تلقاها. ولذلك كتب إلى جوذر يأمره أن يُحضر من مخازن كنوزه مواداً ثمينة وصفها له تليق بإرسالها إلى الملوك.[٨]

وقام المعز، بعد توليه للخلافة عقب وفاة المنصور سنة ٩٥٣/٣٤١، باستدعاء جوذر إلى المنصورية وأسكنه قربه في مجمع قصره. وأصبح جوذر مسؤولاً في المنصورية عن إبلاغ الخليفة المعز بأي رسائل أو التماسات موجهة إليه. وكان يتلقى من الخليفة ردوداً تتضمن القرارات الواجب تنفيذها، والنصائح الواجب إسداؤها إلى أصحاب الطلبات، والطريقة التي يكتب بها إليهم. وتكشف رسائل المعز وتوجيهاته إلى جوذر، المحفوظة في سيرة حياته، مدى اهتمام الحاكم الفاطمي وحرصه على معالجة كافة القضايا الموجهة إليه وكيف أن جوذراً كان مشتركاً عن قرب في التعامل مع المسائل كافة: تلك التي شملت قضايا الدفاع عن المملكة وصولاً إلى الإدارة المالية وشؤون صقلية (حيث كانت الأسرة الكلبية تحكم بصورة شبه مستقلة تحت السيادة الفاطمية)، وبناء الأسطول الفاطمي وتسليحه، والتحضيرات للمغادرة النهائية إلى مصر، وهي تحضيرات دامت من حوالي ٩٦٠/٣٤٩ وحتى فتح الفسطاط على يدي قائد الجيوش جوهر الصقلي سنة ٩٦٩/٣٥٨. وحرص جوذر على إبقاء المعز على معرفة بشؤون رعاياه والعاملين في مجال الإدارة الحكومية وفي تنظيم الدعوة. فقام على سبيل المثال بإطلاع الخليفة على الحالة المالية المريعة لأحد الدعاة البارزين، جعفر بن منصور اليمن، فسارع المعز إلى نجدة الداعي المذكور وأنقذه من مأزقه.[٩]

كانت لجوذر معرفة جيدة بالأسرة الكلبية من بني أبي الحسن الكلبي؛ فقد قدم هؤلاء خدمات عسكرية جليلة لأسيادهم الفاطميين وحكموا صقلية باسمهم. وكانت هذه الأسرة قد تبنّت القضية الفاطمية منذ وقت مبكر ونالت حظوة لدى هؤلاء من أيام عهد المهدي. وقد لعب أبو الغنائم الحسن بن علي دوراً قيادياً فيما بعد في الحملات العسكرية التي شنها كل من القائم والمنصور ضد الخارجي أبي يزيد. ثم أُرسل فيما بعد إلى صقلية أميراً عليها لاستعادة النظام وتثبيت السلطة الفاطمية في الجزيرة في أعقاب تمرد هناك، فأصبح الأول من بين سلسلة من الأمراء المتعاقبين على حكم الجزيرة من المتحدرين من الأسرة الكلبية. وتكشف وثيقة محفوظة في السيرة عن تفاصيل تتعلق بهذا التمرد الذي أخضعه الحسن بن علي تُعتبر مكملة لرواية ابن الأثير حول هذه الأحداث.[١٠]

لم تمنع الوظائف الإدارية والمناصب العامة التي شغلها جوذر ونشاطاته البارزة فيها من ممارسته لأنشطة اقتصادية شكلت الدخل الرئيسي الذي اعتمد عليه في حياته الخاصة. فقد كانت له بعض الملكيات العقارية، ومنها عقار وهبه إياه الخليفة المهدي في جزيرة شريك، وهي شبه جزيرة خصبة تقع إلى الشرق من تونس. كما كانت له استثمارات تجارية في جزيرة صقلية تمثلت بممارسته بصفة شخصية لتجارة الأخشاب مع الجزيرة وامتلاكه لسفن كانت تحمل له بضائعه المستوردة إلى شمال أفريقية. وقد لقي جوذر دعماً من الحاكم الفاطمي عندما كانت سفنه تتعرض لحوادث غرق أو فقدان، كما كان يتبرع أحياناً بحمولة سفينته من الأخشاب ويهبها للخليفة لاستخدامها في بناء السفن.[١١]

كانت الثقة التي أولاه إياها الحكام الفاطميون الأوائل وحرص جوذر الشديد كي يكون عند حسن ظن أسياده قد أتاحت له الفرصة كي يكون على علم تام بجميع المسائل في الأسرة الفاطمية. ومن ذلك، على سبيل المثال، بعض النزاعات التي بقيت المصادر التاريخية العامة صامتة حولها. ونعلم من سيرته أن أبناء المهدي والقائم، الذين أقاموا في المهدية في قصري المهدي والقائم على التوالي، رفضوا الإقرار بكفاءة المنصور وتميّزه وأنكروا حقه في الإمامة، إضافة إلى إطلاقهم لاتهامات كاذبة ضد جوذر لأن الأخير كان قد ضيّق عليهم ومنعهم من السير في الأسواق بحرية مع عامة الناس بسبب سلوكهم المشين.[١٢] وتذكر السيرة أن أصل جميع النزاعات في الأسرة الفاطمية يعود إلى قاسم، ابن القائم، الذي يلومه المنصور بشكل خاص لإثارته نزاعاً بين المهدي والقائم. غير أن السيرة لا تفصّل في ما فعله قاسم، لكن ابن عذاري يروي أنه بينما كان القائم يقود عمليات عسكرية ضد قبائل البربر المتمردة على الفاطميين في المغرب، بعث إليه ولده قاسم برسالة تقول أن ثمة شائعات تسري حول تسمية المهدي لولده أبي علي أحمد ولياً للعهد، وأن الأخير أمَّ الصلاة في عيدي الفطر والأضحى. فاضطرب القائم لهذه الأنباء وعاد إلى المهدية على الفور دون أن يشتبك مع العدو.[١٣] وقد واصل أبناء قاسم الذين سكنوا المهدية إظهار العداوة للمنصور والمعز حيث بلغ الخطر الذي شكلوه حداً دفع الخليفة المعز إلى تفويض جوذر بمراقبة المراسلات الصادرة عن سكان القصرين الواقعين في المهدية واعتراضها.

وكما كان القائم قد جعل جوذراً شاهداً على سرّ تسمية المنصور ولياً لعهده، كذلك

فعل المعز في وقت ما بعد فتح مصر، حيث أطلع جوذراً على سرّ تسمية ولده الثاني عبد الله ولياً لعهده في وقت كان من المتوقع فيه عموماً أن يحتل تميم، الابن الأكبر للمعز، هذه المكانة. وقد حافظ جوذر على هذا التعيين سراً لمدة سبعة أشهر. وكان عبد الله قد سُمّي ولياً للعهد، وليس تميماً، بسبب علاقات مشبوهة قامت بين الأخير وأبناء عمه، أبناء قاسم، الذين سبق لهم أن دبروا المكائد ضد الإمام.[١٤] وقد وطّد جوذر علاقته بولي العهد عبد الله وأظهر له كل مودة واحترام. وعندما قام ولي العهد بزيارة جوذر أثناء فترة مرضه، كتب جوذر إلى المعز معبّراً عن مقدار التشريف الذي ناله من زيارة ولي العهد له. وأتبع ذلك بإرسال سجادة ثمينة متوسلاً الإمام السماح لولي العهد بقبولها.

وبينما كانت الاستعدادات تجري لانتقال مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، سرت شائعات تقول إن جوذراً سيبقى في أفريقية حاكماً عليها باسم الفاطميين. وعندما سمع جوذر بذلك كتب إلى الخليفة المعز يسأله ألا يتركه وراءه، لأن سعادته تكمن في وجوده إلى جانب الإمام- الخليفة. وأجابه المعز طالباً إليه ألاّ يقلق من شائعات لا أساس لها، وأنه لم يفكر بإبقائه في أفريقية لأنه كان يخطط لتدبير آخر يضمن من خلاله ولاء حليفيه الطموحين في المغرب، يوسف بلقين بن زيري، زعيم بربر صنهاجة، ومنافسه المرّ جعفر بن علي بن حمدون، الذي وقف إلى جانب أعدائهم من بربر زناتة.[١٥] ثم وقع اختيار المعز على يوسف بن زيري ليكون حاكماً على أفريقية، الأمر الذي أدى إلى قيام منافس ابن زيري، جعفر بن علي، أمير منطقة مسيلة، بتحويل ولائه إلى أمويي الأندلس، أعداء الفاطميين. وكان جعفر وشقيقه يحيى قد ترعرعا في البلاط الفاطمي، وأن والدهما علي كان قد لعب دوراً هاماً في تأسيس مدينة المسيلة سنة ٩٢٧/٣١٠ عندما عهد إليه الخليفة القائم ببنائها.[١٦]

وشارك جوذر نفسه بفعالية في التحضيرات للانتقال من أفريقية إلى مصر. وجاء أفراد من الأسرة الكلبية الحاكمة في صقلية إلى أفريقية لمرافقة المعز وحاشيته في تلك الرحلة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى جوذر حول نزاعات ظهرت بين بعض أفراد الأسرة الكلبية، لكنه امتنع عن الظهور بمظهر الداعم لطرف في النزاع ضد طرف آخر كي لايتعرض للملامة فيما بعد، وأحاط الخليفة المعز علماً بقراره هذا.[١٧] وكان المعز في تلك الآونة منشغلاً بإرسال القوات وتأمين

النفقات التي ترتّبت على هذه الإجراءات. غير أن جوذر كان قد تدبر الشأن المالي لذلك من خلال أموال جمعها من صفقات تجارية ناجحة باع خلالها بضائع من مستودعات الدولة ومن ضرائب غير مدفوعة أضاف إليها بعضاً من ثروته الخاصة قدّمه هبة منه للمعز.[١٨]

من جانب آخر، كان جوذر قد تعامل سابقاً مع القائد جوهر بخصوص حصة في أرضٍ كان جوهر قد طالب بمنحها له، وحصة في ملكية رغب في شرائها. وتبادل الاثنان المراسلات بعد نجاح جوهر في فتح مصر وإعتاق المعز له وحصوله على حريته. وعندما التمس جوذر رأي المعز بكيفية مخاطبة جوهر بعد عتقه أنشأ الإمام عهد أخوّة بين الرقيقين السابقين، مستذكراً عهد الأخوة الذي أنشأه النبي بين أصحابه عقب هجرته من مكة إلى المدينة، وأشار على جوذر بالبروتوكول الواجب اتباعه في مراسلاته مع جوهر كي يعكس روح عهد الأخوّة هذا.[١٩]

وعندما غادر المعز شمال أفريقية قاصداً مصر انطلق جوذر معه في الوقت نفسه وكان يعاني آنئذٍ من ضعف شديد. كان جوذر على علم بحالته الصحية، فكتب إلى الإمام- الخليفة يسأله بعض قطع من ثيابه يمكن أن تكون كفناً له ويتبرك بها عندما يموت. وجاء ردّ المعز بالدعاء له بحياة مديدة كي يشهد المزيد من الازدهار والرزق الوفير، وبعث إليه بقطع من ثيابه وثياب أجداده.[٢٠] وعندما وصل جوذر وفريقه إلى موقع أجدابية في برقة، رغب في رؤية المعز. وبما أنه كان ضعيفاً جداً فقد حُمِلَ إلى خيمة المعز على حمالة. وقد سلّم الإمام عليه وهو على الحمالة واحتضنه وطمأنه. وكان ذلك آخر لقاء لهما. واشتد المرض على جوذر وهو يقترب من برقة، وفي صباح اليوم التالي بدأت سكرات الموت وتوفي في وقت صلاة الظهر. وفي تلك الليلة، حُمل جثمانه من بلدة برقة إلى موقع مخيم المعز في مكان يدعى مياسر، وأمر الخليفة بغسل الجثمان، وقام بهذا الطقس كلٌّ من القاضي النعمان ومحمد بن عثمان ومنصور العزيزي الجوذري، كاتب السيرة. وفي اليوم التالي أمَّ الخليفة المعز صلاة الجنازة على جوذر الذي دُفِن بعد ذلك في مسجد محلي في برقة.[٢١]

ولا يزال اسم جوذر محفوظاً في أحد أحياء القاهرة المعروف بالجودرية (أي الجوذرية)، والذي أسسته مجموعة من الأفراد الذين حملوا النسبة، الجوذري، ومنهم مصنّف هذه السيرة.[٢٢]

الهوامش

١. انظـر دراسة حامد حاجي بعنوان «مملوك صقلبي بارز مـن الفترة الفاطمية الأولى: الأستاذ جوذر»، في كتـاب قلاع العقل، تحرير د. عمر علي-دو-أونثاغا (لندن، ٢٠١١)؛ الترجمة العربية سيف الدين القصير (بيروت، ٢٠١٤)، ص. ٢٧١- ٢٨٦.

٢. أبـو علي منصور العزيـزي الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، تح. محمد كامـل حسين ومحمد عبد الهادي شعيـرة (القاهرة، ١٩٥٤)؛ التـر. الفرنسية، ماريوس كَنـارد، Vie de l'Ustadh Jaudhar (الجزائر، ١٩٥٧)؛ والتر. الإنكليزية، حامد حاجي:
Glimpses from Early Fatimid Archives: The Biography of Ustadh Jawdhar (لندن، قيد النشر).

٣. أول مرة يقود فيها القائم حملة إلى المغرب بعد تولي المهدي للسلطة في رقادة كانت عندما بعثه المهدي على رأس القوات لمحاربة الكتاميين الذين ثاروا عقب مقتل الداعي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨/٩١١. انظـر القاضي أبو حنيفة النعمان بـن محمد، افتتاح الدعوة، تح. وداد القاضي (بيروت،١٩٧٠)، ص٢٧٣؛ والتر. الإنكليزية لحاميد حاجي (لندن،٢٠٠٦)، ص٢٢٧؛ تقي الدين المقريزي، كتاب المقفى الكبير، تح. محمد اليعلوي (بيروت،١٩٩١)، مج٤، ص٥٦١.

٤. الجوذري، السيرة، ص. ٤٠.

٥. المصدر السابق، ص٤١-٢. ولم يرد فيها أي ذكر لكتاب من تأليف جالينوس، غير أن الإشارة الواردة هنا هي إلى رسالة وردت في كتاب جالينوس المعروف بالعربية باسم في تعرف الإنسان عيوب نفسه. والنص اللاتيني للكتاب حققه ويلكو دو بوير، Corpus Medicorum Graecorum(ليبزيغ وبرلين،١٩٣٧)، مـج٥، ص١٣-٥؛ والتر. الإنكليزية لبول هاركينـز، On the Passions and Errors of the Soul (كولومبس، ١٩٦٣)، ص٣٩-٤١.

٦. المصدر السابق، ص. ٤١- ٤٢.

٧. الجوذري، سيرة، ص٥١-٢.

٨. المصدرالسابق، ص٦٠-١؛ ألكسندر فاسيلييـف، Byzance et les Arabes(بروكسل، ١٩٣٥-١٩٦٨)، مج٢، قسم١، ص٣٦٩-٧٠، وقسم٢، ص١٥٩-٦٠.

٩. المصدر السابق، ص١٢٦-٧.

١٠. المصدر السابق، ص١٣١.

١١. المصدر السابق، ص١٢١.

١٢. المصـدر السابق، صـ٦١-٤. والكتاب موضـوع التساؤل هو تثبيـت الإمامة كما يبـدو. انظر بوناوالا، Biobibliography of Isma'ili Literature(ماليبـو، ١٩٧٧)، صـ٤٤-٥. وتحتفـظ مكتبـة معهد الدراسـات الإسماعيلية في لندن بنسخة مخطوطة من الكتاب برقم ١١٢٠ (مجموعة زاهد علي). وحول هذه المجموعة انظر ديلا كورتيس

Arabic Isma'ili Manuscripts: The Zahid 'Ali Collection in the Library of the Institute of the Ismaili Studies. (لندن، ٢٠٠٣)، ص١٨٠. ولمزيد من التفاصيل انظر، مادلونغ، «رسالة في إمامة الخليفة الفاطمي المنصور بالله»، في كتاب روبنسون، مح.، Texts Documents and Artefacts: Islamic Studies... (ليدن، ٢٠٠٣)، ص٦٩-٧٧.

١٣. ابن عذاري، البيان، مج١، ص١٩٣. وإنه لأمر هام ملاحظة أن حفيد المعز الحاكم بأمر الله (ح. ٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢١) كان قد سمّى حفيداً لأبي علي أحمد يدعى عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهده. المقريزي، اتعاظ، مج٢، ص١٠٠-١.

١٤. طبقاً للمقريزي (المقفّى، مج٢، ص٥٨٨) كان المعز أول ما سمّى تميماً ولياً لعهده. ثم، وبعد فتح جوهر لمصر، كتب المعز إلى جوذر يُسرُّ إليه قراره بنقض تسمية تميم لمصلحة عبد الله. والدافع لذلك هو عدم إنجاب تميم ذريةً له وسيرة حياته الماجنة. لكن عبد الله توفي في حياة والده في القاهرة، فعيّن المعز شقيقه الأصغر نزار في ولاية العهد. المقريزي، اتعاظ، مج١، ص٢١٧، ٢٣٥؛ ابن حمّاد، أخبار، ص٤٧ (التر. ص٧١)؛ ابن ميسر، أخبار مصر، تح. أيمن فؤاد سيد بعنوان المنتقى من أخبار مصر (القاهرة، ١٩٨١)، ص١٦٥-٦؛ ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، تح. أندريه فيريه (القاهرة، ١٩٧٢)، ص٢٦، ٣١؛ إدريس عماد الدين، عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، مج٥، تح. محمد يعلوي بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب: القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار (بيروت، ١٩٨٥)، ص٧٠٢.

١٥. الجوذري، السيرة، ص. ١٠٩.

١٦. المصدر السابق، ص١٢٩-٣١.

١٧. المصدر السابق، ص١١٤-٥.

١٨. المصدر السابق، ص٩٢-٣.

١٩. المصدر السابق، ص١٣٥.

٢٠. المصدر السابق، ص١٣٨-٩.

٢١. المصدر السابق، ص١٤٣-٦.

٢٢. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تح. أيمن فؤاد سيد (القاهرة، ١٩٩٦)، ص٥٤.

القرن الصيني

جوزيف ستيغليتز ❁
ترجمة: وفيق شعبو ●

تمكنت الصين - بهدوء ودون ضجيج - من تجاوز الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد في العالم. وهذا ينبغي أن يشكل صرخة تنبيه لم يعتد عليها الأميركيون. الرد الأمثل على ذلك هو استثمار القوة الناعمة لأميركا وإعادة ترتيب البيت الداخلي.

عندما يكتب تاريخ عام ٢٠١٤م سنرى بأن حقيقة كبيرة قد دونت ولم تحظ بالاهتمام الكافي وهي:

❁ جوزيف ستيغليتز: حائز على جائزة نوبل في الآداب ٢٠٠١م، وأستاذ في جامعة كولومبيا الأميركية. أحدث مؤلفاته كتاب بعنوان (ثمن اللامساواة). وهو عضو في مجلس القرن الواحد والعشرين في معهد بيرغرون.

● مترجم سوري.

إن العـــام ٢٠١٤ كان آخـــر عـــام تستطيع فيه الولايات المتحـــدة الادعاء بأنها القوة الاقتصاديـــة الأكبـــر في العالـــم. وتدخل الصين عام ٢٠١٥م في المركز الأول، حيث ستبقى على الأرجح لفترة طويلة جداً، إن لم يكـــن إلى الأبد. وهي بهذا تعود إلى الموقع الذي شغلته خلال معظم التاريخ البشري.

من الصعوبة بمكان مقارنة الناتج المحلي الإجمالي لأنظمـــة اقتصادية مختلفة. لكن اللجان الفنية المختصة خلصت بتقديرات عن «تكافـــؤ القوى الشرائيـــة»، تمكّنّا من المقارنـــة بين مستويـــات الدخل في بلدان متعـــددة. صحيح أن هـــذه الأرقام لا يمكن الركـــون إلى دقتها، لكنها توفر أساساً جيداً لتقييم الحجم النسبي لاقتصادات مختلفة. فـــي أوائـــل عـــام ٢٠١٤م خـــرج – برنامج التقييم العالمي التابع للبنك الدولي – وهو الهيئـــة التي تجري هكـــذا مقارنات دولية، بأرقام جديـــدة. (الصعوبة تكمن في أنه لم يكن هناك ســـوى ثلاثة تقارير عن فترة ٢٠ عاماً). كان التقييم الأخير، الذي صدر في الربيـــع الماضي،أكثر خطورة وإثارة للجدل من تلك التي صدرت في السنوات السابقة. لقـــد كان أكثر جدلاً لأنـــه كان أكثر أهمية: حيث أظهرت الأرقـــام الجديدة بأن الصين ستصبح أكبر اقتصـــاد في العالم في وقت أسرع بكثير ممـــا كان يتوقعه أي شخص – لقـــد كانت علـــى الطريق الصحيـــح للقيام بذلك قبل نهاية عام ٢٠١٤م.

إن مصدر الاختـــلاف سيفاجئ العديد مـــن الأميركييـــن، ويوضـــح الكثيـــر عـــن الفروقات بين الصيـــن والولايات المتحدة ومخاطـــر إسقاط بعضـــ مواقفنا الخاصة على الصينييـــن. فالأميركيون يطلبون دوماً أن يكونـــوا رقم –١– بينمـــا الصينيون غير متلهفين لذلك. وفقاً لبعض التقارير، هدد المشاركون الصينيون بمقاطعة المناقشات التقنية، لسبب واحد هو أنَّهم غير متحمسين لاحتلال المركز الأوَّل كون ذلك يترتب عليه تكاليـــف مادية. أي دفع المزيد من الأموال لدعم الهيئات الدولية مثل الأمم المتحدة. وقد يترتب عليهم مزيد من الضغوط للقيام بـــدور القيادة المستنيرة بشـــأن العديد من المواضيع مثل تغير المناخ. وهذا قد يحرض الصينييـــن العاديين للتســـاؤل حول كيفية صرف المزيد من ثروات البلاد. وكان هناك مصدر قلق آخر وهو: إن الصينيين يتفهمون جيداً انشغال أميركا النفسي وتعلقها بالرقم –١– ولهـــذا فهم قلقـــون للغايـــة بشأن ما ستكـــون عليه ردة فعلنـــا عندما نخسر هذا الموقع.

تجاوزت الصين الولايات المتحدة منذ فترة طويلة في العديد من المجالات، على سبيل المثال في مجالي الصادرات والمدخرات الشخصية.بالنسبة للادخار والاستثمار في الصين فقد قاربا ٥٠ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي، وينتاب الصينيين قلق من وجود مدخرات أكثر، بينما يقلق الأميركيون من انخفاض المدخرات لديهم. وفي مجالات أخرى، مثل التصنيع تفوقت الصين على الولايات المتحدة فقط في غضون السنوات القليلة الماضية، أمَّا فيما يتعلق بعدد براءات الاختراع الممنوحة فالصينيون يتخلفون عن الأميركيين حالياً، لكن الفجوة بيننا أخذت تضيق.

المجالات التي لا تزال فيها الولايات المتحدة قادرة على المنافسة مع الصين ليست دائماً تلك التي نرغب بتسليط الضوء عليها .فكلا البلدين لديهما مستويات مماثلة من عدم المساواة بين المواطنين، وهي لدينا أعلى معدل بين دول العالم المتقدم. تتفوق الصين على أميركا في عدد الأشخاص الذين ينفذ بحقهم حكم الإعدام كل عام ولكن الولايات المتحدة تسبقها بفارق كبير بنسبة السجناء إلى عدد السكان (أكثر من ٧٠٠سجين لكل ١٠٠،٠٠٠ نسمة). الصين تفوقت على الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٧م باعتبارها أكبر ملوث للبيئة في العالم، من خلال الحجم الإجمالي للتلوث، ولكن إذا اعتمدنا حصة الفرد من التلوث كأساس نبقى نحن في المقدمة. ولا تزال الولايات المتحدة أكبر قوة عسكرية، وننفق على قواتنا المسلحة أكثر مما تنفقه الدول العشر الكبرى مجتمعة (هذا لا يعني أننا دائما نستخدم قوتنا العسكرية بحكمة). ولكن أساس قوة الولايات المتحدة يرتكز غالباً على القوة الناعمة من خلال التأثير الاقتصادي أكثر منه على القوة العسكرية الصارمة، وهذه نقطة جوهرية يجب أن نضعها بالحسبان.

من الواضح أن التحولات العميقة(Tectonic shifts) في القوة الاقتصادية العالمية قد حدثت من قبل، ونحن نعرف بعض الأحداث المرافقة لذلك. فقبل مئتي سنة، في أعقاب الحروب النابليونية، برزت بريطانيا العظمى باعتبارها القوة المهيمنة في العالم، وامتدت إمبراطوريتها على ربع مساحة العالم. وأصبحت عملتها- الجنيه الإسترليني -تمثل احتياطي العملات العالمية مثل الذهب تماما. كانت بريطانيا أحياناً تعمل بالتنسيق مع حلفائها، وأحياناً تفرض عليهم قواعد التجارة الخاصة بها. فمثلاً فرضت التمييز

ضد استيراد المنسوجات الهندية وأجبرت الهند على شراء القماش البريطاني. كما فرضت هي وحلفاؤها على الصين أن تبقي أسواقها مفتوحة للأفيون، وعندما أدركت الصين التأثير المدمر للمخدرات وحاولت إغلاق حدودها بوجهها، شن الحلفاء الحرب عليها مرتين للحفاظ على التدفق الحر لهذا المنتج.

وقد استمرت الهيمنة البريطانية مئة عام وأكثر حتى بعد تفوق الولايات المتحدة على بريطانيا اقتصادياً، في سبعينيات القرن التاسع عشر. هناك دائماً تثاقل بالانتقال (كما سيكون الأمر مع الولايات المتحدة والصين). وكان الحدث الانتقالي الحرب العالمية الأولى، عندما حققت بريطانيا الانتصار على ألمانيا بالاعتماد على مساعدة الولايات المتحدة. بعد الحرب، كانت أميركا مترددة في قبول مسؤولياتها الجديدة المحتملة كما كانت بريطانيا مضطرة للتخلي طوعاً عن دورها. وقد فعل وودرو ويلسونWoodrow Wilson ما في وسعه لبناء عالم ما بعد الحرب مما كان من شأنه أن يقلل من فرص نشوب صراع عالمي آخر، ولكن الانعزالية والانغلاق منعا الولايات المتحدة من الانضمام إلى عصبة الأمم. وفي المجال الاقتصادي، أصرت أميركا على الاستمرار بتطبيق قانون التعريفات Smoot-Hawley الخاصة بها ووضع حد للحقبة التي شهدت طفرة في التجارة العالمية.

صحيح أن بريطانيا قد حافظت وقتها على إمبراطوريتها، ولكن الجنيه الإسترليني أخلى الطريق تدريجيا للدولار: في النهاية ، تهيمن الواقعية الاقتصادية. العديد من الشركات الأميركية أصبحت شركات عالمية، وباتت الثقافة الأميركية هي الثقافة الصاعدة.

كانت الحرب العالمية الثانية الحدث المميز التالي.فبريطانيا التي دمرها الصراع، ستفقد فعلياً جميع مستعمراتها. هذه المرة تولت الولايات المتحدة زمام القيادة. كان دورها محورياً في إنشاء الأمم المتحدة وفي تشكيل وصياغة اتفاقات بريتون وودزBretton Woods، التي سيقوم عليها النظام السياسي والاقتصادي الجديد. ومع ذلك، لم تكن الأمور منتظمة، وبدلاً من خلق عملة احتياطية عالمية، الأمر الذي كان سيسهم كثيراً في الاستقرار الاقتصادي العالمي - كما ذكر بحق جون ماينارد كينز - فإن الولايات المتحدة وضعت مصلحتها الخاصة الآنية في المرتبة الأولى معتقدة بحماقة أنها ستكسب من خلال

جعل الـدولار عملـة الاحتيـاط العالمي. أصبـح وضع الدولار نعمة ونقمة في الوقت نفسه: من ناحية يمكّـن الولايات المتحدة مـن الاقتراض بأسعـار فائـدة منخفضة كـون الآخرين يطلبون الـدولار لوضعه في احتياطاتهم، ولكن من ناحية أخرى ارتفعت قيمـة الدولار جراء ذلك، ما أدى إلى تفاقم العجز التجاري وإضعاف الاقتصاد.

سيطر على السياسـة الدولية لمدة ٤٥ عاماً بعـد الحرب العالميـة الثانية قوتان عظيمتان هما الولايـات المتحدة والاتحاد السوفييتـي، وهاتان القوتان تمثلان رؤيتين مختلفتيـن جداً سـواء في كيفيـة تنظيم وإدارة الاقتصاد والمجتمع، أو مدى ضمان حقوق الإنسان السياسية والاقتصادية. في نهايـة المطاف،كان الفشـل مصير النظام السوفييتـي، وذلك بالدرجـة الأولى بسبب الفسـاد الداخلي،وعـدم وجـود رادع من خلال الآلية الديمقراطية. صحيح أن القوة العسكريـة السوفييتيـة كانـت هائلة، لكن قوتهـم الناعمة كانت تثير السخرية. بعدها سيطرت على العالم قوة عظمى واحدة، وقد استمرت فـي الاستثمار بكثافـة في قوتها العسكريـة. كانت الولايـات المتحدة دولة عظمى ليـس فقط عسكرياً بـل اقتصادياً أيضاً، ثم ارتكبت خطأين فادحين:

الأول: الاستنتـاج بـأن انتصارها يعني انتصـاراً لكل القيم التـي تمثلها. ولكن في كثير من دول العالم الثالث، ظلت المخاوف التي طالما نـادى بها اليسـار حول الفقر والحقوق الاقتصادية بحدودها القصوى.

الثاني: استخـدام هذه الفترة القصيرة من هيمنتهـا الأحادية، بيـن سقوط جدار برليـن وسقـوط مصـرف ليمان بـراذرز Lehman Brothers، لتحقيق مصالحها الاقتصاديـة الضيقـة، بشـكل أكثـر دقة المصالـح الاقتصادية متعـددة الجنسيات بما في ذلـك مصارفها الكبـرى، بدلاً من إنشاء نظام عالمي جديـد ومستقر.فنظام التجارة الذي دفعت بـه الولايات المتحدة عام ١٩٩٤م من خلال إنشاء منظمة التجارة العالميـة (WTO)، لم يكن متوازناً بحيث أنه بعد خمس سنوات، اندلعت أعمال شغب فـي سياتل عندما كان اتفـاق آخر للتجارة قيد التوقيع. إن حديثها عن التجارة الحرة والعادلـة، وإصرارها في الوقت نفسه على تقديـم الإعانات لمزارعيهـا الأغنياء، قد أظهـرا الولايـات المتحدة بأنهـا منافقة وتسعى لخدمة مصالحها الذاتية فحسب.

لـم تدرك واشنطن تماما عواقب الكثير من أفعالها قصيـرة النظر – أرادت توسيع وتعزيـز هيمنتها ولكن فـي الواقع قلصت

وحجمت موقعها على المدى البعيد. خلال الأزمة الاقتصادية في دول شرق آسيا، في تسعينيات القرن الماضي، عملت وزارة الخزانة الأميركية بجدية وحزم لتقويض ماسُمي مبادرة ميازاوا (Miyazawa Initiative)- حيث عرض اليابان بسخاء تقديم ١٠٠ مليار دولار لمساعدة الاقتصادات التي كانت تغرق في الركود. دفعت الولايات المتحدة هذه البلدان إلى اعتماد سياسة التقشف والفائدة المرتفعة، من دون تقديم دعم لإنقاذ البنوك المتعثرة - على عكس ما دعا إليه هؤلاء المسؤولون في الخزانة نفسهم لتطبيقه في الولايات المتحدة بعد انهيار عام ٢٠٠٨م. الآن، وبعد مضي عقد ونصف العقد على أزمة بلدان شرق آسيا، فإن مجرد ذكر دور الولايات المتحدة في العواصم الآسيوية هذه يثير موجة من الغضب، وتوجه إليها الاتهامات بالنفاق .

الآن الصين هي القوة الاقتصادية رقم -١- في العالم. لماذا ينبغي علينا أن نقلق؟ في الواقع ينبغي ألا نقلق. الاقتصاد العالمي ليس لعبة محصلتها صفر(zero-sum game)، حيث يكون نمو الصين بالضرورة على حساب مصالحنا. عملياً، نموها سيكون متمماً لنمونا. فإذا كانت تنمو بشكل أسرع، ستشتري المزيد من بضائعنا، وهكذا سوف يزدهر اقتصادنا طرداً. هناك دائماً بالتأكيد، بعض المبالغة في هذه الادعاءات. لكن هذا الواقع يفرض علينا الكثير لنفعله في سياستنا الاقتصادية الداخلية كما هو الحال مع صعود أية بلدان أخرى.

ومن ناحية أخرى، فإن بزوغ الصين إلى القمة ليس بالأمر البسيط ، ونحن بحاجة إلى أن نكون على بينة من الآثار المترتبة عليه:

أولاً، كما لاحظنا، أن القوة الحقيقية لأميركا تكمن في القوة الناعمة - النموذج الذي تقدمه للآخرين وتأثير أفكارها، بما في ذلك الأفكار حول نمط الحياة الاقتصادية والسياسية. بينما صعود الصين إلى المركز رقم -١-سيعطي أهمية جديدة للنموذج أو النمط السياسي والاقتصادي لهذا البلد وإلى الصيغ الخاصة من القوة الناعمة التي يمتلكها مقارنة مع النموذج الأمريكي- الذي لم يتعرف عليه قسم كبير من الصينيين. ومن ناحية أخرى فإن الأسرة الأميركية النموذجية أصبحت أسوأ حالا مما كانت عليه قبل ربع قرن، وبعد ارتفاع معدل التضخم ازدادت نسبة الأميركيين تحت خط الفقر.بينما في الصين وعلى الرغم من تميزها بمستويات عالية من عدم

المســاواة، إلا أن اقتصادها يحفظ مصالح معظم مواطنيها، وقد نقلت نحو ٥٠٠ مليون صينــي من تحت خط الفقــر خلال الفترة نفسهــا التي دخلت فيهــا الطبقة الوسطى في أميــركا مرحلة من الركــود. فالنموذج الاقتصادي الــذي لا يراعي مصالح أغلبية المواطنين لا يمكن تقديمه كنموذج يحتذي به الآخــرون. أي إن على أميــركا أن تنظر لصعود الصيــن بمثابة دعــوة للاستيقاظ وإعادة ترتيب بيتنا الداخلي.

ثانياً، إذا كان لنا أن نتأمل صعود الصين ومن ثم اتخاذ الإجراءات القائمة على أساس أن الاقتصــاد العالمي هــو لعبة محصلتها صفــر، أي إننا بحاجة إلــى تعزيز حصتنا وإنقاص حصة الصين - فإننا بهذا نعرض قوتنا الناعمــة للتآكل أكثــر فأكثر، وهكذا تكون بالضبط دعوة الاستيقاظ الخطأ.

إذا كنا نــرى أن مكاســب الصين تأتي علــى حسابنا، فإننا ســوف نسعى جاهدين لـ«الاحتــواء» واتخــاذ خطــوات تهدف إلى الحد مــن نفوذ الصين. وهــذه الإجراءات ستثبت في نهاية المطاف أنها غير مجدية، بــل وستقوض الثقة فــي الولايات المتحدة وموقعهــا القيــادي، وقد وقعــت السياسة الخارجية الأميركية مراراً وتكراراً في هذا الفخ.

لنمعــن النظر فــي ما يسمــى الشراكة عبــر المحيط الهادئ، اتفاق التجارة الحرة المقترحة بين الولايــات المتحدة واليابان، والعديد مــن البلدان الآسيوية الأخرى التي تستبعد الصين كليــاً. ينظر الكثيرون لهذه الاتفاقية على أنها وسيلة لإحكام الروابط بين الولايات المتحدة وبعض البلدان الآسيوية، على حساب الصيــن. فهناك سلسلة واسعة وديناميكية لحركة المواد الأولية والسلع في آسيــا، فالبضائع تتحرك فــي جميع أنحاء المنطقة خــلال مراحل مختلفة من الإنتاج لكن اتفاقيــة الشراكة عبر المحيط الهادئ تبدو وكأنها محاولة مكشوفة لإخراج الصين من سلسلة التوريدات هذه.

مثــال آخــر: الولايات المتحــدة تنظر بارتيــاب إلى جهود الصيــن الأولية لتحمل المسؤولية العالمية فــي بعض المجالات. تريد الصيــن مثلاً أن تأخــذ دور أكبر في المؤسسات الدولية القائمة، ولكن الكونغرس يقــول، إن النادي القديــم لا يحبذ أعضاء نشيطيــن جدد، وعليهــم البقاء في المقعد الخلفي، دون أن يكون لهم حق التصويت بما يتناسب مع دورهــم في الاقتصاد العالمي. وعندمــا تتفــق مجموعــة الــدول الكبرى العشرونG-٢٠علــى أنه قــد حان الوقت لتسمية قيادة المنظمات الاقتصادية الدولية

على أساس الكفاءة وليس الجنسية، تصر الولايات المتحدة على أن النظام القديم جيد بما فيه الكفاية وأن البنك الدولي- على سبيل المثال- ينبغي أن يستمر برئاسة شخص أمريكي.

مثال آخر أيضاً: عندما اقترحت الصين، مع فرنسا وغيرها من البلدان - مدعومة من قبل لجنة خبراء دولية (كنت أرأسها) معينة من قبل الأمين العام للأمم المتحدة - أن ننهي العمل الذي بدأه كينزKeynes في بريتون وودز، من خلال إنشاء عملة احتياط دولية،أعاقت الولايات المتحدة هذا الجهد.

والمثال الأخير: سعي الولايات المتحدة لإعاقة جهود الصين لتوجيه المزيد من المساعدات للبلدان النامية من خلال المؤسسات متعددة الأطراف التي أنشئت حديثاً والتي سيكون للصين الدور الكبير، وربما المهيمن فيها. هناك حاجة ماسة إلى تريليونات الدولارات من الاستثمارات في مجال البنية التحتية - وتأمين هذه المبالغ للاستثمار هو أبعد من قدرة البنك الدولي والمؤسسات متعددة الأطراف القائمة. ما هو مطلوب ليس فقط نظام حكم أكثر شمولا في البنك الدولي ولكن أيضا المزيد من رأس المال. وقد اعترض الكونغرس الأميركي على كلا المطلبين. في الوقت نفسه، تحاول الصين إنشاء صندوق البنية التحتية الآسيوية، والعمل مع عدد كبير من البلدان الأخرى في المنطقة، لكن الولايات المتحدة لا تريد لتلك البلدان أن تنضم إلى هذا المشروع.

تواجه الولايات المتحدة العديد من التحديات الحقيقية في مجال السياسة الخارجية التي تستدعي العمل الجاد لحلها: الإسلام المتشدد، الصراع في فلسطين الذي أصبح الآن في العقد السابع، روسيا التي تصر على تأكيد قوتها على الأقل على جوارها،والتهديدات المستمرة الناشئة عن الانتشار النووي. وسوف نحتاج إلى تعاون الصين لمعالجة الكثير من هذه المشاكل، إن لم يكن كلها.

علينا استغلال هذه اللحظة، عندما تصبح الصين أكبر اقتصاد في العالم، لحرف سياستنا الخارجية بعيداً عن الاحتواء. إن المصالح الاقتصادية للصين والولايات المتحدة متشابكة بشكل معقد. وكلانا على حد سواء لديه مصلحة في

رؤية النظام السياسي والاقتصادي العالمي مستقراً ويعمل بصورة جيدة. ولكن الصين بالاستناد لذاكرتها التاريخية ومفهومها الخاص للكرامة الوطنية،لن تكون قادرة على قبول النظام العالمي القائم ببساطة كما هو، وفق القواعد التي وضعها الغرب لضمان مصالحه المشتركة، والتي تعكس وجهات النظر الغربية فحسب. سيكون علينا التعاون شئنا أم أبينا، وعلينا أن نريد. في غضون ذلك،الشيء الأهم الذي يمكن لأميركا أن تفعله للحفاظ على مستوى قوتها الناعمة هو التصدي لأوجه القصور الاقتصادية والسياسية والممارسات الفاسدة وعرض الأمور بشفافية، والتوجه نحو الأغنياء والأقوياء.

هناك نظام سياسي واقتصادي عالمي جديد آخذ في الظهور، نتيجة للحقائق الاقتصادية الجديدة.لا يمكننا تغيير هذه الحقائق الاقتصادية. ولكن إذا كان ردّنا عليها بطريقة خاطئة، فإننا نخاطر بردّ فعل عنيف من شأنه أن يؤدّي إما إلى اختلال في النظام العالمي القائم، أو إلى نظام عالمي جديد لن يكون بلا شك النظام الذي كنا نريد.

العملاق الأزرق الفائق
النجم الذي وجب أن لا يكون

ترجمة: محمد الدنيا ❁

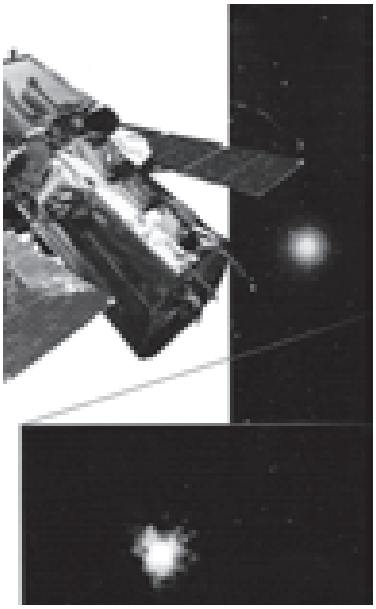

لغز في الفضاء: نجوم تنفجر مطلقةً هبّات مذهلة من الفوتونات لم تكتشف من قبل قط، وتتحدى السيناريوهات كلها. واليوم، يقوم علماء الفيزياء الفلكية، ليس من دون استغراب، برسم صورة جديدة لنمط نجوم يفترض أنها كانت قد انطفأت... منذ الانفجار الأعظم.

بدأ تاريخ الحدث في عيد الميلاد ٢٠١٠م . نزلت رسالة من السماء مصدرها القمر الصناعي Swift الذي يتفحص القبة السماوية منذ ست سنوات

❁ كاتب ومترجم.

بحثاً عن أقوى أشعة تصدر عن أشياء الفضاء الكوني: ارتجافات sursauts أشعة غاما. وكان Swift قد كشف منذ وقت قصير عن واحدة من هبات الفوتونات هذه (جسيمات ضوء)، خارقة الطاقة في كوكبة «أندروميدا» وأعطى إحداثياته للمقاريب على الأرض كي تسدد مراياها صوب الهدف وتتحراه بالتفصيل. لا وجود لوقت يضيع. توصف ارتجافات غاما بأنَّها «قصيرة» عندما تستمر أقل من ثانية: ناجمة عن تصادم بين نجمين نيوترونيين. ويقال عن أخرى إنَّها «طويلة» عندما تستمر عدة عشرات من الثواني: تنطوي على مؤشر حول انفجار نجم عملاق يقذف عندئذ مادته على شكل فوّارتي ماء ساخن متقابلين.

كشف Swift في ذلك اليوم ارتجافاً طويلاً، بل طويلاً جدّاً. مرت الثواني، ثم الدقائق، ولم تضعف الإشارة. واضطر القمر الصناعي، الذي يدور حول كوكبنا في تسعين دقيقة، لتوقف مفاجئ عند مروره في الجانب الآخر من الأرض. في نهاية الأمر، استمرت الإشارة أكثر من ساعتين. وأعطى علماء الفلك الاسم الرمزي ١٠١٢٢٥A لارتجاف غاما هذا، الذي لم يسجل مثل طوله من قبل قط. وظهرت فئة جديدة: ارتجافات غاما «فائقة الطول»، التي لا يمكن تعريفها عندئذ، وفقاً لرأي الباحثين، على أنها مجرد ارتجافات طويلة وخاصة قليلاً.

يحدث ارتجاف غاما الطويل عندما يصل نجم عملاق إلى نهاية حياته. لا تعود التفاعلات النووية التي تحدث في قلبه كافية القوة ليكون النجم قادراً على تحمل ثقل طبقاته الخارجية. ينهار على نفسه عندئذ على شكل ثقب أسود، حبة صغيرة كثيفة للغاية. ولا يعود هناك أرض تحت الطبقات الخارجية فتسقط هي الأخرى في الثقب الأسود الوليد، الذي يبتلع قسماً منها ويقذف الآخر في الفضاء على شكل نافورتين قويتين متقابلتين، إبرتين من المادة الحارقة تنطلقان في فضاء الكون بسرعة تقارب سرعة الضوء. وأحياناً، تجعل المصادفة هذه النافورة تتجه مباشرة صوب الأرض: نلاحظ حينها واحداً من أكثر انفجارات الكون هولاً.

جسم سماوي مخيف؟

هــذا إلا إذا كان الزمن الذي يستغرقه ارتجــافُ غامــا الطويل متوافقــاً تقريباً والزمن الــلازم للطبقــات الخارجية كي تنهار علــى القلب: بضع دقائــق بالنسبة لنجم عملاق. في هــذه الحال، قد يكون النجــم الــذي نتج عنــه ارتجــاف غاما ١٠١٢٢٥A ذا حجــم خيالــي! وهــذا مستحيل حسب رأي الباحثين، لأن أضخم النجوم المعروفة، العملاقة الفائقة، تفقد غلافها سريعاً جــدّاً فلا يعود جاهزاً كي يطور ارتجاف غامــا. إذن، مع أي ظاهرة فيزيائية تتوافق الارتجافات فائقة الطول؟ ما الذي حدث بالفعل ذاك اليوم في كوكبة «أندروميدا»؟.

غاص علمــاء الفلك فــي الحسابات، وقــدم فريقــان مــن العلمــاء نموذجين مختلفيــن: إما أن جسماً صغيــراً، مذنباً أو كويكبــاً سيــاراً قد يكــون تحطم على نجــم نيوترونــي في مكان مــا من مجرة «الدرب اللبنيــة»، فتشظى وتناثرت مادته حول النجــم، الذي قذفه فــي نافورتين، على غــرار ارتجاف غاما، ولكن أدنى قوة بكثير وأقصر إلى حــد كبير؛ أو أن نجماً نيوترونيــاً انصهر في نجــم عملاق لفظ مادته بعد ذلك وفقــاً للميكانيكية نفسها ولكن مــا بعد «الدرب اللبنية» هذه المرة، علــى مسافة ٣،٥ مليار سنة ضوئية... أي ربــع الكــون القابل للرصــد! كان الحسم مستحيلاً بين هذيــن السيناريوهين لعدم معرفــة مسافــة الارتجــاف ١٠١٢٢٥A بشكل دقيق»، يوضح عالم الفلك «أندريو لوفــان» Andrew Levant من جامعة Warwick البريطانية.

إهمال فرضيات

وضع عالم الفلك نصب عينيه استجلاء الأمــر، فصــوّب مقــراب Gemini في «هاواي» نحو المشهــد المأساوي ولحظ وجود مجرة صغيرة زرقاء شاحبة. بالنسبة له، لم يعد يوجد أي شك: الإشارة آتية من هذه المجرة. ومن طيفها الضوئي استنتج مسافتها: ٧ مليارات سنة ضوئية، أكثر من نصــف حجم الكون المرئــي. «الارتجاف أبعد مما كنا نعتقد، وكي يرى بهذا الوضوح من الأرضــ كان يجب أن يثيــره شيء ما عملاق فعلاً»، يستخلص العالم. وانهارت

الفرضيتان. لا علاقة للنجوم النيوترونية الصغيرة والمذنبات والكويكبات السيارة بمثل هذه القصة، القصة التي سيفتح فصلها الثاني بعد سنة لاحقة.

في ٩ كانون الأول ٢٠١١م، تمَّ الكشف عن ارتجاف آخر فائق الطول، A١١١٢٠٩ الذي حطم الأرقام القياسية كلها: استمر سبع ساعات! وعاد الفريق الدولي برئاسة «بروس جندر» Bruce Gendre، من المركز الوطني للأبحاث العلمية في باريس، إلى المرجعيات الأساسية، فحسب رأي باحثي الفريق: «لا حاجة للتذرع بظاهرة أخرى، فالارتجافات فائقة الطول هي انفجارات نجوم ضخمة الكتلة. وببساطة، يكفي أن تكون كافية المادة حتى تُبقي على نوافيرها طوال ساعات عدة».

نجم كافي المادة؟ هذا أقل ما يمكن قوله. في هذه الحال يجب أن نتخيله وحشاً نجمياً ربما أكبر حجماً من الشمس بمئات ملايين، إلا أن مثل هذه الأجسام الهائلة، المتضخمة إلى هذا الحد في نهاية حياتها مستبعدةُ الوجود إلى حد كبير في الواقع. إنها حارقة إلى درجة أن «رياحها الشمسية» القوية، الأشعة الشديدة المنبعثة من تفاعلات القلب النووية، تنفخ غلافَها بعيداً في الفضاء. «يفقد بعضها حتى ٧٥٪ من كتلته خلال حياتها.

إذن، حين انفجارها، لا تعود هذه المادة كلها متاحة لتغذية ارتجاف غاما»، يقول «ميشيل بوير» Michel Boer، أحد أعضاء الفريق.

إلا إذا... إلا إذا كان التركيب الكيميائي لطبقات النجم الخارجية يجعلها نفوذة للغاية للتشعيعات. بذلك، ستبقى ملازمة للنجم حتى التفكك النهائي المحتوم وسقوطها في الثقب الأسود حين الارتجاف. وشيئاً فشيئاً، رسم الباحثون الصورة الروبوتية للنجم المسؤول عن هذه الكارثة الكونية الطبيعية: إنه النجم العملاق الأزرق الفائق، الذي لو تواجد في مركز مجموعتنا الشمسية لابتلع الكواكب التلورية الأربعة (عطارد والزهرة والأرض والمريخ) ولباشر بالتهام المشتري. يتسخن بحرارة تبلغ ٥٠٠٠٠ درجة، ومحتواه من الهيدروجين والهليوم أكبر بكثير مما لدى الشمس، لكن محتواه من الأوكسجين أقل بثلاث مرات. إنَّ تركيبه الكيميائي هو ما

يفسر احتفاظه بطبقاته الخارجية. «يمتص الهيدروجين فوتونات أقل بكثير مما يمتص من العناصر الأثقل كالأكسجين.

إذن فهو أقل تأثراً بكثير بضغط التشعيعات، مثلما تقتلع العاصفة الشبك بسهولة أقل من اقتلاع الصفيحة»، يشرح «ميشيل بوير».

حسناً جدّاً... سوى أن مثل هذه النجوم لم يعد من المفترض أنها موجودة منذ زمن بعيد! كانت قد اختفت منذ بداية الكون، منذ ١٣ مليار سنة. كانت أولاها، تلك التي اشتعلت في الظلمة البدئية، تحوي فقط الهيدروجين والهليوم وبعض آثار الليثيوم، ذلك لسبب وجيه هو أن هذه كانت العناصر الوحيدة المتاحة. لم تكن العناصر الأخرى موجودة بعد. تخلَّق الكربون، والأوكسجين، والسيليسيوم، والحديد فيما بعد، في تلك المراجل ، أي في قلوب النجوم العملاقة. وهكذا، من جيل إلى جيل، ومن انصهار مجري إلى آخر، ازداد الكون غنى بعناصر جديدة.

ذلك مع بعض الاستثناءات تقريباً: بقي بعض المجرات، وبشكل عجيب، كالمجرة Zwicky١ ١٨، في كوكبة «الدب الأكبر»، في منأى عن هذا الهيجان كله، واحتفظت بعناصر أثقل من الهيدروجين والهليوم. ومن هذا النمط من المجرات ربما كانت تأتي الارتجافات فائقة الطول. وهنا ربما كانت تنطفئ أضخم النجوم التي أوجدها الكون في حشرجات احتضار هائلة يمكن إدراكها على بعد مليارات السنوات الضوئية.

مشهد نادر

هل يمكن أن نسمع ذلك من نجوم أخرى؟ احتمال ضعيف. «ذلك أنه لم يحقق أي نموذج لانهيار نجوم من الجيل الأوَّل إجماعاً بين الباحثين. لا أحد يعرف إن كانت كلها تنفجر في ارتجاف غاما»، يقول «ميشيل بوير». وباستثناء الجسامة الهائلة الواقعة استثناءً على بعد ٧ مليارات سنة ضوئية « فقط»، فإنها موجودة في غالبيتها على نحو أبعد بكثير من إمكان كشفها بالوسائل الراهنة. غالباً ما تنطفئ المخلوقات النجمية هائلة الضخامة بصمت.

إشارتان لكارثة طبيعية غير متوقعة

في العام ٢٠١٠م، ثم ٢٠١١م، التقطت الأقمار الصناعية هبّتي غاما فائقتي الطول وهبّات فوتونات ذات طاقة كبيرة جداً استمرت ساعات عدة. وحتى الآن، كان ينظر إلى ارتجافات غاما التي تدوم أكثر من ثوان عدة (توصف بأنَّها «طويلة») على أنها تشير إما إلى أحداث كونية «عادية» (انفجار نجم عملاق) وإما إلى أحداث أكثر غرابة (اصطدام كويكب سيار أو مذنب بنجم نيوتروني أو موجة صدمية لمستعر فائق عملاق في مجرة أخرى..)، لكن لها تفسير وفق سيناريو معين. وتشير الارتجافات الأكثر طولاً أيضاً والأقوى طاقة، هي كذلك، إلى أحداث بالغة الشدة، كدمار نجم بفعل ثقب أسود فائق الكتلة في مجرة أخرى. لقد أفضى ارتجافا غاما فائقا الطول، اللذان اكتشفا منذ عام ٢٠١٠م، إلى إحداث بصمة جديدة: بصمة انهيار نجوم فائقة العملقة لم تكن متصورة من قبل أبداً.

❁ ❁ ❁

عن:

Science & Vie، septembre 2013

حوار العدد

مع:
الأديب محمود علي السعيد

إعداد: محمد خالد الخضر ❁

الأديب محمود علي سعيد شاعر وقاص وناقد كتب الشعر والقصة القصيرة جداً والنقد التشكيلي فتجلت النزعة الوطنية والإنسانية في مجمل كتاباته وتميزت بالوعي والنزوع إلى السمو الإنساني كما ظلت كتاباته على الرغم من تعدد أجناسها الأدبية في مستواها الفني الرفيع وحول رؤيته في الكتابة كان الحوار التالي:

أنت تكتب الشعر بأنواعه، بالشطرين والتفعيلة والنثر، ما هو تعريف الشعر برأيك؟

❁ أديب وصحفي سوري.

العمل الفني: الفنان فتحي الصالح .

• الشعـــر بداية، هو موقـــف ويجب أن يكون هذا الموقف إيجابياً فلا يجوز للشعر أن يجـــد السلبيـــات لأنه يعبر عـــن شعور وإحساس ساميـــن، فالشعر الحقيقي هو الذي يبحث في الحيـــاة ليصحح مسارات الإنسان ويزرع أمامه التفاؤل على الرغم من المصاعب والمتاهـــات حتى يصبح الشعر نبض الحياة الحقيقـــي وجوهر الصيرورة بشقيها المجازي المعنوي والمادي الحياتي الملموس بالحياة.

- مـا هـي أهـم المواضيع التـي طرحها شعرك؟

• إنَّ فلسطيـــن هـــي جوهـــر القضايا العربية المصيرية، وهي قلب كنعان ومحط أنظار الديانات السماوية، وهذا المصطلح الكنعاني هو الذي يجسد هويتنا وشخصيتنا العربية الفلسطينية وخاصة بوجود القدس أولـــى القبلتين وثالـــث الحرمين لذلك من الضـــروري أن يكون موقفي كفلسطيني في هذا العصـــر الآبق موقفاً شجاعاً، فإما أن أموت شهيداً أو أحيا شهيداً ولهذه المعاني كانـــت أكثر المواضيع التـــي تمحور عليها شعري وأدبي.

كما أتابع قضية العدالة والشعوب فأنا ضد كل معطيات الإرهاب وأشكاله وأنواعه ضمـــن أي ظرف كان. كما أنني منحاز بكل قواي العقلية والثقافية والجسدية إلى لقمة طفل جائـــع، وإلى نبض أب يتأوه، وإلى صرخة أم ثكلى، فأنا أميل بكل ما أملك إلى الحق والعدالة والأخلاق والمواقف النبيلـــة، ومـــن هـــذه الأشيـــاء تكتمل منظوماتي الأدبيـــة والثقافية فعلى أي شاعر وأديـــب وكاتب أن يكون مع الحق أينما وجد وفي أي ركن تجلى.

- بعـد أن كتبـت الأنـواع الشعريـة الثلاثة أين تجد نفسك؟

• إنَّ قصيـــدة النثـــر والتفعيلـــة والشطرين أضلاع لمثلث واحد فالشاعر يكتب بالجنس الذي يتكيف معه وكثيراً ما تتجسد التجربـــة الشعورية، وتتجلى في قصيدة نثـــر وأحياناً فـــي قصيدة تفعيلة..

وفـــي هـــذه المرحلة بالـــذات وبعد وصـــول الشعـــر إلى ما وصـــل إليه في تداعيـــات الحياة أرى أن الشعر يتجسد في قصيدة الشطرين أكثر، لأن قصيدة البحر وموسيقاها العربية بكل تشعباتها أو التصويت الحروفي للغة العربية يعطي عشرات النغمـــات فبمقدور الشاعر أن يخلق من نبض الصوت الحرفي العربي أجمل سيمفونية إذا توافرت لديه قدرة وطاقة الكاتب المبـــدع، وأصابع الفنان

المرهف.

وإذا أردنا أن نبحث عن التقصير والعطل فهما ليسا في إيقاع القصيدة العمودية التي كتبها كثيرون من الشعراء فكانت نظاماً شعرياً أكثر منه خلقاً وإبداعاً، فالعطل في المرسل وليس في الرسالة أو المتلقي لذلك على الشاعر أن يجرب كل الأنواع وأن يتخذ المسار الذي يتلاءم معه.

وإنَّ القدرة على كتابة الشعر الحقيقي ووجود الموهبة يجب أن يتوافر فيها ثلاث نقاط هي الموهبة، وثراء التجربة، وسقاية الثقافة. فالموهبة تحتاج إلى سقاية بشكل مستمر لتتوافر الكينونة الكتابية المبدعة، وتكون النتيجة سليمة، والكيان معافى. وحتى تصل القصيدة الشعرية إلى درجة الإقناع والحضور.

- أنت أوَّل من كتب القصة القصيرة جداً هل هذه حقيقة أدبية وتاريخية؟

• للأمانة التاريخية والحقيقة الصادقة إنني أول من كتب القصة القصيرة جداً وذلك في منتصف الستينيات، وقد استعملت لذلك الكتابة والمصطلح، وتمكنت أن أحقق نمطاً أدبياً جديداً أثبت وجوده وحضوره على الساحة الأدبية والثقافية وعلى المستويات كافة وإنَّ في حوزتي جملة من الآراء التي تقر بهذه الحقيقة، ولقد وصلت إلى أكثر من مئة وخمسة وسبعين رأياً لأدباء وكتاب على غاية الأهمية، ومن هؤلاء: الدكتور نعيم اليافي، والدكتور سمر روحي الفيصل، ويوسف اليوسف ومحمد جمالل باروت وخالد أبو خالد، ورئيس رابطة القصة القصيرة جداً الدكتور جميل حمداوي. وإن هذه الأسماء وسواها أسماء هامة في مجال القصة والأدب والشعر والنقد.

- هل أثبتت القصة القصيرة جداً وجودها على الساحة الأدبية والثقافية؟

• إنَّ القصة القصيرة جداً هي أس الكتابة السردية وجوهر محطات الروي فطبيعة العصر المتسارعة بمتواليات هندسية، تتطلب وجبة كتابية سريعة مكثفة، يتجسد فيها الاقتصاد والتكثيف ومن أهم شروطها..

انتخاب المفردة اللغوية الموظفة توظيفاً جمالياً، وإنزالها في مكانها اللائق والاختصار والتكثيف، والبلورة المجسدة لمجمل المعنى المطلوب،

والقفلة الحادة عبر المفارقة التي تستوعب الأضداد أو تحتوي تصادم الأضداد، بغية إعطاء ومضة أو شحنة نفسية تشبه ومضة الكهرباء إلى نفس المتلقي.

فالقصة القصيرة جداً توفر المختصر الشعري، أو قصدية تجنيح الصور الحكائية التي تقوم على أعمدتها القصة القصيرة جداً إضافة إلى شروط إبداعية أخرى، قد تؤدي إلى أشكال مختلفة، ومتباينة في السرد القصصي.

- هل ترى أن الشروط التي تحدثت عنها في القصة القصيرة جداً هي متوافرة الآن وموجودة في عالمنا القصصي؟

• إنَّ أصعب الكتابات السردية هي كتابة القصة القصيرة جداً لأنها على الرغم مما يعيشه الإنسان من حالات حياتية مختلفة، لابد لها من أن تجسد وجبة قصيرة وسريعة، كمن يجسد كثيراً من القيم الغذائية في حبة صغيرة.

وهذا يتطلب براعة في الكتابة وسعة في الثقافة، وحساسية ذوقية مرهفة، وقدرة على بناء المفردات الرشيقة والأنيقة. وهذا النوع الأدبي لا يلغي القصة القصيرة الأخرى، إضافة إلى أن القصة القصيرة جداً موجودة على الساحة العربية، وهناك عشرات المجموعات التي راجت في السوق العربية، وكتبها عدد من الأدباء، والكتَّاب مثل نجيب محفوظ، وعبد السلام العجيلي، وحنا مينة، وعادل أبو شنب. وكان لها حضورها المختلف عن القصة ذات الشكل الآخر.

- هل أدت القصة القصيرة جداً القيمة الفنية والإنسانية التي أدتها أشكال القص الأخرى ؟

• القصة القصيرة جداً هي ومضة، حالة، أو نبضة عرق، أو قبلة وردة، لكنها لاتستطيع أن تخلق مناخاً درامياً كاملاً، فهي مقتصرة على الومضة، والتجسيد البؤري لكاميرا الذائقة الكتابية على مفصل حياتي معين، يختلف تماماً عمَّا يدور في أساليب القص الأخرى التي تحتاج إلى أسس وشخوص، وحدث ومقدمة وخاتمة وأساليب فنية مختلفة.

- ما هو مستقبل القصة القصيرة جداً كما يراه محمود علي سعيد؟

• إنَّ التكنولوجيا الحديثة والسرعة المذهلة والسباق الحياتي بكل أنواعه يتطلب هذا النوع من الكتابة، وتأكيد وجود هذا الجنس الأدبي السردي، وكما نعرف جميعاً لقد أقيم للقصة القصيرة جداً كثير من المهرجانات، والاحتفاليات والتظاهرات في جميع عواصم الدول العربية، وقد أنشئت لهذا الجنس رابطة اسمها رابطة القصة القصيرة جداً على مستوى الوطن العربي، ومقرها في المغرب.

القصة القصيرة جداً أدب حقق وجوداً، وكلما استطاع أن يشمل رؤى، وأفكاراً وثقافات سيكون وجوده أكثر أهمية على الساحة العربية، والعالمية. كما أن تجارب هذا الجنس الأدبي بدأت تتطور وتتسع ويخوض غمارها أكثر كتّاب القصة.

-أنت كتبت في نقد الفن التشكيلي، وعلى نطاق واسع، كيف كان ذلك، وكيف تراه في نفسك كشاعر وكاتب قصة؟

• لقد مارست النقد التشكيلي بكثير من الحيوية والنشاط، وذلك على كل أشكال الفن الواقعي والتجريدي وسواهما مما يتشعب عن ذلك، وأحببت هذا الجانب في الكتابة كما أحببت القصة والشعر. كتبت العديد من المقالات في الفن التشكيلي، والتي يربو عددها على مئة وعشرين مقالاً نشرت في الدوريات المحلية، والعربية، ومن الفنانين الذين تناولتهم: جواد سليم وفائق الحسن من العراق، وفريد بلكاهية من المغرب وغيرهم.. وإنني سأبقى متابعاً أيضاً في كتابة النقد التشكيلي لأنه نمط كتابي محبب إلي ويستأهل الاهتمام به.

- أين تجد نفسك بين هذه الأجناس التي تكتب فيها وتتوغل في معطياتها؟

• أجد نفسي في كل هذه الأجناس، وفي موشورها الإبداعي. فأحياناً تندفع القصيدة، وتأخذني للكتابة بشكل عفوي، وأحياناً لابد من كتابة القصة كما أرى، وأحياناً سعة الاطلاع والاحتكاك بالمثقف، والكاتب والمبدع يجعلانني أكتب في الفن التشكيلي.

لمحة عن حياة الشاعر والأديب والقاص الفلسطيني محمود علي سعيد

• عضو اتحاد الكتَّاب العرب.

• رئيس لجنة حلب للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

• رئيس تحرير مجلة المقاومة في حلب.

• محرر في العديد من الصحف العربية مثل مجلة الناقد الثقافية.

• من مؤلفاته في الشعر:

- شمس جديدة في ترشيحة.
- سلاماً أيها الزرقة المسلحة بالبحر.
- بالرصاص يوقع العشاق وصاياهم.

ودواوين أخرى.

• في القصة القصيرة جداً:

- الرصاص والمدفئة.
- المنقل وبطاقة رقم خمسة وغيرها.

• وفي الدراسات:

دراسات في واقع الثقافة العربية.

كتاب الشهر

«من حديث الشِّعر»

عرض وتقديم: سمر الزركي ❁

أكبر من الخلق، سرُّ الخلق الذي لايدرك. معجزته في ذاته معجزة الحياة، إذ الإنسان من صلصال، ثم هو لا أكبر ولا منتهى، فالبدع الذي كان بدعاً في الكائنات يبقى، والعالم بعض صنائعه، بعض مطارفه، وبعض عبقريته التي تحار في أمرها الدنيا.

هكذا حبة الرمل هذه تشمخ على الصحراء، وقطرة الماء تزهو على المحيط، والكلمة صوت كانديا الرياح، تخفت أمامها الأبواق النحاسية، وتنشق حجب الهياكل، وترتجّ القبب الزرق، المعلقة بأجراس غير مرئية.

❁ كاتبة من سورية.

الأعظم هــذا، أعظم منه إبداعه، سرّه، ولــك أن تدهش أن تبــارك، أن تطرب، ثم لاتبلــغ أن تأتي بمثله، لا بالملك، ولا بالمال أو الجبروت.

الإنسان والفن، وكلّ مجد دونهما صغير، إنَّما همــا كالعين والبصــر، أغلاهما رؤية تعكس الألوان جنــة فراشات، قدرة قادر لا رقية ساحر.

وحيــن نقول الشِّعر، نقــول الفن. نقول الإنســان الذي تــدوِّي في موكبــه الرياح، وتتقدّمــه خيول الزمــن، فالآتي هو الكلمة التي تصــل الأرض بالسمــاء وتترجم عنها لها.

إنَّ ما تقــدّم يختصر في جوهره ماهية علاقــة الإنســان بالكلمة والفــن. جاء في كتاب «من حديــث الشِّعر» للأديبة الدكتورة نجاح العطَّار نائب رئيس الجمهورية العربية السوريــة، تعــدّ الأستــاذة الدكتــورة نجاح العطَّار من أبرز النساء العربيات، فهي قامة أدبيــة وثقافية وإنسانيــة.. تنتمي إلى بيت علم دمشقي عريــق، كان والدها من رجال القضاء والثقافة.

كتبــت الدكتورة نجــاح العطَّار مقالات لا تحصى فــي الأدب السياسي، وأصدرت عدداً من الكتب في الأدب والنقد والسياسة والدراسات المختلفة.

ويعــدّ كتاب «من حديث الشِّعر» الصادر -حديثاً- عــن وزارة الثقافة- الهيئة العامّة السورية للكتاب- دمشــق ٢٠١٥م، المؤلف من أربعمئة وتسع وسبعين صفحة من القطع الكبير أحد الكتب الهامة في نقد الشِّعر.

يضــم الكتاب دراســات ومقالات كتبت بين عامــي (١٩٦٨ و٢٠٠٥م)؛ رصدت فيها الدكتــورة العطَّار التجارب الأدبية المتميزة لعدد من الشعراء الذين تألموا مع شعوبهم، وتخطوا مــا ألمَّ بهم مــن صعوبات ومحنٍ حباً بأوطانهــم. وإيماناً بانتصار الحق على الباطل..

بداية، قدّمت الدكتــورة العطَّار للكتاب تقديمــاً على غايــة الأهميــة، إذ تحدثت فيه عن الشِّعــر ودوره، مركزة على موضوع الغموض والوضوح في الشِّعر، وهل هو قيمة فنية أم رسالة اجتماعية؟

ويتضح لنا ذلك من خلال التقديم ذاته إذ تقول: «كثير من الحبر والورق أهرق حتى الآن فــي موضــوع الشِّعــر، وبالتحديد في جزء خاص من هذا الموضوع، هو الغموض والوضوح حتى ليخيل إلى القارئ، أننا نعود إلــى تلك المعركة القديمــة التي ثارت في الوطن العربي، حول مفهوم الأدب التقدّمي وغيــر التقدّميّ، وحول الالتزام واللاالتزام، فكانت حصيلتها كلها جملة من التعريفات، لم تغنِ الموضوع كما أغنته الأقلام المبدعة التي كتبــت الأدب التقدّميّ، فقدّمت بذلك مثــالاً له، وكتبــت الأدب الملتــزم فقدّمت

مثالاً له، وكان هــذان المثالان، في النتائج التالية، خير شاهد على مدى مافي تقدمية الأدب والتزامه، من واقعية وصدق وأصالة، ومافي نقيضه من زيف، لأنَّه يتصدى لمهمّة خاسرة، وما في مقولة الالتزام أو عدمه من سفسطة، لأنَّ كلَّ أدب في نهاية الأمر ملتزم على نحوٍ ما».(ص٥)

وذكــرت الدكتــورة العطَّــار أنَّ أنصار الغموض في الشِّعر ذهبوا إلى أنَّهم يريدون جماليتــه وحداثته، فالوضــوح «يبسط هذا الشِّعر، فينفي منه ذلك الإحساس المتوهج الذي يولــده فــي النفس، ويقلص إمداء الإيحاءات التي يبعثها ويحلق بها في أجواء الخيال، هذا الزاد الضروريّ للشِّعر، ضرورة الخبــز للبشر، كما ذهبــوا إلى أنَّ الغموض هــو وليد العصــر، فهذا العصــر المركب المعقد المتجزئ الــذي ينعكس في الذات بــكلِّ مواصفاته الغريبــة، لا يمكن التعبير عنــه إلّا بلغة غريبة مثلــه، وبرموز مبهمة، علــى القارئ أن يتخلى عــن كسله، ويشحذ ذهنه كي يتوصل إلــى فهمها والارتقاء إلى مستواها الشِّعريّ.

بمعنى آخر، إنَّ الشِّعر الحديث يحتاج إلى قارئ حديث أو متذوق حديث، في وسعه أن يرقــى بإحساسه إلى تلك الذروة التي يحلق فيها هذا الشِّعر، ليكون بإمكانه أن يستوعبه ويحياه، وإنَّ هذا الشِّعر دون هذا الغموض، يكون تقليدياً يفقد الحداثة التي هي بعض ثورته، إن لم نقل كلّها».(ص٦)

إلّا أنّ الدكتورة العطَّار ترى أنّ الحداثة تكون فــي فهم العصر والقدرة على التعبير عنه. مشيــرة إلى أن ماكس بول فوشيه كان مصيبــاً في قولــه: «إنَّ الحداثــة تعني أن يكون الفنان ابن زمانــه، يتجاوب باستمرار مــع مشكلاتــه، فيعيشها، ويرسِّــخ جذوره فيها، بحيث يصبح هو هي، وهي هو، وهذه المعانــاة الكاملة، هي التــي تمكنه من أن ينشــئ تاريخه، وواقعه، تأليفــاً فنياً، تكون له قيمــة الفن، في التأثيــر المطلوب آنياً، والإضافة الباقية مقبلاً».(ص٩)

ومن ثــمَّ تسأل الدكتــورة العطَّار جملة من الأسئلة المهمــة: «ولو سلّمنا مع الذين يفيضــون في الحديث عــن توافق غموض الشِّعــر، مع غموض الحضــارة، فعن أية حضــارة يريــد هــؤلاء أن يعبّــروا؟ ومن يخدمــون بغموضهم هــذا، إذا كان الشعب لا يفهمه؟ ثــم كيف تكون الثورة بالشعر إذا لم يفهم الشاعر نفسه حقيقة الثورة، ودوره المساعــف لا الحاســم فيهــا؟». وتضيف الدكتــورة العطَّــار: «يقال فــي أيامنا هذه إنَّ الثــورة الثقافية يجــب أن تسبق الثورة الاجتماعية، وهذا عكس للأمور، فدون ثورة اجتماعية، ووطنية تحرريــة أيضاً في مثل ظروفنا، ليس في الوسع القيام بثورة ثقافية،

ذلك أنَّ ملكية وسائل هذه الثورة، هي في يد المجتمع الذي مازلنا غير قادرين على السيطرة عليه، وغير قادرين على استخدام وسائله، لصالح ثورتنا الفكرية.

وعلى هذا يكون دور الثقافة، الإسهام في تنمية الفكر الثوريّ، وفي مساعدته على أن يمتلك نظرية ثورية، دونها ليس ثمة ثورة على الإطلاق. وكي يقوم الأدب والشعر خاصة، بمثل هذا الدور في التوعية والتحريض، لابدَّ أن يكون مفهوماً من الذين يتوجه إليهم في الأصل. ومن هذا المنطلق، فإنّ الخلاص في الشِّعر لا يتم إلّا إذا كان الشِّعر أداة خلاص، وإلّا إذا كان، حسب تعبير بول إلوار، قادراً على منح الرؤية للناس.

لقد قال نيرودا: أنا شاعر لأنني أستوحي الوطن والشعب.. لأنني أعبِّر عن الحقيقة الوطنية، والمطامح الشعبية، وجميع ما يعتمل في هذه المطامح، وغيرها، من نضال وإخفاق، ومن أمل ويأس وثورة.

وكان الذين يتوجه إليهم نيرودا يفهمونه ويحبونه، كما نفهمه نحن ونحبه، ولم يكن شعره يتسم بالغموض أو يغص بالرموز المغلقة، وإلّا لما كان شاعر شعبه، ولما أقبل عليه شعبه بالذات، وأحبه.

ذلك أن الغاية من الشِّعر في كلّ الظروف، هي توصيل ما يقوله الشاعر إلى الناس فماذا يقول الشعر.. وكيف يقول؟»..(ص١١-١٢)

هنا تستشهد الدكتورة العطَّار بما كتبه ناظم حكمت من سجنه في «بورصه»، عام ١٩٤٥، إلى صديقه كمال طاهر يقول:

«فيما- يخص كلّ عمل فنيٍّ- وسواء تعلق الأمر بالأدب أو فن العمارة أو الموسيقا، فإن السؤال الذي أطرحه على نفسي في آخر المطاف هو: ماذا يقول هذا العمل؟ وكيف يعبر؟ وهذان السؤالان لا ينفصلان عندي.

ماذا يقول هذا العمل؟ إنَّ هذا السؤال هو العنصر الحاسم، والعنصر الحاسم الآخر هو كيف يقوله؟ وأنا أقدر قيمة العمل حسب الجواب عن هذا السؤال. ولا شك أنه من الطبيعيّ والضروريّ طرح هذا السؤال بشكل مجسَّدٍ على ألّا ننسى السؤال الآخر: أين؟ في أي عصر؟ وعندما أطرح على نفسي هذا السؤال بالنسبة إلى شعرائنا الشباب فإنَّ الجواب الذي يقدّمه معظمهم، في كثير من قصائدهم، ليس مُرْضياً في رأيي. إنَّهم، في الفترة الأخيرة خاصة، يتعلقون فقط بالشكل.. صحيح أن ما يقولونه ليس سيئاً، أي إنَّهم يقولونه بمرح ورفيف وذكاء، وبشكل مُرْضٍ، ممتع، أمّا بالنسبة للسؤال الأساسيّ: ماذا يقول العمل؟ فلا جواب. إنَّهم يصرحون: «نريد

أن نكتب عن الذات.. عن السُّكّر والموت» أو يقولون: «ماذا تريدون؟ لن نكون أبداً تكراراً لغيرنا»، وهذراً من هذا النوع، وعندما نأخذ بالاعتبار مستواهم الاجتماعيّ، يمكن فهم الأسباب التي تقودهم إلى مثل هذه الضحالة. غير أنّ تفسير الشيء هل يكفي لتبريره؟.. أنا أعرف تماماً أن الأشياء التي تستحق أن تقال، ينبغي ألّا تكون بالضرورة أشياء خارقة عظيمة، ولكن قصيدة ما، والقصيدة بنية واحدة، تعبّر عن مثل هذه الفكرة: «انتهى أمري» أو «لقد ضعت» بشكل سطحيٍّ، وإن كان لبقاً، لا تقول في رأيي أشياء تستحق أن تقال».

ويضيف ناظم حكمت في الرسالة نفسها أيضاً: «قرأت مؤخراً مقالاً لأستاذ فرنسيٍّ يهاجم إيليا اهرنبورغ. يبدو أنَّ اهرنبورغ، في معرض مديحه للشعراء الجدد الذين تغنوا بالنضال، من أجل استقلال فرنسا الوطني، قد قال: إنّ هتفة من هتفاتهم تساوي قصيدة بكاملها من قصائد (مالارميه) وعلى هذا فإنّه اعتبر الشّعر أداة من أدوات الدعاية، لذلك فإنّ الأستاذ الفرنسي غضب غضباً شديداً. لقد فكرت بالأمر، وإنه لشيء غريب أن شعراء من مثل بودلير ومالارميه أو فيرلين، عندما يقولون لنا إنّ الموت أجمل من الحياة، أو يستسلمون للأقدار، أو يتحدثون عن الحنين إلى الماضي، أو الشوق إلى حبيبتهم الخائفة، أو ميزات السكّر، وعندما يجترون أمثال هذه الأشياء بلباقة، فإنّ ذلك كلّه لا يشكل دعاية، أمّا إذا أكد شاعر عكس هذه الأشياء، وبموهبة مماثلة لموهبتهم، فإنه ليس سوى داعية!!».(ص١٢-١٣)

وفي نهاية التقديم تتساءل الدكتورة العطّار، «هل أقول إنَّ الأمر عندنا يجري تقريباً على هذه الصورة؟ كلُّ من يكتب شعراً غامضاً، مستغلقاً، عصياً على الفهم، لا يقول شيئاً أو يجترّ أشياء قديمة، فإنه شاعر حديث، وكلُّ من لا يلجأ إلى هذا الغموض، وهذه التعليمات، وهذا الترميز المبهم المعاد، فإنه شاعر تقليديٌّ، حتى لوكان يملك موهبة مماثلة لموهبتهم ذاتها.

إنَّ المسألة قد قتلت بحثاً وحواراً، وليس المهم أن نقول الشعر، بل المهم: كيف نقوله وعمّ يعبر؟ وهل يصل إلى الناس، أم يكتب للخاصة، أو لخاصة الخاصة، كما هي الحال؟ وتلك هي المسألة كلُّها».(ص١٤)

ومن ثم تأتي الدراسات التي كانت أقرب ما تكون من طوق اللؤلؤ الأصيل الذي يحار الواصف من أين يبدأ..

اثنا عشر شاعراً، تطاول أسماؤهم عنان السماء.. وهم (حسب ماجاء في الكتاب):

• خير الدين الزركلي..

شاعر الوطن والغربة والحنين الذي «أضاعته بلاده، وأضاعها هو، خسرته شاعراً، وخسرها شعراً، وتخلدت من حياته فترة التطلع والنضال.. كلّ شيء له ثمن، وربما كان أثمن ما يجنيه الشاعر، في انكسار الأنانية وعظم التضحية، أغاني تتخلد، وتكون الطموح والزهو والتأبي..».(ص١٧)

وفي حنينه إلى الوطن يقول:

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريّانة بالدمع أقلقها
ألّا تحسَّ كرىً ولا وسنا
ليت الذين أحبُّهم علموا
وهم هنالك ما لقيتُ هنا
ما كنت أحسبني مفارقهم
حتى تفارق روحيَ البدنا

❁ ❁ ❁

• وصفي القرنفلي.. الرفيف، والبركان!

«لقد توهج القرص.. طلع من أفق الشروق وتصاعد، ثم جنح إلى الغروب.

أيُّها القرص المنحدر عن قوس السماء الأزرق، ماذا يغريك في أفق الغروب؟».(ص٥٧)

ومن أشعاره قوله:

كلا فما شعبي بمستسلم
كلا ولا شعبي بمستعبَدِ
أقوى من الموت تجاليدُنا
إن يسجد الفولاذ لم نسجد

❁ ❁ ❁

• بدويّ الجبل (محمَّد سليمان الأحمد)... هوامش على ديوان البدوي

«بينه وبين السماء، كانت الكلمة حواراً، ولم يهب بروقها، لأنه لا يجوز لمن يحاورها، أن يخشى المصير الذي لا مهرب منه، فالعوسجة الملتهبة بنار الحق، تتأبى على المطر، تحرقه، تعديه بنارها، فيغدو، بدوره، مطراً نارياً، لأنه هكذا، في الإرادة التي تعلو على الضرورة، يصبح الفعل الإرادي، العلوي، أكبر من كلِّ محاولات الإنسان إذا لم يكن مع مسيرة الزمن والتاريخ، وكي يكونهما، فإنه ابن النار، والضرورة، والعصر، يدعى، وعندئذ بيديه المدمّاتين، يقطف زهرة الخلود متطلعاً أبداً إلى كينونة من خلال الشعر».(ص٩١)

يقول الشاعر بدوي الجبل في تمجيده الشعر عامة:

أيطمعُ الشِّعر بالإحسان يغمره
والشِّعر يغمرُ دنيا الله إحسانا
لو شاء عطّرَ هذا الليلَ غالية
ونضّر الرملَ أشواقاً وريحانا
لوشاء نمنم هذا النجمَ قافية
ونغّم الفجر أحلاماً وأوزانا

لو شاء أنزل بدر التمِّ فاحتفلت
به الندامى سراجاً في زوايانا
ولو سقى الشمسَ من أحزانه نديتْ
على هجير الضحى حباً وتحنانا

وعندما سئل عن الغزاة أجاب:

سألوني عن الغزاة فجاوبت
رمال تُسفى ونحن ثبيرُ
سألوني عن الغزاة فجاوبت
ليالٍ تمضي ونحن الدهور

❁ ❁ ❁

• محمد مهدي الجواهري.. وقفة مع الشاعر

«كان الجواهري لا مؤرخاً فقط، بل تاريخاً أيضاً، بكلّ المعنى الجليل للتاريخ، وفي وسعنا أن نستخرج من سفره الشعري الضخم وقائع صحيحة، مجلوة كالمعدن النادر، بصدق المشاهدة والمعاناة، لأنها وقائع شعب معمد بالدم، وأمة خاضت كفاحاً عنيداً طويلاً، ومازالت على درب الكفاح الطويل تسير».(ص١٣٧)

وهو كما يقول:

أنا «العراقُ» لساني قلبُه.. ودمي
فراته وكياني منه أشطارُ

❁ ❁ ❁

أتعلم أنّ جراح الشهيد
تظل عن الثأر تستفهم
فقل للمقيم على ذُلِّه
هجيناً يسخَّر أو يُلجم
تقحم، لُعنتَ، أزيز الرصاص
وجرّبْ من الحظ مايقسم
وخضها كما خاضها الأسبقون
وثنِّ بما افتتح الأقدم
فإما إلى حيث تبدو الحياة
لعينيك مكرمة تغنم
وإما إلى جدثٍ لم يكن
ليفضله بيتُك المظلم

❁ ❁ ❁

• إلياس أبو شبكة.. الشاعر المتمرِّد

«الكبرياء والحب والألم، وشعر كلماته حرائق، والأفاعي فحيح في السطور، والليل والفجر وحلم يترامى على أطراف الأفق، وصلوات بعد ذلك، وناقوس قرية يدق في دير للراهبات». (ص١٧٥)

وعن نفسه يقول:

أعشقُ الصِّدقَ لا أقولُ سوى الحَقِّ(م)
وَلَو جارَ في الحَياةِ عَلَيّا
في فُؤادي القَوِيِّ روحُ إلهٍ
وَلَو أنّي وُلِدتُ مِن أبَوَيّا
فَالسَماءُ الَّتي أنارَت شَبابي
وَضَعَت مُهجَتي عَلى شَفَتَيّا

❁ ❁ ❁

• مصطفى جمال الدين: القلعة الشعرية الراحلة في الغسق!

«كان قلعة شعرية، وكل قول فيها، أو عليها، أو من حولها، يبدو شاحباً في اللون، أمام زهو القلعة في تلاوين الشفق والغسق، ويبدو صغيراً، أمام عظمة القلعة، في الكبر والكبرياء معاً».(ص١٩٧-١٩٨)

لم يمت شاعر المعاني، ولكن

هوّمت في ضلوعه الألحانُ

لم يمت شاعر المعاني، وفي كلّ مهبٍّ من روحه ديوان

❁ ❁ ❁

• أمين نخلة.. صِنّين والأرز ونخلة وجبران!

«لبنان! يا لبنان، أنت هو، في حمرة الشفق والغسق، والشعر والشاعر معاً، فمن نبتك كان الأرز، ومن صخرك كان صنين، ومن حَرْفك كان جبران، ومن لبنانك كان لبنان، وهذا حسبه كي يتيه على الدنيا، وهذا كفاؤه والنعمى، عبقرية شمخت، ونبوغاً تتابع نبوغاً، وقد كنت أنت، لذلك، وكان الأرز وصنّين وجبران، دوياً في تداول السمع، وكلماً في صمت البرية، ومن أجل هذا كنتم جميعاً في الخلود جَلْوته، وصَبْوته، واشتياقه، وسحره أيضاً».(ص٢١٦)

ومن قصيدة «الوردة الحمراء» هذه الأبيات:

هذا بريد الهوى وافى بلا ورق

يروي ويسرد عن أيامنا العتُقِ

كأنَّ وردتك الحمراء قد قطفتْ

من موسم الصدر أو من جنة العنق

يا حسنها، وهي تروي عن منازلها

وطيب ما كان بين الدور، والطرق

❁ ❁ ❁

• عمر أبو ريشة.. النسر الذي هوى!

«لقد امتلك عمر قدرة خارقة، على استخدام الكلمات العاصفة، بهالاتها، وإيحاءاتها، وظلالها، وجمع النقيض إلى النقيض فيها، بكبرياء الصرامة، ليخلق منها كوناً شعرياً، يعطي للخيال أن يجوب آفاقاً، ويستعيد تواريخ وأحداثاً وذكريات، ووقائع ويوميات، بشغف فريد، يخاطب الفكر كما يخاطب الروح، ويذهب بساحات الشعور إلى المدى الذي يريد، وتأتي معانيه الكبيرة متشحة ببرد من لهب العنفوان، لتكون انبجاساً فنياً، يرسم لوحة فائقة، منورة بجمالية اللون، وإيماءات الحياة أرقها وأقواها، وأغناها ألواناً، وأصدقها إيقاعاً، حين يرتبط الإيقاع بالمعنى... فيه إحساس وجودي بالكون، وارتباط أو التحام أو توحّد، على الأصح به..».(ص٢٣٥)

يقــول الشاعر عمر في النضال وموقفه من الحق:

وقوفاً يرانا الموت نخفي جراحنا

وليس يـرانـا ركّعـاً بانتظاره

❁ ❁ ❁

ليس عاراً إنْ في النضال عثرنا

إنّما العار في اجتناب النضال

❁ ❁ ❁

وماهان لي في موقف العزِّ موقف

ولا لان لي في جانب الحق جانب..

❁ ❁ ❁

• محمـد كامـل صالـح.. زهـرة إلـى مدخل الروض

«النســر الــذي ملعبه عرضــ السماء، الطليعــة التي تصبغ راياتها بدمائها وتشعل قصيدهــا بوهج حياتها، وتكــون، من بعد، شرارة النار التي تتحدى الظلمات. وهو، في كل ذلك، وعلى واقعيتــه الواضحة، مخترع يبتكــر صوره الشعرية مــن خلال معطيات فنية، شارك فــي صياغتها الآخرون، الذين يتحدث عنهم، أو يتحدث إليهم».(ص٢٥٣)

وإلى أمه يقول:

يا أم منذ فتحت القلب

لي سكناً، أقام طفلك

فيه.. غاب أم حضرا

فكيف يدخل ما بيني

وبين أنا.. موت

ويسدل.. فيما بيننا الستراً؟

❁ ❁ ❁

• ناظم حكمت.. المرأة في شعر ناظم حكمت

«كان يستشعــر أنه بيــن الناس، ويدعو طيوفهــم إلــى زنزانتــه، ويتحــدث إليهم ومعهم. وكان طيف المرأة، زوجته، وحبيبته ورفيقة دربه كمــا كان يدعوها، في مقدمة الزائريــن، يسامره ويناجيه ويعــاوده بغير انقطاع».(ص٢٦٥)

و«إنَّ المــرأة عنــد ناظــم حكمت لم تكن متوازية مع خــط القضية كما يقول الذين درسوه، كانــت أساس القضية، لها ومعها كل الكلمــات، وعلى طريق الكفاح الصعب، في الواقــع والخيال، كان يقول نحن الاثنين نعلم يا حبيبتي، فقد علمونا كيف نجــوع ونبرد، ونقضــي من التعب، وكيــف نعيش منفصليــن ومتصلين معاً. إننــا لم نبلــغ حد القتل. لــم يتهيّأ لنا أن نموت، ولكننا نعلم، كلانا يا حبيبتي يعلم، ونستطيع أن نعلّــم الآخرين، النضال في سبيل قومنا، ومحبة كل يوم أقوى، ومحبة كلّ يوم أفضل».(ص٢٦٥-٢٧٦)

يقــول ناظم لحبيبته وهــو وراء قضبان الزنزانة:

الباب مغلق هناك،

فيتحتم اقتحامه،

إذ تتحتم رؤيتك يا حبيبتي

لتكن الحياة مثلك جميلة،

ولتكن الحياة صديقة وحبيبة مثلك.

❁ ❁ ❁

• خوسيــه مارتــي.. الحالــم بإنقــاذ العالم.. «العدالة إلى جانب العرب»

«مارتــي واحــد مــن الذين حلمــوا أو يحلمون بإنقــاذ العالم. بــدأ بنفسه، سفح دمه علــى أعتاب أفكاره». حسب رأي فيدل كاسترو (ص٢٨٣)

«بــدأ خوسيه مارتي يكتــب عن العرب، وأمورهم وشؤونهم، وما يتعرضون له، بكثير من التعاطف والإعجاب منــذ أن كان شاباً في الثانيــة والعشرين من عمــره، أي عام ١٨٧٥م.

ارتبط، فكراً وشعوراً، بالفئات الأضعف، بمن يحتاجون إلى دعمه، وخصّهم بشعر من شعره، والكثيرون يحفظون له هذه الأبيات:

مع فقراء الأرض

أريد أن أتقاسم قدري

فالجدول في الجبل

يبهجني أكثر من البحر».(ص٢٩٧)

«ويستمــر فــي الإصغاء إلــى الجدول الوديع، وهو يهمس في الصمت العميق:

أحب الأرض المزهرة

إسبانية كانت أم إسلامية

ففيها شقّت تويجها

زهرة نحيلة..».(ص٣٠٠)

❁ ❁ ❁

• بابلــو نيرودا.. مجد قــارّة على درب الأمل والكفاح..

«أكبر شاعر في القــرن العشرين، وفي كلّ اللغــات». حســب رأي غابرييل غارسيا مركيز.

«نيرودا كان كبيراً في نفسه واهتماماته، كما كان كبيراً في شعــره وعبقريته وفرادة إنسانيته، في حمله راية الكفاح على امتداد كوكبنــا، وفــي انسراح فكــره وشعوره على قضايا العالم، اللاهــب منها بشكل خاص، وعلــى المصيــر الإنسانــي، وفــي أميركا اللاتينية، وفي أرجاء الأرض، سعياً منذوراً لتحقيــق العدالة، ورفــع الظلــم، وتوسيع مساحة الحرية، وإسقاط العنصرية، وقوننة المساواة، ومشاركــة الآخرين شقاء العمر، وعذابــات البؤس، وآلام الجــوع والحرمان والاضطهاد».(ص٣٠٦)

و«المثقفــون فــي نظــره مسؤولــون، وكلماتهم ينبغي أن تؤدي رسالتها، في الدفاع عن كرامة الناس، رجالاً ونساءً، والعمل من أجل توفير الحياة اللائقة لهم.

الشاعر ليس «إلهاً صغيراً» -يقول- ولم يتم اختياره من قبل قدر صوفيٍّ. إنَّ واجبه، كما كان يردد، أن يكون صوت كلّ الذين لاصوت لهم، ولم يداخل موقفه غموض تحت وطأة ظرف من الظروف».(ص٣١٣)

وجاء بعد هذه الدراسات مقالات في التكريم والتأبين لشعراء جمعهم حب الوطن، والهم الإنساني. لهم موقعهم المؤثر في عالم الشعر والفكر. وقد أتى ذكر أغلبيتهم في قسم الدراسات وهم: الشاعر شفيق معلوف، والشاعر سليمان العيسى، والشاعر عبد الله يوركي حلّاق، والشاعر بابلو نيرودا، والشاعر عبد الله غانم، والشاعر أحمد فؤاد نجم، والشاعر محمد مهدي الجواهري، والشاعر معين بسيسو، والشاعر خير الدين الزركلي، والشاعر أبو سلمى، والشاعر عمر أبو ريشة، والشاعر مصطفى جمال الدين، والشاعر بلند الحيدري والشاعر عبد الوهاب البياتي.

الكتاب عبّر تجواله في رحاب الشعر (ناقداً)، يضع النقاط على الحروف من زاوية حادة، كما قد يراها بعض المهتمين بالشِّعر، وماتعة للبعض الآخر، تسر سرائر النفوس.

عبّرت الدكتورة نجاح العطار، بنظرتها الموضوعية العميقة الناقدة للقضايا الثقافية والإنسانية، في تقديمها للكتاب «من حديث الشِّعر»، عن موقفها من الأدب والشِّعر، ومدى دورهما وأهميّتهما في الحياة والمجتمع.

ورأت أنَّ الأقلام المبدعة هي التي تغني أيّ أدب، لأنَّ كل أدب في نهاية الأمر ملتزم على نحو ما.

وأعطت الأديبة الدكتورة نجاح العطار بأسلوبها الأدبي رفيع المستوى، والمؤنق الجميل، الكتاب طابعاً خاصاً ومميزاً، يسمو إلى فضاءات الشعر وربما يتخطاه...

وأخيراً، إنَّ الشعِّر الجميل.. هو جميل في أي عصر كان، ولاسيما إنْ عبّر عن الذات الإنسانية وهمومها وتطلعاتها بصدق وموضوعية..

وجميل ما رأته الدكتورة نجاح العطار، أنَّ المسألة كلّها تكمن في «كيف يقال الشِّعر؟ وعمّ يعبّر؟ وهل يصل إلى الناس، أم يكتب للخاصة، أو لخاصة الخاصة؟».

نافـــذة علـى

إصـــدارات جـــديدة

إعداد: حسني هلال ❁

شذى الروح الشعري

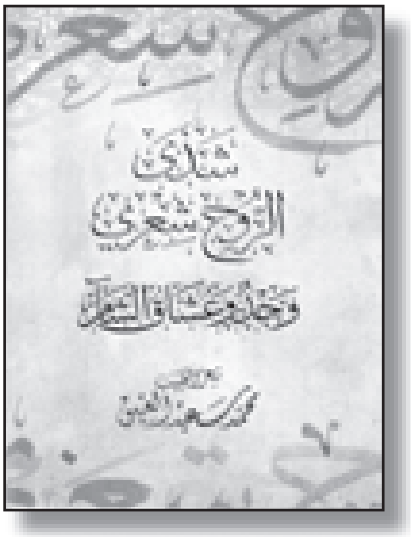

صدر مؤخراً للشاعر الدكتور محمد سعيد العتيق ديوان شعر بعنوان (شذى الروح شعري - وجدٌ وعشّاق شآم)..

تضمّن الديوان خمساً وثلاثين قصيدة من الشعر، تنوعت أوزانها لتشمل معظم بحور الشعر ولم يحتو الديوان فن الشعر فحسب بل زُين بلوحاتٍ برسم الخط العربي للفنان بديع جحجاح وقد تشكلت كلُّ لوحة من حروف عنوان القصيدة التي تليها. وقد آثر الدكتور محمد أن تكون اللوحات برسم الخط العربي من دون سواه من فنون الرسم للدلالة على أهمية تعلقنا

❁ أديب وصحفي سوري.

بلغتنـــا العربية الجميلة ووجوب تقديرها في زمنٍ يعصف بكلِّ ما هو جميلٌ وأصيل. وقد بدا الديوان كمحرابٍ تُعانقُ فيه غزارة الألوان التنوع في سحر البيان.

تنوعـــت مواضيع الديوان بين القصائد الوطنية التـــي تغنَّى فيها الشاعر عتيق بوطنه سورية، وبين قصائد الغزل التي اتسمت بالعذوبة والسلاسة ممزوجة بجزالة الألفـــاظ، ولا يستطيع أحد التمييز بين تلك القصائد التي كتبها عتيق حين كان في بـــلاد الغربة وبين تلك التي كتبها وهو هنا، فهو أبداً ودوماً في اشتياق لهذا الوطن، بعيداً عنه كان أم قريباً منه.. جاء في قصيدة (عَينَايَ في وَطني نَجْمَانِ تَسْكُنُهُ)

هَـــارُونُ كَـانَ رَشِـيـداً حَـازمـاً بَـطـلاً
هَـلْ في زَمَـانِي رَشيدٌ عَـادِلٌ حَكَمُ
ضُـرُوبُ حِـقْـدٍ أشَاعُوهَا عَلى وَطني
وَخَـطَّـطـوا، ظَنُّهُمْ لا بُـدَّ نَنْقسِم
وَرَاعَـنَـا غـدْرُ أهْـلِـيـنَـا وَحِـقْـدُهُـمُ
خِـيَـانَـة مِـنْ جِـدَار البيتِ وَيلهُمُ
صَمْتٌ عَلى صَهَوَاتِ الخَيلِ يَلْجُمُهَا
والسَّيفُ في غِمْدِه-يَا حَيفُ-يَلْتَحِمُ

ومما ميز الديوان عن غـــيره وجود قرصٍ مُدمج (CD) يحوي قصائد الديوان مسجلةً بصـــوت الشاعر محمد سعيد العتيق ترافقهـــا موسيقى تنسجم مع الحالة والمشهدية التي تبوح بها كل قصيدة، من إعداد وتنفيذ المُلحن الأستاذ بديع عيسى، وإخراج راما حيمور.. وجمع الديوان بذلك بين فن الرسم والموسيقى والشعر ليشكل حالة فنية منسجمة قلَّ مثيلها.

❁ ❁ ❁

«سوناتا»

مجموعة شعر: سوناتا (عذوبة تبعثر الكستناء)
للشاعر: أوس أحمد أوس
إصدار: الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق
تصميم الغلاف: رؤى أحمد حسن
لوحة الغلاف: أحمد يزبك

صـــدرت المجموعة حديثاً في دمشق، تقع في/٢١٥/ صفحة قطع وسط، وتتألف من /٣٦/ «قصفة» شعر من عناوينها: سوناتا ضحكتنا العالية، الحياة تلك الهشاشة العذبة،

قرابة قرنفلة من الآن، كشغب جميل، كن ثوبي حبيبي، رماد الأسئلة، رائحة الياسمين، كائن الأجوبة، طفلتي، براءة، فراشة، ظبية. كعادته..

من شرفته الممطرة بالضوء والياسمين، محصناً ومحروساً بثلاث أشجار على ضفة القلب يظللن عمره:

أمُ حنون..

زوجة ماطرة..

وابنه مثل عطر جسور..

يراود الشاعر أوس أحمد أسعد اللغة، في ترحالها الأبدي، بين الحسي والتجريدي، والتيه في توهانه، بين الصمت والإيحاء والتكثيف، يتطلع، وبغير قليل من نُبل القصد، وشرف المسؤولية، وأمانة النقل، إلى أن يوصل لنا، صدى لحن. أو عذوبة «سوناتا» يعزفها القدر على أوتار روحه.. سوناتا اسمها رغداء أو «رغدون».

❀ ❀ ❀

حكايات شعبية

حكايات شارل برّو

جمع وتأليف: شارل برّو

ترجمة الدكتور: محمود المقداد

رسوم: أنور الرحبي

الهيئة العامة السورية للكتاب

-دمشق- ٢٠١٤م.

بشفافية /٢٥٦/ صفحة متوسطة القطع، وبـ/١١/ حكاية شعبية من الأدب الفرنسي، وبترجمة الدكتور محمود المقداد، تتقدم الهيئة العامة السورية للكتاب من قرائها الأعزاء، بالحكايات التالية:

غريس ليز، الأماني التافهة، جلد الحمار،

اللحية الزرقاء، الجميلة في الغابة النائمة، السيد القط، القبعة الصغيرة الحمراء، الإبهام الصغير، الخيّات، سندريللا، ريكية ذو الشرّابة..

من مقدمة المترجم:

لكل شعب من الشعوب في العالم أساطيره وخرافاته وحكاياته الشعبية، التي يستمتع بها صغاره وكباره، ويستخلصون منها الدورس والعبر، التي تفيدهم في سلوكهم وحياتهم عموماً.

وقد يكون لكل مجموعة من الشعوب المتجاورة، أو المختلط بعضها ببعض، أساطير وخرافات وحكايات متقاربة..

❁ ❁ ❁

ظاهرة العنف

الكتاب: ظاهرة العنف في الخطاب الروائي العربي

الكاتب: عزت عمر

الصدور: عن دار الصدى الإماراتية

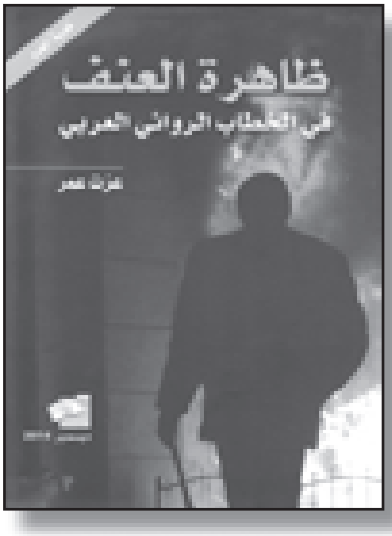

العنف كظاهرة تاريخية رافقت الإنسان منذ بداياته الأولى، هي موضوعة الكتاب الرئيسية، التي حاول الكاتب السوري «عزت عمر» مقاربتها في إصداره هذا.

أما وقد توسع في بحثه مستجلياً العنف في الخطاب الروائي العربي، فلكي يتمركز على موضوعه بأكبر قدر من الدقة والإحاطة، مبتعداً عن التعميم والاستطراد، اللذين كثيراً ما يصلان بالكاتب إلى البلبلة وبالمكتوب إلى الترهل، وقد عاضد الكاتب في مسك خيوط بحثه ودقة ترتيب أفكاره وتعابيره، أنه أديب وناقد أدبي، له كتب عدّة، عالج فيها، قضايا واهتمامات أدبية مختلفة.

قسم المؤلف كتابه الذي يعدُّ /٢١٩/ صفحة من القطع الوسط، إلى سبعة فصول تحت العناوين التالية:

١- تجليات العنف المؤسس.

٢- العنف المؤسس والاغتراب السياسي.
٣- جدلية الذات والآخر.
٤- العنف الرمزي الاجتماعي.
٥- أنماط العنف في المدينة العربية.
٦- تنويعات على العنف في الرواية الإماراتية.
٧- العنف والمقاومة في فلسطين المحتلة.

❁ ❁ ❁

جديد «ونّوس» الشعري

عن الهيئة العامة السورية للكتاب، صدر مؤخراً مجموعة شعرية جديدة، للكاتب المتنوع «غسان كامل ونوس» بعنوان «رحيق الاحتضار» يتألف الكتاب من /١٨٣/ صفحة من القطع الوسط، مطرزة بـ/٣٥/ عنواناً، منها:

عند باب الرحيق، ظل السحاب، بخور السماء، رحيق احتضار، اصطبار، مسكين، منارة، وسواس، رهان، تلويح، احتلام، احتمال، جمال، توبة، بوق، وتر، موقدة، غروب..

ككتاباته دائماً، في تأثره بمجريات الأحداث، واكتوائه بحروق الضحايا والمظلومين، وبلغته ذات اللهجة الرمزية التضمينية الناقدة، يتقدم «ونوس» بمجموعته الراهنة، التي صمم غلافها «أحمد يزبك» ووضع لوحتها (علي حمدان).. يتقدم الشاعر بـ«احتضاره» منّا، متدثراً عراء انكسارنا، تاركاً لنا من زهر حياته «رحيق» من مقطوعة «غروب»:

توالتْ طقوسُ الحدادْ
ولوّحَ في آخرِ الحشرجاتِ
النجيعْ
كأن الشعاعَ الأخيرَ يلوذُ بعريي
كأني بقرصِ الغيابِ أعوذْ
وما مِن مِدادْ

آخر الكلام

رئيس التحرير

قصائد لي ولها

في ١٤/٤/٢٠٠٩م، أهداني شاعر العروبة والطفولة الجميل، الراحل سليمان العيسى، ديوانه اللطيف المعبّر، المشرق الذي يحمل عنوان «وأكتبُ.. قصائد صغيرة.. لي ولها» الذي أصدرته الهيئة العامة للكتاب في صنعاء عام ٢٠٠٣م، وبكل أسف هذا الديوان لم يصل إلينا ولم يعرفه إلا القلّة القلائل من عشاق شعر هذا المناضل الكبير، وقد كتب في الإهداء بخط يده الجميل المميّز: «الأخ العزيز الدكتور علي القيّم قطَّرت نفسي في هذه القصائد الصغيرة.. ذات يوم، ورأيتك أقرب الناس إليّ وإليها.. فبعثت إليك بهذه النسخة.. هديّة صغيرة مع محبتي..».

يبدأ شاعرنا الكبير قصائده الصغيرة بالقول «كل كلمات الدنيا لا تملأ الفراغ.. حين يغيب من تُحبُّ» وفي هذا الديوان الذي قدّم له علّامة اليمن الدكتور عبد العزيز المقالح، يتأكد ماكان يذهب إليه «أن الشعراء لا يشيخون، ولا تشيخ لغتهم مهما تقدّم بهم العمر، وبعد قراءة هذا الديوان صرتُ أؤمن بأن إكسير الحياة أو الشباب، موجود في شيئين اثنين هما: الشعر والحب، فحيث يوجد هذان الرفيعان تغيب الشيخوخة، وتحل محلّها عاطفة متأججة كأنها لشاب في العشرينات، وهذا ما تقوله قصائد هذا الديوان»..

في قصائد.. «لي ولها».. ترنيمات هامسة وصاعدة في عالم شعري يتكاثف، ويتنوع، في وحدة عميقة، حافلة بما خطر وما لا يخطر على الأذهان، من نضال وأحلام، وصبوات، ومن مشقاتٍ وإحباطات ومعاناة قاسية، لم تزد العيسى ورفيقة دربه الدكتورة ملكة أبيض إلا صلابة واندفاعاً وثقة بما يُعدُّه الحاضر، وما يَعِدُ به المستقبل.

قصائد «لي.. ولها» تأتي في وقتها المناسب، لكي تعبِّئ رئاتِنا بالهواء النقي، وتمدّنا بالقدرة على قراءة تضاريس القلب الإنساني، ومنعرجاته المترعة بالدفء، والهاربة من صقيع الوحدة، وقسوتها المريرة.. شاعرنا يكتب والعَياء يلفُّ خاطره، وليس بعارفٍ كم قطرةٍ بقيت بمحبرته.. يكتب

في غمرة الوجع، يعتصر السِّراج لعلَّ فيه قطرة، مابرحت تُضيء، حتى يجيء الشعر ولا يجيء.. يتحدّى القيود، ويقول لها:

«تُرهقني قيود الوزن
ترهقني القافية..
كلما أردت أن أقول لها شيئاً
سأمزق كل خيوط الحرير
التي أنسخ بها كلماتي..
سألقي بها جانباً..
لأقول لها..
كما يقول الطفل للعبته
والغصن الأخضر لورقة:
أحبُّك..».
وتقول له:
«لا تتعب!
الضوء.. نهايته التعب
اترك في كلّ نبض ضحىً
نبضـــــاً
حرفاً.. في الريشة، ينسكب»

ويتلاشى الوقت.. الوقت نحن.. يضيع في كلماتنا، أو في صمتنا.. ويذوب أمس في غد.. شاعرنا الكبير، به حنين، لزرقة البحر.. به حنين للشطّ يتلو قصيدة.. هو والبحر قصة لا ينتهي من حكايتها حتى يبدأ من جديد.. شاعرنا يحبّ الينابيع الأولى، التي تظل هي الأصفى، ولكننا لا نستطيع أن نجمد عندها.. لقد حفر اسمه على شجر الطفولة، وكان عِناد رؤيا مستحيلة، ولم يندم على مهوى سحيق، رمته فيه أحلامه القتيلة.. لقد اختار حزنه، ونبتت واحة فيه ظليلة:

«هذي الربوع هوانا..
منذ أن وُلِدت
مخضوضراً..
بعبير الله.. يختضبُ
هذي الربوع..
سقيناها الصِّبا غزلاً
ونشوةً..
هَدَّها في الرِّحلة التَّعبُ
هاتي يديك.. نَغِبْ في نسمةٍ
شردتْ
الشعرُ.. للموجة الزرقاء
ينتسبُ

في قصائد «لي ولها» يتحدّى شاعرنا الكبير التُّخوم، ويتركها على قلمه شيئاً يحوم، في حنايا الغيب، في أسرار هذا العالم الرحب الغريب.. لقد آمن بالحب الذي يقتحم المجهول، ويغزو المستحيل، ويوقظ الشعر في الطُّلول الدوارس.. القصيدة تزهر، الحياة تتجدد..

❁ ❁ ❁

من كروم الجمال

اللوحة: أضغاث أحلام - الفنان: إسماعيل الحلو

تمثل هذه اللوحة الأسلوب الذي يشتغل عليه الفنان إسماعيل الحلو (مواليد حمص عام ١٩٥٥) منذ البدايات الأولى لتجربته الفنيّة التي قارب عمرها الأربعين عاماً، بحيث يمكن القول إنه أصبح بمثابة البصمة الخاصة به. وهو أسلوب واقعي مختزل، فيه الكثير من التلقائيّة والتبسيط الشكلي الأنيس الواقع على بصر المتلقي، خاصةً وأن غالبية موضوعات أعماله، تدور حول علاقة الإنسان بالطبيعة والبيت وموجوداته، وحركة الحياة اليوميّة فيه. لوحة هذا الفنان بحاملها ومحمولها، تلتقي مع لوحة مواطنه الفنان التشكيلي الراحل (أحمد مراق السباعي) الذي تتلمذ على يديه، وعاش جانباً من تجربته الفنيّة.

يتألف تكوين اللوحة شبه الهرمي، من المرأة المستلقية والجامع وصينيّة القهوة، وكأني بربط الفنان العناصر المكوّنة للوحة ضمن تكوين متماسك، لجأ إلى تبسيط محمولاتها كافة، وتقسيمها إلى مستطيلات ومربعات لونيّة حارة وباردة، وأخضعها لحالة عالية من التوافق والانسجام توارت خلفها وداعة الحياة العاديّة البسيطة.

تقدم اللوحة طروحات بصريّة جماليّة ساحرة، تدور حول حياة امرأة بسيطة، تعيش حالة من غوايات الروح، وأحلام اليقظة، والنزوع للانعتاق من واقع (على الرغم مما فيه من المعطيات الحياتيّة والجماليّة المريحة) تتوق هذه المرأة للتجديد، وكسر رتابة إيقاعه اليومي المحكوم بالعادة والتعود والمراوحة والتكرار، وذلك بالأحلام التي بها ومن خلالها، يمكن قتل ضجر الأيام المتشابهة، والسفر على أجنحة الأمل، صوب المجهول القابع خلف البحر، بوساطة القارب الذي تحوّل إلى رمز للسفر والترحال والتواصل بين البشر، وهو ما أشار إليه الفنان الحلو في أكثر من موضع في عبارة لوحته الفارقة هي والمراد بأضغاث الأحلام، وجماليات بصريّة طبيعيّة ومعماريّة، نسجتها ريشة فنان تشبعت ذاكرته البصريّة بالجماليات التي استنهضها نهر العاصي على ضفافه في مسقط رأسه، وهي جماليات لا تبلى ولا تتبخر، وقادرة على توليد دفق دائم من الأحلام التي تولد بدورها للإنسان، أسباباً دائمة للحياة وحب الحياة.

د. محمود شاهين

شارع في دمشق للفنان باورنفيند (١٨٤٨-١٩٠٤)

في العدد القادم

- عظمة حلب القديمة.. تدمر
- العقل والجنون في مسرح شكسبير
- مقدمات أفول مابعد الحداثة
- العقب الشرعي والكشف عن الجرائم
- مستقبل القوة الأميركية
- رحلات «ماسينيون» إلى سورية
- الميثولوجيا السورية، أصل المعتقدات القديمة في العالم

مجلة الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م